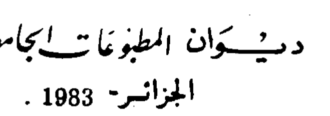
إسماعيل العربي

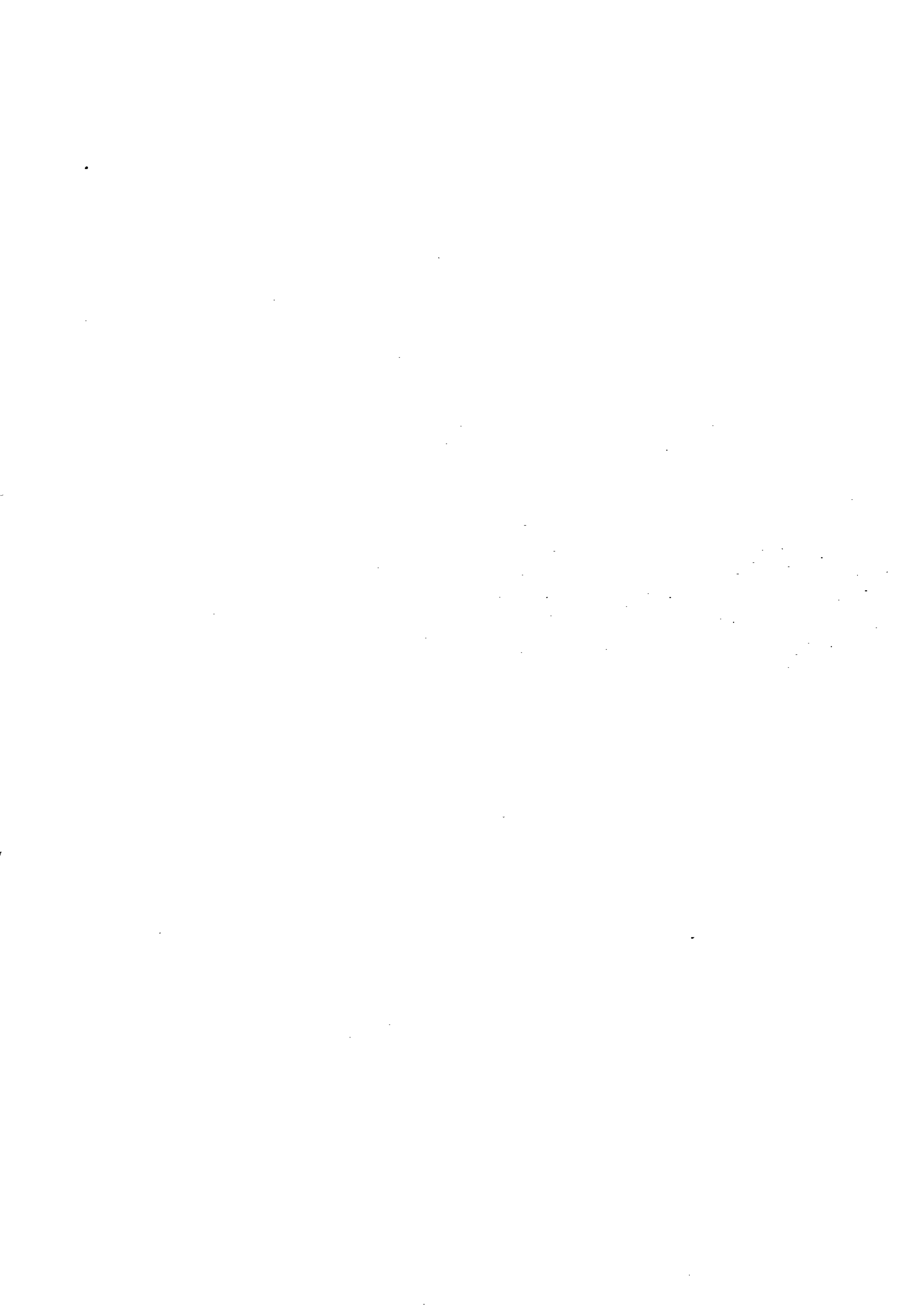
دولة الأدارسة

ملوك تلمسان وفاس وقرطبة





ديوان المطبوعات الجامعية
الجزائر - 1983 .



المقـــدّمـــة

يسعدني أن أقدم هذا الكتاب في ظروف جديدة تبشر بمنعطف نأمل أن يكون حاسماً في تاريخ المغرب العربي - المغرب الذي كان ادريس بن عبدالله أول موحد لأكبر أقطاره، بعد الفاتح العظيم، عقبة بن نافع الفهري. لقد تحدث المؤرخون طويلاً عن آثار عبدالرحمن الداخل وتغنى الشعراء بعبقرية هذا العصامي الذي نجا بأعجوبة من المذابح التي نظمها بنو العباس لسلالة الأمويين، وتمكن هذا اللاجيء المشرد الذي لم يكن له رفيق ولا أنيس سوى مولاه «بدر»، من إقامة دعائم أعظم دولة في الأندلس، ولكن أحداً لم يُقِمْ مقارنة بين «صقر قريش» وهذا العصامي الآخر الذي ينحدر، هو، من سلالة الرسول مباشرة. ومع ذلك، فإن ملامح الشخصيتين متشابهة وظروفها السياسية متطابقة إلى حد بعيد.

ففي المكان الأول يجب أن نتذكر أن الرجلين كانا متعاصرين وكانت سنهما متقاربة. ونحن إذا كنا نجهل تاريخ ميلاد ادريس بن عبدالله على وجه التحديد، فإننا نعرف أنه مات بعد عبدالرحمن بن معاوية بخمس سنوات أو أقل (مات عبدالرحمن في سنة ١٧٢ ومات ادريس في سنة ١٧٧ على أرجح الروايات). وكما أفلت عبدالرحمن من مطاردة العباسيين واتجه إلى الأندلس عن طريق المغرب الأوسط والمغرب الأقصى حيث آوته قبيلة نفزاوة، فقد اتجه ادريس الأول الذي نجا من مذابح وقعة فخّ، عن طريق مصر والمغرب الأوسط إلى أوليلي حيث آوته قبيلة أوربة الأوراسية الأصل ومهدت له طريق الملك بعدما تنازل له زعيمها عن الامارة. وكلا الرجلين بدأ حياته السياسية في المنفى بين قبائل متطاحنة ولا تسانده عصبية واحدة منها، وكلها تعتز بعنصريتها وتتخذ من قوتها الوسيلة لفرض سيطرتها على من حولها. وقد تخطى كل واحد منهما جميع العقبات، ووضع أسس

دولة في غير أرض أجداده، كانت إطاراً لحضارة عظيمة. وقد امتزجت حضارة الدولتين في مرحلة تالية عبر مضيق جبل طارق، على عدوة المغرب وعلى عدوة الأندلس. وكذلك تناسى أبناء عبدالرحمن الداخل في الأندلس وأبناء ادريس الأول في المغرب، كل ما جرى بين الخليفة الرابع، علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، فعاشت مملكتهما المتجاورتين في سلام ووئام أجيالاً طويلة، قبل أن يقلب العبيديون رقعة الشطرنج رأساً على عقب في المغرب.

يمكننا أن نمضي بعيداً في المقارنة بين هذين العصاميين ونورد أوجهاً أخرى للشبه بينهما، لولا أن ذلك من شأنه أن يخرج بنا عن القصد من هذه الكلمة القصيرة، وهو التنويه بأثر الدولة الادريسية، وبصفة خاصة، مؤسسها، ادريس الأول، في تاريخ المغرب. وهذا الأثر يتمثل ـ كما سنرى في الفصول التالية ـ في جانبين أساسيين:

أولهما، إن المغرب مدين بالكثير لادريس الأول في نشر الإسلام في أصقاع لم يكن قد وصل إليها من قبل، حيث تقول الرواية إنه قضى على النصرانية واليهودية والمجوسية التي كانت لا تزال تدين بها كثير من قبائل المغرب الأقصى.

وثانيهما، تعريب المغرب الأقصى في عهد ادريس الثاني الذي شجع هجرة العرب واتخذ منهم حاشيته، وعين من بينهم وزراءه، وأقام على عاتقهم ادارة دولته الفتية، وذلك على الرغم من أنه تربى هو شخصياً في أحضان البربر وولد من أم بربرية الأصل. ولهذه الأسباب وغيرها يمكن اعتبار ادريس الثاني أكبر حلقة اتصال في التاريخ بين العرب والبربر.

وكذلك وحد الأدارسة المغرب الأوسط والمغرب الأقصى سياسياً منذ ادريس الأول الذي اتخذ من أوليلي وتلمسان قاعدتين لبسط سلطانه في اتجاه الشرق وفي اتجاه الغرب، وذلك على الرغم من أنه تنازل عن مملكة تلمسان في مرحلة تالية لأخيه، سليمان بن عبدالله ولأبنائه من بعده.

وعندما وصل العبيديون إلى المغرب واتخذوا من ابن أبي العافية صنيعة لهم وتمكن زعيم مكناسة من زعزعة سلطان الأدارسة وأعمل السيف فيهم، لم يجد الأدارسة الهاربون من مذابحه ملجأ وملاذاً إلا في منطقة متيجة وبلاد القبائل حيث

أقام العديد منهم متسترين بأسماء مستعارة، وحيث خلّفوا ذرية لا تزال منتشرة في بعض هذه المناطق حتى يوم الناس هذا.

وهذه عبرة من المفيد أن نستخلصها في الظروف الصعاب التي يمر بها المغرب في الوقت الحاضر. فإن هذه البلدان التي تتوفر لديها من عوامل للوحدة ـ على الأقل على الصعيد الثقافي والاقتصادي ـ لا تتوفر لأية مجموعة أخرى من الشعوب المتجاورة في العالم، لا تزال متباينة الأنظمة متضاربة الاتجاهات والأهواء. والعشرون سنة التي مضت على استقلال بلدان المغرب قد لا تكون كافية لإقامة دعائم وحدة متكاملة، ولكنها، بالتأكيد، أكثر مما نحتاج إليه للشروع في دعم أواصر الصداقة ولبلورة التعاون فيما بينها في مجالات نموذجية. والحق أنه إذا كان هناك ما ينقص الجهود التي تبذل في هذا الاتجاه فهو، بدون شك، ليس رغبة الشعوب المعنية ولا عزيمة أبنائها.

شرعت في العمل لوضع هذا الكتاب في أوائل سنة ١٩٧٥، وقد كان من بين الرحلات التي حتمها عليّ البحث عن الوثائق، رحلة إلى المغرب الأقصى حيث وفرت لي مكتبات هذا البلد الشقيق ـ ولا سيما الخزانة العامة بالرباط ومكتبة جامع القرويين في فاس ـ فرصة ثمينة لا للاستعانة بما فيها من نفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات فحسب، بل وأيضاً لربط أواصر التعارف مع عدد من علماء المغرب ومؤرخيه ورجاله. وقد أثلج صدري في هذه الرحلة أن أجد أن ذكرى الأدارسة لا تزال حية في النفوس في كل مكان، وأن آثارهم لا تزال باقية، وتحمل في بعض الأحيان نفس الأسماء، على الرغم من تقادم العهود ومرّ الدهور.

ودولة الأدارسة، على الرغم من أن القدماء كانوا يهتمون بها منذ أقدم العصور، وكرس لها بعضهم عناوين ـ لا طائل تحتها، مع الأسف! ـ فإن المحدثين قد أعرضوا عنها إجمالاً. وربما كان مرجع ذلك إلى الصعوبات الناجمة عن تعدد دول هذه السلالة وتنوع الأدوار التي لعبها الملوك والأمراء في عدوة المغرب والأندلس معاً، والأحداث المعقدة التي رافقت ظهور بعضها أو تسببت في اختفائها. ولكن المؤكد أيضاً أن المعلومات الموضوعية الصحيحة عن الأدارسة قليلة، ولا بد لاستخلاصها من مجهود شاق للبحث بين أكوام الروايات والقصص والأساطير التي لا يمت أغلبها بصلة إلى الحقيقة. وهذا المجهود للبحث والتحقيق هو الذي تحملنا سنوات متوالية.

وبعدما أنجز الكتاب وتم رقنه على الآلة وكان من المفروض أن يتخذ طريقه بسهولة إلى دار النشر، ثم إلى المطبعة، جعلني التوتر الذي يسود في المنطقة بسبب حرب الصحراء الغربية أتردد في إخراج الكتاب، حيث إن ظهوره في مثل هذه الظروف سوف يحرم منه المغرب الأقصى الذي يمثل المسرح الأساسي الذي تجلت فيه عبقرية الأدارسة. وكذلك أرجأت نشره وترقبت ظروفاً أكثر ملاءمة لظهوره. وقد شجعتني البوادر التي لاحت في الأفق والتي تنبىء بعودة السلام والوئام بين الأشقاء، وباستئناف العلاقات العادية، (لا سيما عقب اجتماع القمة الذي انعقد على الحدود الجزائرية المغربية في أوائل هذا الشهر) على أن أعطي الضوء الأخضر لنشر هذا الكتاب الذي أرجو أن يجد الاستقبال الذي تستحقه السلالة الأدريسية في القطرين وأن يشكل لبنة في صرح المغرب الموحد والذي سيكون تشييده مهمة الأجيال المقبلة.

اسماعيل العربي

الجزائر في ٦ مارس ١٩٨٣

القسم الاول

الفصل الاول

المغرب قبل ادريس الأول

لكي نفهم كيف وجد إدريس الأول الذي كان مشرداً ويبحث عنه أعداؤه في كل مكان مأوى وملاذاً في المغرب ثم قاعدة لإقامة أمبراطورية في المرحلة التالية ينبغي أن نحيط علمًا بمختلف التيارات السياسية والاجتماعية التي كانت هذه البلاد مسرحاً لها منذ المراحل الأولى من الفتح الإسلامي، ومحاولة دراسة الفترة السابقة لحلول إدريس الأول بأوليلي بما ينبغي من الدقة والتعمق أمر غير ممكن في هذا السياق، ولكن القيام بما يشبه المسح الجوي لإبراز الأحداث الأساسية لهذه الفترة، سيكون مفيداً وضرورياً في نفس الوقت.

وهذا المسح هو الذي نقترح أن نخصص له الفصل الأول ليكون بمثابة مدخل لدراسة عهد الأدارسة.



نموذج من الفن المعماري الإدريسي

فتح المغرب

بدأت محاولات العرب لفتح المغرب في عهد الخليفة الثاني، عمر ابن الخطاب (ض)، وذلك في سنة 22 هجرية، حين افتتح عمرو بن العاص طرابلس، انطلاقاً من قواعده في الإسكندرية التي كان قد فتحها في السنة السابقة، على ان الخليفة قد رأى في هذا التوسع السابق لأوانه خطراً مجهول العواقب، فأمر عمرو بالجلاء عن المغرب.

ولكنه لم تكد تمضي خمس سنوات على فتح مصر واستقرار الأمر فيها للمسلمين، حتى أخذ الخليفة الثالث، عثمان بن عفان (ض) ينتهج سياسة أكثر تفتحاً وجرأة من سياسة عمر، حيث إنه أمر عامله على مصر عبد الله بن أبي سرح العامري[1] بغزو إفريقية وجهز له جيشاً كبيراً بلغ عدد رجاله عشرين ألفاً واشترك فيه عدد من الصحابة والتابعين وأعلام المسلمين.

وبعد معركة سبيطلة[2] التي اتخذها باتريس جريجوار[3] قاعدة

(1) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، من بني عامر بن لؤي. من أبطال الصحابة، أسلم قبل فتح مكة وكان من كتاب الوحي للنبي (ص)، وقد كان من كبار قواد جيش عمرو بن العاص الذي افتتح مصر التي وليها بعد عمر عمرو في سنة 25 هـ مات بعسقلان في سنة 37 هـ، راجع سيرته في الاستقصا، (35/1)، معالم الإيمان (11/1)، أسد الغابة (173/3)، البيان (9/1)، الكامل (114/3)، النجوم الزاهرة (7/0).

(2) تشكيل ياقوت، قارن بشأن هذه المعركة روايات الكامل (90/3)، المؤنس (ص 27)، البيان (10/1).

(3) راجع ما قاله: (André Julien: Histoire de l'Afrique du Nord (11, 14, 15) عن هذه المعركة وعن

استراتيجية للمقاومة والتي التحم في سهولها الجيش الإسلامي مع جيش بيزنطة في سنة 27 هـ (147م) وبعد مقتل جريجوار (جريجر عند المؤرخين العرب)، انفتحت إفريقية في وجه العرب وبث عبد الله جيوشه التي فتحت قرطاجنة، ثم اتجهت نحو الجنوب ففتحت قفصة وحصوناً أخرى لبيزنطة، ثم عقد الصلح مع البيزنطيين، وأخذ منهم تعويضات للحرب، وقيل إنها بلغت مليارين ونصف مليون من الدنانير[1]، وقفل راجعاً إلى مصر بعد إقامة في إفريقية دامت سنة وثلاثة أشهر، سدد أثناءها، ضربات قاسية إلى الولايات الجنوبية للأمبراطورية البيزنطية التي فقدت جانباً كبيراً من كنوزها، ورأت العرب يقتحمون عاصمتها، قرطاجنة ويقتلون عاملها على هذه الولايات.

على أنه إذا كانت القسطنطينية لم تستعد سيطرتها على هذه الولايات عقب رحيل المسلمين عنها، فإن الأمر لم يستقر فيها للعرب الذين لم يتركوا وراءهم أية هياكل إدارية ولم يحدثوا في تنظيم الرومان السياسي والاجتماعي لهذه البلاد أي أثر يذكر ومن ثم، فلا عجب أن ينقض البربر عهدهم ويعودوا إلى ما درجوا عليه، وكأن الفتح لم يقع.

ولما عاد عبد الله في غزوة أخرى لافريقية في سنة 33 هـ، استعاد النظام إلى نصابه في غير كبير عناء وأقر البربر على الإسلام والجزية[2]. على أن الفتنة التي قامت بعد مقتل عثمان بن عفان، صرفت الأنظار عن افريقية، فبقيت هذه البلاد بمعزل عن الأحداث نيفاً وعشر سنوات.

وفي سنة 45 هـ عين معاوية بن أبي سفيان الذي استقر زمام الأمور في

باتريس جريجوار (Patrice Grègoire). ونحن لا نوافق هذا المؤرخ فيما ذهب إليه من أن الرغبة في السلب والنهب هي التي دفعت العرب إلى هذه المعركة.

(1) رواية ابن الأثير. وأما ابن أبي دينار وابن عذاري، فيقدر كل منهما هذه التعويضات والغنائم بثلاثمائة قنطار من الذهب ... وأما ابن عبد الحكم فيروي انه، بعد إخراج الخمس، وزعت الغنائم على المجاهدين وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وللراجل ألف دينار، راجع، فتوح مصر وأخبارها (ص 183 — 184).

(2) البيان (14/1)، النجوم الزاهرة (180/1).

يده معاوية بن حديج[1] ، زعيم الحزب الأموي في مصر، والذي كان قد قام بغزوة لإفريقية في عهد عثمان، على رأس جيش وجهه، وفي رفقته عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى افريقية.

ولما وصل هذا الفاتح إلى افريقية، لم يواجه ثورة البربر الساخطين على العرب فحسب، بل وأيضاً الإمدادات العسكرية الكبيرة التي سيرها الأمبراطور، فسطنطين الثاني إلى هذه البلاد.

وفي هذه الغزوة نازل معاوية حصن جلولا[2] وفتحه، ثم دخل في معركة حاسمة مع جيش بيزنطة التي أنزلت إلى البر في القصر الأحمر (Hadruméte) وشتتها ثم عاد إلى مصر، مثقلاً بالغنائم، والأسلاب، مثل سلفه عبد الله، ومثلما فعل هو في غزوته السابقة.

وفي سنة 50 هـ، عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج على افريقية وأقره على مصر، وعين خلفاً له على افريقية عقبة بن نافع الفهري[3].

---

(1) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر، أبو نعيم الكندي السكوني، الأمير الصحابي، كان ممن شهد حرب صفين وولاه معاوية، إمرة جيش جهزه إلى مصر وأخذ بيعة أهل مصر له، وولي افريقية عدة مرات آخرها سنة 50 هـ. راجع تفاصيل عن سيرته في الإصابة (ترجمة 8064)، معالم الإيمان (113/1)، الخلاصة النقية (ص 4) الاستقصا (36/1) رياض النفوس (17/1)، ـ الولاة والقضاة (ص 17 — 19 و 27 — 30)، البيان (17/1)، تهذيب التهذيب (203/10)، فتوح مصر (ص 192 — 194).

(2) جلولا، مدينة قديمة بافريقية تبعدعن القيروان بأربعة وعشرين ميلاً، راجع وصفها وحوادث فتحها في معجم البلدان (129/3)، البكري (ص 32)، تقويم البلدان لأبي الفدا (ص 144) الإدريسي الذي يهجئها جلوله (ص 130)، ابن حوقل (ص 86) البيان (17/1) فتوح مصر (ص 193)، الكامل (518/2 — 523)

(3) اعتمدنا رواية ابن الأثير وابن عذاري واليعقوبي، وأما ابن خلدون فيذكر أن تعيين عقبة كان في سنة 45، وابن عبد الحكم في سنة 46 هـ، والأميرعقبة، هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي، شهد فتح مصر، وكان ابن خالة عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى افريقية والياً في سنة 42 وافتتح كثيراً من كور السودان، راجع تفاصيل، سيرته في البيان (19/1)، فتوح مصر (ص 194 — 197)، الاستقصا، (36/1)، كتاب الوفيات لابن قنفذ، وفيه إنه توفي في سنة 41، مع أن عقبة إنما توفي في سنة 63 (ص 59)، تاريخ اليعقوبي (229/2) الكامل (465/3 — 467)، العبر (185/4).

كان عقبة الذي شاهد فتح مصر مقيمًا ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، ومن هناك كان يقوم بفتوحاته في الجنوب حيث تم على يده خصوصاً، فتح غدمس (سنة 42) وودّان (سنة 43).

سار الأمير عقبة على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل، مضافاً إليهم من انضم إليه من البربر المسلمين، فدخل افريقية، ووضع السيف في أهلها لأنهم - كانوا يسلمون متى دخل البلد امام، ومتى خرج عادوا إلى الكفر.

ولهذا السبب بالذات، رأى عقبة أنه لا استقرار للإسلام دون أن تكون له قاعدة يرابط بها عسكر المسلمين - وتضمن عزه إلى آخر الدهر - وعلى ضوء هذا التحليل، قرر بناء مدينة القيروان في مكان أجمة مشتبكة تعيش فيها أصناف من الحيوانات الوحشية والحيات، وخطط مسجد المدينة العظيم وعين بنفسه موقع محرابه منه، وبنى الناس مساكنهم حوله، وكمل بناء المدينة في سنة 55 هـ[1]

وفي هذه الأثناء كان عقبة يبعث بالسرايا للإغارة والنهب في أرض البربر الذين سيدخل إثرهم الإسلام في عهده، فاتسعت خطة المسلمين وقويت شوكة الإسلام في هذه الديار.

ثم إن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن ولاية مصر وافريقية وعين مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري، فاستعمل مسلمة أبا المهاجر[2] على افريقية وعزل عقبة وأساء إليه واستخف به، بل وسجنه عدة

---

(1) كان أبو المهاجر (دينار) مولى لبني مخزوم، وقد كان أول أمير وطئت خيله المغرب الأوسط، راجع سيرته خصوصاً في الاستقصا (37/1).

(2) راجع عن بناء القيروان ومسجدها: البكري (ص 23 — 26)، الكامل (465/3 — 467)، البيان (19/1 — 21)، كتاب البلدان لليعقوبي (ص 347)، معجم البلدان (120/4 — 121)، ابن حوقل (ص 96)، المؤنس (ص 29)، العبر (10/3) الإدريسي (ص 10) جغرافية ابن سعيد (ص 144).

أشهر لأسـبـاب لا نعرفها، إذا لم تكن مجرد الحسد، والغيرة. فإن أبا المهاجر لم يكد يصل إلى افريقية حتى أمر بحرق القيروان وبناء مدينة له بدلها، تقع على مسافة ميلين من تونس وأخذ في تعميرها.

ولما بلغت أخبار تصرفات أبي المهاجر معاوية، كتب إليه يأمره بإطلاق سراح عقبة بن نافع واشخاصه إليه.

وبعد وفاة معاوية (في سنة 60 هـ)، أعاد يزيد بن معاوية عقبة إلى عمله في افريقية في سنة 62 هـ[1].

وفي طريقه من الشام، في رفقة 25 من الصحابة، مرّ عقبة بمصر حيث استقبله مسلمة بن مخلد واعتذر إليه عما صدر من أبي المهاجر في حقه، مؤكداً له أنه خالفه فيما صنع، فقبل عذره.

ولما وصل إلى افريقية، أمر بالقبض على أبي المهاجر، ووضع الحديد في يده وبتدمير المدينة الضرة التي استحدثها ورد الناس إلى القيروان التي أعاد الحياة إليها.

وعقب ذلك، شرع عقبة في القيام بسلسلة من العمليات العسكرية الواسعة النطاق؛ وقد وضع في مقدمة جيشه زهير بن قيس البلوي، وسار في اتجاه المغرب الأوسط، ففتح لمبيس وباغاية[2]، بعد قتال شديد مع البيزنطيين، ثم جال في الزاب حيث التجأ البيزنطيون ودخل معهم في معارك وانتزع ما بأيديهم من المدن والحصون، ثم زحف على تيهرت القديمة[3] واستولى عليها

---

(1) راجع تفاصيل ولاية عقبة بن نافع الثانية في فتوح البلدان (ص 270)، البيان (23/3)، العبر (11/3)، الكامل (105/4)، المؤنس (ص 30)، تاريخ اليعقوبي (229/2).

(2) راجع عن مدينة باغة ابن حوقل (ص 84 — 85)، معجم البلدان (325/1)، الإدريسي (ص 103)، البكري (ص 144 — 145).

(3) راجع عن تيهرت البكري (ص 66 — 67)، الإدريسي (ص 87 — 88)، البيان (25/3)، معجم البلدان (7/2 — 9)، ابن حوقل (ص 86)، العبر (186/4)، الكامل (106/4)، كتاب البلدان (ص 79 — 81).

ثم أوغل في اتجاه الغرب فأخضع أوليلي واعترف بسلطانه ملك غمارة، واسمه يليان وهو صاحب طنجة وهاداه وسالمه وأخذ منه معلومات قيمة عن منطقة السوس الأدنى والسوس الأقصى، فسار عقبة إلى قبائل مصمودة على سفوح الأطلس المتوسط، فقاتلها قتالاً ذريعاً ثم سار إلى السوس الأقصى، آخر معاقل البربر، حيث تجمعت فلول قواتهم ومضى يقتل ويسبي حتى بلغ شواطىء المحيط الأطلسي، عند ماسة، وأدخل فرسه البحر حتى وصل الماء إلى تلابيبه في المحيط ونطق بكلمته المشهورة:

«يا رب! لولا ان البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسكن ذي القرنين».
وعند هذه الحدود، اعتقد عقبة ان مهمته في الفتح قد انتهت وأن سهول البربر وجبالها العاتية قد انقادت وخضعت للإسلام إلى الأبد، ولذلك، فقد سرح جيوشه وقال لأصحابه: «انصرفوا على بركة الله»، فتفرق الناس أمامه، وسار كل في اتجاهه.

وأما هو الأمير عقبة، فقد قفل راجعاً إلى المغرب الأوسط عن طريق مضيق دكالة، عبر الزاب، ولما انتهى إلى طبنة[1] أمر من بقي معه من جيشه، فيما عدا قوة غير مهمة، بأن يتقدموا في اتجاه القيروان، ثقة منه انه لم تبق قوة من البربر والروم يخشاها. وبعد ذلك سار على رأس قوته الصغيرة إلى تهوذا[2] ليدعوها إلى الإسلام.

ولما رأى البيزنطيون قلة عدد جيشه، أغلقوا أبواب الحصن دونه ثم أخذوا يقاتلونه.

وعند تهوذا لقي الأمير عقبة، الفاتح المعظم، حتفه، لا على يد الجيوش

---

(1) راجع وصف طبنة في معجم البلدان (4/ 21)، البلاذري الذي يسميها العباسية (ص 275)، ابن حوقل (ص 84)، البكري (ص 50— 51)، الإدريسي (ص 93 — 94).
(2) راجع وصف تهوذا في البكري (ص 72 — 74)، البيان (1/ 30)، معجم البلدان (2/ 64) الذي غلط صاحبه ووصف تهوذا بأنها قبيلة من البربر.

البيزنطية، بل على يد ملك بربري اسمه كسيلة، ملك البرانس وأوربة التي ستجلـو معظم فروعها عن المغرب الأوسط وتستقبل إدريس الأول بعد ذلك بنحو قرن في أوليلي.

وقصة كسيلة الذي أهمل المؤرخون العرب تاريخه، لا تخلو من عبرة، فإن هذا الرجل أسلم على يد أبي المهاجر وحسن إسلامه، فلما قدم عقبة في ولايته الثانية وعزل أبا المهاجر، عرفه الأخير بأن كسيلة من ملوك البربر وانه لم يستحكم إسلامه ونصحه بأن يعامله بالحسنى، ولكن عقبة استخف بالأمر وراح يسيء معاملة كسيلة بحيث أنه كان يأمره بسلخ الغنم التي تذبح لمطابخ الجيش. ولما احتج كسيلة قائلاً: «أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وعبيدي يكفونني المؤنة» أجابه عقبة بقوله: «لا».

وفي فورة من الغضب المكتوم، راح كسيلة كلما دحس مسح لحيته بالدم، وعن السؤال الذي يوجهه إليه الفضوليون من العرب الذين يشاهدونه في هذه الحالة «ماذا تصنع أيها البربري؟» كان يجيب: «هذا جيد للشعر!» على إن شيخاً عربياً فهم مغزى هذه الإشارة، وحذر قـومه قـائلاً: «إن البربري يتوعدكم!».

وكذلك لام أبو المهاجر الذي كان لايزال مقيداً بالحديد، عقبة قائلاً: «بئس ما صنعت! كان رسول الله (صلعم) يتألف جبابرة العرب، وأنت تأتي إلى رجل جبار في قومه وفي دار عزه، قريب العهد بالشرك فتهينه!»، ولكن عقبة تهاون بكلامه واعتبر هذا العطف من خصمه المهـزوم سبباً إضـافياً للاستمرار في إساءة معاملة كسيلة.

ونتيجة لهذا الوضع، اغتنم كسيلة أول فرصة، فنكث وقام في أهل بيته وقبائله، فتبعه البربر في جيوش عظيمة وزحف على جيش عقبة وأبي المهاجر الذي يتكون من خمسة آلاف مقاتل، ووقعت معركة بين الفريقين، انتصر فيها، كسيلة وقتل عقبة وأبو المهاجر (سنة 63)، ولم يفلت أحد ممن كان معهما من المسلمين إلا بعض الشخصيات البارزة التي وقعت في الأسر، وقد أفداهم

صاحب قفصة وبعث بهم إلى زهير بن قيس الذي خلفه عقبة على القيروان[1].

وقد تشجع كسيلة بهذا النصر الحاسم فزحف على افريقية واستولى عليها ودخل القيروان وأمن أهلها، بينما ارتحل زهير بن قيس عنها إلى برقة، وقد أقام كسيلة في القيروان، حتى ولي الخلافة عبد الملك بن مروان في سنة 65 هـ[2].

ولما اشتد سلطان الخليفة الأموي قرر أخذ الثأر من كسيلة واستعادة افريقية إلى حضن الأمبراطورية الإسلامية.

فوجه زهير بن قيس البلوي[3] الذي كان يراقب تطورات الأحداث من برقة على رأس جيش كبير لهذه الغاية، في سنة 69 هـ[4].

لما بلغته هذه الأخبار، تحرك كسيلة وخرج من القيروان واتجه إلى لمبيس[5] ولكن زهير البلوي لم يدخل إلى القيروان، بل عسكر في ظاهر المدينة وأقام هناك ثلاثة أيام ريثما يستريح جيشه، ثم رحل في طلب كسيلة حتى لحق به والتقى الجمعان في معركة تاريخية أسفرت عن انتصار حاسم للمسلمين، وهزيمة جيش كسيلة الذي قتل هو وكبار رجاله وكثير من أشراف البربر، وقد طارد الغزاة الفاتحون الذين نجوا منهم حتى نهر ملوية بالمغرب الأقصى.

وبذلك انتهت كل مقاومة جدية للبربر في هذه البلاد، على الأقل، في المرحلة الحالية.

وأما زهير البلوي، فقد رأى ان الجهاد الذي جاء من أجله إلى هذه

---

(1) قارن روايات البيان (1/29)، المؤنس (ص 32)، البكري (ص 74).

(2) راجع العبر (3/86 — 87).

(3) راجع نبذة عن سيرته في الكامل (4/43)، النجوم الزاهرة (1/195 و 196)، الاستقصا (1/38 — 42)، البيان (1/31 — 33).

(4) كذا في الكامل والبيان، وفي العبر في سنة 67، وأما ابن أبي دينار، فيذكر في المؤنس التاريخين معاً بصيغة قيل.

(5) وفي رواية أخرى «ممش، وثالثة «ميش».

الديار قد انتهى، فدفعه زهده عن الدنيا إلى التخلي عن الأمر، حيث بدا له إن هذه البلاد أصبحت الآن ملكاً عظيمًا ولذلك، قفل راجعاً إلى المشرق قائلاً: «إني قدمت للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك».

وفي طريقه إلى المشرق، أتيحت لزهير فرصة أخرى للجهاد ونيل الشهادة فإن البيزنطيين لما بلغهم رحيل زهير عن برقة قاموا بغزو هذا البلاد بأسطول كبير أقلع من جزيرة صقلية، فأصابوا فيها سبياً كثيراً ونهبوا البلاد دون أن يجدوا عائقاً في طريقهم.

ولما أشرف زهير على البيزنطيين، فوجىء بكثرة عددهم، ولكنه مع ذلك لم يرفض الدخول في معركة ضدهم أسفرت عن مقتل زهير ورؤساء الجيش العربي الذين كان أكثرهم من التابعين، وكان ذلك في سنة 69 هـ[1].

ولدى وصول أخبار هذه الكارثة إلى عبد الملك بن مروان، عظم عليه الأمر ولكنه كان في شغل شاغل عن افريقية بمحاربة عبد الله بن الزبير[2]، ولما خلص له الأمر واجتمع عليه المسلمون، جهز جيشاً كبيراً يتكون من أربعين ألف مقاتل ووضعه تحت قيادة حسان بن النعمان الغساني[3] وسيره إلى افريقية في سنة 78 هـ، وبعدما دخل القيروان، سار مباشرة إلى قرطاجة[4] التي أخذها عنوة وخرابها، بعدما هرب منها سكانها البيزنطيون بالسفن، بعضهم إلى صقلية والبعض الآخر إلى الأندلس.

وعقبة ذلك، بلغه ان البربر والبيزنطيين قد تجمعوا في منطقة بنزرت[5]

(1) قارن العبر (4/186 — 187)، الكامل (4/36)، البيان (1/31 — 33)، المؤنس (ص 33).

(2) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي، بويع له بالخلافة سنة 64 هـ، عقب موت يزيد بن معاوية، فحكم الحجاز متخذاً المدينة عاصمة له، ومصر واليمن والعراق وخراسان وجزءاً من الشام مدة 9 سنين، وقد قتل في حربه ضد الأمويين، راجع عن هذه الأحداث، الكامل (4/135)، تاريخ اليعقوبي (2/251 — 268). الطبري (8/202)، فوات الوفيات (1/210).

(3) راجع سيرته في البيان (1/34 — 37)، المؤنس (ص 33 — 34)، النجوم الزاهرة (1/200)، الاستقصا (1/43)، الدرر السنية (ص 24 — 29).

(4) راجع وصف قرطاجة في البيان (1/34 — 35)، معجم البلدان (4/223 — 224)، البكري (ص 41 — 43)، الإدريسي (ص 208 — 214).

(5) راجع وصف بنزرت في ابن حوقل (ص 75)، البكري (57 -58)، وفيه أن معاوية بن حديج هو =

وصطفورة[1] فسار إليها وقاتلهم ولقي منهم شدة في المقاومة، ولكنـه مع ذلك، ألحق بهم هزيمة منكرة وعاد بعد ذلك إلى القيروان بينما هربت فلول البيزنطيين إلى باجة[2] فتحصنوا بها، واتجهت فلول البربر إلى بونة[3]

وفي القيروان سأل حسان عمن بقـي من ملوك البربر، فدلوه على ملكة تسمى الكاهنة ويمتد سلطانها على جبل أوراس[4] وقيل له «إنها من القوة بحيث إنها كانت تتمتع بالاستقلال في عهد البيزنطيين، وقيل له أيضاً إنه إذا قتلها دان له المغرب كله ولم يبـق له مضاد ولا معاند».

وكذلك سار حسان في اتجاه أوراس وعلى التحديد إلى باغاية يطلب الكاهنة وعندما علمت الكاهنة بمقدمه، اعتمدت خطه الإحراق والتدمير حتى لا يجد العرب الغزاة ما يغريهم على الإقامة في أرضها، فقطعت الأشجار وخربت الزرع، بل وأمرت بتدمير حصون باغاية وسبقته بذلك إلى ما كانت

= الذي افتتح بنزرت في سنة 41 وبذلك يكون حسان قد فتحها للمرة الثانية كما حدث بالنسبة إلى كثير من المدن والحصون، معجم البلدان (1/499).

(1) وصفها ابن حوقل (ص 76) بأنها «إقليم على البحر جليل، له ثلاث مدائن، أقربهن إلى تونس أنبولة ثم متسيجة ثم بنزرت».

(2) راجع وصف باجة في ابن حوقل (ص 786)، جغرافيا ابن سعيد (ص 143)، معجم البلدان (1/314 — 316)، البكري، (ص 56 — 57)، الإدريسي (ص 115 — 116).

(3) راجع وصف بونة في ابن حوقل (ص 77)،معجم البلدان (1/512)، الإدريسي (116 — 117)، جغرافية ابن سعيد (ص 145)، البكري، (ص 54).

(4) كان جبل أوراس مستقر الكاهنة، وهو جبل يقول الإدريسي إنه يمتد على طول 12 يـوماً ويشتمل على قلاع وحصون كثيرة أهمها باغاية التي تقدم ذكرها، وهي حصن صخر قديم حوله ربض من ثلاث نواحي (في الـشرق والغرب والشمال)، وهي على سفوح أوراس الجنوبية ويسكن حولها عدد من القبائل أهمها مـزاتة ولواتة وضريسة، وكان عقبة ابن نافع قد وصل في فتوحاته إلى هذه السهول وحاصر باغاية ووقعت بينه وبين البربر معارك كبيرة هزمهم فيها وغنم منهم خصوصاً،خيولاً،يقول البكري إن المسلمين لم يروا في مغازيـهم أصلب ولا أسرع منها.

ومن الناحية الطبيعية، تعتبر قمة جبل فرعون أعلى قمم جبال أوراس (6980 قدماً) وهي أيضاً أعلى قمم جبال الجزائر، راجع وصف أوراس خصوصاً في البكـري (144 — 145). الإدريسي (ص 104)، وكذلك:

Lortige: Monographie de L'Aùras, Conal. 1904.

Busson: Les Kallées de L'Auras, (Annales de géo. يناير 1915).

Sierakowski: Das Scharir درسدن 1871.

Mercier: Le Chaouia de L'Auras; Publication de l'Ecole des Lettres à Alger, 1896.

تتوقع أن يقوم به حسان ولسان حالها يقول: «بيدي لا بيدك يا عمرو!». وبعد ذلك اتجهت إلى المكان الذي اختارته هي للمعركة التي كانت، بدون شك، تتوقع أن تكون حاسمة.

ولكن حسان لم يعرج على باغاية كما كانت تتوقع، وإنما هو سار إلى المكان الذي تجمعت فيه جيوش الكاهنة مباشرة على نهر نيني، وهناك دخل الطرفان في معركة كانت «أشد قتال عرفه الناس» حسب تعبير ابن الأثير، وأسفرت المعركة عن هزيمة كبيرة للمسلمين، وقد قتلت الكاهنة العرب «قتالاً ذريعاً» وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحاب حسان ثم طاردت الفاتح الكبير حتى أخرجته إلى عمل قابس.

وفي فترة لاحقة، أطلقت الكاهنة سراح الأسرى العرب الذين وقعوا في يدها، وابقت بأسير واحد، وهو خالد بن يزيد القيشي، وكان شريفاً شجاعاً وتبنته وأخذ بين ولديها.

وعقب هذه الكارثة التي لا تقل خطورة عن كارثة تهوذا التي ذهب فيها عقبة بن نافع وأصحابه، وكتب حسان بن النعمان إلى الخليفة عبد الملك يقول:

«إن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية، فكلما بادت أمة خلفتها أمم»[1].

وعاد إليه جواب أمير المؤمنين بأن يقيم حيثما وافاه جوابه فورد عليه في برقة وأقام هناك وترك المغرب كله للكاهنة التي بقيت توجه، مصائر هذه البلاد مدة خمس سنوات.

وفي نهاية هذه الفترة أمد الخليفة حساناً بالجنود والأموال وكتب الأخير سراً إلى خالد بن يزيد يستفهمه شؤون مملكة الكاهنة، فرد عليه برسالة دسها في خبزة يصف فيها ما بين البربر من الشقاق.

وعلى ضوء هذه المعلومات، سار حسان إلى الكاهنة لأخذ الثأر، ولما

---

(1) البيان (26/1).

اقترب منها، شعرت الكاهنة بالنهاية التي تنتظرها وقالت لإبنيها على سبيل، التنبوء بالغيب: «إنني مقتولة».

وبهذه الروح الإنهزامية دخلت الكاهنة وقومها معركة فاصلة كان يبدو إن نهايتها ميؤوس منها منذ البداية.

ولما التقى الجمعان والتحم القتال واشتد النزال، إنهزمت جيوش الكاهنة وأتبعها حسان حتى لحق بها وقتلها في مكان يعرف ببئر، الكاهنة في سنة 73 هـ(692م).

وباختفاء الكاهنة على مسرح المقاومة، قام جيل جديد أدرك إن العرب ليسوا غزاة من النوع الذي عرفته هذه البلاد في مختلف المراحل في تاريخها، وإن رسالة الإسلام التي جاءوا بها تفتح للمغرب الباب على مصراعيه للمساهمة على قدم المساواة في بناء حضارة جديدة على أنقاض حضارة الرومان التي تسير في طريق الأضمحلال.

وكذلك أدرك العرب من جهتهم إن مقاومة البربر إنما تنبع من رغبتهم في الدفاع عن حريتهم واستقلال بلادهم، ولكي يثبت لهم حسان إن العرب لم يأتوا لاستعبادهم، عقد لابنى الكاهنة على إثنيى عشر ألفاً من البربر الذين أسلموا وبعث بهما على رأس هذا الجيش ليجاهدوا في سبيل الله في مختلف أنحاء المغرب.

وأما هو، حسان، فقد عاد إلى القيروان في شهر رمضان من السنة وأقام لا ينازعه أحد حتى مات عبد الملك بن مروان (سنة 86 هـ 705م)[1].

ولما ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك، كتب إلى عمه عبد الله، وهو على مصر أن يعزل حساناً ويبعث في مكانه إلى أفريقية موسى بن نصير[2].

---

(1) قارن روايات العبر (187/4)، البيان (34/1 — 39)، الكامل (369/4 — 372)، تاريخ اليعقوبي (277/2)، فتوح مصر (ص 200 — 201)، المؤنس (ص 33 — 35).

(2) هو موسى بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، أبو عبد الرحمن، فاتح الأندلس، نشأ في دمشق وولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص وخدم بني مروان، وقد كان في عهد الحجاج على =

وكذلك سار حسان إلى عامل مصر، بناء على دعوته، حاملاً معه أثقالاً من الذهب والفضة والجواهر والياقوت وهناك سلبه عبد الله جزءاً منها، ورحل حسان بالأثقال التي بقيت معه من الأموال ومنها قرب الماء التي ملاها بالذهب ولما وصل إلى الخليفة أفرغها أمامه واستعظمها الوليد.

وصل موسى بن نصير في رواية أفريقية في سنة 89 هـ[1]، حيث وجد رجلاً إسمه صالح يقوم بإدارة الأعمال بعد رحيل حسان.

= خراج البصرة ووقعت له مشاكل مع هذا العامل الذي لا يرحم، والذي أثبت أنه احتجز نحو مائة ألف من أموال الدولة، ولكنه تمكن من تسوية وضعه مع الخليفة بتسديد المبلغ. ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك عينه على افريقية كما سنرى، راجع سيرته خصوصاً في البيان (1/39 — 40)، نفح الطيب (1/108 — 134)، ابن الفرضي (2/18)، بغية الملتمس (ص 442)، وفيات الأعيان (5/318 — 329)، جذوة المقتبس (ص 317)، الحلة السيراء (2/332)، تاريخ اليعقوبي (2/185 -194)، البداية والنهاية (9/171)، رياض النفوس (1/77).

(1) اختلف المؤرخون العرب اختلافاً كبيراً بشأن تاريخ ولاية موسى ابن نصير للمغرب، بل وحتى بشأن الخليفة الذي قلده هذه الولاية، أهو عبد الملك بن مروان ام ابنه الوليد، وهذا المقام لا يتسع لتحليل المعطيات التاريخية لمحاولة الوصول إلى صلب الحقيقة، ولكننا نذكر مع ذلك بأهم الروايات التي تتصل بهذا الموضوع الخطير الشأن حيث أن ولاية موسى تقع بين فترتين جوهريتين: نهاية فتح المغرب وبداية فتح الأندلس وفيما يلي التواريخ التي ذكرها المؤرخون لولاية موسى بن نصير:
سنة 77 ـ اليعقوبي (تاريخ 2/277).
سنة 78 ـ الحلة السيراء (2/332)، تهذيب ابن عساكر (4/146)، المؤنس (ص 35)، النجوم الزاهرة (1/198)، فتوح مصر (ص 203).
سنة 79 ـ البداية والنهاية (9/171)، الأمامة والسياسة (2/50 - 51)، قال ابن قتيبة: إن التعيين وقع يوم الخميس في صفر سنة 79 ودخل موسى المغرب في جمادى الأولى لخمس خلوان منه، بغية الملتمس (ص 442)، جذوة المقتبس (ص 317).
سنة 88 ـ نفح الطيب (1/230)، البيان (1/46).
سنة 89 ـ البلاذري (فتوح البلدان ص 272)، الكامل (4/540)، أورد ابن الأثير الخبر في حوادث سنة 89 ولكنه أشار إلى الرواية التي تقول بأن التعيين وقع في سنة 78، وفيات الأعيان (5/319)، ويذكر ابن خلكان ان التعيين وقع في سنة 89 ولكنه يشير إلى رواية الحميدي بأنه تم في سنة 77.

وأما ابن خلدون العبر (4/187)، فإنه لم يذكر تاريخ ولاية موسى بن نصير، ولكنه أورد تاريخ فتحه لطنجة في سنة 88، مما يدل على ان الولاية تمت في رأي هذا المؤرخ قبل تلك السنة، وكذلك أهمل صاحب شذرات الذهب ذكر تاريخ الولاية ولكنه قال: إن فتح قبيلة =

وقد قام موسى بأول فتوحاته في قلعة زغوان ونواحيها[1] ثم بعث ابنه عبد الله في غزوات في بعض نواحي المغرب فأتى بمائة رأس ثم كتب إلى والي مصر بهذه الفتوحات ويبلغه إن الخمس الذي حصل عليه بلغ في مجموعه ستين ألف رأس[2].

وبعد ذلك، قام موسى بإخضاع السفوح الجنوبية لجبال أوراس وعن طريق الزاب، سار إلى تيهرت فتلمسان واستولى عليهما، ثم عاد إلى الجنوب الغربي وأخضع السوس الأقصى حتى درعة[3] وصحراء تافيلاليت ثم اتجه إلى

= أوربة (جبال أوراس) وقع على يد موسى بن نصير في سنة 84، شذرات الذهب (93/1).

ومن جهة أخرى، فإن المسعودي (مروج الذهب (369/1) يقول: إن موسى بن نصير فتح السوس الأدنى والسوس الأقصى في عهد عبد الملك بن مروان وهذا يتفق مع أقوال الهمذاني (كتاب البلدان ص 88 - 91)، الذي أورد رسائل قال إنها تبودلت بين عبد الملك ابن مروان وموسى بن نصير وتدل على ان فتح الأندلس كان بناء على توجيهات من الخليفة.

ونحن دون أن ندخل في تحليل معمق، نستبعد على الأقل سنة 86، حيث إن هذه هي السنة التي تولى فيها الوليد الخلافة ونرى ان من الصعب أن يجزم في أمر عزل حسان وتعيين موسى الذي وقع في مشاكل مع أبيه ويصل موسى إلى افريقية بهذه السرعة، وكذلك يمكننا أن نستبعد سنة 88، إذا اعتبرنا ما ذكره بعض المؤرخين من أن عبد العزيز شقيق عبد الملك كان الواسطة في هذا التعيين فإن عبد العزيز توفي سنة 85 (البيان 41/1)، (الطبري 53/8)، (الكامل 197/4)، ونحن نرجح لعدة قرائن أن يكون موسى قد ولي المغرب في عهد الوليد ابن عبد الملك بين سنتي 78 - 79 وهاتان هما أيضاً السنتان اللتان تجتمع حولهما، كما رأينا أكثر الروايات ثقة.

(1) يمتد جبل زغوان الذي كانت تقع فيه هذه القلعة في البر على الشاطىء المقابل لجزيرة شريك، ويتجه نحو الجنوب، وقد عرف جبل زغوان أيضاً بأنه ماوى للصالحين، وهذا الجبل الذي توجد في غربيّه مدينة لربس المشهورة، يقع على مسيرة يوم من القيروان، راجع عنه الإدريسي (ص 119)، معجم البلدان (144/3)، البيان (40/1).

(2) رواية ابن الأثير وابن عذاري، وفي شذرات الذهب خمسين ألف، وأما ابن خلدون فيذكر ان الخمس بلغ سبعين ألف رأس.

(3) درعة هي المدينة التي تسمى تيومتين، كانت آهلة عامرة وافرة الخصب في عهد البكري، وكانت بها أسواق جامعة ومتاجر ومزارع واسعة يسقيها نهر درعة ليست مدينة يحيط بها سور، وإنما هي مجموعة من القرى والعمارات التي تفصل بينها المزارع والغياض، وأشهر ما تنتجه، الكروية، والكمون والحنا، إلى جانب الحبوب، وأهم هذه القرى قرية تمكروت التي تقع على الضفة اليسرى للنهر راجع البكري (ص 155 — 156)، الإدريسي (ص 61 — 62)، معجم البلدان (451/2).

الشمال ثم واصل زحفه حتى استولى على طنجة وسبتة.

وبعدما أجاز طارق بن زياد[1] لفتح الأندلس (سنة 92) وسار في أثره في فترة لاحقة لإتمام الفتح، قفل إلى الشرق حيث مات في عهد سليمان بن عبد الملك في ظروف يحيط بها الغموض في سنة 98، وقد كان مجموع سنوات ولايته على افريقية 18 سنة.

وبعد موسى بن نصير، توالى العمال على أفريقية والمغرب الأقصى، فولي محمد بن يزيد القرشي[2] في عهد سليمان بن عبد الملك سنة 97 هـ، وبقي بها حتى مات، ثم استعمل إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[3] في سنة 99 هـ، ومن الأمور التي استحدثت في عهد هذا العامل إن الخليفة بعث معه عشرة من التابعين لتعليم سكان المغرب مبادىء الإسلام، هو تجديد يدلنا على إن الخليفة قد فهم إن مشكلة المغرب الدينية والسياسية تعود إلى عدم الاهتمام بنشر مبادىء الدين واللغة العربية في هذه البلاد والاكتفاء بالغزو والقمع والرجوع بالأسلاب والغنائم.

وبعده جاء يزيد بن أبي مسلم، كاتب الحجاج، ولكن ولايته لم تدم سوى شهر قتل بعده، وقد اشتهر بالشدة والظلم والتعسف، ثم ولى يزيد بن عبد الملك مكانه بشر بن صفوان[4] الذي استمر في عمله حتى توفي في سنة 109 في عهد هشام بن عبد الملك.

---

(1) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء من أصل بربري أسلم على يد موسى ابن نصير وكان أول ما فتحه من عدوة الأندلس، الجبل الذي يحمل اسمه حالياً، ثم حصن قرطاجنة ثم افتتح إشبيلية واستجه واستولى على قرطبة ومالقة ثم احتل طليطلة عاصمة البلاد، راجع سيرته في نفح الطيب (الفهرس) البيان (43/1)، بغية الملتمس (ص 11 — 315)، الكامل (212/4)، المعجب (ص 9 — 11)، فتوح مصر (ص 205 - 206).

(2) راجع سيرته في النجوم الزاهرة (258/2)، الكامل (23/5)، التنبيه والاشراف (ص 304)، العبر (188/4)، البيان (47/1)، تاريخ اليعقوبي (294/2).

(3) راجع سيرته في رياض النفوس (75/1)، البيان (48/1)، معالم الإيمان (154/1)، الاستقصا (46/1)، الكامل (101/5).

(4) راجع نبذة عنه في البيان (49/1)، العبر (88/4)، الكامل (131/5)، المؤنس (ص 39)، تاريخ اليعقوبي (313/2)، الخلاصة النقية (ص 14).

وقد خلفه عبيد بن عبد الرحمن السليمي[1] الذي وصل إلى أفريقية في سنة 110 هـ.

وفي سنة 114 هـ عزل هشام عبيداً وولى على أفريقية عبيد الله بن الحبحاب السلوى[2] ومن أهم المنجزات العمرانية التي يذكرها التاريخ لابن الحبحاب، بناء المسجد الجامع ودار الصناعة بتونس.

ولما تولى مقاليد الأمور في أفريقية، إستعمل ابن الحبحاب على الأندلس عقبة بن الحجاج وعلى طنجة ابنه إسماعيل وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، وسار حتى بلغ السوس الأقصى وأرض السودان، وانتصر على كل من وقف في طريقه وأصاب من السبى أمراً عظيماً، ثم رجع سالماً ظافراً.

وبعد ذلك سيره عبد الله لغزو صقلية في سنة 122 هـ[3]، فحاصر سرقوسة، وهي أكبر مدنها، وقاتل النصارى وصالحوه على الجزية.

أما فيما يتعلق بابنه إسماعيل[4] الذي ولاه على طنجة وما والاها، فقد كان الحق به رجلاً يدعى عمر بن عبد الله المرادي الذي كلفه، فيما يبدو، بشؤون الخراج والمالية، وقد أساء سياسة البربر وعرضهم لكثير من التعسف والظلم فتعدى فيما فرصة عليهم حدود الصدقات والزكات وأرغم من أسلم منهم على دفع الخمس وزعم إن ذلك يمثل الفيىء وهو شيء لم يرتكبه أحد قبله من الولاة في أية ولاية من ولايات الإسلام حيث كان الخمس لا يفرض إلاّ على غير المسلمين.

(1) راجع سيرته في البيان (1/50)، العبر (4/188)، الكامل (5/54 — 56)، الاستقصا (1/47)، النجوم الزاهرة (1/245)، اليعقوبي (2/318).

(2) راجع سيرته في البيان (1/51)، النجوم الزاهرة (1/258)، الكامل (5/190)، العبر (4/188)، اليعقوبي (2/318)، الخلاصة النقية (ص 14).

(3) قارن المؤنس (ص 41)، الكامل (5/191)، العبر (4/189).

(4) كذا في الكامل والبيان وفي العبر: ابنه محمد.

ثورة الخوارج

كان مذهب الخوارج في الشرق، بقطع النظر عن الناحية الأيديولوجية فيه[1]، أداة ووسيلة للتعبير عن السخط ولنشر الثورة على السلطة المركزية. وهذا المذهب الذي يقوم على مبادىء المساواة والشورة واحترام صوت الفرد، يتفق مع ميول البربر، ومع التقاليد السائدة في مجتمعهم منذ أجيال لا تعيها ذاكرة التاريخ، بحيث أن وظيفة أمين القرية في بلاد القبائل يذكرنا بمركز الإمام الأباضي. ومما يثبت لنا ما كان يتمتع به مذهب الخوارج من الإغراء بين البربر إن العامة ورعاع الناس وليس النخبة والأعيان هم الذين سارعوا إلى اعتناقه والدفاع عنه. والناحية الأخرى التي كانت تحبب المذهب إلى نفوس البربر، هو ميل الخوارج إلى التقشف والابتعاد عن حياة التعرف، والبذخ التي كان الأمراء العرب يسيرون عليها.

وإزاء الوضع الذي يفرض عليهم، وهم مسلمون، معاملة أهل الذمة، إستغل البربر فرصة غياب حبيب بن أبي عبيدة على رأس الجيش المنهمك في العمليات في صقلية، وقاموا بثورة، وهذه الثورة سرعان ما تلقت روافد مهمة من عناصر السكان غير المسلمين، فإن حركة التذمر بسبب الضرائب، سرعان ما اتخذت طابعاً ثورياً شاملاً وكانت لها أبعاد دينية بالإضافة إلى أبعادها السياسة وستزعزع المغرب من أقصاه إلى أقصاه عشرات السنين. وثورة

(1) يمكن لمن يرغب في الاطلاع على خلاصة لتطور مذهب الخوارج مراجعة الفصل المفيد الذي عقده لهذا المذهب أحمد أمين في فجر الإسلام (ص 256 — 265).

الخوارج بالمغرب كانت أول ثورة حقيقية في الإسلام، لأن كل ما عرف حتى الآن لا يتجاوز نطاق النزاع بشأن من هو أجدر بالخلافة وأولى بها.

ففي سنة 123 هـ، قدم البربر في المغرب الأقصى على أنفسهم، بدعوة من الخوارج الصفرية[1] رجلاً يدعى ميسرة المدغري[2] وزحف هذا على رأسهم إلى طنجة وقتل عمر بن عبد الله المرادي[3] واستولى على زمام الأمور في المدينة، ثم بايعوه بالخلافة وخوطب بأمير المؤمنين وانتشرت، دعوته في سائر أنحاء المغرب.

وإزاء هذه الأحداث، اضطر ابن الحبحاب إلى استدعاء حبيب ابن أبي عبيدة من صقلية، وسيره بصفة مستعجلة إلى الغرب لتعزيز الجيش الذي كانق د بعث به بقيادة خالد بن أبي حبيب لقتال ميسرة السقاء.

وبعد قتال شديد بين جيش خالد وجموع ميسرة في نواحي طنجة لم يسفر على نتيجة مهمة، إنفصل الجيشان ورجع ميسرة وقتلوه، ثم بايعوا مكانه خالد بن حميد الزناتي[4] وبذلك تسلمت زناتة أهم قبائل المغرب على إطلاق في هذه الفترة، زمام حركة الثورة التي ستغذيها بالرجال وتتولى نشرها بين فروعها وأفخاذه الموزعة في التل والصحراء وفي الشرق والغرب.

وكذلك جمع الخليفة الجديد جيشاً كبيراً من البربر وسار على رأسه لمقاتلة جيش خالد بن أبي حبيب، وبعد معارك طاحنة إنهزم جيش القيروان أمام البربر، وقتل خالد ين أبي حبيب وجميع رؤوساء جيشه وفرسانه، كما قتل

(1) الصفرية فرقة من فرق الخوارج التي تبلغ نحو العشرين، وهم من أتباع زياد بن الأصفر، وتعاليم الصفرية لا تختلف كثيراً عن تعاليم فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، وهو يحرم على أتباعه ذبائح غيرهم من المسلمين والتزوج منهم وهم يعتبرون جميع الفرق الإسلامية الأخرى مثل كفار العرب، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، راجع تفاصيل أخرى في فجر الإسلام (ص 60 — 61) والمراجع التي أحال عليها، وفي مقدمتها، الملل والنحل للشهرستاني.

(2) كذا في الكامل والبيان، وفي العبر: ميسرة المظفري، وهو يعرف أيضاً بميسرة السقاء.

(3) كذا في الكامل والبيان، وفي العبر: عمر بن عبيدة الله، وأما المؤنس، فهو لم يتعرض لذكر هذه الأحداث.

(4) كذا في الكامل والبيان، وفي العبر: خالد بن حبيب الزناتي، وهو تحريف.

إسماعيل بن الحبحاب الذي كان في منطقة السوس الأقصى، فسميت هذه المعركة بغزوة الأشراف[1].

ومن منطقة طنجة، سلكت الثورة طريق القيروان إلى الشرق، فاجتمع الناس على ابن الحبحاب وعزلوه، كما انتشرت غرباً إلى الأندلس التي انتقضت على عقبة بن الحجاج وقدم أهلها على أنفسهم عبد الملك بن قطن الذي كان أميراً عليها من قبل[2].

ولما بلغت أخبار هذه الثورة العارمة هشام بن عبد الملك إهتز لها وصرح، بقوله: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولا بعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي» ثم استدعى ابن الحبحاب الذي غادر أفريقية في جمادي الأولى سنة 123 هـ وعين خلفاً له كلثوم بن عياض[3].

سار كلثوم بن عياض من الشام على رأس جيش كثيف يتكون من 12 ألف مقاتل، مضافاً إليهم من انضم إليه في طريقه في مصر وبرقة وطرابلس، فوصلت مقدمة الجيش، وعلى قيادتها بلج بن بشر القشري، ابن أخ كلثوم، إلى القيروان في رمضان سنة 123 هـ.

وتحت نشوة الثقة والغرور بهذه القوة العارمة، بدأ بلج أعماله باضطهاد أهل القيروان والتنكيل بهم، وكأنه نسي أنه إنما جاء لقمع ثورة طنجة، وبلغ به الهوس إنه راح يمس أعراض المسلمين. فكان يقول لسكان عاصمة أفريقية: «لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلكم».

---

(1) قارن رواية هذه الحوادث في الكامل (5/190)، العبر (4/189)، البيان (1/50 — 54)، فتوح مصر (217 — 218).

(2) وهو عبد الملك بن قطن بن نهشل الفهري، والي الأندلس في عهد يزيد بن معاوية سنة 63 هـ، واستقر بقرطبة وغزا أراضي البشكنس Vascons في سنة 115، حين عزله ابن الحبحاب، وبعدما قاد أهل الأندلس، ثار عليه بلج بن بشر الذي التجأ من افريقية إلى الأندلس وقتله وصلبه، راجع سيرته في الكامل (5/64، و70 و92 — 93)، نفح الطيب (1/236)، جذوة المقتبس (ص 268)، بغية الملتمس (ص 369)، العبر (2/324)، الحلة السيراء (2/336 — 337).

(3) راجع سيرة كلثوم بن عياض القشري في العبر (4/189 — 190)، البيان (1/55 — 56)، الكامل =

وهذا السلوك أثار حفيظة أهل القيروان فشكوا منه إلى القائد حبيب بن عبيدة[1] الذي كان بتلمسان وعرفوه بمقاله بلج.

ومن تلمسان كتب حبيب إلى كلثوم بن عياض ينهاه ويتهدد قائلاً:

«إن عميلك السفيه... قال كذا وكذا، فإرحل بعسكرك عنهم، وإلا حولنا أعنة الخيل إليك»[2].

إعتذر كلثوم عن الحادث برسالة إلى حبيب ثم سار ليلحق به وعلى مقدمة جيشه دائمًا بلج بن بشر، بعدما استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري.

ولما وصل كلثوم إلى معسكر حبيب رفض استقباله واستهان به وسب بلج على سلوكه، ثم لم يلبث الجيشان اللذان اجتمعا لمحاولة القضاء على ثورة الخوارج إن دخلا في نزاع حاد أوشك أن يتحول إلى حرب، ولكن الطرفين إصطلحا في نهاية الأمر[3]، واتفقا على محاربة البربر.

كان جيش كلثوم في هذه المرحلة يتكون من ثلاثين ألف مقاتل، فيهم عشرة آلاف من صلب بني أمية وعشرون ألفاً من سائر العرب، وعلى رأس هذه القوة، سار كلثوم في اتجاه وادي سبوا لمقاتلة جحافل زناتة وغيرهم، بقيادة حميد الزناتي الذي تولى «الخلافة» بعد مسيرة السقاء كما ذكرنا.

ولما اقتربت جيوش البربر من المعسكر العربي، وجه إليهم كلثوم بلج بن بشر ليلاً والتقى بهم صباحاً، فهزموه شر هزيمة ثم تعقبوه حتى وصلوا إلى معسكر كلثوم، فوقع بين الطرفين قتال شديد وناشب الخيل، الخيل وكشفت

= (5/192 - 193) الاستقصا (1/49)، الخلاصة النقية (ص 4)، تاريخ الإسلام للذهبي (5/28)، فتوح مصر (ص 218 — 220)، النجوم الزاهرة (1/289 — 292)، تاريخ اليعقوبي (2/318).

(1) راجع نبذة عن هذا القائد الشجاع الذي سيرد ذكره في السطور التالية، في الخلاصة النقية (ص 17)، العبر (4/190)، البيان (1/69)، الاستقصا (1/54).

(2) الكامل (5/192)، البيان (1/54).

(3) رواية الكامل والبيان، وفي العبر: «اقتتلا ثم اتفقا».

خيل البربر عن خيل العرب، ثم التقت الرجالة بالرجالة حتى وصلت خيل البربر ورجالاتهم إلى مخيمات كلثوم وأصحابه، فقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وسليمان بن أبي المهاجر وغيرهم من أشراف العرب ووجوههم[3].

فكانت هزيمة لا نظير لها في أفريقية للجيش العربي منذ بداية الفتح.

وأثر ذلك، تشتت فلول الجيش العظيم والممزق في كل اتجاه، فمضى أهل الشام إلى الأندلس، ومعهم بلج بن بشر الذي عرفنا بعض سيرته ومعه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، بينما سار أهل أفريقية وأهل مصر إلى الشرق.

وكذلك انفتحت طريق القيروان الآن إمام جموع الخوارج من زناتة وغيرهم، فسارت الصفرية إلى عاصمة أفريقية لتنهبها ولتستبيحها، في ثلاثة آلاف مقاتل، بقيادة طريف الذي سميت الجزيرة المعروفة باسمه).

ولكنهم عادوا على أعقابهم خائبين منهزمين.

ولما بلغ هشام بن عبد الملك خبر الكارثة التي حلت بجيشه ومقتل عامله كلثوم بن غياض، عين مكانه حنظلة بن صفوان الكلبي[2] والياً على أفريقية والمغرب فوصلها في ربيع الأخير سنة 124.

ولكنه لم يكد يستقر المقام لحنظلة في القيروان، حتى زحف إليه زعيم من الصفرية الخوارج من مدينة قابس[3] اسمه عكاشة ابن أيوب الفزازي في جيش كثيف، عاد به إلى عاصمة أفريقية ليأخذ ثأره من هزيمة ساحقة كان قد لقيها عند أسوار القيروان، هو وجموعه، منذ وقت يسير. وقد شن عكاشة هجومه بتحالف مع صفري آخر اسمه عبد الواحد بن يزيد الهواري.

---

(1) قارن رواية هذه الأحداث في العبر (4/189 — 190)، الكامل (5/193)، البيان (1/54 — 56)، فتوح مصر (218 — 220).

(2) راجع سيرة حنظلة في البيان (1/58 — 59)، الكامل (5/193 — 194)، المؤنس (ص 41)، الولاة والقضاة (ص 71 — 80)، الاستقصا (1/51)، تهذيب ابن عساكر (5/12)، تاريخ اليعقوبي (2/318)، البلاذري (275)، فتوح مصر (ص 221 - 224).

(3) راجع وصف قابس في الإدريسي (ص 106 - 107)، ابن حوقل (ص 72)، معجم البلدان (4/289 - 290)، البكري (ص 17 - 18).

وبعد قتال ومعارك بين حنظلة وعكاشة، اسفرت الحرب عن هزيمة الصفري وتشتيت جموعه وبذلك عاد حنظلة إلى القيروان ليواجه عبد الواحد الهواري الذي جاء من جانب آخر، بقوات تبلغ، في روايـة ابن الأثير، أربعين ألف مقاتل.

ولما اقترب جيش القيروان من الصفري، اكتشف نقصاً في الشعير لعلف الدواب، فأطعموها حنطة.

وفي الغد التقى جيش القيروان مع عبد الواحد الهواري، فكانت الهزيمة من نصيب حنظلة الذي قرر العودة إلى القيروان، في الوقت الذي هلكت فيه دواب جيشه، وبلغ عدد الخيول التي ماتت بسبب علف الحنطة عشرين ألف رأس[1].

وفي هذه الأثناء، اقترب عبد الواحد على جيش كبير حتى وصل إلى مسافة ثلاثة أميال من القيروان، ولكن حنظلة قد تمكن من جمع جيش لا بأس به وأعده إعداداً معنوياً ملائمًا، قبل أن يخرج على رأسه لمجابهة الصفري مرة أخرى، وبعد قتال عنيف، أصيب الخوارج بهزيمة كبيرة وقتل زعيمهم، عبد الواحد في المعركة، كما أسـر عكاشة وقتل هو الآخر. وتقدر مصادر ابن الكثير عدد القتلى في هذه المعركة من الطرفين بمائة وثمانين ألف قتيل.

* * *

كان عبد الرحمن بن حبيب قد هرب إلى الأندلس، عقب مقتل أبيه مع كلثوم بن غياض كما أشرنا، وهناك حاول الوصول إلى الحكم ولكنه فشل واضطر إلى العبور إلى أفريقية، وهنا استغل ضعف حنظلة وعزوفه عن قتال المسلمين فدعا لنفسه وذاع أمره، فاضطر حنظلة إلى التنازل له عن الحكم، وخرج هو متجهاً إلى الشام.

وكذلك دخل عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، مدينة القيروان التي خطها جده وبدون قتال[1].

كان عبد الرحمن قد تربى في أفريقية وعاش فيها واستوطنها وعاش فيها

---

(1) الكامل (5/193 — 194)، فتوح مصر (ص 222 — 223).

(2) راجع سيرته في الكامل (5/312 — 313)، البيان (1/60 — 62)، تاريخ اليعقوبي (2/357)، العبر (4/190)، الحلة السيراء (2/ 341 — 342)، الاستقصا (1/52).

مع أبيه وكان يرى أنه بصفته حفيد الفاتح العظيم، عقبة، هـو أولى بالولاية من غيره، وهذا أيضاً كان شعور أبيه الذي عرفنا اشتباكه مع كلثوم بن عياض بصدد قضية تتصل بكرامة المواطنين الأفريقيين، ولهـذا الاعتبارات وغيرها ولكون عبد الرحمن يعتمد على تأييد قطاع مهم من العرب الأفريقيين والبربر، فقد بدا له إنه في غير حاجة إلى تولية الخليفة الأموي له.

وكذلك وثب على كرسي الحكم في القيروان واستولى عليه دون أن يحتاج إلى استعمال القوة في سنة 127 هـ واستقل بأفريقية، في وقت كانت فيه الدولة الأموية في الشرق في طريق الانفكاك والانحلال.

ولكنه لما ولى الخلافة مروان بن محمد الجعدي (72 — 137 هـ) آخر خلفاء بني أمية، كتب بالولاية إلى عبد الرحمن واسبغ على نظام حكمه في أفريقية نوعاً من الشرعية، ولو إنها تقوم على أساس الاعتراف بالأمر الواقع.

والذي دفع عبد الرحمن الفهري إلى قبول وضع التبعية تجاه دمشق، هي بدون شك، تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها أفريقية، فعلى الصعيد العام، واجه البلد وبـاء الطاعون مدة سبع سنوات، ولم يفارقه إلا في فترات متقطعة، وهذا معناه الشلل الاقتصادي وضعف موارد الدولة، الأمر الذي ينعكس في قدرتها على حفظ الأمن واخضاع القلاقل والاضطرابات.

وعلى الصعيد السياسي، تفتت الموجه الأولى من ثورة الخوارج، ولكن أمواجاً صغيرة وكبيرة من الثورة لاتزال تتدفق منها وتنتشر هنا في مختلف أطراف البلد: فقد استولى عروة بن الوليد الصفدي على تونس، كما استولى ثابت الصنهاجي على باجة وأرسى عبد الجبار بن الحرث قواعد حكمه في طرابلس الغرب، وكذلك أقام سكان قابس نوعاً من الجمهورية واستقلوا بأنفسهم.

وكذلك يتضح لنا إن القيروان لم تكن سوى واحة واحدة من وحات الصحراء السياسية القاحلة، ولكنه يجب أن لا ننسى شخصية عبد الرحمن القوية وهالة المجد التي كانت تحيط باسمه. وبالإضافة إلى ذلك، كان عبد الرحمن شجاعاً بارع الحيلة داهية في تخطيط وتنفيذ العمليات العسكرية.

وقد وجد عبد الرحمن في أخيه الياس بن حبيب ساعداً مطواعاً لتنفيذه

ما يقرره ويدبره. وقد ساعده على القضاء بضربة واحدة بارعة على ثورة ابن عطاف باصطيفاس وثورة عروة بن الوليد بتونس (سنة 130).

وفي سنة 131 هـ، زحف على طرابلس وقتل زعيمها الخارجي عبد الجبار ثم عاد إلى القيروان، ليقوم بعد ذلك بعملية واسعة النطاق لإخضاع المغرب الأوسط أفضت به إلى تلمسان، التي ظفر بها في سنة 135 هـ.

وهكذا استعاد هذا العبقري الذي لا يشغل المكانة التي تليق به في تاريخ المغرب، زمام الدولة الوحدوية، أوكاد.

وبعد ما دوخ أفريقية والمغرب الأوسط وأخضع البربر في انتصارات متوالية، بعث جيشاً لغزو صقلية وجيشاً آخر لغزو جزيرة سردانية فقتل في الجزيرتين قتلاً ذريعاً وصالحهما على الجزية.

وفي أواخر أيام بني أمية راسل عبد الرحمن الخليفة مروان ابن محمد وهدى إليه الهدايا، ولكن الخليفة كان الآن في شغل شاغل عن المغرب، خصوصاً، بحرب المسودة.

ولما قتل مروان بن محمد وزالت دولة بني أمية، خطب عبد الرحمن للخلفاء العباسيين وأطاع السفاح.

وبعد وفاة السفاح، أقر المنصور عبد الرحمن على الولاية، ولكنه لما بعث إليه بهدية استصغرها الخليفة العباسي، وأرسل إليه يهدده. وقد كان ردّ عبد الرحمن على هذا التهديد إن خلع دعوة المنصور وأبطل الخطبة باسمه على المنابر.

وهكذا استطاع عبد الرحمن ضمان أمن مملكته وسلامة سلطانه وتغلب على الخوارج وأخطار البربر ومناورات الأمويين والعباسيين، ولكن الخطر سيداهمه من الداخل ومن حيث لا يتوقعه: الياس بن حبيب، القائد المخلص والشقيق الوفي.

فقد تآمر الياس بدافع الغيرة من تولية عبد الرحمن ابنه العهد بدلاً منه، مع جماعة من وجوه القيروان ورجال الجيش ووضع خطة لقتله

متذرعاً برغبته في إعادة الدعوة إلى المنصور العباسي، وقد انضم إلى الياس شقيق آخر لهما، اسمه عبد الوارث، ودخل الإثنان إلى بيت أخيهما الذي أمِنَ جانبهما وَوَجداه يداعب إبناً صغيراً له وهو في غلالة نومه وقتلاه، في شهر ذي الحجة سنة 137 هـ.

على إن ابن عبد الرحمن حبيباً تمكن من الفرار ولحق بعمه عمران بتونس وأخبره بمقتل أبيه، وبعد قتال خفيف بين الطرفين (الياس وعمران) وقع بينهما صلح في سنة 138، منح بموجبه حبيب قفصة وقسطيلية ونفزاوة، ومنح عمران تونس التي كان عليها، واسطفورة، ويتولى الياس ملك سائر أفريقية.

ولكن الياس لم يلبث أن غدر بأخيه الآخر، عمران وقتله[1] مع جماعة من أشراف العرب. على إن حبيباً سيثأر لأبيه ولعمه من الياس في نفس السنة، فبعد ما استولى على تونس دخل في مبارزة معه شخصياً وقتله.

وهذا النزاع العائلي نورده لأنه يشكل خلفية لانبعاث ثورة الخوارج التي استغلت هذا النزاع والفراغ الذي ظهر نتيجة له في أفريقية. فبعد مقتل الياس، هرب شقيقه وشريكه في قتل عبد الرحمن والتجأ إلى قبيلة ورفجومة البربرية الصفرية التي كان على رأسها عاصم بن جميل، وقد سار إليهم حبيب بن عبد الرحمن ونشب قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة حبيب الذي التجأ إلى قابس.

وبهذا النصر على النظام الشرعي في القيروان، اشتدت شوكة قبيلة ورفجومة التي انضمت إليها قبائل أخرى وعظم أمرها، بحيث وجد عاصم بن جميل نفسه في مركز القوة والسلطان، على رأس القبائل المتحالفة ودفع الغرور به إلى ادعاء النبوة؛ فبدل الدين وزاد في الصلاة وأسقط ذكر النبي (صلعم).

---

(1) رواية ابن الأثير وابن خلدون، وأما ابن عذاري فيذكر إن الياس وثب على أخيه عمران وبعث به إلى الأندلس. وكذلك تشتمل رواية هذا المؤرخ على تفاصيل أخرى تبتعد بها عن رواية العبر والكامل، يمكن مراجعتها في البيان (1/67 — 79).

وقد بلغ العتو والجبروت بعاصم إنه لما كتب إليه من بالقيروان بعض العرب يدعونه إلى الولاية عليهم واستخلفوه على الحماية، رفض دعوتهم، وقاتلهم حتى هزمهم،واستباح القيروان،وخرب المساجد وسبى النساء والصبيان وربط فرسان ورفجومة خيولهم في المسجد الجامع.

وبعدما استولى على القيروان، سارع عاصم إلى قابس يطلب حبيباً، فأدركه واقتتل الطرفان وانهزم حبيب أمام خصمه مرة أخرى والتجأ إلى جبل أوراس حيث لحق به عاصم، ولكن الحظ كان في صالح حبيب في هذه المرة. فقد هزم ورفجومة وقتل عاصم نبيها المزعوم.

ولكن انتصار حبيب لم يكن له غد، لأنه لما وصل إلى القيروان خرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد القائم بأمر ورفجومة،ودخل الطرفان في قتال، أسفر عن مقتل حبيب في سنة 140 هـ.

وبذلك استقر الأمر لورفجومة في القيروان، حيث كانوا يسومون السكان وغيرهم من المسلمين ألواناً من الظلم والتعسف، وأخذت القبيلة تنشر نفوذها السياسي في سائر أنحاء افريقية.

ولما ذاعت أخبار فضائع هذه القبيلة في البلاد، خرج رجل من الأباضيين يدعى عبد الأعلى ابن السمح المعافري ويكنى أبا الخطاب، واجتمعت حوله جموع من الخوارج وَوَثب على طرابلس واستولى عليها، ثم سار إلى القيروان لقتال ورفجومة. وبعد معارك طاحنة استولى على عاصمة أفريقية وطارد ورفجومة ثم عاد إلى طرابلس،واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم صاحب تيهرت فيما بعد[1].

ولما بلغت أخبار فتنة ورفجومة وتغلب الخوارج على إفريقية إلى أبي جعفر المنصور، عين والياً على أفريقية، وهو محمد بن الأشعث الخزاعي[2]

---

(1) قارن روايات العبر (4/190 - 191)، البيان (1/61 — 71) الكامل (5/311 — 317)، تاريخ اليعقوبي (2/385 — 386).

(2) كان محمد بن الأشعث والياً على مصر حينما عُينَّ على افريقية في سنة 144 هـ. لتهدئة البلد. راجع أخبار ابن الأشعث في الولاة والقضاة (ص 108 — 110)، الاستقصا (1/57) العبر =

ووجهه إلى المغرب على رأس جيش يتكون من أربعين ألف (وفي رواية ابن الأثير خمسين ألف) مقاتل وعليه ثمانية وعشرون قائد. وبعد قتال، شديد بين الفريقين، وقع نزاع في صفوف جيوش أبي الخطاب بين هواري وزناتة كان من نتائجه تخلي قطاعات من زناتة عن قضيته، وأصيب بهزيمة وكان هو نفسه من القتلى في الحرب.

وبهذه النتيجة الباهرة، ظن ابن الأشعث إنه قضى على ثورة الخوارج، ولكن الحقيقة كانت بعيدة عما كان يأمله، فإن جيشاً يتكون من نحو عشرة آلاف (في رواية الأثير من ستة عشر ألف) مقاتل من زناتة، بقيادة أبي هريرة، لم يلبث أن اعترض طريقه إلى القيروان.

وبعد معركة كبيرة سجل فيها ابن الأشعث نصراً على زناتة، واصل طريقه إلى عاصمة أفريقية التي أصبحت لأول مرة عاصمة ولاية من ولايات الدولة العباسية، ودخلها في غرة جمادي الأولى سنة 144 هـ.

وعندما بلغت أخبار هذه الهزائم عبد الرحمن بن رستم، هرب من القيروان واتجه إلى موضع تيهرت ليخط مدينته المشهورة.

وأما ابن الأشعث فقد استمر على حكم البلاد وضبط أمورها، حتى ثار عليه موسى بن عجلان، أحد قواد جيشه، وأخرجه من القيروان في سنة 148 هـ.

ولما بلغ المنصور اضطراب أمر أفريقية على ابن الأشعث، بعث إلى الأغلب بن سالم بن عقال التميمي عهداً بولاية أفريقية، وكان الأغلب هذا ممن قام مع أبي مسلم الخراساني، وقدم إلى افريقية مع ابن الأشعث، وقد دخل الوالي الجديد القيروان في جمادى السنة سنة 148 هـ.

ولكن الأغلب سيواجه، مثل سلفه،اضطرابات في صفوف الجيش كان

= (192/4) محمد بن تاويت، الدولة الرستمية (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة 1957) سليمان الباروني مختصر تاريخ الإباضية (ط. تونس) أعمال الأعلام (ص 7 هامش 1) البيان (73/1).

أخطرها ثورة أبي قرة اليفرني الذي خرج عليه في جموع كبيرة من البربر، والحسن بن حرب الكندي الذي قدمه الجند على أنفسهم، بعدما خلعوا أبا قرة. . . .

وبعد معارك طاحنة مع الثوار، أصيب الأغلب بسهم أرداه قتيلاً في سنة 150 هـ[1].

وعقب ذلك، عين المنصور عمر بن حفص هزارمر[2] والياً على أفريقية وقدمها في سنة 151 هـ . ، وقد دام حكمه ثلاث سنين وبضعة أشهر، حينما سار إلى الزاب على رأس جيش كبير لإخضاع هذه المنطقة، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي.

ولما رأى البربر خلوّ أفريقية من الجيش أعلنوا ثورة وتداعت القبائل من كل فج على السلطة المركزية، واشتعلت نار الفتنة من جديد.

وكذلك سار في أثر عمر بن حفص إثنا عشر جيشاً من بينها جيش أبي قرة اليفرني الذي يتكون من أربعين ألف مقاتل، وجيش عبد الرحمن بن رستم الذي يشتمل على 15 ألف مقاتل، وجيش المنصور الزناتي الذي يضم عشرة آلاف، الخ، وذلك في الوقت الذي لم يكن فيه جيشه يتكون إلاّ من 15 ألف مقاتل.

وكذلك لحقت به قبائل الخوارج البربرية المتحالفة في الزاب، وشددت عليه الحصار في طبنة.

ولما أعوزته القوة العسكرية للوقوف في وجه خصومه، التجأ عمر إلى الحيلة والرشوة. ونظراً لأن بني يفرن تعتبر أشد قبائل البربر صولة وأكثرها عدداً، فقد اتجهت مناورة عمر إلى زعيمها وقائد جيوشها، أبي قرة، وقدم إليه

---

(1) قارن العبر (4/ 191 — 192)، البيان (1/ 72 — 74) المؤنس (ص 46)، اليعقوبي (2/386).

(2) راجع سيرة هزارمر في الكامل (5/598)، العبر (4/192 — 193)، البيان (1/ 75 — 77)، الاستقصا (1/85)، الخلاصة النقية (ص 19)، تاريخ اليعقوبي (2/386)، الطبري (9/284).

مبلغ 40,000 درهم كما قدم لأبنه مبلغ 4000 درهم في مقابل إنسحاب قواته من حصار طبنة. وعندما انصرفت جيوش أبي قرة، بعث بجيش إلى تهودا تمكن من تحطيم جيش عبد الرحمن بن رستم. وبعد ذلك تبخرت جموع المحاصرين لطبنة وزال خطر الخوارج، مؤقتاً.

على إن عمر بن حفص الذي نجا بأعجوبة في حصار طبنة، سيلقي حتفه في الحصار الذي ضربه أبو حاتم على القيروان بجيوش عظيمة بلغ عددها في رواية البيان 350,000 مقاتل.

وبعد مقتل عمر، بويع في مكانه أخوه جميل بن حفص الذي صالح أبا حاتم[1].

ولدَى وصول أخبار محاصرة الخوارج لعمر بن حفص في طبنة ثم في القيروان إلى الخليفة المنصور، جهز جيشاً بقيادة يزيد بن حاتم بن قبيضة[2]. ابن أبي صفرة وسيره على رأس هذا الجيش الذي يتكون من 60 ألف مقاتل، فوصل إلى أفريقية في سنة 154 هـ؛ وقد استلم زمام الأمر في البلد بكل حزم وأصلح أموره ونظم أسواقه، وجعل كل صناعة في مكانها. ولما استقر له الأمر، سار لقتال أبي حاتم يعقوب في طرابلس واستخلف على القيروان عمر بن عثمان الفهري، وبعدما شتت قوات أبي حاتم استعمل على طرابلس سعيد ابن شداد ثم رجع إلى القيروان ليسير جيشاً في طلب ثائر آخر، وهو عبد الرحمن بن حبيب بن الرحمن الفهري الذي التجأ إلى جيجل، وقد ظفر به وقتله.

وأثر ذلك هدأت عواصف الخوارج والثوار واستقرت الأمور وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم عدة سنوات، حتى ظهرت ورفجومة من جديد

---

(1) راجع تفاصيل هذه الأحداث التي اختصرناها بصورة مخلة، في الكامل (5/598 — 600)، البيان (1/75 — 77)، العبر (4/192 — 193)، المؤنس (ص 46)، اتحاف أهل الزمان (1/94).

(2) راجع سيرته في العبر (4/ 193 — 194)، البيان (1/78 — 80)، الكامل (5/661 — 662)، المؤنس (ص 46)، الاستقصا (1/58)، الولاة والقضاة (ص 111)، معالم البدور (1/15)، مرآة الجنان (1/361)، تاريخ اليعقوبي (2/384 — 386)، البلاذري (ص 275).

على مسرح الأحداث في سنة 164، بقيادة أيوب الهواري، وقد سير إليه الوالي جيشاً كبيراً حاصره في طبنة وأثخن في البربر، وقتل، فيمن قتل في هذه المعارك، المخارق ابن غفار، صاحب الزاب، فولي مكانه المهلب بن يزيد المهلبي، وأمده بالجيوش وواصل قتال، ورفجومة حتى انهزمت القبيلة وشتت جموعها نهائياً وقتل زعيمها أيوب الهواري.

وبذلك انتشر الهدوء والسلام في هذه البلاد حتى توفي المهلب بن يزيد في سنة 170 هـ، وكانت مدة ولايته 15 سنة.

ومن هذا العرض المركز والذي لا يسمح بتوسيعه الإطار الذي رسمناه له لكي يكون مدخلاً لدرس دولة الأدارسة، نستطيع أن نستخلص بعض النتائج التي لها صلة بموضوعنا.

وربما كانت أهم هذه النتائج هي تلك المقاومة ـ أو بالأحرى عدم المقاومة التي واجهها الفتح الإسلامي في المغرب الأقصى ـ فإن الفاتحين العرب لم يواجهوا هناك تلك المقاومة العنيفة التي وجدوها في أوراس وعبر أطراف الصحراء، خصوصاً، في الزاب حيث صمدت لهم قبائل هذه المنطقة وعلى رأسها كسيلة والكاهنة أعواماً طوالاً، وقد كانت حملتان عسكريتان متواليتان كافيتان لإخضاع المغرب الأقصى، وللقضاء على جيوب المقاومة التي نظمتها بعض القبائل فيه، خصوصاً، في المناطق الشمالية التي استقر فيها النفوذ اللاتيني.

وعندما بدأ غزو الأندلس توقفت المقاومة في المغرب الأقصى تماماً، وكإنما أدرك سكان هذا البلد إن حركة المد الإسلامي إنما تمر بهم لتعبر إلى آفاق أخرى لتثبيت الدين الجديد.

وقد كانت هذه مناسبة للبربر ليخرجوا من جبالهم ومعاقلهم ولينغمسوا في الموجة التي انطلقت في بداية العقد التاسع من القرن الثاني للهجرة، في اتجاه شبه جزيرة الأندلس حيث ينتظرهم المجد وتلوح لهم أكداس الأسلاب والغنائم.

وإنطلاقاً من هذه النقطة، فإن المغاربة الذين أصبحوا هم أنفسهم أداة للفتح، ولنشر الإسلام، لم يكن لديهم الوقت ولا العذر لمقاومة هذا الدين.

وهكذا يمكن القول بأن فتح الأندلس كان الوسيلة الفعالة لإقرار الإسلام في المغرب عموماً، وفي المغرب الأقصى بصفة خاصة.

والعامل الآخر في ضعف مقاومة المغرب الأقصى للفتح الإسلامي، هو ضعف حركة الاستيطان العربي في هذا البلد، وعدم وجود مركز عمراني عربي كبير فيه، على غرار القيروان. فإن استيطان العنصر العربي المنتصر الذي لم يكن دائماً على حساب البيزنطيين، والتنقلات العسكرية التي تشمل عشرات الألوف، بما ينطوي عليه ذلك من توفير الغذاء والسكن والعلف والضرائب، وتخريب الملكيات الزراعية الخ، عوامل كانت دائماً ولاتزال، مثاراً للاحتكاك بين السكان وجيش الاحتلال. على إنه من الصواب أن نلاحظ أيضاً إن استقرار العنصر العربي في المناطق الشرقية في المغرب، إذا كان يمثل عالة ثقيلة على الاقتصاد المغربي من حيث إنه كان يعيش على الوظائف والضرائب، فهو لم يكن استقراراً إستعمارياً، سواء بالمعنى الروماني، أو بالمعنى الحديث للكلمة.

أضف إلى ذلك إن الاستقرار العربي في المغرب كان ضعيف الكثافة بحيث يقدر مجموع القوات العربية التي دخلت أفريقية الشمالية قبل القرن الثالث الهجري بما لا يتجاوز 150,000، والذين استقروا في البلد من هذا المجموع لا يزيد عن 110000 جندي، وأما الباقي (40,000)، فقد عبروا إلى الأندلس[1].

وهذه الجالية العربية قد استقر معظمها في أفريقية وحول القيروان وفي المدن الكبيرة في المنطقة الشرقية مثل طرابلس.

وبصفة عامة، يمكن القول بأن كثافة السكان العرب في المغرب كانت

---

(1) وأما الجيش الذي أكمل فتح الأندلس بقيادة موسى بن نصير، فإنه لم يكن يشتمل إلا على عشرة آلاف مقاتل من العرب.

تقل كلما توغلنا في الاتجاه إلى الغرب. وقد كانت الجالية العربية في المغرب الأقصى من القلة بحيث لم يمكنها أن توفر حتى الإطارات الضرورية لإدارة عربية، ولو أن العرب كانوا دائمًا يشكلون حاشية الوالي الذي كانت مهمته الأساسية جمع الضرائب وإقامة الصلاة.

بينما نرى إن استقرار النفوذ العباسي في افريقية قد شجع الهجرة إلى هذه البلاد وكانت مدداً مستمراً، إذا بالعرب الذين يصلون إلى المغرب الأقصى، لا يكاد يستقر بهم المقام حتى يفكروا في العبور إلى الأندلس حيث تنتظرهم فرص مغرية للعمل والثراء.

وهذا الاعتبار ـ ضعف كثافة العنصر العربي ـ يشرح لنا ضيق الرقعة التي كان الإسلام منتشراً فيها لدى حلول إدريس الأول، وعدم انتشار اللغة العربية في البلد. وكلا الأمرين سيمثل عقبة مهمة في طريق تثبيت نفوذ الأدارسة، وذلك في عهد إدريس الأول، وإدريس الثاني معاً، ونحن يجب ألّا ننسى أن القبيلة التي استقبلت إدريس الأول وفرضته بقوة نفوذها على المغرب الأقصى، هي قبيلة أوربة التي كانت الدعامة الكبرى لسلطان كسيلة في الزاب وفي سفوح أوراس الجنوبية.

ولكن هذه الظاهرة ستجد تعويضاً عنها في الاتصالات التجارية والثقافية، بل والدموغرافية أيضاً، التي استمرت بين المغرب الأقصى والأندلس. فقد كانت مناطق المغرب الشمالية، بمثابة قاعدة للعمليات العسكرية العربية التي ساهم فيها المغرب الأوسط بحظ وافر، كما كانت في أوقات السلم مورداً وطريقاً للهجرة وحلقة وصل للتبادل في مختلف الميادين بين شبه جزيرة ايبيريا ووسط المغرب وجنوبه.

وضعف سلطان الأمويين على المغرب الذي تتقاسم النفوذ عليه ثلاث أوأربع قبائل كبرى (زناتة ومكناسة وأوربة ومصمودة)، هو الذي سهل مهمة الدعاة للمذهب الخارجي حيث كانوا يعملون بكل حرية وبدون أية رقابة لبث مبادئهم الثورية في شعب ساذج لا تتوفر لديه المناعة الأيديولوجية وتنقصه المعلومات الأساسية لفهم هذا المذهب في سياقه السياسي والثقافي.

ودعوة الخوارج ظهرت في المغرب منذ مراحل الخلافة الأولى، والحوادث التي تمخض عنها النزاع بين علي (ض) ومعاوية. وقد كان من الطبيعي أن يسعى رجال هذا المذهب الذي تعرض لأشنع أنواع الاضطهاد في الشرق، إلى الاستقرار، وإلى نشر دعوتهم في المناطق التي لا يحكمها بنو أمية إلاَّ إسمياً، وبدلاً من الظاهرة الشائعة في تاريخ المغرب من توغل النفوذ الآتي من دمشق وبغداد في الاتجاه الغربي،نجد إن نفوذ الخوارج في الفترة التي تهمنا قد اتجه، بأديولوجيته، من الغرب إلى الشرق. فقد انطلقت الثـورة الخارجيـة التي استكملت تسلحها المادي والأيديولوجي من طنجة، وحوض سبو،ثم اتجهت إلى تلمسان عبر مضيق تازا،لترتكز على منطقة التل التي انفصلت، أو هي شبه منفصلة عن الصحراء، لتصل إلى تونس والجريد وتطوق القيروان، لتعرج إلى الشمال، في طرابلس وتهدد خطوط مواصلات الأمويين من هذه المواقع الشرقية الشمالية،وخصوصاً من جبل نفوسة.

صحيح إن الخوارج كانت تنقصهم قيادة مذهبية، حيث كانت قيادتهم في المغرب بصفة عامة، تتخذ النمط القبلي، كما لم يتمكنوا من إقامة قاعدة لحكمهم، على غرار القيروان، وكذلك كان اعتمادهم على القبائل الرحل والقواعد الصحراوية الصغيرة،من عوامل الضعف في هذه الحركة التي لو تغلبت على ما كان يسود صفوفها من النزاع والتطاحن، لسيطرت على المغرب خلال القرون التالية، ولما كان في هذا البلد مجال للأدارسة والعبيديين.

وعلى كل حال، فإن ثورة الخوارج قد نجحت بعدما تمكنت من فرض سيطرتها الأيديولوجية على السيطرة القبلية التي كانت تستنزف كثيراً من قوتها، على الأقل، في إقامة قاعدتين كانت كلتاهما خلال فترة مهمة مركزاً عظيمًا للإشعاع الحضاري في المغرب الإسلامي، وهما مملكة تيهرت وإمارة سجلماسة اللتان قامتا قبل عهد الأدارسة بوقت قصير،وتعايشتا معهم في سلام ووئام.

ونظراً لأن هاتين القاعدتين قد انبثقتا مباشرة عن ثورة الخوارج التي مهدت المغرب الأقصى وهيأته للأدارسة، ولأنهما تمثلان أهم المراكز المجاورة

لمملكة الأدارسة، فإن من الملائم أن نخصص لكل منهما فقرة وجيزة في هذا العرض حتى يكوِّن القارىء لنفسه فكرة دقيقة بقدر الإمكان، عن الظروف السياسية التي ظهرت فيها دولة الأدارسة وعن الأحداث الهامة التي سبقت أو رافقت قيامها.

* *
*

سجلماسة

أنشئت مدينة سجلماسة في سنة 140 هـ (757م) في وقت كانت فيه حركة الخوارج تمر بأزمة[1] وقد قامت بإنشاء هذه المدينة التي كانت تحتل مكان تافيلالت الحالية، قبيلة مكناسة التي تعتبر من القبائل الصحراوية والتي بنت مدينة مكناس أيضاً.

وموقع كل من المدينتين كانت تربطه بالآخر طريق سلطانية[1] سلكتها أمواج متتابعة من الهجرة في الاتجاهين، وجيوش الغزاة، وكانت الطريق تمر بمدينة فاس.

وقد كانت مكناسة منذ بداية ثورة ميسرة السقاء الخارجي في طنجة تغذي الحركة الثورية بالعون والتأييد، خصوصاً بالرجال، لأن مكناسة كانت من الخوارج الصفرية.

كان أبو القاسم سمغو بن واسول، جد بني مدرار، عالماً كبيراً وصاحب أموال وكان ماشية وكثيراً ما ينتجع موضع سجلماسة الذي يقع على مسافة نحو 200 ميل في الجنوب الشرقي لمدينة فاس، عند تخوم الصحراء،

---

(1) فيما يتعلق بتحديد موقع سجلماسة والتعرف عليها في تافيلالت الحالية، يمكن للقارىء أن يراجع التعليق رقم 124 الذي خصصته لهذا الموضوع في كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 242)، والمراجع التي أحلت إليها وكذلك يمكنه الاطلاع على وصف الجغرافيين العرب لهذه المدينة في مختلف العصور في كتابي «المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي» وفيه قائمة وافية بالمراجع العربية والأجنبية التي يمكن الاستفادة منها.

(2) راجع بشأن هذه الطريق (Gautier (F). le passé de L'Afrique du Nord (P. 301.

وهناك اجتمع عليه قوم الصفرية. ولما بلغ عددهم أربعين، قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود وولوه أمرهم ثم شرعوا في بناء سجلماسة.

هل كانت سجلماسة مدينة قديمة بنيت على أنقاضها عاصمة بني مدرار؟ لا يمكن الجواب عن هذا السؤال بصيغة التأكيد، لأن الصدى الوحيد الذي وصلنا عن ذلك، هو الذي نقله الحسن بن محمد الوزان الذي يقول إن قائداً رومانياً غزا نوميديا وتوغل حتى ماسة في أعمال السوس الأقصى، على المحيط الأطلسي، ثم قام بتشييد مدينة سيجيلوم مسه (Sigillum Messe)[1].

ومهما يكن من أمر، فإن عمارة سجلماسة سرعان ما أدت إلى نزوح سكان مدينتين عظيمتين، في المنطقة، وهما مدينة ترغه ومدينة زيز. والمدينة الأخيرة تقع على نهرين أصلهما واحد، ولكنه متى اقترب من سجلماسة تفرع إلى فرعين يمر أحدهما في شرقها والآخر في غربها، وتغطي ضفافهما الغياض والبساتين وغابات النخيل وكروم العنب وغير ذلك من الفواكه[2]. وكذلك يشكل موقع سجلماسة نقطة ملائمة لخروج القوافل الراحلة إلى بلاد الزنوج، وخاصة غانة، والقوافل الراجعة منها. وكانت هذه القوافل تنقل منتجات المغرب وتعوّد بالتبر والعبيد والعاج الخ[3].

ولكنه على الرغم مما يحيط بالمدينة من الخيرات وموارد الثروة، وبالرغم من بعدها عن طريق الغزاة والمؤامرات السياسية، فإن بداية حياة المدينة قد رافقتها اضطرابات نرجح أن تكون ذات طابع ديني مذهبي. فإن أصحاب عيسى بن مزيد قد انقلبوا عليه وخلعوه ثم شدوا وثاقه إلى شجرة في رأس جبل وتركوه هناك حتى قتله البعوض، وكان ذلك بعد ولاية دامت خمسة عشر عاماً[4].

وبعد ذلك ولّوا على أنفسهم أبا القاسم سمغو بن مزلان المكناسي

---

(1) راجع Leo africanus, Description de L'Afrique ترجمة شيفر (Schefer III/221, 223, 227).

(2) راجع البكري (ص 148).

(3) راجـع ابن حوقل (ص 65 و 83).

(4) البكري (ص 149).

الذي خلفه ابنه، أبو الوزير الياس بن أبي القاسم، واستمر عهده حتى قام عليه أخوه، أبو المنتصر اليسع، فخلعه في سنة 174 هـ.

وفي عهد هذا الأمير، أخذت سجلماسة تتخذ شكل دولة منظمة، فقد أخضع الواحات وذلل البربر، وأكمل بناء المدينة، وأخذ خمس مناجم درعة التي كانت تنتج الذهب الوفير، وأظهر مذهب الصفرية وبنى سور المدينة[1].

ومما لا شك فيه إن ما تجمع للمدينة من الثروة الطائلة وما اتسم به المنتصر من الغلظة والجبروت، كانت هي العوامل التي سمحت له بإرساء قواعد ملك بني مدرار في سجلماسة.

ولما توفي المنتصر (سنة 180)، خلفه في الحكم ابنه، مدرار بن المنتصر ابن اليسع، ولم يزل والياً عليها حتى نشب خلاف بين ولديه، ميمون (المعروف بابن أروى) وميمون المعروف بابن نقية وتنازعاً واشتد النزاع بينهما مدة ثلاثة أعوام.

ولما وقف أبوهما بجانب ميمون بن أروى بنت عبدالرحمن بن رستم، خرج ابنه ميمون بن نقية من سجلماسة وولي العهد ابن الرستمية الذي ثار على أبيه فيما بعد، فخلعه، قبل أن يقوم أهل سجلماسة بخلعه هو، ولما توجهوا إلى ابن النقية لمبايعته مكان أخيه وأبيه، رفض الحكم بالتآمر على أبيه، ولذلك أعادوا مدرار إلى الحكم.

ولكنه لما استدعى ابنه ميمون بن أروى من درعة ليوليه العهد، قام عليه أهل سجلماسة وخلعوه وقدموا في مكانه ابن النقية الذي قبل الولاية الآن واستمر في الحكم حتى مات في سنة 263 هـ.

وولي الأمر من بعده محمد بن ميمون (ت. سنة 270) ثم آخر ملوك بني مدرار، وهو اليسع بن المنتصر بن أبي القاسم الذي فر من سجلماسة لما تغلب عليها أبو عبد الله الشيعي في ذي الحجة سنة 297 هـ.

---

(1) نفس المصدر (150).

وأما علاقات سجلماسة بدولة الأدارسة ، فهو موضوع تنقصنا المعلومات عنه، ولكن كل شيء يدل على إنها كانت علاقات سلمية تتسم برعاية حسن الجوار، على غرار العلاقات مع تيهرت الرستمية، وذلك على الرغم من الفوارق بين المذهبين اللذين تدين بهما الدولتان. وعدم وصول أية أخبار إلينا عن محاولة من الآدارسة لإخضاع سجلماسة، أو عن أية معارك واحتكاكات بين الطرفين، يمكن اعتباره دليلاً غير مباشر عما قلناه.

* *
*

تيهرت

عندما تغلب أبو الخطاب على أفريقية، استخلف، كما رأينا، عبد الرحمن بن رستم[1] الذي اشتهر بسعة علمه وزهده وتواضعه. ولما زحف ابن الأشعث على القيروان وقتل أبا الخطاب في سنة 144 هـ، فر عبد الرحمن بأهله وبما خف من ماله إلى المغرب الأوسط، وبعد ذلك لحقت به جماعة من الإباضية[2] فنزلوا بموضع تيهرت التي أغراهم موقعها والتي كانت فيها آثار مدينة قديمة، وهي في غيضة بين ثلاثة أنهار، فبنوا فيها مسجداً ثم اختطوا بها مساكنهم، وبايعوا عبد الرحمن بالخلافة (سنة 161 هـ).

ولما توفي عبد الرحمن في سنة 171 هـ[3]، قام بالأمر من بعده ابنه عبد الوهاب[4] الذي كان معاصراً لإدريس الأول ولإدريس الثاني إلى أن توفي في سنة 188 هـ، فوليها بعده ابنه، أبو سعيد أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، وقد اختلف عليه الأمر وأخرجه أهلها من تيهرت ثم أعادوه إليها، واستمر في الحكم حتى وفاته، وخلفه أخوه اليقظان، ثم يعقوب بن أفلح بن

---

(1) راجع سيرته في الكامل (50/3)، - السير للشماخي (ص 138)، الأزهار الرياضية (84/2)، البيان (196/1)، البكري (ص 67) سير أبي زكرياء (تحقيقنا) (ص 70-73).

(2) فرقة من الخوارج ينتسبون إلى رئيسهم، عبدالله بن إباض التميمي، والاباضية لا يغالون مثل الأزارقة في الحكم على مخالفيهم في العقيدة، بل هم يقولون بالتزاوج والتوارث مع غير الخارجي، ولا يستحلون قتل غير الخارجي، ولا يجيزون قتالهم إلا بعد إقامة الحجة وإعلان القتال. راجع أحمد أمين ومراجعه في فجر الإسلام (ص 260-261). وكذلك كتابنا «معجم الفرق والمذاهب الإسلامية».

(3) في البيان: مات في سنة 168 هـ.

(4) وفي رواية اسمه: عبد الوارث.

عبد الوهاب الذي دام حكمه أربعة أعوام[1] ثم خلعه أهل تيهرت وقدموا على أنفسهم أبا الحاتم بن اليقظان، فأقام بها ستة أعوام إلى أن قتله بنو أخيه في سنة 296 هـ، وهو آخر ملوك بني رستم الذين دامت دولتهم نحو قرن ونصف القرن[2]. وقد قوض دعائمها العبيديون الذين قوضوا أيضاً دعائم إمارة سجلماسة ودولة الأدارسة الأولى في المغرب.

وفيما يتعلق بعلاقات الدولة الرستمية بجيرانها في الشرق، فهي تتسم بالميل إلى المهادنة. ومما لا يـخلو من دلالة في هذا السياق إن عبد الرحمن بن رستم هو نفسه الذي سعى في السنة التي توفي فيها لمصالحة عامل القيروان. وقد أجيب إلى رغبته وتركه ممثلوا الدولة العباسية وشأنه، وقد استمر الهدوء والسلام يسود العلاقات بين تيهرت والقيروان حتى عكره عبد الوهاب الذي زحف على طرابلس على رأس جيش من هوارة في سنة 198 هـ، حيث شدد حصاراً على ولي العهد الأغلبي، في هذه المدينة، في وقت كان فيه عرش القيروان شاغراً. وقد انتهت هذه الحرب الصغيرة باتفاق تنازل بموجبه الأغالبة لعبد الوهاب وأنصاره على الأراضي التي كانت بأيديهم.

هذا فيما يتعلق بعلاقات الرستميين بالأغالبة، وأما علاقاتهم بالأدارسة، فقد كانت، كما أشرنا، علاقات حسن جوار، هذا إذا استثنينا اشتباكات محدودة النطاق كانت تقع بينهم وبين زناتة تلمسان (مغراوة وبني يفرن) الذين هم من رعايا الأدارسة، وكانوا يسعون لحمـل الإباضيين على الاعتـراف بسلطان إدريس الأول.

---

(1) البيان (167/1).

(2) راجع سـير أمراء تيهرت في البيان (طبعة بـيروت 278/1 — 383)، كتاب البلدان لليعقوبي (ص 355 — 356)، الكـامل (50/3 و 90/6)، السيـر للشمـاخي (ص 133 و 144 — 163)، سير أبي زكرياء (نشر دار الغرب الإسلامي (ص 81 وما يليها) الأزهار الرياضية للبـاروني (48/2)، البكري (ص 68)، ابن خلدون، تاريخ البربر (154/1)، تاريخ ابن الصغير (في عدة مواضع). أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين (القسم الثالث، 1905، وكذلك:

Basset (R): Les Sanctuaires de Djbel Nafossa.

Basset (R): Etude sur Les Zénata du Mzab d'Ourgia et de Rire, Publiction de la Faeulté des Lettres d'Alger.

Gsell (St): Atlas archéologique de l'Algèrie, feuille 33, N0. 14.

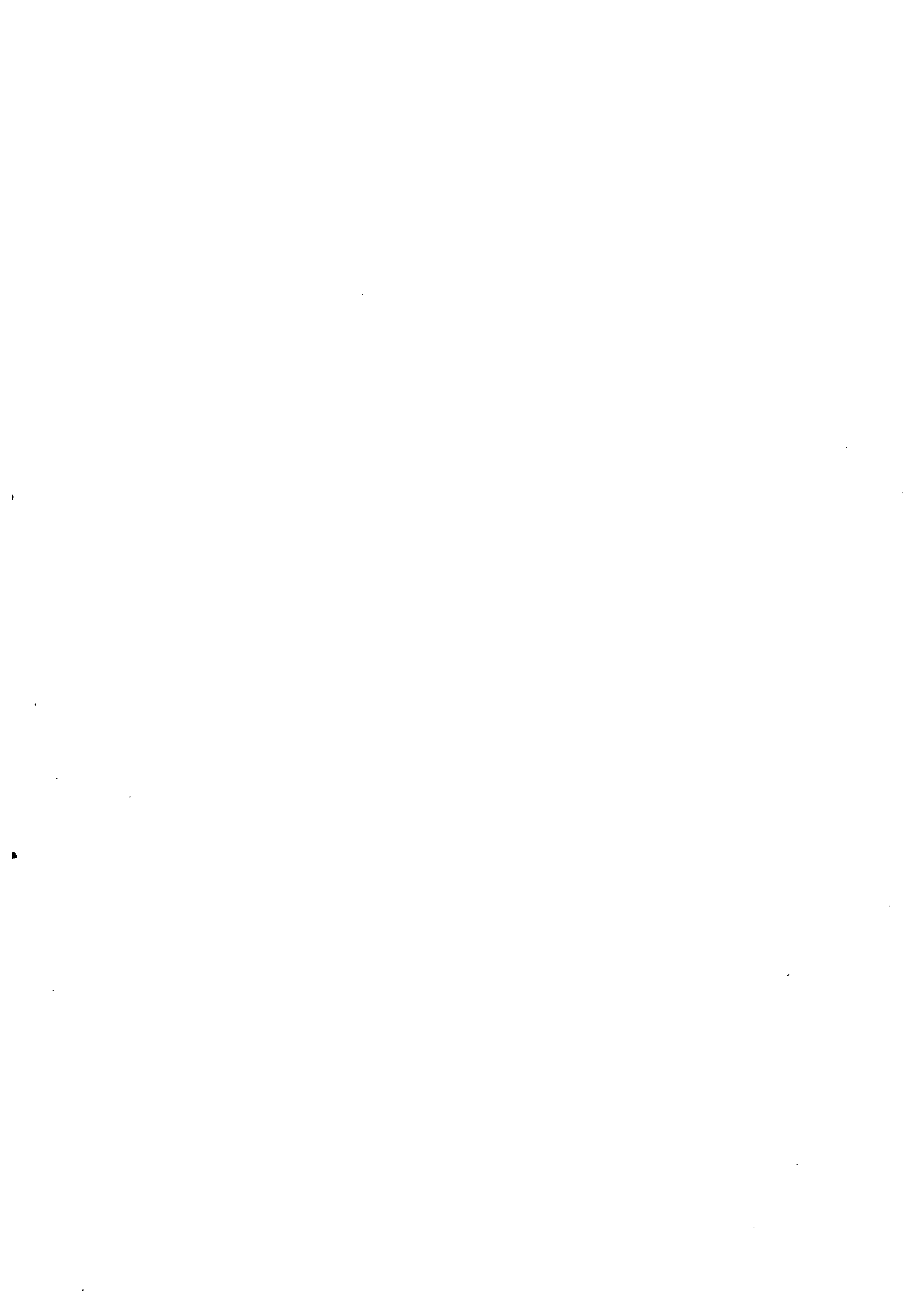
وقد نجح الرستميون في مقاومة ضغوط جيرانهم وظلوا محافظين على استقلالهم حتى سقطت تيهرت،مثل غيرها من الإمارات الصغيرة المجاورة (إمارات بني سليمان ابن عبد الله) في أواخر القرن الثالث الهجري.

كانت الدولة الرستمية التي تقوم مقام الحاجز بين الأغالبة في الشرق والأدارسة في الغرب، تمتد في الجنوب الشرقي حتى مداخل طرابلس الغرب، كما كان جبل نفوسة خاضعاً للرستميين عدة سنوات.

وكذلك كانت الطريق المهمة التي تمتد بين القيروان والقاهرة تحت سيطرة الرستميين، الأمر الذي كان يضايق الأغالبة ويرى فيه العبيديون، عندما استولوا على الحكم، خطراً مهدداً لمواصلاتهم مع الشرق الذي يطمحون إلى إخضاعه.

ونحن نذكر كمثال على مدى ما كان يمارسه الرستميون من السيطرة على طرق القوافل والمواصلات السياسية في المنطقة الشرقية، إنه حينما عزم إبراهيم بن الأغلب على السفر إلى الشرق في سنة 283 هـ؛ اضطر إلى طلب الإذن من سلطة جبل نفوسة بالتصريح له ولأصحابه بالمرور في طريق ضيق محاذٍ للبحر، ولكن الإباضيين رفضوا طلبه، وقد أدى ذلك الرفض إلى قيام حرب انهزمت فيهاسلطة جبل نفوسة، واعتبر ذلك نقطة تحول وبداية النهاية التي ستأتي بعد ذلك ببضع سنوات للدولة الرستمية.

وأما النقطة التي كانت ترتكز عليها الدولة الرستمية في اتجاه الجنوب، فهي توجرت التي تمثل ملجأً إستراتجياً ممتازاً للرستميين، ونحن نذكر انه عندما طاردت جيوش العبيديين آخر الائمة الرستميين، يعقوب،من تيهرت فرّ إلى هذه المنطقة حيث استقبله السكان بما يليق بمقامه من الحفاوة والتكريم.



الفصل الثاني

ادريس الأول بين وقعة فخ وبيعة أوليلي

بعد مقتل علي بن أبي طالب (ض) بايع أهل العراق ابنه الحسن، ولكن معاوية لم يترك له الوقت لتنظيم الخلافة، حيث زحف إليه على رأس أهل الشام، وقد رأى الحسن، حقناً لدماء المسلمين أن يتنازل عن الخلافة ويسلم إليه الأمر بشروط معروفة. وبذلك صفت الخلافة لمعاوية وتوارثها بنو أمية بعد مقاتلات ومنازعات من بني هاشم وغيرهم.

وأما موقف السواد الأعظم من المسلمين في هذه الأحداث، فهو يتلخص في أن بني هاشم أحق بالخلافة من بني أمية، لأن بني هاشم، إلى جانب كونهم من أهل العلم بالدين، هم من أهل البيت، وهم أحق بأن يخلفوا الرسول (ص) على شؤون المسلمين.

ولكنه بينما يرى أهل السنة في هذه الخصائص مجرد «مؤهل» لبني هاشم للخلافة على سبيل الأولوية، وليس على سبيل الوجوب، إذا بشيعة علي يوجبون الخلافة لبنيه دون سواهم، ويزعمون أنهم يستندون في ذلك إلى وصية من النبي، وهو أمر لم يثبت عند أهل السنة.

وهذه الازدواجية النظرية كانت توازيها ازدواجية في التطبيق. فبينما كان بنو أمية يتوارثون الحكم الفعلي، كان أبناء علي يولون على أنفسهم أصلحهم ويقومون بثورات على الحكم القائم بين الحين والحين، في الجزيرة وخارجها، ويطالبون بحقهم في الخلافة.

ولما رأى الطالبيون والعباسيون من بني هاشم ما آل إليه أمر الدولة

الأموية من الاضطراب وشاهدوا ميل الناس إليهم ومحبتهم لهم، قرروا القيام بالدعوة سراً، ثم اتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية، وهو شقيق إدريس الأول.

وقد اشتهر محمد بن عبد الله بخصال كثيرة من التقوى والفضل،بحيث كان في مقدمة سادات بني هاشم،ومن أجلّهم قدراً وأوفرهم علمًا وفضلاً، حسب تعبير الفخري.

ومما يسبغ على هذه البيعة التي تمت في جو من الإجماع والشرعية أنها وقعت في مجلس جمع أعيان بني هاشم، من العلويين والعباسيين وكان في مقدمة الحاضرين،إلى جانب النفس الزكية،من العلويين: الصادق جعفر ابن محمد، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وإبراهيم ابن عبد الله (قتيل باخمري)؛ ومن أعيان العباسيين: أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور. وقد تمت مراسيم البيعة بإجماع الحاضرين، باستثناء الإمام جعفر الصادق الذي كان يميل إلى بيعة المنصور[1].

وهذا الاختيار الذي جرى في جو من الحرية التامة وبإجماع أهل الرأي من قريش،هو الذي أقام به الحجة كل من الإمام مالك والإمام أبي حنيفة على بني العباس، وجعلهما يفتيان بأن إمامة النفس الزكية أصح من إمامة أبي جعفر المنصور، لانعقاد البيعة له أولاً. ونحن نعرف كيف نكب الإمامان وتعرض كل منهما لمحنة كبيرة لا يتسع هذا المكان لسردها، بسبب موقفهما الديني والسياسي الذي يتسم بالشجاعة، ويدل على مدى اعتزازهما بحرية الرأي والتضحية في سبيل العدل والحق.

---

(1) اعتمدنا رواية الفخري في الآداب السلطانية (ص 164-165)، والعبر (4/3) والسلاوي في الاستقصاء (1/133). راجع أيضاً الدرر البهية والجواهر النبوية (ص 3-4)، الكامل (5/201) الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية للسنوسي (ص 66) تاريخ الطبري (9/201) شذرات الذهب (1/213) الوافي بالوفيات (3//297) دول الإسلام للذهبي (1/73) جمهرة أنساب العرب (ص 40) روض القرطاس (ص 4)، مروج الذهب (6/189) هذا فيما يتعلق بالناحية التاريخية وبشخصية محمد النفس الزكية. وأما فيما يتصل بنظرية الإمام لدى الشيعة فيمكن للقارىء أن يستفيد من كتاب. أحمد صبحي، «نظرية الإمام لدى الشيعة الإثني عشرية» طبع دار المعارف.

ولما انقرضت دولة بني أمية وآل الأمر إلى أبي جعفر المنصور، سعى من سعى عنده ببني حسن وقيل له إن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) يروم الخروج،وإن دعاته ظهروا بخراسان فألقى المنصور القبض على عبد الله بن الحسن ومن والاه من أهل البيت فحبس جماعة كبيرة منهم ثم ساقهم من المدينة إلى العراق حيث أودعهم السجن في قصر ابن هبيرة، بظاهر الكوفة، وهناك هلكوا في محبسهم.

ولكن محمد بن عبد الله أفلت هو وأخوه إبراهيم من يد أبي جعفر المنصور وأعلن الثورة في المدينة (في سنة 145 هـ) وبعث أخاه إلى البصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس، وأرسل الحسن بن معاوية إلى مكة فملكها، كما بعث عاملاً له إلى اليمن.

وقد دعا محمد النفس الزكية لنفسه علانية وخطب على منبر الرسول (ص) وأخذ لقب الخليفة وتسمى بالمهدي وحبس عامل المنصور على المدينة وهو رباح بن عثمان المري[1].

ولما بلغت أخبار هذه الأحداث أبا جعفر أشفق من خركة العلويين وكتب إلى النفس الزكية كتاباً إستهله بالآية «فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً» الخ. الآية. ثم عرض عليه، إن رجع عن خطته،الأمان له ولأبنائه وأخوته ولمن تبعه،وأن يعطيه ألف ألف درهم وينزل من البلاد حيث يشاء ويقضي له من الحاجات ما شاء.

وأجابه النفس الزكية برسالة استهلها بالآية: «طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض» الخ. الآية، ثم عرض عليه الأمان بدوره... قائلاً: «فقد تعلم ان الحق حقنا، وانكم إنما أعطيتموه بنا ونهضتم فيه بسعينا وحزتموه بفضلنا وان أبانا علياً، عليه السلام كان الوصي والإمام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء»[2].

(1) العبر (3/4). ورواية العبر هي التي اعتمدها صاحب الاستقصا.

(2) نفس المصدر.

فرد عليه أبو جعفر، قائلاً: «إن قرابته إلى الرسول ترجع إلى ابنته (فاطمة) غير إنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف تورث الإمامة من قبلها».

ومضى أبو جعفر في صياغة حججه وقال إن أباه قد طالب بها (الخلافة) مرتين وأبى الناس إلا تقديم الشيخين. ثم أفضى الأمر إلى أبيك فسلمه إلى معاوية بخزف ودراهم، وإن جدك علياً، حكّم الحكمين وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به، فأجمعا على خلعه...[1].

وعندما انسدت طريق التفاوض والتفاهم، عقد أبو جعفر على حربه لابن عمه عيسى بن موسى فزحف إليه على رأس جيش وقاتله في المدينة وهزمه وقتله في منتصف شهر رمضان من السنة.

ولما رجع عيسى إلى المنصور جهزه على رأس جيش آخر لمقاتلة إبراهيم، أخي محمد فقالته وهزمه وقتله هو وأصحابه في آخر ذي القعدة.

ولكن مأساة آل البيت لم تنته بهذه المجازر، فإن أبناء محمد وإخوته تفرقوا في الأصقاع يدعون إلى امامته. فقد توجه علي بن محمد إلى مصر فقتل بها، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان. ولما طلب، هرب إلى السند فقتل هناك. وسار ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات في سجنه. وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ومضى أخوه يحيى إلى الديلم وهبط على الأمان في خلافة الرشيد ثم سمّ ومات[2].

وأما من بقي على قيد الحياة من اخوة النفس الزكية وأقاربه ومن بينهم إدريس بن عبد الله، فقد كانوا يعيشون في الخفاء وينتظرون أياماً أسعد طالعاً لأخذ الثأر.

وفي سنة 169، قام نزاع صغير من النوع الذي يعنى به رجل الشرطة في العادة، ولكنه نظراً للأحقاد المتراكمة وللاضطهاد الذي كان آل البيت

---

(1) نفس المصدر (6/3)، مروج الذهب (6/191 — 192).

(2) مروج الذهب (6/193)، البيان (1/310).

يتعرضون له من العباسيين، فإن الحادث كان بمثابة الشرارة التي اشتعلت منها نار الفتنة من جديد.

فإن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب،عامل الخليفة الهادي على المدينة، أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلي، وعمر بن سلام، على شراب لهم، فأمر فضربوا جميعاً وجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة للتشهير بفعلتهم. ولما بلغ الخبر الحسين بن علي بن الحسن، جاء إلى العامل وقال له: «ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم،لأن أهل العراق لا يرون بأساً (في النبيذ)، فلِمَ تطوف بهم؟» وإِثْر ذلك أمر العامل بإعادتهم إلى السجن ثم كفل الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله، الحسنَ بن محمد فأخرجه العمري من السجن. وكذلك ضمن بعض آل علي بن أبي طالب بعض المسجونين وأخرجوا، فكان الجميع يعرضون على العامل. ولما غاب الحسن بن محمد عن العرض يومين (وفي رواية الطبري ثلاثة أيام) أحضر العمري الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله وأنبَّهما وأغلظ لهما في القول، فحلف له يحيى انه لا ينام حتى يأتي به.

فلما خرجا، قال له الحسين: «سبحان الله» ما دعاك إلى هذا؟ وأين تجد حسناً؟ حلفت له بشيء لا تقدر عليه. فقال له: «والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف».

فقال له الحسين: «إن هذا ينقض ما بيننا وبين أصحابنا من الميعاد...»[1].

وبعبارة أخرى فإن العلويين قد رأوا ان الوقت الملائم قد حان للقيام بالثورة، وان هذا الحادث يمكن اتخاذه ذريعة وسبباً موجباً للحرب التي تواعدوا على إعلانها بمنًى أو بمكة في موسم الحج المقبل.

ولما كان آخر الليل اقتحم العلويون، وفي مقدمتهم الحسين، المسجد

---

(1) قارن الكامل 190/6 — 191)، الطبري (35/5)

حتى إذا أذّن المؤذن جلس على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة رسول الله للمرتضى من آل محمد.

ولما أقبل خالد البريدي[1] وهو يومئذٍ قائد على رأس مائتين من الجند، وجاء العمري، العامل، ووزير بن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشروي، فدنا خالد منهم، فقام إليه يحيى وإدريس إبنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى بسيفه على أنفه فقطعها وشرقت عيناه بالدم فلم يبصر فبرك وجعل يذب على نفسه بسيفه وهو لا يبصر، واستدار إدريس بن عبد الله من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه، فانهزم أصحابه وحمل عليهم أصحاب الحسين، ثم انتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشرة ألف دينار[2].

فلما كان الغد، اجتمع عليهم شيعة بني العباس ووقع قتال بين الطرفين استمر حتى الظهر ثم تفرقوا. وفي الغد، استؤنف القتال واستمر حتى المغرب.

وبعد هذه المعارك المحلية، انتقل مسرح الحرب إلى مكة حيث بدأ الحسين المعركة بحملة للدعاية أعلن فيها ان كل عبد ينضم إلى صفوفه فهو حر، وبذلك ضمن لنفسه تأييداً مهمًا في هذه الطبقة التي وجدت فرصة للخلاص.

ولما انتهى خبر هذه الثورة إلى الهادي الذي كان قد حج بعض رجال دولته في تلك السنة،كتب إلى محمد ابن سليمان بن علي بتوليته الحرب. ولدى وصوله إلى مكة عسكر بذي طوى وانضم إليه من حج من شيعة العباسيين وقوادهم ومواليهم.

وفي يوم التروية دخل العلويون والعباسيون في معركة في مكان يسمى فخ[3] يبعد على مكة بثلاثة أميال، انتهت بهزيمة جيش الحسين. وقد قتل

---

(1) كذا في الكامل. وفي الطبري خالد البربري.

(2) كذا في رواية الطبري وابن الأثير ويضيف كلا المؤرخين: وقيل سبعون ألفاً.

(3) وردت هذه الكلمة في عدة كتب محرفة بشكل «فج» وفي العبر محرفة إلى فجة. وقد اختلط الأمر على أبي الفدا فأوردها بشكل «وج» واستشهد بقول الشاعر:

الحسين وجماعة من أصحابه يبلغ عددهم نحو مائة في هذه المعركة، وحزت رأسه وأخذها إلى الخليفة الهادي، كما أسرت أخته[1].

وقد رثى عيسى بن عبد الله بن الحسين ضحايا معركة فخ من العلويين في أبيات مشهورة منها قوله:

فلأبكين على الحسين	بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي	واروه ليس بذي كفن
تركوا بفخ غدوة	في غير منزلة الوطن

* * *

تدل الملاحظات القليلة التي تركها بعض المؤرخين العرب الذين اهتموا بإدريس بن عبد الله على ان إدريس كان يتصف بالشجاعة والجرأة وبغير ذلك من خصال الرجولة والشهامة. وهذه الصفات ضرورية ولا بد وأن يكتسبها رجل عاش أحداثاً خطيرة وشاهد ثورتين فاشلتين، قام بالأولى أخوه وبالثانية عمه، لاسترجاع حقوق آل البيت المغتصبة ولتحريرهم مما كانوا يتعرضون له من الاغتيال والاضطهاد.

تضوع مسكا بطن نعمان إن مشت	به زينب في نسوة خفرات
مررن بوج ثم قمن عشية	يلبين للرحمن معتمرات

(المختصر في أخبار البشر ـ 11/2)، والحقيقة إن وج هو الطائف (وقيل هو وادي الطائف). راجع كلمة «وج» في معجم ما استعجم للبكري (1369/2) وكلمة «الطائف» (887/2). وفخ واد بمكة هو الذي ذكره بلال بقوله:

الا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً	بفخٍّ وعندي إذخرٌ وجليل

راجع كلمة «فخ» في لسان العرب (1059/2 — 1060) (وكذلك معجم البلدان (237/4).

(1) راجع عن موقعة فخ التي تعتبر آخر محاولة جدّية من الطالبيين لاسترجاع الخلافة إلى آل البيت في الطبري (27/5 — 29)، الكامل (90/6 — 93) الدرر البهية الذي اختلط الأمر على صاحبه وقال إن معركة فخ وقعت في عهد الرشيد (ص 4) المختصر في أخبار البشر (11/2) روض القرطاس (ط. حجر بدون أرقام) العبر (205/3) سلوة الأنفاس (ص 70)، الاستبصار (ص 194) زهرة الآس (ص 9) الاستقصا (66/1)، الحلة السيراء (50/1 — 51) البيان (83/1)، مختصر كتاب البلدان للهمذاني (ص 81)، شذرات الذهب (339/1).

ولكن ماذا كان دور إدريس في هذه المعارك؟ لا نعرف شيئاً على وجه التحديد، إذ استثنينا تلك الضربة التي سددها إلى خالد البريدي (أو البربري)، وهي حركة تدلنا على كل حال، على ان الرجل لم يكن ليرضى بالقيام بدور المتفرج في العمليات. وفيما عدا ذلك فإن تعداد الرؤوس التي سقطت عن أكتاف كبار رجال أهل البيت في فخ، قد ألهى المراقبين والمؤرخين عن تتبع أخبار الأحياء الذين نجوا من سيوف بني العباس، ولاسيما وان هؤلاء قد اختلطوا بالحجاج متنكرين وكل همهم الا يتركوا أثراً وراءهم ليقتفيه أعداؤهم.

ومهما يكن من أمر، فقد أفلت إدريس بن عبد الله من وقعة فخ واتجه إلى مصر، عن طريق البحر الأحمر، فيما يرجح، ووصل إلى الفسطاط التي كان والياً عليها علي بن سليمان الهاشمي[1] وكان على بريدها «واضح»، مولى صالح ابن أمير المؤمنين المنصور[2].

وصل إدريس بن عبد الله إلى مصر مستتراً في رفقة مولى له اسمه راشد تقول الرواية إنه أخو إدريس في الرضاعة، وإنه بربري سبي في غزوة موسى ابن نصير، وإنه كان شجاعاً عاقلاً وفياً لمولاه. وبينما كان الاثنان يسيران في شوارع المدينة ويتجولان بطرقها إذ مرّا بدار حسنة البناء والهيئة فوقفا ينظران إليها ويتأملان في إعجاب هندستها وحسن بنائها، وإذا بصاحب الدار يخرج ويسلم عليهما. وبعدما ردا عليه السلام، سألهما ما الذي ينظران من هذه الدار؟

---

(1) هو علي بن سليمان بن عبد الله بن عباس الهاشمي. ولاه الخليفة الهادي على مصر في سنة 169 هـ. وحسنت سيرته. ولما مات الهادي وولي هارون الرشيد أقره على الإمارة. ولكن علي بن سليمان كان يطمح إلى الخلافة. وفاتح بعض المقربين إليه، في ذلك. فعزله الرشيد في سنة 171 هـ.، وولاه منصباً في الجيش لدى عودته إلى العراق حيث مات في سنة 178 هـ.، راجع سيرته في الـولاة والقضاة (ص 131) النجوم الزاهرة (61/2) بغية الوعاة (ص 338)، وفيات الأعيان (326/2)، إنباه الرواة (276/2).

(2) يصف الطبري «واضحاً» بأنه رافضي خبيث. وهو عند الهمذاني وابن الأبار أيضاً رافضي المذهب. ولكن ابن الأثير ينعته بأنه متشيع لعلي، وهو الوصف الذي يطلقه عليه صاحب الاستقصا.

فأجابه راشد قائلاً: «يا سيدي إنه اعجبنا حسن بنائها وإحكام إتقانها وشكلها».

فقال صاحب الدار أظنكما غريبين عن هذه البلاد؟ قال راشد: «جعلت فداك إن الأمر كما ذكرت» قال: «فمن أي الأقاليم أنتما؟» قالا: «من الحجاز». قال: «من أي بلاد؟» قالا: «من مكة». قال: «وأخالكما من شيعة الحسين الفارين من وقعه الفخ». فأرادا أن ينكرا حالهما ويخفيا عليه أمرهما، ولكنهما توسما فيه الخير والفضل فقال له راشد: «يا سيدي أرى لك صورة حسنة وقد وسمت فيك الخير ولكن أرأيت ان أخبرناك من نحن، أكنت تستر علينا؟».

قال نعم.

وإثر ذلك أخبره راشد بخبرهما قائلاً: هذا إدريس ابن عبد الله وأنا مولاه راشد، فررت به خوفاً عليه من القتل، فأقصد إلى بلاد المغرب.

فقال لهما الرجل: «لتطمئن نفوسكما وتسكن روعتكما فإني من شيعة أهل البيت ومواليهم، فلا تخافا ولا تحزنا فأنتما من الأمنين، ثم أدخلهما إلى منزله فأقاما عنده مدة في إكرام ونعيم»[1].

ولكن أمر إدريس بن عبدالله افتضح فيما يبدو، وذلك على الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الرجل المحسن الذي استضافه. فإن علي بن سليمان، عامل مصر، قد تلقى خبرهما فبعث إلى الرجل من يقول له إنه رفع إليه خبر الرجلين اللذين هما عنده في منزله وان أمير المؤمنين قد كتب إليه في أمر الحسنيين والبحث على من وجد منهم، وإنه قد بث عيونه على الطرق وجعل الارصاد في أطراف البلاد فلا يمر بهم أحد من الناس حتى يعرف ويعلم نسبه[2].

وهنا نتوقف لنطرح سؤالاً أو سؤالين: أولاً ما مدى صحة هذه القصة

---

(1) رواية روض القرطاس.

(2) نفس المصدر.

التي يوردها صاحب روض القرطاس ولا نجدها في المصادر القديمة مثل الطبري وابن الأثير، ولو ان البكري يوردها في صيغة مختلفة نوعاً ما.

ليس من شك في أن يد التنميق والتنسيق دخلت عليها ولا نسـ ن تكون عناصر الحوار فيها من آثار هذا التنميق، ولكن القصة في جوهرها محتملة.

والسؤال الثاني، يتصل بشخصية الرجل المحسن الذي لا تذكره الرواية باسمه، ولكن كل شيء يدل على انه ليس بشخص آخر، غير واضح، صاحب البريد الذي قدم إلى الهاربين يد المساعدة.

والسؤال الأخير يتعلق بعلي بن سليمان عامل مصر. أتراه قد اقتصر، كما يقول صاحب روض القرطاس،على إرسال رسول إلى الرجل المحسن،أو واضح ، ليفهمه دقة موقفه وليحثه على التخلص من ضيفيه غير المرغوب فيهما؛ أم إنه قام بخطوة أخرى واجتمع بإدريس بن عبد الله،كما يؤكد ذلك صاحب الولاة والقضاة؟ فإن أبا عمر الكندي يقول نقلاً عن يحيى بن عثمان بن صالح[1] :

قدم إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن إلى مصر وعلي ابن سليمان عليها، فعلم بمكانه ولقيه سراً وسأله بالله والرحم ألَّا ستر عليه، فإنه خارج إلى المغرب. وأظهر له علي بن سليمان انه تصلح له الخلافة وطمع فيها فسخط عليه هارون الرشيد فعزله عنها يوم الجمعة لأربع بقين من ربيع الأول سنة 171 هـ.

وهذه الرواية إن صحت تلقي ضوءاً خاصاً على الموقف. فإن إدريس ابن عبد الله لم يكن في مصر ذلك الهارب الذي كان في الجزيرة، وإنما هو أصبح قطعة مهمة في رقعة الشطرنج السياسية. «فواضحُ» الشيعي (أو الرافضي) ليس هو الوحيد الذي يهتم بأمره وبالعمل على خروجه سالماً إلى المغرب، بل إن العامل نفسه، وهو هاشمي، من أسرة الخليفة، يقابله

---

(1) الولاة والقضاة (ص 131 — 132).

ويتحدث معه في شؤون سياسية في غاية الخطورة ويصارحه بمطمحه الأكبر، الا وهو الجلوس على كرسي الخلافة، وكأنه يقول لإدريس الهارب لا تبتئس فإن الوضع سيتغير، وحينئذٍ سيستعيد أهل البيت مكانتهم واطمئنانهم. وعلى كل حال فإن الأمر قد افتضح لأن الرشيد الذي أمر بضرب عنق واضح قد عزل علي بن سليمان كما رأينا.

والمهم ان واضحاً (أو الرجل المحسن) قد صنع لإدريس ورفيقه زادا عندما عزما على السفر وقال لهما إن لأمير مصر عيوناً لا يجوز أحد إلا فتشوه، وها هنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس فأنا أحمل هذا الفتى معي يعني إدريس في هذه الطريق الغامضة البعيدة فألقاك به في موضع كذا، وهناك تنقطع عيون مصر.

فركب راشد في أحد شقي الحمل ووضع متاعه في الشق الآخر ومضى مع الناس في القافلة، بينما خرج الرجل-الذي لا يذكر البكري اسمه، ولكنه يصفه بأنه من موالي بني العباس وهو وصف ينطبق على واضح-وقد ركب على فرس له، وحمل إدريس على فرس أخرى، فمضى به في الطريق الغامضة، وهي مسيره أيام حتى تقدم الرفقة وأقاما ينتظران القافلة حتى وردت فركب إدريس مع راشد حتى إذا قربا من افريقية، تركا دخولها وسارا في بلاد البربر[1].

وفي رواية صاحب روض القرطاس التي اعتمدها ابن القاضي (الذي ينقل عنه وعن زهرة الآس كثيراً) ان إدريس نزل بمدينة برقة فقعد بها، هو ومرافقه، حتى لحقت بهما قافلة راشد ثم سار الاثنان يغذّان السير حتى وصلا إلى افريقية ودخلا القيروان، فأقاما بها مدة، ثم خرجا وسارا في اتجاه المغرب الأقصى حتى دخلا تلمسان واستراحا بها أياماً ثم ارتحلا عنها يريدان طنجة[2].

واختلاف الرواية بشأن ما إذا كان إدريس بن عبد الله قد مر بالقيروان وأقام بها أم انه سلك طريق الجريد والزاب ومر جنوب تيهرت ليحل

---

(1) البكري، كتاب المغرب (ص 119).

(2) روض القرطاس لابن أبي زرع وجذوة الاقتباس لابن القاضي (ص 7).

بتلمسان، اختلاف ليس له أهمية،حيث إن إقامته في عاصمة افريقية، إن صحت،ليس من شأنها ان تقدم شيئاً أو تؤخر في مشروعاته، لأن افريقية لاتزال، على الأقل إسمياً، تابعة للعباسيين،بينما يمثل المغرب الأقصى الفراغ المثالي الذي قد يطمح إدريس لملئه. وكلا الطريقين محتمل نظرياً: فإذا كان طريق الجنوب أقرب، فإن طريق القيروان عبر المغرب الأوسط، حيث كانت سلطة العباسيين متضعضعة، يمثل فرصة ثمينة للدعاية ولخلق الاتصالات الشخصية المفيدة. ونظراً لأنه لا توجد لدينا شهادة على إقامته أو مروره بإحدى مدن المغرب الأوسط،قبل تلمسان، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنه قد سلك طريق الجنوب.

ومهما يكن من أمر، فقد واصل إدريس رحلته من تلمسان وعبر نهر ملوية ودخل بلاد السوس الأدنى[1] وسار حتى نزل بمدينة طنجة[2] التي كانت يومئذٍ قاعدة بلاد المغرب الأقصى وأم مدنه.

ولما وصل هو ورفيقه راشد إلى طنجة أقاما هناك أياماً، فلم يجد مراده فيها، ورجع أدراجه إلى أوليلي[3].

---

(1) حد بلاد السوس الأدنى، من وادي ملوية إلى وادي أم ربيع.

(2) هي مدينة تنجيس Tingis القديمة والتي تقع على مضيق جبل طارق على مسافة ١٠ كيلو مترات من رأس شبرتال Spartel وتشرف على جون عظيم ينتهي إلى الشرق برأس المنار وإلى الغرب عند القصبة. كان الفنيقيون أول من أنشأ مستعمرة طنجة التي استقر فيها اليونان ثم الرومان بعدهم. وقد أعلنت روما في عهد بوكوس Bokkus الثالث (حوالي سنة 38 م ، طنجة جمهورية مستقلة حرة. وفي بداية العهد الإسلامي لعبت طنجة دوراً هاماً خصوصاً بوصفها هي وسبتة قاعدة لانطلاق الفتح الإسلامي للأندلس كما كانت منطلقاً للشرارة الأولى لثورة الخوارج الصفرية. وبعد حلول إدريس بن عبد الله بأوليلي ثم قيام دولة إدريس الثاني في فاس، فقدت طنجة مكانة المدينة الأولى للمغرب الأقصى. راجع وصف الجغرافيين العرب لمدينة طنجة في كتابي «المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي» وخصوصاً الإدريسي (ص 168 — 469) وابن حوقل (ص 80)، والبكري (ص 108 — 109)، وكذلك رسالة مدعمة بالخرائط والوثائق تشكل الجزء السابع من مجموعة الوثائق التي نشرت بالفرنسية تحت عنوان (Documénts: Villes et tribues du Maroc (Paris, 1921).

كانت طنجة موضوعاً لوصف عدد من الرحالة الانجليز في القرن التاسع عشر يمكن مراجعة ببليوغرافيا بلا يفير بشأنهم Playfair, Bibliography of Morocco.

(3) راجع عن مسيرة إدريس بن عبدالله من فخ إلى أوليلي غير ما تقدم تاريخ الطبري (مجلد =

كانت أوليلي مدينة متوسطة بين مدن ذلك العصر[1] ولكنها تمتاز بخصب أرضها وبمياهها الغزيرة وبغابات الزيتون التي تحيط بها. وإلى جانب موقعها الحصين عند جبل زهون، كان يحيط بالمدينة سور من بناء الرومان كان متهدماً جزئياً. وهذه الميزات الطبيعية التي تتوفر في أوليلي وحدها كانت كافية لإغراء إدريس بن عبد الله بالنزول فيها لدى وصوله إلى المغرب الأقصى في ربيع الأول سنة 172 هـ (أغسطس 787 م)[2]، ولكن إدريس وجد في أوليلي زيادة على ذلك، حرارة الاستقبال والتأييد المادي والمعنوي لدى قبيلة أوربة[3] وعلى

= 5/28 — 29) البيان (1/83) الكامل(6/93) الدرر البهية (ص 4) البلدان للهمذاني (ص 81) السلاوي (1/138) العبر (4/7) المختصر لأبي الفدا (2/11) الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب إدريس، للحلبي (ط. حجر لا تحمل أرقاما) أعمال الاعلام لابن الخطيب (ص 1900).

(1) وليلي هو الشكل الشائع بين المؤرخين والجغرافيين العرب، ولكنها قد تكتب أيضاً وليلة، وهو الرسم الذي تحمله المدينة في النقود الإدريسية التي ضربت فيها. وفيما يتعلق بموقعها فإن المرجح أن يكون هو نفس موقع مولاي أدريس الحالي، حيث توجد عين تحمل اسم عين وليلي. على أن العلاقة بين وليلي الإدريسية ووليلي الرومانية التي يذكرها الحسن بن محمد الوزان في القرن السادس عشر باسم Walili Gualili، على الرغم من تقارب موقعها واسمها، لا تزال محاطة بالغموض. ووليلي تحمل الآن اسم قصر فرعون. راجع وصفاً مختصراً لوليلي في معجم البلدان (5/384)، روض القرطاس (ط. حجرية) ، زهرة الآس (ص 9)، جذوة المقتبس (ص 80)، وكذلك:

Gautier (F): Le Passé de L'Afrique du Nord (p 289 — 90).

Fournel, Etude sur La Conquête de L'Afrique du Nord (p. 132).

(2) هذا هو التاريخ الذي يقدمه روض القرطاس وزهرة الآس وجذوة المقتبس والبكري وسلوة الأنفاس والعبر والاستقصا والدرر البهية. وقد انفرد البيان بالقول بأن إدريس حل بالمغرب في سنة 170 هـ. واستوطن وليلي في سنة 172 هـ، وأما الطبري وابن الأثير، فإنهما لم يذكرا تاريخ حلول إدريس بالمغرب ولا تاريخ نزوله بوليلي. وأما اليعقوبي، فقد وقع في كثير من الخلط والاضطراب عند ذكره لهذه الأحداث (2/405).

(3) كانت أوربة تسكن جبال أوراس حتى هزيمة جيوش كسيلة حين شرع العرب في مطاردتها في اتجاه الغرب. والمرجح أن يكون القسم الذي أسلم وخضع لسلطان المسلمين قد بقي في المغرب الأوسط، وأما العناصر التي ترددت أو ارتدت، فقد اتجهت إلى المغرب الأقصى تاركة وراءها فروعاً لها في الزاب وفي جبال الونشريس. وأيًا ما كان الأمر، فقد كانت أراضي أوربة المغرب التي آوت إدريس ابن عبد الله تمتد في تلك الآونة في شمال تازا. ولكن رقعة أراضي القبيلة اتسعت في القرن الرابع الهجري بفضل تحالفها مع الأدارسة في الاتجاه الشرقي بحيث كانت تتاخم إمارة نكور، فيما يقول أبو عبيد البكري.

رأسها أميرها إسحاق عبد الحميد الأوربي[1] الذي كان يعتنق مذهب المعتزلة.

ولّما عرفه إدريس بنفسه، أنزله معه في داره فتولى خدمته والقيام بشؤونه بنفسه عدة أشهر، حتى حل شهر رمضان من السنة، فجمع اخوته وزعماء قبيلة أوربـة. فعرّفهم بنسب إدريس وبفضله وقـرابته من النبي (صلعم) وبشرفه وعمله ودينه وكمال خلاله، فرحبوا به وأعربوا عن تقديرهم قائلين: «إنه سيدنا ونحن عبيده، فما يريده منا؟» قال: «تبايعونه».

قالوا: «سمعاً وطاعة! ما منا من يتوقف عن بيعته». فبايعوه بمدينة أوليلي في يوم الجمعة 14 من شهر رمضان، 172 هـ[2].

وبعد ذلك خلع عبد الحميد الأوربي طاعة بني العباس، حيث كان من ولاتهم، كما يقول الحلبي، وتنازل له عن الملك.

ثم أتته قبائل زناتة وغيرها من قبائل البربر وفي مقدمتها زواغة ولماية ولواتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة، فبايعوه على السمع والطاعة واعترفوا بسلطانه،كما وفدت عليه الوفود وقصده الناس من مختلف المناطق.

ولما استوثق له الأمر واشتدت شوكته زحف على القبائل التي لم تعترف بسلطانه وعلى الأقليات الباقية في البلد من اليهود والنصارى والمجوس[3] مثل قندلاوة وبهلوانة ومديونة مازاز ثم فتح تمسنا[3] وشالة وتادلة[5]، وكان أكثر

(1) رواية الأغلبية وفي رواية عبد المجيد.

(2) جذوة الاقتباس (ص 8).

(3) إن وجود جماعات من بقايا اليهود والنصارى في المغرب في بداية عهد الادارسة شيء طبيعي، إذا اعتبرنا ان كنائس وأسقفيات ظلت تمارس طقوسها في المغرب حتى القرن الخـامس الهـجري. ولكن تواتر الرواية بأن إدريس قد عمل لإخضاع المجوس أيضاً، شيء يثير الاستغراب. فهل كان هؤلاء من عباد النار من إتباع الزرادشتية؟ شيء نشك فيه كثيراً. والفرض الآخر هو أن تكون هذه الفئة،بكل بساطة،من الوثنيين الذين لا يـدينون بالإسلام ولا بالنصرانية ولا باليهودية. وعلى كل فإن المصادر التي بين أيدينا لا تسمح لنا باستخلاص فكرة عن هذه الطائفة.

(4) تقع في ساحل برغواطة وتامسنا قبائل شتى منهم برغواطة ومطماطة ونبو تسلت وبنو ويغمران وزقارة وبعض زناتة،وهذه القبائل اشتهرت بالفروسية. راجع تفاصيل عنها في الإدريسي (ص 70 — 71) وكذلك البكري (ص187).

(5) وصف الإدريسي تادلة التي تقع في شرق أغمات بأنها تنتج كثيراً من القطن الذي يسافر به =

سكان هذه المناطق من اليهود والنصارى، فأسلموا على يده وهدم حصونهم ومعاقلهم، ثم عاد إلى أوليلي في جمادى الثانية سنة 173 فأقام بها بقية الشهر والنصف من رجب ليتيح وقتاً لجيشه للاستراحة ثم خرج لاتمام غزو المغرب[1] ولاسيما المناطق الجبلية التي استعصت عليه، وأمعن في القتل والسبي بينهم.

ثم اتجه إلى الشرق برسم غزو تلمسان وما جاورها من قبائل مغراوة[2]. ولما وصل إليها ضرب مخيمات جيشه قريباً منها،وخرج إليه محمد بن خزر بن صولان المغراوي فطلب منه الأمان، فأمنه إدريس الأول وبايعه محمد ابن خزر وجميع وجوه تلمسان وقبيلة مغراوة التي كانت قد قضت في سنة 170 على الدويلة التي أنشأتها قبيلة بني يفرن من الخوارج بزعامة أبي قرة.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن في سياق هذا الفتح السهل مع ما عرف عن مغراوة،قبل إدريس وبعده،من الشوكة وكثرة العدد، هو ماذا كانت تتوقع هذه القبيلة أن تجنيه من إعلان خضوعها لإدريس الأول؟ ونحن نحاول تفسير هذا التطور السياسي الخطير الشأن بالاعتبارات التالية:

1: إن وصول أحد أحفاد علي بن أبي طالب (ض) إلى المغرب ليس بحادث هين، ولا بد أن تكون زناتة قد رأت فيه فرصة تاريخية لتوفر لنفسها إطاراً شرعياً لقوتها العسكرية، في الوقت الذي تتخذ فيه من أوربة حليفاً قوياً ضد تهديد العباسيين من الشرق ومحاولاتهم المتكررة لبسط نفوذهم على المغرب الأوسط.

= إلى كل الجهات ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب ولا يحتاجون مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار. راجع تفاصيل أخرى في بالمغرب وأرض السودان (ص 74 — 75) وفي معجم البلدان (5/2 — 6). وتادلة الحالية تقع على مسافة 200 كيلومتر من الدار البيضاء في مكان يبلغ ارتفاعه 500 متر على مستوى البحر على الضفة اليمنى لوادي أم ربيع. وقد أقيمت فيها قصبة في عهد المولى إسماعيل.

(1) اعتمدنا روايةالعبر وروض القرطاس. والرواية الأخيرة تشتمل على بعض التفاصيل. وأما رواية زهرة الآس فهي منقولة عن القرطاس بدون أية إضافة.

(2) تقوم تلمسان في مكان المدينة الرومانية القديمة بوماريا Pomaria القديمة وقد استولى عليها ادريس الأول في سنة 174 هـ (790 م) راجع بشأن العلاقة بين المدينتين Marçais (G and W): Les monuments arabes de Telemcen. وفيما يتعلق بوصف الرحالة والجغرافيين =

2: بعد الغزوات الناجحة التي قام بها إدريس الأول في المغرب في الجنوب والشمال، أصبح من الواضح ان سلطان إدريس قد استقر وإن نفوذه سيتجه الآن إلى الشرق ليواجه الرستميين وبني العباس (وكلا النظامين كان يحتك باستمرار بزناتة) ومن ثم، فإن من مصلحة هذه القبيلة أن تتحالف مع القوة الجديدة، ولو كلفها ذلك شيئاً من حرية الرحل التي كانت دائماً تغار عليها.

وبعدما عين محمد بن خزر والياً على المدينة وأمر ببناء مسجدها وبصنع منبر له نقش عليه اسمه، بخط قال ابن خلدون «إنه لايزال في صفح المنبر لهذا العهد»، قفل راجعاً إلى أوليلي في شهر صفر سنة 174 هـ[1].

* * *

ظل هارون الرشيد متغاضياً عن قيام دولـــة إدريس الأول طالما كان نفوذه منحصراً في قبائل المغرب الأقصى وهي منطقة لم يكن من خططه، على كل حال، ضمها إلى امبراطوريته. ولكنه لما رأى سلطانه يمتد في الاتجاه الشرقي، اشتد خوفه وقلقه، فيما تقول الرواية، وأخذ يفكر في اتخاذ إجراء عاجل للقضاء عليه أو لوقفه عند حد. وكذلك بعث في طلب وزيره وكبير مستشاريه يحيى البرمكي، وبحث معه الأمر قائلاً إنه لا يمكن الاستهانة بأمر إدريس. فهو من ولد علي وإن سلطانه امتد شرقاً حتى فتح تلمسان، وهي

= العرب لتلمسان في مختلف عهودها الإسلامية، يمكن مراجعة الفصل الذي خصص لها في كتابي، «المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي»، وكذلك يمكن الاستفادة من أعمال الباحثين المحدثين Audollent, sur un groupe d'inscriptions de Pomaria en Mauratinie Cesarienne, (mélange, Bossit pub. de l'Ecole Fr de Roma, 1892, l'Abbé Bargès histoire des B. Zayan, Rois de telemcen, Paris 1850 ولنفس المؤلف Mémoire sur les relations commerciales de Telemcen avec le Sudan Paris 1887, Brosslard les inscriptions arabes de Telemcen (R. A 1858 — 1861) والبستان في ذكر العلماء والأولياء بتلسمان، لابن مريم، طبع وتحقيق بن شنب.

(1) قارن العبر (12/4) جذوة المقتبس (ص 90) التنسى بيان شرف بني زيان (مخطوط ورقة 117) روض القرطاس وفي رواية صاحب الدر النفيس إنه نقشت على المنبر العبارة التالية باسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب (ض) وذلك في شهر صفر سنة 174 هـ. وآثار المسجد الذي بناه إدريس الأول لا تزال موجودة، ولو أن المسجد أعيد بناؤه خلال الحرب العالمية الثانية.

باب افريقية. ثم أضاف قائلاً ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار.

ومضى الرشيد فشرح لوزيره أنه عزم على أن يبعث جيشاً عظيًما لقتال إدريس ولكن بعد المسافات التي تفصل بين المشرق والمغرب، جعله يدرك أنه لا طاقة لجيوش العراق بالوصول إلى السوس الأدنى والسوس الأقصى من أرض المغرب، وانه لهذا السبب تخلى عن هذه الفكرة. ولذلك فهو يطلب إليه رأيه ونصيحته.

فأجابه البرمكي بما عرف به من الحصافة والدهاء قائلاً: «إن الرأي هو أن يبعث أمير المؤمنين برجل ذي حزم ومكر ولسان وإقدام وجرأة ليقتله ويستريح الخليفة منه»[1].

قبل الرشيد نصيحة وزيـره وأصبحت المسألـة الآن، مسألـة اختيار الشخص الملائم الذي يمكنه أن يقوم بتنفيذ العملية بنجاح.

وهنا أيضاً، قدم إليه البرمكي حلاً جاهزاً، قائلاً إنه يوجد في جيشه رجل اسمه سليمان بن جرير[2] من أهل الحزم والإقدام والفتك والشجاعة، وذلك بالإضافة إلى كونه درب اللسان عالماً بأساليب الحوار والجدل، ونصح الخليفة بأن يوكل إليه مهمة تخليصه من إدريس الأول.

وعندما اجتمع البرمكي بسليمان بن جرير وشرح له المهمة السرية التي يريد الخليفة أن يكلفه بها، أغراه برفع منزلته ووعده بالمكانة التي تنتظره عند أمير المؤمنين، ثم أعطاه أموالاً جليلة وتحفاً وجهزه بما يحتاج إليـه، وخرج سليمان بن جرير من بغداد في رفقة رجل يثق به الوزير متجهاً إلى المغرب الأقصى.

ويضيف الهمذاني صاحب كتاب البلدان والطبري وابن خلدون إلى ما

(1) الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية (ص 67).

(2) تذكره بعض الروايات باسم الشماخ اليمامي أو اليمني مولى المهدي. وهو يحمل كلا الاسمين في بعض الروايات.

تقدم أن الرشيد بعث مع الشماخ بكتاب إلى ابن الأغلب، عامله على أفريقية، فخرج وسار حتى وصل إلى أوليلي الخ[1]. ولكن هذه الرواية لا تستقيم من الناحية التاريخية، لأن إبراهيم ابن الأغلب لم يتول إمارة افريقية إلا في سنة 184 هـ.، وهي لا تستقيم حتى ولو فرضنا ان كلمة «ابن» زائدة بحيث يكون الرشيد قد كتب رسالته إلى الأغلب، لأن ولاية الأغلب كانت، كما رأينا، خلال الفترة بين 148 - 150 هـ. وهي لا تستقيم كذلك لو فرضنا أن الرسالة وجهت إلى إبراهيم الذي كان عاملاً على الزاب قبل أن يتولى إمارة افريقية. وذلك لأن إبراهيم كان يشغل ذلك المنصب في ولاية ابن العكي (محمد بن مقاتل) وهو إنما ولي على القيروان في سنة 181 هـ أي بعد اغتيال إدريس الأول بنحو أربع سنوات[2].

ومهما يكن من أمر، فقد وصل ابن جرير إلى أوليلي عقب عودة إدريس من تلمسان بوقت لا نستطيع تحديده، وأدخل على إدريس الأول الذي رحّب به وسأله عن سبب مقدمه، فأجابه بما ملخصه انه اضطر إلى الفرار من بني العباس الذين يطلبونه لمذهبه في التشيُّع ولمحبته لأهل البيت، وانه قد التجأ إليه ليأمن على حياته وعلى مذهبه.

وبهذه الخلفية، وبما كشف عنه الرجل من براعة في الحديث والتلفيق، أنس إدريس الأول بسليمان بن جرير وأحسن مثواه وقرَّبه إليه وشغل في بلاطه منزلة عظيمة، حتى انه لا يتناول الطعام إلا معه.

وقد استمر سليمان الذي نقل السنوسي عن المسالك أنه كان متكلمًا يرى رأي الزيدية[3]، في القيام بدوره على أحسن وجه، وساعده على ذلك، بدون شك ما وجده من حسن الاستعداد والمقدرة على الجدل في إدريس

---

(1) كتاب البلدان (ص 82)، تاريخ الطبري (مجلد 5/29).

(2) تجدر الإشارة إلى أن ابن الخطيب وقع في نفس الخلط حين زعم إن إدريس بن عبد الله ابن الحسن كتب إليه أثناء ولايته «يستكفيه عن ناحية ويذكره بقرابته من الرسول» أعمال الأعلام (ص 4).

(3) طائفة من الشيعة يختلفون عن الشيعة الإثني عشرية وعن الشيعة السبعية في قولهم بإمامة =

الأول الذي تقول بعض الروايات أنه كان يميل إلى الاعتزال مثل اسحاق بن عبد الحميد الأوربي[1].

وزاد سليمان في التمويه، فكان يبدي حماسةً وتطرفاً في مجالسه، في ذكر فضائل أهل البيت وعظم مكانتهم، ويلح في القول ويقيم الدلائل القاطعة على ان إدريس هو الإمام وصاحب الحق الشرعي في الخلافة، وكل ذلك بقصد تدعيم مركزه والحصول على ثقة إدريس والمقربين إليه، ريثما تسنح له الفرصة لتنفيذ خطته.

وذات يوم، دخل سليمان على إدريس فوجده وحده وجلس على عادته بين يديه يتحدث إليه، ثم بادره، فأخرج قارورة وقدّمها إليه قائلاً إنه جاء بها من الشرق، وإنه لّما رأى أن هذه البلاد ليس بها شيء من الطيب خطر له أن الإمام أولى بها وناوله القارورة.

وبعدما شكره إدريس أخذ القارورة التي كانت تحوي على سم ففتحها وشمها، وانصرف سليمان إلى صاحبه، وكانا قد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين، فركباهما وخرجا يطلبان النجاة، بينما كان إدريس الأول يتلوى من الألم، بعد أن سرى السم إلى جهازه العصبي وأخذ يعمل عمله فيه[2] ولما عثر عليه رجاله وهو في النزع الأخير ولم يفهموا ما حدث له، بعثوا في طلب راشد مولاه.

= زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. والزيدية فرق متعددة احْصاها بعض المؤرخين وبلغت ثمانين فرقة. وهم على العموم ينحون فيما يتعلق بالقول في ذات الله منحى الاعتزال. راجع عن المذهب مقالة شتروتمان Strothman في دائرة المعارف الإسلامية (مادة الزيدية ـ الطبعة العربية (21-14/11) والمراجع العديدة التي أحال إليها الكاتب. وانظر كذلك كتابنا معجم الفرق والمذاهب الإسلامية.

(1) الاستبصار (ص 195).

(2) رواية العبر (13/4) أعمال الاعلام (ص 194) البكري (ص 122) والاستبصار (ص 195) صبح الأعشى (180/5).

وفي البيان (210/1) وروض القرطاس وجذوة المقتبس (ص 20) ان إدريس الأول قتل في سنة 175 هـ. وأما صاحب المؤنس فإنه ذكر أن بيعته كانت في سنة 172 هـ ولكنه لم يذكر تاريخ مقتله على انه قال إن دولته دامت خمس سنوات وستة أشهر (ص 102). وبذلك فإن =

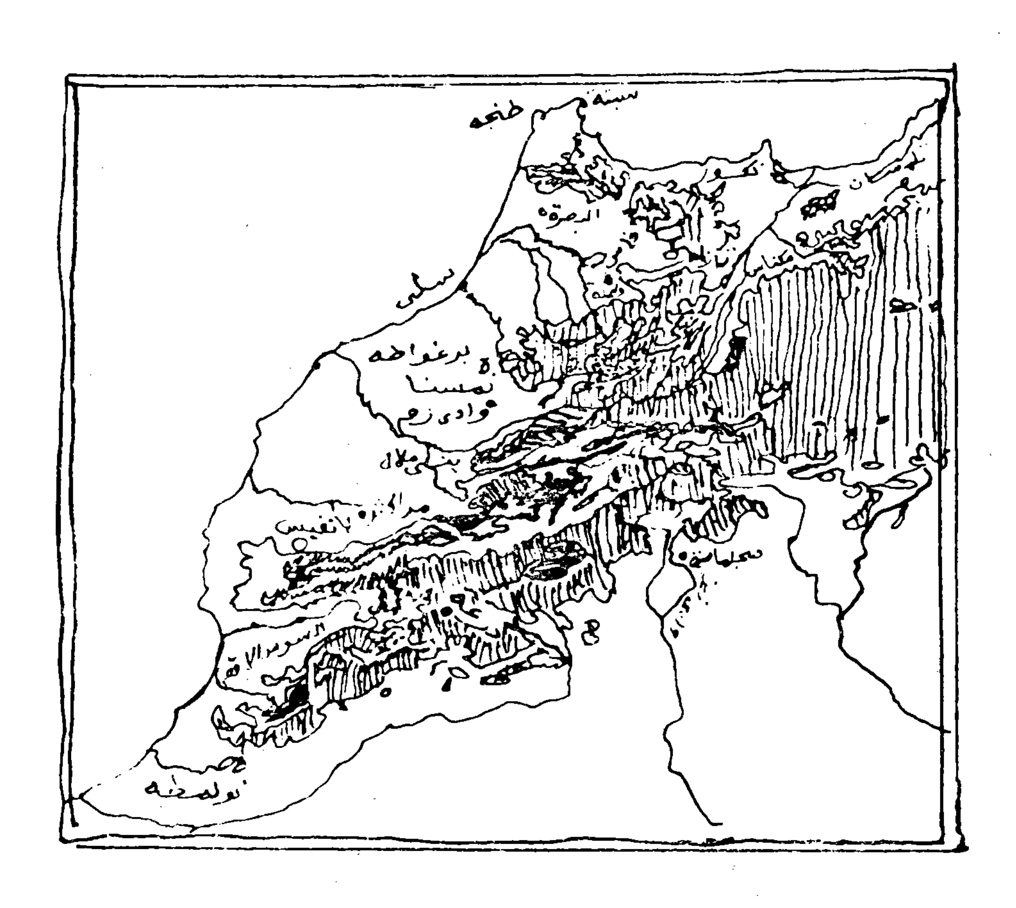
وقد تبين على الفور، عندما اكتشف اختفاء سليمان بن جرير وصاحبه، إن الفعلة فعلته، فركب في طلبه في جماعة من أصحابه فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه ويتخلفون واحداً بعد واحد من شدة الجهد وحث السير حتى لحق به راشد وهو يعبر نهر ملوية. وهناك اشتبك الرجلان بالسيف وقطع راشد يد الجاني اليمنى وشجه في رأسه ثلاث شجات ولكنه لم يصب منه مقتلاً.

ولكن فرس راشد سقط من تحته وتمكن سليمان من النجاة برأسه. ولما أمن على نفسه من مطاردة خصومه نزل من فرسه وعصب جراحه. وبعد ذلك شوهد ابن جرير في العراق مكنعاً، قبل أن يوليه هارون الرشيد على بريد مصر مكافأة له على فعلته ـ بريد مصر الذي ظل شاغراً بعدما قطع الخليفة رأس صاحب البريد، واضح، الذي ساعد إدريس على الفرار.

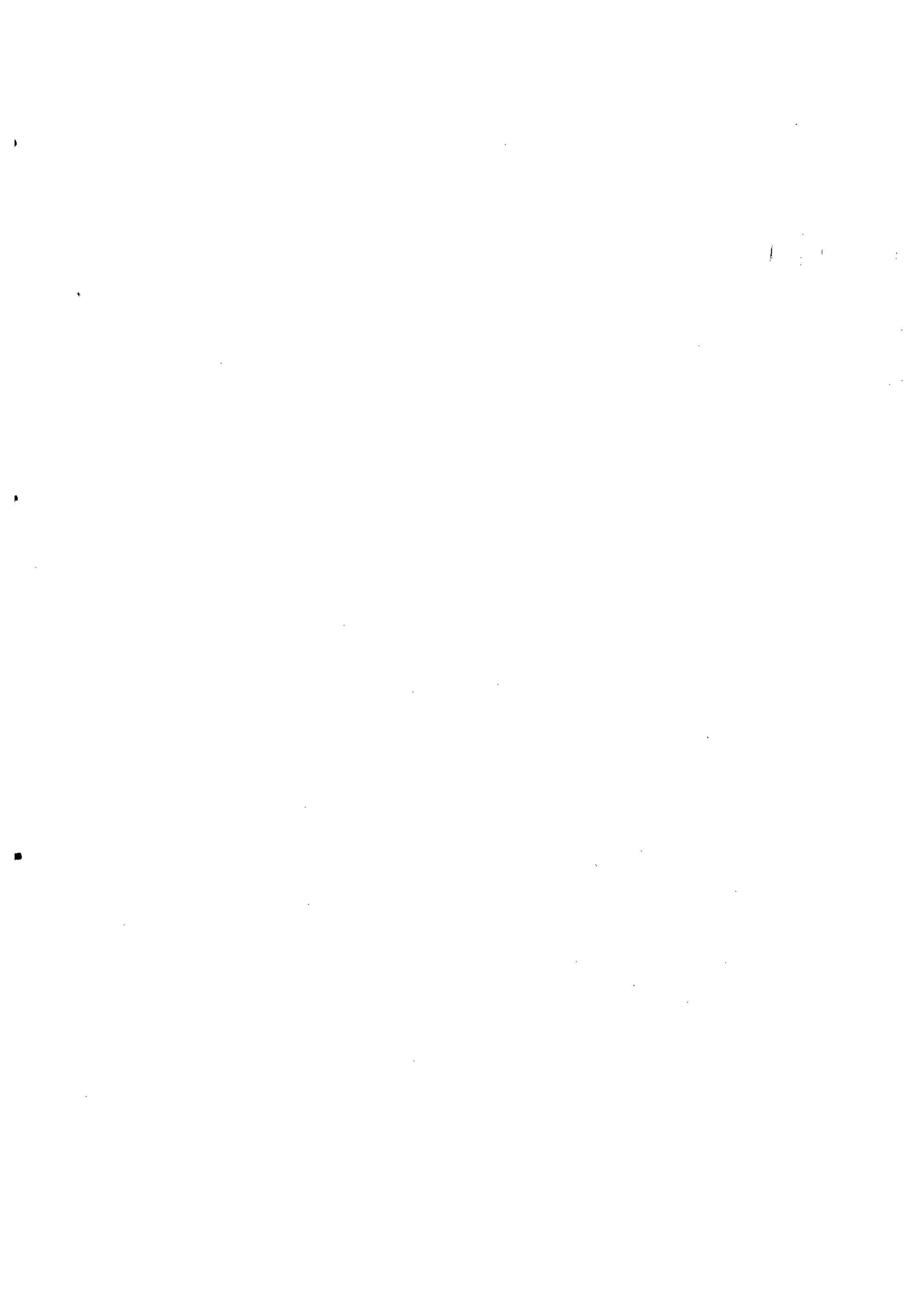
وأما راشد الرفيق والمساعد الوفي، فقد عاد أدراجه إلى أوليلي ليشرف على مراسم دفن الإمام إدريس الأول الذي مات في مفتتح ربيع الأول سنة 175 هـ (16 يونيو 793 م) دون أن يترك وريثاً للعرش، سوى جارية حاملاً اسمها كنزة.

= أبا دينار ممن قالوا بموته في سنة 177 هـ مثل إدريس بن أحمد، صاحب الدرر البهية.

وأما الطبري وابن الأثير وابن الابار فإنهم لا يذكرون تاريخ مقتل إدريس الأول. ويذكره أبوالفدا ضمن حوادث سنتي 174 — 175 اللتين أرخ لهما معاً. وفيما يتعلق بسبب الوفاة، توجد رواية أخرى تقول بأن ابن‌جرير أعطى إدريس الأول الذي كان يشكو من مرض في أسنانه سنوناً مسموماً، وأخرى تذكر أن السم إنما دس له في بطيخ.



خريطة المغرب في عهد الدولة الادريسية



الفصل الثالث

دولة ادريس الثاني

ولما رجع راشد، كفن سيده ودفنه في أوليلي، ثم قام يجمع رؤساء القبائل ووجوه الناس وأخبرهم ان إدريس الأول لم يترك ولداً ولكنه خلف، حملًا بجاريته كنزة[1] وهي في الشهر السابع، وقال لهم أيضاً: «إن رأيتم أن تصبروا حتى تضع حملها، فإن كان ذكراً ربيناه، فإذا بلغ الرشد بايعناه، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم من ترونه لذلك».

فقالوا له: «أيها الشيخ المبارك، مالنا رأي إلا ما رأيت، فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمرنا، كما كان مولانا إدريس وتصلي بنا وتحكم بيننا بالكتاب والسنة، حتى تضع الجارية حملها، فإن وضعت غلاماً ربيناه وبايعناه وإن وضعت جارية نظرنا في أمرنا، فشكرهم راشد الذي قبل مهمة الوصاية التي كلف بها على العرش ودعا لهم وانصرفوا[2].

وعندما وضعت كنزة حملها، أخرج راشد الطفل وأطلع الناس عليه، وكان ميلاده في يوم الاثنين الثالث من شهر ربيع الأخير سنة 175 هـ[3]،

---

(1) تجمع الرواية على ان كنزة كانت جارية لإدريس الأول وتنتسب إلى قبيلة نفزة البربرية، ولكن أحمد ابن محمد بن يوسف العلوي يقول في كتابه «الأنوار السنية في نسب من بسجلماسة من الأشراف المحمدية (مخطوط محفوظ في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1351)، «تزوج مولاي إدريس كنزة، بنت وزيره عبد المجيد الأوربي، وهي ذات حسن وجمال واعتدال، فحملت منه مولانا إدريس الخ».

(2) الدرر السنية السنوسي (ص 80).

(3) كذا في الحلة السيراء وزهرة الآس في بناء مدينة فاس والبكري وروض القرطاس، =

وسمّـي إدريس باسم أبيه ثم تكفل به راشد وأحفظه القرآن وهو ابن ثمانية أعوام، وعلمه الحديث، والنحو، والشعر، والحكم وسير الملوك وسياستهم، وأيام الناس، ورياضة ركوب الخيل، والرمي، وغير ذلك مما جرت العادة على تعليمه لأبناء الملوك والأمراء، بحيث إنه لم يكد يبلغ سن الحادية عشرة حتى اتقن كل ذلك وبرع فيه.

وينقل السنوسي عن ابن زكري في شرح همزيته ما نصه: «ولما تمهّر مولانا إدريس في العلوم وبلغ في هذا السن مبلغ الرجال، تأهل بذلك للخلافة واستوفى فيها الشروط»[1].

وإثْر ذلك، أخذ له البيعة على جميع قبائل المغرب، فبايعوه على نفس المنبر الذي بويع عليه والده في جامع أوليلي، وذلك في يوم الجمعة، مستهل ربيع الأول سنة 186 هـ (10 مارس 802م) وقد جاء الناس لمبايعته من مختلف أصقاع المغرب بل ومن افريقية أيضاً، في رواية[2].

على ان قيام ملك جديد من سلالة آل البيت، لم يكن يروق للعباسيين، وعملائهم بافريقية، بعدما بدا لهم أن تصفية حسابهم مع إدريس الأول سيفتح امامهم طريق المغرب، ولذلك، فإن إبراهيم بن الأغلب لم يتردد في أن يدبر مؤامرة لاغتيال راشد الذي كان يرى فيه المسير الحقيقي

= والكامل وفي الدر النفيس لعبدالحي الكتاني وسلوة الأنفاس لمحمد الكتاني، والدرر البهية للحلبي، وفي الملوك الإدريسية (مخطوط محفوظ في كبنهاجن في حوزتي صورة منه) ان إدريس الثاني ولد في يوم 3 من رجب 177 هـ.

(1) المصدر المذكور (ص 83).

(2) هذا هو التاريخ الذي يذكره معظم المؤرخين لبيعة إدريس الثاني، ولكن رواية أخرى لصاحب روض القرطاس اعتمدها الجزنائي وصاحب سلوة الأنفاس تقول إن البيعة وقعت في يوم الجمعة 7 ربيع الأول سنة 188 هـ، (وفي رواية البكري، وابن الأبار سنة 187)، بعد مقتل راشد بعشرين يوماً. ونحن نرجح أن يكون يزيد بن الياس الذي خلف راشد في منصب الوصي، قد أخذ لإدريس بيعة ثانية لكي يضفي رداء الشرعية الضروري على الوضع الجديد، وأما نص الخطبة التي ألقاها إدريس الثاني والتي يعتبرها المتأخرون آية من آيات بلاغته، فيمكن مراجعته في زهرة الآس (ص 14) الذي لا شك في انه نقله عن روض القرطاس، وهو الذي نقله أيضاً صاحب الدر النفيس (ص 213 — 214) وابن القاضي في الجذوة (ص 12).

لدولة الأدارسة ، بل إن الرجل، كان فيما يبدو، يفخر بهذه العملية ويرجو من ورائها حظوة جديدة عند الرشيد الذي تقول الرواية إنه بعث إليه بهذين البيتين:

ألم تـرني بالكيـد أوديت راشداً	وإني بأخرى لابن إدريس راصـد
تنـاولـه عـزمي عـلى بعـد داره	بمحتـومـة قـد هيـأتهـا المكـايـد

والمهم ان مقتل راشد لم ينجم عنه ذلك الاضطراب والفوضى التي يتوقعها الأغلبي. فإن الأمور سرعان ما عادت إلى مجراها العادي بتعيين وصي جديد على العرش، وهو أبو خالد يزيد بن الياس العبدي الذي أخذ للملك اليافع بيعة ثانية استقرت له الأمور بعدها وسار سيرة سلفه بنشر العدل وإظهار الحق، فعظم سلطانه وقويت شوكته.

وصف إدريس الثاني بأنه أبيض اللون مشرب بالحمرة أكحل العينين، أجعد الشعر، واسع المنكبين شثن الكفين والقدمين أبلج أفحل أعج.

وكان عالماً بكتاب الله قائماً بحدوده، راوياً للحديث، عارفاً بالفقه والسنة. وفصول الأحكام، كما كان ورعاً تقياً جواداً كريماً حازماً شجاعاً مقداماً، وكذلك وصف بأنه ذو عقل راجح وحلم واسع وإقدام في مهام الأمور. وكان فيما يقول الكتاب يقول الشعر، وقد نسبت إليه الأبيات التالية وغيرها[1]:

لو مال صبري بصبر الناس كلهم	لضل في روعتي أو ضل في جزعي
ومـا أريـع إلى يـاس ليسليني	ألا [. . .] يـأس إلى طـمـع
وكيف يصبـر مـطويٌّ هضـائمـه	عـلى وسواس هم غـير منقـطع
إذا الهمـوم توافت بعـد هجعته	كـرت عليه بكـأس مرة الجـرع
بَـانَ الأحبة واستبـدلت بعدهم	همـا مقيـما وشمـلاً غـير مجتمـع
كـأني حين يجـري الهم ذكـرهم	على ضميري مخبـول من الفزع
تأوي همومي إذ حرّكت ذكرهم	إلى جـوانح جسم دائم الـولـع

(1) الحلة السيراء (1/55 — 56).

وعن شجاعة إدريس الثاني ينقل صاحب روض القرطاس عن وداد بن القاسم ابن عبد الله بن جعفر الأوربي الذي شهد كثيراً من وقائعه وغزواته للخوارج الصفرية الوصف التالي:

«فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل إدريس الثاني، فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال فقاتلناهم قتالاً شديداً، فكان إدريس يضرب في هذا الجانب مرة وفي الجانب الثاني مرّة أخرى، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار فرجع إلى رايته ووقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه، فطفقت أنظر إليه وأديم الالتفات نحوه وهو تحت ظلال البنود، يحض الناس ويشجعهم، فأعجبني ما رأيت من شجاعته وقوة بأسه»[1].

وبعد بيعته (الثانية) بسنة واحدة، كان صيت ادريس الثاني قد انتشر بعيداً خارج حدود مملكته، بحيث إن وفود العرب قد أخذت تتوافد عليه من افريقية وبلاد الأندلس. ويقدر المؤرخون عدد الذين وفدوا عليه منهم في سنة 189 هـ. وحدها بخمسمائة فارس[2].

وهذه العناصر العربية الوافدة من الخارج لها قيمة مزدوجة بالنسبة إلى إدريس الثاني، فعلى الصعيد الشخصي، سيجد فيها إدريس الذي هو بربري بكل ما في هذه الكلمة من معنى، الحلقة المفقودة بين أصله الذي يربطه به الدم ووضعه الواقعي الذي تربطه به التقاليد واللغة والمحيط بصفة عامة[3]،

---

(1) ويضيف البكري (ص 123): «فقال لي ويحك لم توالي النظر إلي؟ فقلت لخصال أما أولها فإنك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقي فلا أجده.

قال: «لاجتماع قلبي وذهاب بصاقك بذهاب عقلك، قال قلت والثانية لما أرى من حركتك وقلة قرارك على الدابة». قال: «ذلك زمع إلى القتال، فلا تحسبه رعباً وأنا الذي أقول:

أليس أبونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نشتكي مما يؤول من النصب
ولكننا أهل الحفائظ والنهى ... إذا طار أرواح الكماة من الرعب

(2) الدرر السنية (ص 85) جذوة المقتبس (ص 11) روض القرطاس.

(3) يوجد قول الشاعر هجا أحد أبناء إدريس لا يستحق العناية ولكنه لا بد من الإشارة إليه حيث

وعلى الصعيد السياسي، سيجد إدريس في الوافدين النواة التي ينشدها لبناء إدارة عربية منظمة، وفي الوقت الذي يخرج فيه من وصاية أوربة ويضمن لملكه التوازن المطلوب والاستقلال الضروري، عن نفوذ القبائل، ومما يزيد من قيمة عناصر الوافدين انها لا تنتمي كلها إلى قبيلة عربية واحدة، بل إلى مجموعة من القبائل، أهمها الأزد ومدلج وبنو يحصب.

وكذلك أجزل إدريس الثاني العطاء للوافدين وقربهم ورفع منازلهم وجعل منهم بطانته دون البربر، فاستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدي، وكان من فرسان العرب وساداتها (وقد كان لأبيه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والأندلس في غزو النصارى) كما استقضى منهم عامر بن محمد القيسي، وكان عالماً صالحاً ورعاً سمع عن مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيراً، وخرج إلى الأندلس برسم الجهاد، ثم اجتاز إلى العدوة وَوَفد منها على أوليلي، واتخذ منهم أبا الحسن بن عبد الملك كاتباً، كما استعان بغير هؤلاء على مصالح الملك والأمور الدنيوية والدينية.

وهذا الاعتبار وحده (الاعتبار السياسي) يفرض على إدريس الثاني الخروج من محيط أوليلي الضيق ومن سيطرة أوربة على أجهزة الحكم، ولكنه يوجد اعتبار أقوى من ذلك، فإن أوليلي التي أوت إدريس الهارب مع مولاه راشد واتخذها قاعدة لدولته بعدما تخلى له اسحاق بن عبدالمجيد الأوربي عن الحكم، لأسباب عاطفية وسياسية في نفس الوقت، لم تعد تتسع لهؤلاء العرب ولغيرهم ممن يقصدون العاصمة للإقامة والعمل والتسوق، وللجيش لحفظ الأمن ولفرض سلطانه على القبائل.

هذا من جهة، وجهة أخرى، فإن تشييد العواصم وتعميرها بالصناع

= يردد إشاعة راجت في الأوساط المناوئة للأدارسة ومؤداها أن إدريس الثاني ينحدر من صلب راشد البربري، مولى إدريس الأول ووصيّه على العرش. قال محمد بن محمد بن السمهري يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس:

قل للزنيم زنيم طنجة عش بها ... لا يحسدنك في بلادك حاسد
منتك نفسك أن تكون خليفة ... هيهات هذا من حديثك بارد
لما رأيتك للئام مصافيا ... أيقنت حقاً ان جدك راشد

وأرباب الحرف وتزيينها بالقصور والمساجد وغير ذلك من الآثار العمرانية، كان دائمًا من تقاليد الأسر المالكة في الشرق، منذ بناء العباسيين لمدينة بغداد، بل وقبل ذلك أيضاً، ونحن قد رأينا كيف أن الأمير عقبة، لم يستقر في قرطاجنة، بل فضل على ذلك تشييد القيروان التي سيهجرها العبيديون ليقيموا مدينة المهدية لتكون عاصمة لملكهم، وذلك على عكس ما جرى عليه الرومان، الذين فضلوا إعادة بناء قرطاجنة الفنيقية على تشييد عاصمة جديدة لولاياتهم الافريقية، على الرغم من كثرة المواقع الصالحة والمغرية على الشواطىء الافريقية.

والذين جاءوا بعد إدريس الثاني، سيسيرون هم أيضاً على هذا التقليد. ونحن لكي نتأكد من هذه الحقيقة ما علينا إلا أن نتذكر مصائر العواصم التي كانت كل منها مركزاً للإشعاع الحضاري في عهد دولة معينة، فلما قضي على تلك الدولة انطفأت أضواؤها وانتقل العلم والثقافة منها إلى مراكز أخرى، وذلك مثل تيهرت وبجاية وتلمسان وأشير والقلعة وسجلماسة الخ.

ومهما يكن من أمر، فإن إدريس الثاني قرر أن يبني مدينة ليقيم بها هو وخاصته وجيشه ووجوه مملكته. ولهذه الغاية ركب في خاصته في سنة 190 هـ.، وراح يتجول في عرض البلد لاختيار بقعة تكون بعيدة عن قيظ الصحراء ورمالها وعن رطوبة الساحل ووعورة الجبال، وتتوفر فيها شروط الحياة الأساسية.

وتمضي الرواية فتقول إن إدريس الثاني وصل إلى موضع يقع على سبو فأعجبه لقربه من الماء، فعزم على بناء مدينة فيه وشرع في حفر الأساس وقطع الأخشاب وابتدأ البناء ثم نظر إلى الوادي وفكر فيما يتلقاه من الموارد في زمن الشتاء، فخاف على الناس من الهلاك ورفع يده عن البناء ورجع إلى أوليلي[1].

وفي سنة 191 بعث وزيره عمير الأزدي على رأس جماعة من الفرسان وكلفهم بمهمة اختيار الموقع الملائم للمدينة.

---

(1) رواية روض القرطاس التي أوردها صاحب زهرة الآس وصاحب الدرر السنية.

وقد خرجت هذه الجماعة وسارت في شتى الاتجاهات يبحثون ويميزون حتى وصلوا إلى فحص سايس، فأغراهم انبساط أرضه واعتدال هواء الموقع وكثرة مياهه، فنزلوا عند عين ثرة تجري مياهها في مروج مخضرة على مدى البصر، فتوضأ عمير ورجاله وصلى بهم صلاة الظهر ثم استخار الله ودعاه أن يوفقه في مهمته وركب جواده وأمر من معه أن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم[1].

ولما كان عمير الأزدي هو مكتشف العين، فإن المؤرخين لهذا الحدث يرون من الطبيعي أن تحمل العين اسمه الذي ظلت تحتفظ به عبر القرون (عين عمير).

وعندما وصل عمير إلى إدريس الثاني قدم إليه تقريراً عن الموضع الذي اكتشفه فاستحسنه الملك[2] ثم سأله عن مالك الأرض، فقال له إنها تابعة لقبيلتين من زناتة، زواغة وبنو يزغتن[3] يسكنون في خيام الشعر.

وإثر ذلك انتقل إدريس إلى الموضع الذي وقع الاختيار عليه، فوجد القبيلتين تقتتلان على حدود أراضيهما فبعث إليهم وأصلح بينهم ثم اشترى الأرض بمبلغ ستة آلاف درهم وأمر كاتبه أبا الحسن عبد الله بن مالك المالكي الخزرجي الأنصاري[4] فكتب عقد البيع ودفع الثمن وأشهد عليهم[5].

وعقب ذلك مباشرة، شرع العمال في البناء في موضع يقع بين جبلين صغيرين «زالغ» «واللويزات» على ضفتي نهر صغير وهو نهر فاس.

---

(1) انظر هذه التفاصيل في الدرر السنية (ص 96).

(2) نلاحظ ان المؤرخين المغاربة الذين كتبوا عن الأدارسة (ومعظمهم من أحفاد إدريس) يتحاشون ألقاب الملك والسلطان والخليفة «ويستعملون مكانها لقب «الإمام» وهو اللقب الذي ينعت به الخليفة الرابع، علي بن أبي طالب (ض) ولكنهم، مع ذلك، يستعملون تعابير، مثل «اتسع ملكه، ودار ملكه الخ».

(3) كذا أورد اسم القبيلة في القرطاس وفي الجذوة، وأما الجزنائي فيكتب الاسم برعسن.

(4) هكذا ذكره صاحب زهرة الأس، وأما روض القرطاس فيسميه ابن مالك الخزرجي الأنصاري، وفي العبر: أبو حسن عبد الملك الخزرجي، وفي الدر النفيس أبو الحسن عبد الله بن عبد الملك الأنصاري.

(5) رواية القرطاس وزهرة الآس.

بناء فاس

قيل إن إدريس الثاني لما بدأ العمل في البناء، كان يعمل بيديه مع الصناع والفعلة والبنائين تواضعاً منه لله تعالى فصنع له بعض خدمه فأساً من ذهب وفضة فكان إدريس يمسكه بيده ويحفر به الأساسات للفعلة، فكثر عند ذلك ذكر الفاس على ألسنتهم خلال مدة البناء فكان الفعلة يقولون: «هاتوا الفأس، خذوا الفأس، احفروا بالفأس» الخ. فسميت المدينة باسم الآلة[1].

على ان الجزنائي ينتقد هذه الرواية لأن إدريس، كما يقول، لا يجهل ان استعمال الذهب محرم على الرجال... وكذلك يذكر هو والسنوسي وغيرهما رواية الراهب التي ينقلونها جميعاً عن ابن غالب.

ومؤدي قصة ابن غالب، ان راهباً مرّ بإدريس عندما كان يختط المدينة وكان يتعبد في صومعة قريبة من الموضع، فسلم عليه ثم سأله ماذا يصنع بين الجبلين؟، ولما أجابه بأنه يريد بناء مدينة لسكنه وسكن ولده من بعده «وليعبد الله تعالى بها ويتلى كتابه وتقام حدوده»، قال له: «أيها الأمير، إن لك عندي بشرى، أخبرني راهب كان قبلي في هذه الديار وهلك منذ مائة سنة، انه وجد في كتاب علمه انه كان بهذا الموضع مدينة تسمى سافاخربت منذ ألف سنة سيجددها ويحيي أثرها ويقيم دارسها رجل من آل البيت يسمى إدريس».

---

(1) نفس المصدرين.

فقال إدريس، الحمد الله، أنا إدريس من آل البيت، وأنا بانيها، وأقلب إسمها من «ساف» إلى «فاس»[1].

وهذه القصة نوردها للأمانة العلمية ولنقل الجو الأسطوري الذي يحيط ببناء فاس، إلى جانب الحقائق التاريخية، ونحن نتحدث عن الأسطورة، لأن الصدفة شاءت انه كلما قام ملك شرقي أو مرتاد لموقع مدينة جديدة، وجد في نفس الموقع راهباً عالماً بالماضي والمستقبل يتنبأ له ويقدم إليه المشورة والنصيحة.

فإن عبيد الله المهدي، قد صادف هو الآخر، راهباً في موقع المهدية حينما كان يرتاد هذا الموضع لبناء عاصمته، ولما سأله عن اسمه قال إنها تسمى «جزيرة الخلفاء»[2]. . . . وسميت تونس بهذا الاسم، لأن المسلمين لما وصلوا إلى موضعها وجدوا هناك راهباً وصومعة فقالوا: «هذه الصومعة تونس» فلزمها ذلك الاسم[3] الخ.

ولكن القصة التي تشبه إلى حد التطابق قصة راهب فاس، هي قصة راهب بغداد مع المنصور العباسي، فإن هذا الخليفة حينما راح يرتاد موقع مدينة بغداد وجد هناك راهباً سأل أصحابه من يريد أن يبني في هذا الموضع مدينة؟ فقيل له: «أمير المؤمنين المنصور»، قال: «ما اسمه؟».

قيل له: «عبد الله». قال: «فهل له اسم غير هذا»؟ قيل: «اللهم لا غير ان كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور». قال الراهب: «فاذهب وقل له لا يتعب نفسه في بناء هذه المدينة فإنّا نجد في كتبنا ان رجلاً اسمه مقلاص يبني هذه المدينة ويكون لها شأن من الشأن وإن غيره لا يتمكن من ذلك».

---

(1) قارن زهرة الآس للجزنائي (ص 18) والدرر السنية للسنوسي (ص 99). توجد رواية أخرى لا تقل سذاجة عما تقدم مؤداها ان حاشية إدريس سألته كيف تسمي المدينة؟ فقال سموها باسم أول رجل يمر عليكم، فمر رجل وكان ألثغ. واسمه فارس فلما نطق باسمه، سقطت منه الراء فكان، «فاس».

(2) راجع القزويني آثار البلاد وأخبار العباد (ص 276).

(3) المؤنس في أخبار افريقية وتونس (ص 10).

فجاء الرجل إلى المنصور وأبلغه أقوال الراهب، فنزل المنصور على دابته وسجد وقال: «أما والله كان اسمي مقلاصاً وكان هذ اللقب غلب علي ثم ذهب عني»[1].

وكما فعل المنصور قبل ذلك بنحو نصف قرن، فإن إدريس الثاني قد ارتاد نفسه موضع البناء وكلاهما قد اشترك، فيما تقول الرواية، مع العمال في بناء عاصمته. . .

ولكن لنترك الجانب الأسطوري الملون ولنعد إلى سرد التاريخ والوقائع الثابتة والمرجحة.

بدأ العمل في بناء مدينة فاس بعدوة الأندلس في يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة 192[2]. وقد سمي هذا الشق من المدينة فيما بعد، باسم المهاجرين الذين أجلاهم الحكم بن هشام عقب الفتنة التي انتهت بتدمير الربض الجنوبي لمدينة قرطبة[3] وكان عددهم ثمانية آلاف.

وقد أقام سوراً حولها ابتدأه من جهة القبلة وفتح هناك باباً سماه باب القبلة ثم مرّ بالسور بالمكان المعروف بجراوة وفتح هناك باباً سماه باب جراوة ثم مرّ بالسور على الموضع المعروف بالمخفية، إلى الوادي وفتح هناك باباً سماه بباب المخفية[4] وكان يقابل باب الفرج من عدوة القرويين، ثم مرّ بالسور إلى الشيبوبة وفتح هناك باب الشيبوبة وهو يقابل باب الفصيل من عدوة القرويين، ثم مرّ بالسور إلى مجر الفرج وفتح هناك باباً أسماه باب أبي سفين، ثم عرج السور المستدير على جراوة وفتح هناك باباً سماه باب الكنيسة[5] وهو الباب

---

(1) راجع هذه القصة في الآداب السلطانية للفخري (ص 161/162) وفي معجم البلدان (1/458 — 459).

(2) الدرر البهية (ص 8) زهرة الآس (ص 19) سلوة الأنفاس (ص 73) الملوك الأدريسية (مخطوط ورقة 1 ظهر) البديع لابن سعيد 814م المغربي (مخطوط ورقة 34).

(3) وقعت هذه الفتنة في سنة 198 هـ. في روايةابن عذاري. وفي سنة 202 هـ (817) في رواية ابن خلدون. راجع تفاصيلها في (Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne (303/2.

(4) لايزال هذا الموضع حتى الأن يحمل اسم حومة المخفية.

(5) قارن زهرة الآس (ص 19 — 20) بروض القرطاس الذي يضيف قائلاً إنه «من باب الكنيسة =

الذي أخذ فيما بعد اسم باب الخوخة[6] ثم مرّ السور إلى أن وصل إلى باب القبلة المذكور. واستدار الآن بالمدينة[2].

وبعد ذلك، بنى إدريس الجامع الذي يعرف بجامع الأشياخ.

وأما عدوة القرويين، فإنها أسست سنة 193. فقد أقام إدريس الثاني بالموضع المعروف بالقرمدة وأصبح فيما بعد يعرف بدار القيطون، ومن هناك راح يوجه عمليات البناء والتشييد، فبدأ سورها من رأس عقبة، وفتح هناك باباً أسماه باب افريقية (الذي جدده فيما بعد الأمير المستعين في سنة 760 هـ).

وفي هذه المنطقة كانت توجد عين في غابة كان يقطع الطريق فيها بعد أسود يسمى علوان، فلما بلغ أمره إدريس، أمر بالقبض عليه وصلب على شجرة هناك وسميت العين باسمه.

ثم مرّ بالسور إلى عين دردور، فإلى عقبة الصعتر، وفتح هناك باباً أسماه الفصيل، ثم مرّ السور بضفة الوادي، وفتح هناك باباً أسماه باب الفرج، وهو الذي أصبح فيما بعد يعرف باسم باب السلسلة، ثم مرّ السور إلى عيون ابن الصادي التي أخذت فيما بعد اسم عين الكرازين، وفتح هناك باباً اسمه باب الحديد، ثم مرّ السور على عقبة الجرف وفتح هناك باباً اسمه باب القلعة[2] ثم باب حصن سعدون، ثم مرّ السور حتى باب افريقية المذكور، وقد استدار السور بالمدينة (عدوة القرويين) كلها[3].

= يخرج المسافرون إلى تلمسان». وفي كتاب البكري: وباب الكنيسة شرقي يقابل ربض المرضى (ص 115).

(1) أخذ هذا الاسم، كما ذكره صاحب القرطاس، بعدما أعاد بناءه الناصر الموحدي في سنة 601 هـ.

(2) هذا الباب لم يذكره صاحب روض القرطاس ولا غيره من المؤرخين،، الأمر الذي حمل بيل (A. bel) مترجم زهرة الآس على الاعتقاد بأنه إنما فتح السور بعد العهد الإدريسي، وان الجزنائي وقع في خطأ حينما عزا فتحه إلى إدريس الثاني راجع الترجمة الفرنسية لزهرة الآس، ص 55، هامش 2).

(3) راجع رسم مدينة فاس الإدريسية أسفله.

وقبل إتمام بناء السور والمرافق العامة ومنازله ومنازل أصحابه، أعلن إدريس الثاني على الناس ان «من أنشأ موضعاً وغرسه قبل إتمام السور، فهو له، ابتغاء وجه الله تعالى» وكذلك شرع الناس في بناء الدور وغرس الأشجار والبساتين حولها، فكان الرجل يختط موضع منزله وبستانه ثم يقطع الخشب من مكان المنزل والبستان دون أن يحتاج إلى خشب آخر[1].

ولما فرغ من بناء السور، بنى جامعاً للخطبة متصلاً بمنزله، وهو المعروف بجامع الشرفاء[2] حيث يوجد ما قيل في رواية إنه ضريح إدريس الثاني، وهو اليوم مزار عظيم بالمغرب الأقصى.

وعقب إتمام أسوار شقي المدينة والجامعين، أنزل إدريس الثاني الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية، فسميت عدوة الأندلس، كما ذكرنا، وأنزل الوافدين من القيروان الذين كانوا معه بالعدوة الغربية، وسميت عدوة القرويين، ثم أمر بزيادة البناء والغرس، فبنى الناس الدور والمساجد والحوانيت، وغرسوا ضفتي الوادي من منبعه بفحص سايس إلى مصبه، في نهر سبو بأنواع الأشجار، وحرثت سائر نواحيه بأنواع مختلفة من الزراعات[3] فعمرت الأرض بالغراسة والحراثة وكثرت غلاتها وخيرات المدينة، وقصدها الناس من مختلف المناطق للإقامة والتملك فيها، وسكنها العلماء والأدباء والتجار والصناع.

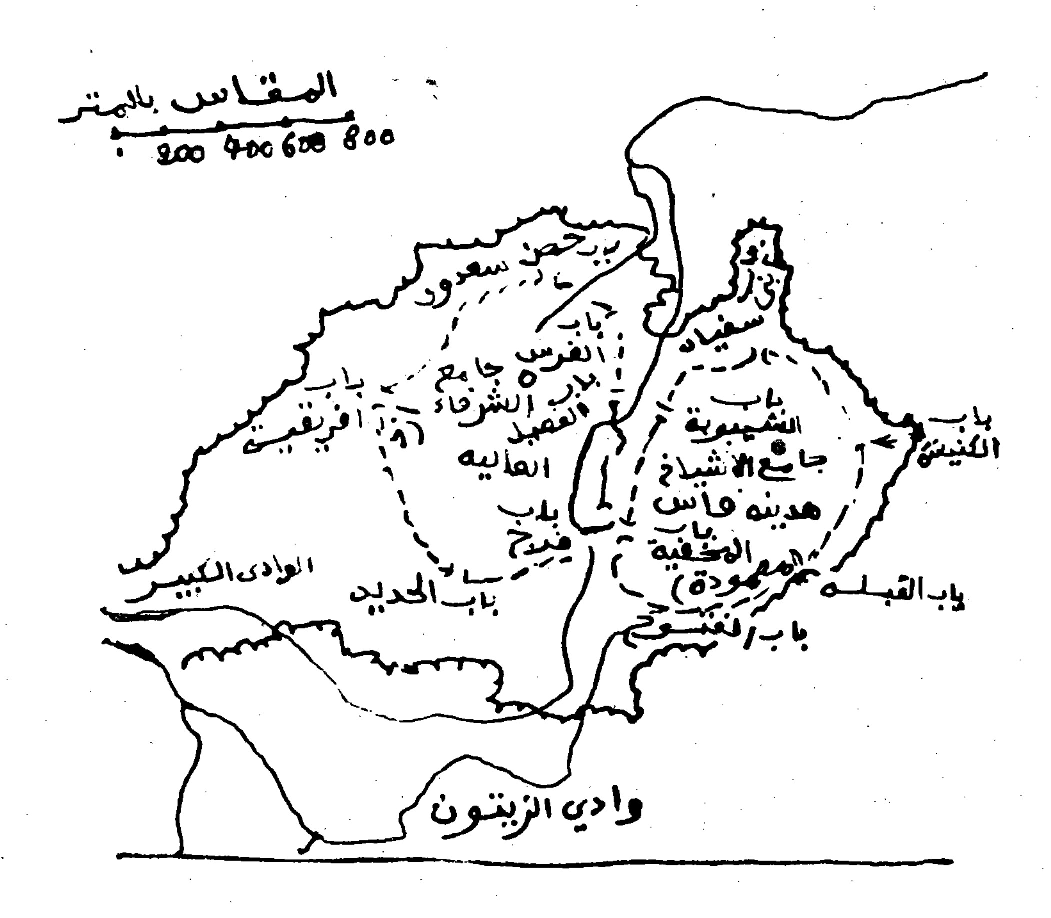
ولما استقامت عمارة المدينة أَمَّ الإمام إدريس صلاة الجمعة، وصعد على المنبر وخطب على الناس ليعلن إليهم ميلاد العاصمة الجديدة، فاس، واختتم خطبته قائلاً: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد فيها ويتلى فيها كتابك وتقام فيها حدود وشرائع دينك وسنة نبيك محمد (ص)، ما بقي من الدنيا،

---

(1) الدرر السنية (ص 97).

(2) أعيد بناؤه بعدما تهدم في سنة 708 هـ طبق الشكل الأصلي، وأما زاوية مولاي ادريس التي تقوم في نفس المكان، فقد بناها الشرفاء على أنقاض من المسجد القديم.

(3) قارن زهرة الآس (ص 21)، الدرر السنية (ص 100)، روض القرطاس (الطبعة الحجرية).



مدينة فاس وأبوابها في عهد الأدارسة

اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه، واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة، والشقاق»[1].

وهكذا فإن مدينة فاس عبارة عن مدينتين مستقلتين مسورتين، كلتاهما في سفح جبل ويفصل بينهما نهر تمتد عليه جسور ويستمد مياهه من عين غزيرة تقع في وسط مرج ببلاد مطغرة التي تقع على مسيره نصف يوم من المدينة[2]، وقد احتفظت كل من العدوتين بكيانها على النمط الذي خططه إدريس الثاني حتى عهد ملوك زناتة في اواخر القرن الرابع الهجري، فكان لكل من المدينتين مساجدها وأسواقها وولاتها، بل وكانت لكل منهما دارها الخاصة لضرب السكة.

وأما عناصر السكان، فقد وزعت على الوجه التالي:

نزلت العرب القيسية في المنطقة التي تمتد بين باب افريقية وباب الحديد من أبواب عدوة القرويين، ونزل الأزد على حدهم، ونزل الحفصيون والفرس على حد القيسية من الجهة الأخرى وأنزلت صنهاجة ولواتة ومصمودة في مختلف الأحياء في داخل المدينة[3] وأما عدوة الأندلس، فقد عمرت فيما بعد خصوصاً بعرب الأندلس الذين أجلاهم الحكم، كما ذكرنا.

ولما انتهى من بناء المدينة وتنظيم تعميرها بالمنشآت والسكان انتقل إليها بمحلته واستوطنها واتخذها عاصمة ملكه وأقام بها حتى سنة 197 هـ.

* * *

تلك هي الروايات التي تحتوي عليها المصادر الإسلامية المعروفة ومنها نستخلص إجماعاً على حقيقتين أساسيتين:

١ ـ إن إدريس الثاني هو الذي بنى مدينة فاس.

---

(1) أورد نص الخطبة روض القرطاس ونقلها عنه الجزنائي والسنوسي في المصدرين المذكورين.
(2) البكري (ص 155) وفي الإدريسي: «يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة» (ص 75).
(3) زهرة الآس (ص 19).

٢ ـ إن بناء المدينة قد وقع في سنة 192 بالنسبة إلى عدوة الأندلس وفي سنة 193 بالنسبة إلى عدوة القرويين.

ولكن هذه الرواية تعرضت لامتحان عسير عقب نشر المستشرق المعروف، ليفي بروفنسال لكتيب[1] عرض فيه نظرية مؤداها ان إدريس الأول، وليس إدريس الثاني، هو الذي بنى فاس، وان بناء المدينة وقع في سنة 172 هـ.

وهذه النظرية قبلتها دوائر المستشرقين بدون تردد، ولكن أيضاً بدون محاولة لتمحيصها ونقدها[2]، كما أشار إليها بعض المحققين العرب بصيغة «إذا افترضنا» صحة نظرية المستشرق[3]، بينما أيدها كاتب شرقي يقال إنه وضع كتاباً على تاريخ المغرب الإسلامي، بحماسة ظاهرة وقال إنه (ليفي بروفنسال) «أثبت بالفعل ان اختطاط فاس كان على يد إدريس الأول في رمضان 172 / فبراير 789[4]».

لقد كان هناك وقت يمثل طفولة العلم العربي الحديث، يسارع فيه الكتاب إلى اعتناق كل نظرية صاغها باحث أجنبي، واعتبارها أمراً مسلمًا به ولا تحتاج إلى نقاش، وكذلك عرفنا، فيما عرفناه منهجية مرغليوث لبحث الشعر الجاهلي، وشاهدناه يركب، كما لو كان صنمًا جديداً، على قاعدة الثقافة

---

(1) نشر في شكل بحث بعنوان: La fondation de fes annales de l'institut d'etudes orientales, 1947. وبعد ذلك نشر على انفراد، كما أدرج في كتابه المعنون: l'islam d'occident (ch. 1; PP. 3 — 41) وهو قد ترجم إلى العربية بعنوان دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

(2) نكتفي بالإشارة هنا إلى أن محرر مادة فاس في الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية قد اعتمد نظرية تأسيس إدريس الأول لفاس، وان المستشرق جورج مارسي (Marçais) كان قد ذكر في الطبعة الأولى لكتابه المعنون: manuel d'art (3/1) ان إدريس الثاني هو الذي بنى مدينة فاس، ولكنه عدل هذا الموقف في الطبعة الثانية، فقال ان إدريس الأول هو الذي أسسها (4/1) وكذلك اعتمدهـا لوتورنو Le tourneau في كتاب المعنون: fès avant le protectrat, 1949 و Lombard (M) في كتابه l'Islam dans sa première grandeur (P 75) وهو كتاب ترجمناه إلى اللغة العربية.

(3) راجع أعمال الأعلام (القسم الثاني، ص 198 — 199، هامش 2).

(4) راجع الحلة السيراء (طبعة القاهرة ـ 4/1، هامش 2).

الإسلامية، ورأينا غير ذلك من النظريات التي لم يتصد لها عالم أو يواجهها باحث بالدرس الجدي والتحليل.

ولكنه في الوقت الذي يتجه فيه الباحثون في مختلف القطاعات والميادين إلى الاستقلال في التفكير والبحث، لم يكن يصح ان تدخل نظرية خطيرة الشأن في تراثنا العلمي وتعتبر قضية مفروغاً منها، ولاسيما إذا كانت مثل هذه النظرية تضرب بعرض الحائط أقوال عشرات من فطاحل العلم والرواية الذين اشتهروا بالصدق والأمانة والذين تقوم على مجموع أقوالهم كل معارفنا في تاريخ المغرب والأندلس.

ولهذه الاعتبارات كلها وللبحث عن الحقيقة في فترة من تاريخ المغرب لا تتسم بالوضوح ولا يوجد عنها رصيد كبير من المعلومات، نرى ان الضرورة تفرض علينا عرض جميع العناصر والروايات التي تتصل بالموضوع، بما ينبغي من الموضوعية والنزاهة، ونبين نواحي القوة والضعف فيها، ونحن نبدأ أولاً بعرض موجز وافٍ لنظرية ليفي بروفنسال:

تقول هذه النظرية إن مدينة فاس بنيت في عهد إدريس الأول سنة 172 هـ. (789م) على الضفة اليمنى لوادي فاس، شرقي مدينة فاس الحالية في الموضع الذي (لايزال) يحمل اسم جراوة، وأحاطها بسور فتح في جوانبه أبواباً، كما بنى جامع الأشياخ. ثم جاء بعده ابنه إدريس الثاني، فأراد بناء مدينة له، فاختار أولاً، مكاناً على السفح الشمالي لجبل زالغ، ولكن عاصفة هبتْ وحطمت الأسس التي يقوم عليها بنيانه؛ ولذلك عدل عن ذلك الموقع، واختار مكاناً آخر على ضفة وادي سبو، على مقربة من العيون الساخنة التي تحمل حالياً اسم «سيدي حرازم»[1]. غير ان مخاوفه من فيضان هذا النهر، جعلته يعدل عن هذا الاختيار أيضاً.

---

(1) سيدي حرازم = عين جولان، هي العين المعدنية التي تنبجس عند ضريح الوالي حرازم، وقد أصبحت أشهر المياه المعدنية في المغرب الأقصى وتستغل في الوقت الحاضر استغلالاً تجارياً واسع النطاق في البلد، والمنطقة تبعد عن فاس بنحو 15 كيلو متر، وقد ظلت تحمل اسم جولان حتى القرن الثامن عشر.

وأخيراً اختار مكاناً مناسباً لمدينته في غرب مدينة أبيه، على الضفة اليسرى لوادي فاس في الموضع المعروف باسم «دار القيطون»، وكان ذلك في سنة 192 هـ. (809م)، ثم بنى حولها سوراً بأبواب، كما بنى مسجد الشرفاء، ثم أطلق على مدينته اسم «العالية» وهو الاسم الذي تحمله قطعة النقد التي تمثل القاعدة الأساسية التي تقوم عليها النظرية، ولكنه نظراً لأنه لا توجد وثائق أخرى تذكر هذا الاسم، فإن ليفي بروفنسال، يرجح أن يكون تحريفاً للفظ «العلوية» أو وصفاً للمدينة بحكم ارتفاعها.

وكذلك تفترض النظرية ان الفترة التي تفصل بين تشييد العدوتين ليست سنة واحدة كما في الرواية المتواترة، وإنما هي تمتد على نحو عشر سنين.

والأدلة الأساسية التي تقوم عليها النظرية تتلخص فيمايلي:

1 — رواية المؤرخ القرطبي، أبي بكر الرازي المتوفى سنة 334 هـ وهي رواية لم تصل إلينا مباشرة، وإنما نقلها عنه ابن الأبار في الحلة السيراء، ومؤداها ان إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس في سنة 172 هـ.

2 — رواية لابن سعيد المغربي لم تصل إلينا هي الأخرى مباشرة (يرجح أن تكون في الأجزاء المفقودة من كتاب المغرب) وإنما رددها ابن فضل الله العمري والقلقشندي، وهي تقول إن فاس مدينتان احداهما بناها إدريس الأول وتعرف بعدوة الأندلس، والأخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين.

3 — خبر أورده البكري، ومؤدّاه ان إدريس الثاني قصد إلى فاس في سنة 192، للاستقرار فيها، مما يدل على ان المدينة كانت موجودة فعلاً في تلك السنة.

4 — رواية الحسن بن محمد الوزان (التي نقلها عنه مرمول) والتي تقول بأن مدينة فاس أسست في سنة 185 هـ (801م).

5 — درهم لادريس ضرب في فاس في سنة189 هـ، نشرها لافوا (Lavoix) في

قائمة للنقود الإسلامية في إسبانيا وأفريقية الشمالية[1]، وقد اعتبر هذا الدرهم إلى جانب درهم آخر يحتفظ به متحف خركوف (Kharkoff) ضرب في فاس في سنة 185 هـ. وعن التساؤل: كيف وقع جميع المؤرخين الذين يقولون إن فاس أسست في سنة 192 هـ و193 في هذه الغلطة، يجيب صاحب النظرية بجواب مبسط للغاية، وهو ان تحريفاً وقع لبعض النساخ في كتابة تسعين بدلاً من سبعين، بسبب تشابه رسم الكلمتين، فصارت سنة 192 عوضاً عن سنة 172.

ونحن قبل أن ندخل في مناقشة النصوص التي تعتمد عليها النظرية، نرى من الملائم تقديم ملاحظات ذات طابع عام تكون بمثابة خلفية لهذه المناقشة، وهي:

أ ـ نستبعد تماماً الرأي القائل بأن إدريس الأول قد بنى مدينة فاس في شهر رمضان سنة 172 هـ، حيث ان هذا الشهر من السنة هو بالذات الذي تجمع الرواية على انه بويع فيه بالإمامة، ومن ثم، فليس من المعقول أن يفكر إدريس الأول في تأسيس عاصمة، وهو لايزال في حالة لاجىء سياسي ولا يجد لملكه سنداً حقيقياً سوى قبيلة أوربة وسوى البيعة الاسمية التي قدمها إليه حلفاء القبيلة، ونحن قد رأينا كيف كانت المهمة الأولى التي قام بها إدريس الأول عقب مبايعته مباشرة، هي العمل لإخضاع القبائل العديدة التي لم تعلن طاعتها، بقوة السلاح، وان الحملة الأولى قد استغرقت منه الشهور التالية بحيث إنه لم يعد إلى أوليلي إلا في اواخر شهر ذي الحجة (عاد إلى أوليلي وليس إلى فاس) ليأخذ شيئاً من الراحة (مدة شهر) ثم يستأنف غزواته في المحرم من السنة التالية (173)، فنحن إذاً نستبعد أن يكون ادريس الأول قد قام بعمليات بناء فاس في الوقت الذي يخوض فيه معركة حياة أو موت بالنسبة إلى دولته الناشئة، وذلك خلال الفترة بين رمضان 172 وصفر سنة 174، وهو تاريخ عودته من افتتاح تلمسان.

(1) LaVoix (H). Catalogue des monaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris. Espagne et Afrique du Nord. Paris, 1891 (planch ILIV, NO, 899; P. 377. 8).

ب ـ لا يوجد سبب سياسي أو عسكري يحمل إدريس الأول على تخطيط مدينة جديدة حيث أن أوليلي عاصمته وقاعدة أوربة كانت تكفي لإيواء الهياكل الإدارية الأولية التي أقامها. وأما الجيش، فهو ليس بجيش قارٍّ، فضلاً عن انه كان يخوض بصورة شبه مستمرة غمار الحرب، ثم كيف يقيم عاصمته في منطقة محاطة بقبائل لا يمكن الاعتماد على ولائها ويترك أوربة التي تمثل العمود الفقري من الناحية السياسية والعسكرية لدولته؟ وعلى الصعيد الشخصي، فإن إدريس الأول لم يكن لديه بلاط وحاشية، بل إنه لم يكن متزوجاً، ومن ثم فهو لم يكن في حاجة في هذه المرحلة إلى قصور ومنازل غير التي توفرها له أوليلي.

ج ـ إن النظرية تتجاهل عملية استكشاف الموقع الملائم لبناء المدينة، وهي عملية مهمة جداً بسبب ما تنطوي عليه من التفاصيل الدقيقة، فإن أسماء وزير إدريس الثاني (عمير الأزدي) وكاتبه، عبد الملك الخزرجي، الذي كتب عقد شراء أرض فاس، لا تذكرهما الرواية إلا بمناسبة بعثة الاستكشاف للموقع وتحرير عقد البيع مع القبيلتين المذكورتين. ولو حذفنا هذه الصفحة من التاريخ لحذفنا من علمنا أيضاً ان إدريس الثاني كان له وزير وقاضٍ وكاتب، وهذه العملية (الاستكشاف) لا يمكن أن تكون قد وقعت في عهد إدريس الأول، لأن الثابت ان هجرة القبائل العربية التي ينتمي إليها هؤلاء الأشخاص، إنما وقعت في عهد إدريس الثاني، ومن جهة أخرى، لا يمكن الافتراض بأن إدريس الثاني قد قام بمجهود الاستكشاف لاختيار موقع لمدينته، إذا كان والده قد قام بهذا المجهود قبله وبنى المدينة فعلاً.

د ـ وأما القول بأن الغلطة في الرواية التقليدية ترجع إلى تحريف ناسخ لكتاب، فهو قول لا يمنعنا من وصفه بالسخف إلا ما نكنه من الاحترام والتقدير لجهود صاحب النظرية في خدمة التاريخ والثقافة العربية، فكيف يعقل الا تكون تحت تصرف أكثر من عشرين من العلماء الأجلّة في المغرب وفي الشرق والأندلس، سوى نسخة واحدة من كتاب واحد

وهي التي وقع فيها التحريف؟ أم أن التحريف شمل جميع نسخ التآليف؟ إن صاحب النظرية ينسى في هذه المناسبة أن العلماء العرب في كل زمان ومكان كانوا يعتمدون في المكان الأول على الذاكرة وعلى ما حفظوه عن أشياخهم وعلى الرواية المتسلسلة التي وصلت إليهم. وإذا افترضنا جدلاً أن هذا التحريف وقع في جميع النسخ، فكيف نفسر ما ذكره كل من روض القرطاس والجذوة وزهرة الآس، من أن عملية شراء الأرض قد تمت في سنة إحدى وتسعين ومائة (وليس في السنة التي وقع فيها البناء نفسها)؛ فهل نفترض أن تسعين هنا أيضاً أصابها التحريف وأن الصحيح هو سنة إحدى وسبعين؟ إن هذا شيء لا يستقيم، لأن ادريس الأول إنما حل بالمغرب في ربيع الأول سنة 172 هـ بشهادة الجميع وأبي بكر الرازي نفسه.

والآن، وبعد هذه الاعتبارات العامة، نستطيع أن نتناول بشيء من النقد التحليلي النصوص التي تقوم عليها النظرية.

والمشكلة الأولى التي يواجهها قارىء البحث الذي يعرض النظرية، هو إن الكاتب (وهو معروف بتضلعه في العربية وبمقدرته على الترجمة) لم يعرض علينا النصوص التي يستند عليها حرفياً، أو حتى في ترجمة فرنسية دقيقة، حتى يمكن للباحث الاطمئنان إلى قيمتها، وإنما هو اقتصر على استخلاص السنة التي تتعلق بتأسيس فاس، وهذا الإهمال هو بالتأكيد، السبب الأساسي فيما لقيته النظرية من الرواج، لأنه لو عرض هذه النصوص لكان ما فيها من التعميم وعدم الدقة والتأويل. . . في غير صالح النظرية.

ولِسَدِّ هذا النقص نقترح عرض هذه النصوص بين علامات الاقتباس ثم نعقب ذلك بمناقشتها.

1 — رواية الرازي[1]

يقول ابن الأبار: «وذكر الرازي ان إدريس بن عبد الله دخل المغرب سنة اثنتين وسبعين في شهر رمضان هارباً بنفسه من أبي جعفر (المنصور)، فنزل موضعاً يقال له أوليلي بوادي الزيتون، فاجتمعت إليه القبائل من البربر فقدموه على أنفسهم، وبنوا مدينة فاس، وكانت أجمة شعراء، ولما احتفرت أساساتها، ألفي في بعضها فأس، فسميت بمدينة فاس وسكنها البربر، لم تطل أيامه، وهلك سنة أربع وسبعين ومائة[2]».

والنقطة الأولى التي نلاحظها في هذا النص، هي ان الرازي لم يقل إن إدريس الأول بنى فاس، وإنما قال: «وبنوا» (البربر) فاس، ونظراً لأن الرازي قد عالج دولة إدريس الأول ودولة إدريس الثاني في فقرة واحدة لا تزيد عن عشرة أسطر، فإننا نرجح أن يكون ذكر بناء فاس مجرد استطراد، أو جملة معترضة، وهذا المؤرخ لا يذكر أي تاريخ لبناء مدينة فاس.

والنقطة الثانية، هي ان الرازي هو المؤرخ الوحيد الذي يـذكر ان إدريس الأول مات سنة 174 هـ (ونحن قد سبق أن أوردنا قائمة بأسماء المؤرخين

---

(1) المقصود هو أبو بكر محمد الرازي المؤرخ، وهو أبو أحمد بن محمد الرازي وجدّ عيسى بن أحمد الرازي، وجميعهم من مؤرخي الأندلس، راجع ترجمته في مقالة ليفي بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ـ 4/ 1215 - 1216). وأما ابنه، أحمد الذي ألف عدة كتب في تاريخ الأندلس، ومن بينها كتاب في وصف قرطبة خططها ومنازل العظماء بها، وكتاب آخر في أنساب مشاهير الأندلس، فيمكن مراجعة ترجمته في الجذوة للحميدي (ص 97).

(2) الحلة السيراء (1/ 55).

الذين يحددون موته في سنة 175 والذين قالوا إنه مات في سنة 177 هـ).

ولو كان هذا التاريخ هو الشذوذ الوحيد في رواية الرازي لأمكن التغاضي عنه، ولكن الرازي يقول إن إدريس بن عبد الله هرب إلى المغرب في أيام أبي جعفر المنصور، وهو يخالف في ذلك جميع المؤرخين، حيث إن مقدمه كان ـ كما رأينا ـ في خلافة الهادي، وهذه الغلطة نبه إليها ابن الأبار وصححها[1].

ولكن خلط الرازي واضطراب روايته عن الأدارسة لا يقف عند هذا الحد. ونحن مضطرون لكي نلقي ضوءاً على قيمة هذا النص إلى أن نقتبس فقرة أخرى مما نقله ابن الأبار عن ابناء إدريس، قال ابن الأبار: «وقال الرازي: «فأما محمد بني إدريس فولي مدينة فاس بعد أبيه وقسم عمل أبيه على اخوته وأخرجهم عمالاً، ثم أخلد هو إلى اللهو، واشتهر بالشرب والخلوة بالنساء فخلعه اخوته»[2].

وهذه غلطة كبيرة، حيث إن الرواية مجمعة على ان محمد بن إدريس كان من أصلح أمراء بني إدريس (كما سنرى) وأكثرهم فضلاً وعقلاً وقدرة على إدارة الأمور.

ولكن حقيقة الأمر، هي ان الرازي قد قفـز على اثنـين من أمراء الأدارسة (علي بن محمد، وأخيه يحيى بن محمد) ووضع حفيد محمد (يحيى بن يحيى بن محمد) مكان جده، ويحيى هذا هو الذي اشتهر بالخلاعة وسوء السيرة بحيث إنه طارد يهودية في حمام عمـومي وخلعه الشعب إثـر هذا الحادث.

ويمضي الرازي، فيقول: «وملك كل واحد منهم ما تحت يده ثم لم يلبث محمد إن هلك[3] ولم يعقب (. . .)، فولي أمر فاس بعده القاسم، أخوه

(1) نفس المصدر (51/1).
(2) نفس المصدر (133/1).
(3) عبارة «لم يلبث» ليست في محلها، إذا عرفنا ان محمد بن إدريس ظل يمارس الحكم منذ وفاة أبيه في سنة 213 حتى توفي في ربيع الثاني سنة 221 هـ.

وملكها ملك سيادة»[1]. وسنرى ان محمداً خلف فعلاً وأن اثنين من أبنائه سيتوليان الأمر بعده.

وهنا أيضاً خلط الرازي، بين القاسم (ابن إدريس) وابنه يحيى الذي ولاه أهل عدوة القرويين على أنفسهم بعد أن امتنعوا عن عبد الرزاق الفهري الصفري الذي ملك، عدوة الأندلس من فاس[4] ويختتم الرازي هذه الفقرة عن الأدارسة فيقول: «وتجمع الناس عليه من كل ناحية... ولحق المنفيون عن ربض قرطبة بها (فاس) وتمدنت وكثر أهلها[3]». ونحن نكتفي بالإشارة هنا إلى أن أيام القاسم كانت قد انتهت بحرب بينه وبين أخيه عمر وبهزيمته، وإن هجرة أهل الربض وقعت كما ذكرنا في سنة 198 أي في عهد إدريس الثاني وليس في عهد القاسم الذي كان والياً على سبتة وليس على فاس.

تلك إذا رواية الرازي التي لا تكاد تخلو جملة منها من أغلاط فادحة حيث تخلط الأشخاص والحوادث خلطاً لا رحمة فيه، والتي يريد ليفي بروفنسال أن نعتمدها بشأن تأسيس مدينة فاس دون سواها من الروايات.

* *
*

(1) نفس المصدر (1/133 — 134).
(2) قارن بشأن هذه الأحداث العبر (4/14)، البكري (125)، الاستقصا (1/173) وروض القرطاس.
(3) الحلة السيراء (1/134).

2 — رواية ابن سعيد المغربي

إن النص الذي تعتمد عليه النظرية لم يصلنا ـ مثل النص السابق ـ بطريقة مباشرة ولكنه نقله ابن فضل الله العمري في موسوعته ومعاصره، القلقشندي المصري صاحب صبح الأعشى عن جزء يعتبر ضائعاً من كتاب المغرب. وفيما يلي ما قاله القلقشندي نقلاً عن ابن سعيد «وهي (فاس) مدينتان، احداهما بناها إدريس بن عبد الله، أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب، وتعرف بعدوة الأندلس، والأخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين» ويمضي القلقشندي فينقل مباشرة ما ورد في الروض المعطار للحميري الذي يقول: «وكان بناء عدوة الأندلس في سنة 192 وعدوة القرويين في سنة 193»[1].

ونحن نعترف بأن رواية ابن سعيد هنا صريحه واضحة، والتحفظ الوحيد الذي يمكن التعبير عنه بشأنها يتصل بكونها لم ترد إلينا مباشرة، ومن الواضح ان الرواية المباشرة أبعث على الثقة من النقل الذي كثيراً ما يكون من الذاكرة والذي قلما يلتزم فيه القدماء الحرفية.

ولكن الاعتراض الوجيه على هذه الرواية لا يأتي منا، بل من ابن سعيدالمغربي نفسه. فإن ما أورده هذا العالم الجليل، الذي هو جدير بكل ثقتنا عادة، في كتاب آخر يختلف مع ما نقله عنه القلقشندي، فقد جاء في كتابه في الجغرافية المعنون «البديع» ان بناء مدينة فاس قد بدأ في أول ربيع الأول سنة 192 وانتهى في ربيع الثاني سنة 193[2].

(1) صبح الأعشى (7/153 — 154).

(2) كتاب البديع(مخطوط محفوظ في مكتبة أكسفورد تحت رقم 874 ـ ورقة 34) راجع ترجمة فرنسية لهذا النص في . FAGNAN, EXTRAITS INEDITS relatifs au Maghreb P. 11 — 12.

3 ـــ خبر البكري

يقول أبو عبيد البكري: «وقتل (إدريس الثاني) أبا ليلي إسحاق وهو القائم به وأبيه يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة وبعث رأسه إلى الشرق مع أحمد وسليمان ابنى عبد الرحمن، ثم نزل فاس في عدوة الأندلس وأقام بها شهراً، وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة»[1].

والمشكلة التي يثيرها هذا الخبر في أذهاننا، هي كيف يمكن أن يقوم إدريس الثاني بقتل أبي ليلي زعيم أوربة في 6 من ذي الحجة ويقضي وقتاً في السفر ثم يقال إنه قضى شهراً كاملاً في فاس، مع العلم بأن ذا الحجة هو آخر شهر في السنة الهجرية؟

وفيما عدا ذلك لا يمكن أن يتخذ هذا النص دليلاً ـ كما يرى صاحب النظرية ـ على ان فاس بنيت في عهد إدريس الأول، وأنــها كانت عاصمة ثانية لإدريس الثاني، فإذا تذكرنا ما أوردناه أعلاه من أن البناء قد بدأ في ربيع الأول سنة 192، فإنه لا غرابة في أن يكون العمل قد تقدم في غضون تسعة أشهر ونصف وأن يكون قصر إدريس قد هيىء لإيوائه بحيث يشرف على الترتيبات النهائية لإتمام التشييد في عدوة الأندلس ويتوجه في نفس الوقت إلى موقع عدوة القرويين ليوجه بداية العمل فيها؟ والبكري يضيف بعد هذا الخبر مباشرة، قائلاً: «وكانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها أبيات من زواعة فأرسلوا إلى إدريس فدخل عندهم فأسس مدينة القرويين سنة 193»[2].

---

(1) البكري (ص 123).

(2) نفس المصدر.

وهذا الخبر لا يتناقض، بل على العكس، يؤيد ما سبق ان أورده البكري صراحة حين قال في الباب الذي خصصه لذكر مدينة فاس قبل ذلك بقليل: أسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة، وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس»[1].

ونحن إذا تذكرنا ان كتاب المسالك والممالك قد ألف قبل سنة 453 هـ، أدركنا ان هذا العمل يمكن اعتباره معاصراً لعهد الأدارسة، ومن هنا قيمة شهادة أبي عبيد البكري.

والشهادة الأخرى التي لا جدال في قيمتها هي شهادة ابن حوقل الذي كان معاصراً للرازي وله فضل لا ينكر من حيث إنه كان سائحاً وزار المغرب الأقصى في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري، وهو صريح في القول بأن إدريس بن إدريس هو الذي «أحْدث» فاس[2].

* *
*

(1) نفس المصدر (ص 115).

(2) صورة الأرض (ص 89)، وقد وصف ابن حوقل حكم الادارسة في عهده بعبارة: «وفي وقتنا هذا، تدانت أحوالهم وصلحت أمورهم وعمر طريقهم، ولم يزل أهل هذا النسب (الإدريسي) منظوراً إليهم مرعية حقوقهم عند بني أمية (نفس المصدر، ص 100).

وصف الحسن بن محمد الوزان[1]

يقول الحسن الوزان الفاسي الذي كان يكتب في وقت متأخر (القرن السادس عشر الميلادي) في رحلته التي تحمل عنوان «وصف أفريقية»، مايلي:

«بنيت فاس في عهد هارون الرشيد في سنة 185 هجرية و 786 ميلادية، وقام ببنيانها خارجي عن دين محمد» ومضى الكاتب فوصف هذا الخارجي، فقال إنه إدريس ابن أخ علي (كذا) الذي تزوج فاطمة (أو فالمة، كما يسمي ابنة الرسول (ص))[2].

ونحن نلاحظ في هذه الفقرة، إلى جانب اعتبار إدريس الأول خارجاً عن دين الإسلام وكونه ابن أخ علي (وهي أغلاط تصطدم بالحقيقة مباشرة) ان الكاتب يحول التاريخ الهجري 185 إلى 786 بالتقويم الميلادي، مع أن التحويل يكون بالصورة التالية: 185 هـ = 801م[3].

على إن هذا الخبر المضطرب نفسه سيناقضه الكاتب بعد ذلك إذ يعتنق الرواية التقليدية فيقول إن «إدريس الثاني وجه بناةً ماهرين (كذا) ليختاروا له موقعاً ليبني فيه مدينة، فوقع اختيارهم على الموقع الذي تقف فيه مدينة فاس حالياً»[4].

---

(1) The history and desription of Africa: Leo Africanus ترجمة: «John Pry».

(2) نفس المصدر (416).

(3) انتبه المترجم إلى هذه الغلطة فصححها تصحيحاً لم يوفق فيه حيث جعل التحويل كمايلي: 185 هـ = 793م (راجع 589 هامش 33).

(4) نفس المصدر (ص 418).

ويمضي ليون الأفريقي، ويمعن في الخلط والاضطراب إذ يربط أحداث المغرب، بتاريخ المشرق ويصف أبا العباس السفاح بأنه أول الخلفاء الراشدين (primo pontifice)[1].

وهكذا نجد ان رواية الحسن بن محمد الوزان بما تنطوي عليه من الأغلاط، من كل الأنواع، لا تستحق من الثقة أكثر مما تستحقه رواية الرازي، وبالتالي، لا يمكن الاستناد إليها لتزييف روايات أعلام مثل ابن حوقل والبكري وابن خلدون وابن الأثير وابن أبي زرع وابن القاضي وابن عذاري وغيرهم.

* *

*

(1) أوردها المترجم بالنص اللاتيني وترجمها إلى الانجليزية بعبارة: First Patriarke.

مشكلة الدرهم الإدريسي

إن الدرهم الذي ضرب في فاس في سنة 189 هـ (أي قبل تأسيس المدينة بثلاث سنوات) هو أصل المشكلة كلها. ونحن لا نملك أنفسنا عن الشعور بأن صاحب النظرية كان أشبه بمن عثر على زرّ صغير فراح يبحث عن القماش الذي يلائمه ليصنع منه بدلة بالقياس.

يجب ألّا يفهم من هذا اننا نستهين بقيمة المسكوكات في تحديد التواريخ والأماكن. على العكس، فنحن نشارك العلامة الراحل، ليفي بروفنسال في الأهمية القصوى التي يعلقها على هذا الاكتشاف، على اننا نقف عند هذا الحد ولا نتجاوزه للبحث عن أدلة وهمية لتأييد الحقيقة التاريخية التي ينطوي عليها.

ونحن نذكر بهذه المناسبة مجموعة النقود التي عثر عليها في خرائب أوليلي ونشر وصفاً لها جورج كولن[1]. فإن جميع الدراهم المضروبة في أوليلي[2] تحمل إسم إدريس الأول خلال الفترة بين سنتي 173 — 176 هـ (وهذه الحقيقة تعطي ثقلاً إضافياً للرواية القائلة بأن إدريس الأول توفي في سنة 177 هـ).

وأما الدراهم المكتشفة[3] التي تحمل اسم إدريس الثاني فهي قد ضربت

(1) Hesperis، (العدد 22 سنة 193، ص 20).

(2) تكتب على المسكوكات الإدريسية «ولـيلة».

(3) جميع قطع النقود المكتشفة في وليلي مضروبة من البرونز.

خلال الفترة بين سنتي 180 — 199 هـ. (وهذه الحقيقة تحملنا على إعادة التفكير في الرواية القائلة بأن إدريس الثاني إنما بويع في سنة 187، حينما بلغ سن الحادية عشرة، إذ إنه لا يعقل ان تحمل النقود اسم شخص لم يبايع رسمياً بولاية الأمر)[1].

والدرهم المضروب في سنة 189 هـ.، ليس بحديث الاكتشاف حيث إنه نشر ضمن مجموعة النقود للمكتبة الوطنية بباريس في اواخر القرن الماضي (1891)، وأما الدرهم المحفوظ في متحف خركوف المضروب في سنة 185 هـ. في فاس، فقد أعلن عنه المستشرق ماسينيون في كتابه عن المغرب الأقصى في القرن السادس عشر، كما نبّه إلى رواية الحسن بن محمد الوزان التي تقول بأن فاس أسست في سنة 185 هـ، ولكن هذا الباحث الذي لا نشك في أنه قد اطلع أيضاً على الدرهم المحفوظ في المكتبة الوطنية، لم يتخذ (لا هو ولا غيره من الباحثين) هذا الاكتشاف دليلاً لقلب الرواية القديمة فلم يتصد لتزييفها، وبالطبع، فإن نظرية ليفي بروفنسال لها الفضل في الفات الانتباه إلى هذه المسألة بصورة ملحّة ولكنني أرى انه لا بد لنا من صياغة فرض آخر للقضية، وإذا لم نتمكن من ذلك بسبب نقص في المعلومات في المرحلة الحالية، فيجب أن نحفظ «ملفها» وننتظر حتى تظهر اكتشافات أخرى سواء أكانت قطعاً نقدية أو آثاراً أخرى حينما تجرى حفريات بطريقة علمية منتظمة في مدينة فاس.

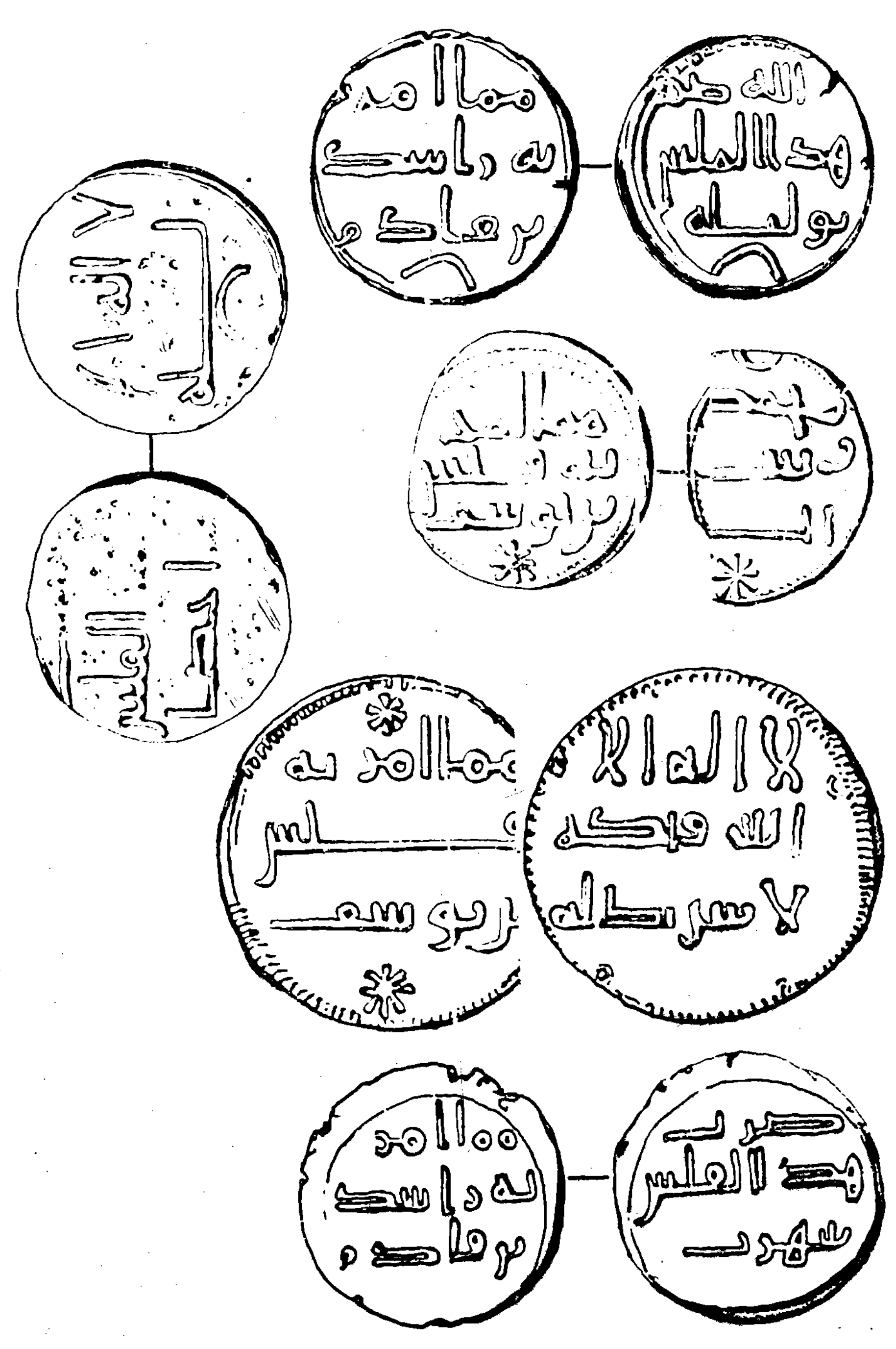
وفي انتظار أضواء جديدة تخرج من ظلمات بطن الأرض، سأعتبر الرواية التقليدية، فيما يخصني، قائمة ومعتمدة وموثوقاً بها، كما كانت دائماً عبر القرون.

❊ ❊

❊

---

(1) راجع رسوم قطع النقود أسفله.



نماذج من النقود الادريسية التي عثر عليها في وليلي (ضعف الحجم الطبيعي).

وضع فاس الاجتماعي والاقتصادي

أشرنا في فقرة سابقة إلى الاعتبارات السياسية العامة التي دفعت إدريس الثاني إلى الرغبة في الانتقال من أوليلي التي ضاقت مرافقها الإدارية والعمرانية وإلى تأسيس مدينة فاس، وقلنا إنه لم يعد من المعقول أن تحتكر قبيلة أوربة نفوذ السلطان بعدما انضوت تحت لواء الدولة قبائل أكبر منها وأخطر شأناً، مثل زناتة ومكناسة ومصمودة، وبعدما ظهرت رغبة إدريس الثاني في إحلال العنصر العربي المهاجر من الأندلس ومن القيروان (وهو عنصر يتمتع بالتدريب والتعليم الذي لم يتوفر للبربر) محل الأوربيين والبربر بصفة عامة، في حكومته وحاشيته. وقد أوردنا كذلك خبر مقتل أبي ليلي زعيم قبيلة أوربة الذي أظهر ميلاً إلى العباسيين، وهي عملية أوحت بها نفس الاعتبارات السياسية التي دفعت بهارون الرشيد في نفس الفترة إلى التنكيب بالبرامكة، ألا وهي التخلص من سيطرة حزب قوي على أجهزة الدولة، ومن النفوذ العارم الذي يتمتع به في البلد.

إن مما يدعو إلى الاعتبار بإلحاح بشأن المقارنة بين نكبة البرامكة التي وقعت في سنة 187 هـ[1] ونكبة أوربة التي وقعت بعد ذلك بأربع سنوات، هذا التوازي العجيب في الأحداث. فإن إدريس الثاني لم يكتف بالقيام بهذه

---

(1) راجع عن هارون الرشيد ونكبة البرامكة الكامل (175/6 وما والاها). البداية والنهاية (213/10) اليعقوبي (322/2) وفيه أن قتل جعفر البرمكي وقع في سنة 188 هـ. الطبري (47/10) الذهب المسبوك للمقريزي (ص 47 — 58) الأغاني (راجع الفهرس) مروج الذهب (207/2 — 431)، . مختصر تاريخ العرب للسيد أمير علي (ص 204 — 217).

«التصفية» الدامية بل أبى إلا أن يبعث برأس أبي ليلي مع رسول خاص إلى الأغالبة، وكأنه يقول: «هذه طرقكم في الانتقام، وهذا هو المصير الذي ينتظر عملاءكم في المغرب».

وهذا التحول السياسي من إدريس الثاني عن البربر واصطفاؤه العنصر العربي، ستكون له نتائج اجتماعية ذات عواقب وخيمة وتظهر آثارها خصوصاً في التطاحن الذي استمر أجيالاً عديدة بين عدوة القرويين، التي تسكنها قبائل البربر مع المهاجرين الهاربين من الحكم العباسي من القيروانيين وسكان عدوة الأندلسيين ممن هاجروا من ربض قرطبة، والأكثرية الساحقة منهم من العرب.

وقصة الحروب المتواصلة بين العدوتين قصة متواترة تعرض لها أكثر من مؤرخ واحد لهذه الفترة. فإن البكري قد حرص حينما تحدث عن باب الحوض وباب سليمان من عدوة الأندلس، وهما يقابلان عدوة القرويين، على أن يخبرنا بأن أهل عدوة الأندلس إنما يخرجون من هذين البابين إلى الحرب إذا وقع بين العدوتين خلاف، ثم يتجهون إلى موضع يعرف بكدية الفول حيث تجري معارك لا هوادة فيها[1].

وهذا قريب مما ذكره حفيد إدريس الثاني، ونعني به الشريف الإدريسي، إذ يقول:

«وبين المدينتين (عدوة الأندلس وعدوة القرويين) أبداً فتن ومقاتلات. وبالجملة فإن أهل مدينتي فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضاً»[2].

وهذا التطاحن الذي يسببه الجوار والمصالح والعقلية المختلفة، من الطبيعي أن يرافقه تنافس في النشاط الاقتصادي والاجتماعي بمختلف ألوانه، بحيث تتباهى وتتفاخر كل مدينة عن الأخرى بجودة منتجاتها وخصب أراضيها ووفرة غلاتها. وهذا التنافس بين مختلف العناصر الأثنوغرافية التي لم

(1) البكري (ص 116).
(2) الإدريسي (ص 76).

تندغم بعد، هو الذي يفسر لنا ما عرفته فاس من الرقي ,والازدهار والوفرة بعد سنين قليلة من تأسيسها، وفي حياة إدريس الثاني.

وفي فترة لاحقة سيتحول هذا التطاحن والتنافس بين المدينتين إلى تفاهم وتعاون خلاق، وتبادل مثمر، لا بين العرب الذين يمثلون حضارة قرطبة والمهاجرين الذين يحملون معهم ثقافة المشرق فحسب، بل وأيضاً بينهم وبين عنصري البربر الأساسيين: بربر التل والجبال وبربر الصحراء الجنوبية الغربية من لمطة وصنهاجة وغيرها. فإن فاس كانت مأوى وملتقى لجميع الأجناس العربية والبربرية التي انضمت إليها عناصر من اليهود والمسيحيين في وقت مبكر[1]. فهذه العناصر كلها ستنصهر وتلتحم بفعل الأحداث الخارجية والمصالح المشتركة وتقوم بالمجهود الحضاري العظيم الذي يحمل طابعاً خاصاً، وهو طابع العبقرية الفاسية.

والمدد الأساسي الذي حمله المهاجرون من قرطبة ومن القيروان، هو مدد ثقافي في المكان الأول. فإن من المعلوم أن الأطلس المتوسط والأطلس الأعلى وما وراء هاتين السلسلتين، قد ظلت بمعزل عن جميع التيارات الحضارية التي وصلت إلى المغرب الأقصى قبل الإسلام. والفترة التي تمتد بين غزو عقبة بن نافع وولاية موسى بن نصير، لا تمثل الفتح الإسلامي، إلا تمثيلاً رمزياً. وبعد موسى بن نصير، كان النفوذ الإسلامي يتركز خصوصاً في الشواطىء ولاسيما الشواطىء الغربية التي كانت معبراً إلى الأندلس. وحتى هذه المناطق قد تأثرت بالاضطراب والتخريب المادي والأدبي الناجم عن ثورة الخوارج. وكذلك يمكن القول بأن وسط المغرب وجنوبه قد ظل (إذا استثنينا واحات مثل سلجمانة وواد غست)، بعيداً عن النفوذ الثقافي الإسلامي، لأن اللغة العربية كانت غريبة فيه. وإذا كان إدريس الأول قد تبربر لكي يتكيف

---

(1) فأما العنصر اليهودي فإن الرواية متواترة بشأن دخوله إلى فاس منذ المراحل الأولى من تأسيسها، وكان اليهود يسكنون داخل أسوار المدينة في الحي الذي لايزال يحمل اسم فندق اليهود. وأما وجود أقلية من النصارى في فاس فيستدل عليه بوجود باب في سور المدينة يسمى باب الكنيسة. ولكن المستشرق تيراس (Terrasse) يذكر في كتابه (le Maroc, P. 120) انه عثر عند باب جيسه على قبور يرجح انها لمسيحيين، يرجع تاريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامي.

بالمحيط الذي آواه واقتطع له مملكة، فإن إدريس الثاني كان بربرياً بالطبيعة، حيث إنه ولد من أم بربرية ولم يقدر له أن يعرف والده وترعرع في محيط كان كل شيء فيه بربرياً، إذا استثنينا أولئك الذين لقنوه مبادىء اللغة والدين.

ومن ثم فإن وصول هذه الموجات من المهاجرين من القيروان ومن قرطبة، وبينهم علماء وفقهاء وأدباء وغير ذلك من الفنانين والصناع ممن امتصوا القيم الحضارية في الشرق وفي الأندلس، يمثل ثورة ثقافية حقيقية في المغرب الأقصى. وبفضل هؤلاء ستنتشر اللغة العربية بين البربر ويصبح من المتيسر عليهم فهم النصوص الإسلامية الأساسية وتقبل أحكام الشريعة.

وبفضل هؤلاء المهاجرين والذين جاءوا من بعدهم، سيتعزز مذهب أهل السنة، وينتشر مذهب الإمام مالك بعدما مهّد له إدريس الثاني الطريق بالقضاء على اليهودية والمسيحية وعلى بقايا الوثنية، وباستئصاله لمذهب الخوارج[1].

ولكن تأثير كل من العنصر القيرواني والعنصر الأندلسي في الحياة العامة في الدولة الإدريسية لم يكن متساوياً في هذه المرحلة. فإذا كان مستشارو إدريس الثاني ووزيره وقاضيه الخ.، من الأندلسيين، فنحن نلاحظ، في مقابل ذلك، انه على الرغم من هذا الاتجاه وعلى الرغم من علاقات حسن

---

(1) كان دراس بن إسماعيل (أبو ميمون) في مقدمة الذين أدخلوا مذهب مالك (ض) إلى بلاد المغرب، وخصوصاً إلى المغرب الأقصى، حيث توفي في فاس (سنة 357 هـ). وقبل ذلك كان المذهب السائد في المغرب هو مذهب الكوفيين (مذهب أبي حنيفة). وبقية الرواد الذين أدخلوا المذهب المالكي إلى أفريقية، هم علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات. وقد أخذ عنهم كثير من الناس، ولم يزل المذهب ينتشر حتى جاء سحنون وقضى على النظريات المخالفة للمذهب، واستقر المذهب بعده في أصحابه، وشاع في جميع أقطار المغرب. ومن هناك انتشر إلى الأندلس حيث أخذ به هشام ابن عبد الرحمن وأمر الناس جميعاً بالالتزام به و صير القضاء والفتيا عليه، وكان ذلك في حياة الإمام مالك. وأما دراس، فقد لقي علي ابن أبي طرفي بالإسكندرية وأخذ العلم عن شيوخ القيروان ومنهم أبو بكر بن اللباد، وسمع منه من أهل الأندلس أبو الفرج عبدوس وخلف بن أبي جعفر وغيرهم، وقد كان من حفاظ المغرب المعدودين. راجع عن هؤلاء جميعاً تراجم ونبذا في تذكرة الحفاظ للذهبي وفي طبقات علماء افريقية لأبي العرب.

الجوار التي كانت قائمة بين الأدارسة وبلاط قرطبة، فإن فاس قد تأثرت في المرحلة الأولى من حياتها بالعنصر القيرواني، أكثر مما تأثرت بالعنصر القرطبي. وهذه هي الحالة، على الأقل، فيما يتعلق بالفن المعماري (كما يدل على ذلك ما تبقى من الآثار). على ان الميزان سيتأرجح في المرحلة التالية في صالح العنصر الأندلسي، حينما يتفتّح المغرب كله لمختلف ألوان الحضارة الأندلسية.

والمدد الحضاري الذي تفاعل مع عبقرية البربر الذين كانوا أيضاً من صناع الحضارة القيروانية والحضارة الأندلسية، سيجسم في مختلف المعاهد والمدارس والمؤسسات التي قامت في فاس في عهد إدريس الثاني وبعده، وعلى رأسها جامع الشرفاء وجامع الأندلس وجامع القرويين. فهذه المعاهد هي التي يشع منها الإسلام واللغة العربية خلال قرون عديدة.

ولكن عظمة وعبقرية مؤسسها الذي لم يكن يدرك، بطبيعة الحال، جميع المزايا التي تترتب على اختياره، هي في موقع هذه المدينة الطبيعي الذي لم يتح سوى لعدد صغير من المدن الإسلامية التي كتب لها البقاء والمجد، مثل القاهرة وبغداد ودمشق. فإن فاس تقع في أقصى المضيق الجبلي الذي تحرس تازا مدخله الشرقي، وتطل على السهول المترامية الأطراف التي تمتد على ساحل المحيط الأطلسي. وعلى مد البصر تلوح في الأفق من جبل زالغ ضفاف سبو وحقول سايس الشاسعة.

والميزة الأساسية التي تميز موقع فاس عن مواقع جميع المدن الرومانية والمدن الإسلامية في المغرب، تتصل بتوفر المياه الطبيعية فيها بغزارة. وبدلاً من نظام القنوات المعقد الذي كانت تجلب بواسطته المياه إلى المدن الرومانية، والمدن الحديثة أيضاً، والذي هو عرضة للعطب في كل آونة ويحتاج إلى مجهود كبير للصيانة والحراسة، تجد فاس حاجتها من الماء النقي مضمونة في كل يوم لجميع المواطنين وبدون كلفة.

وزيادة على ذلك، فإن قيام قبيلة معادية أو جيش محاصر بمحاولة تخريب نظام ماء وادي فاس أمر غير ممكن، بسبب التكوين الطبيعي لمجرى النهر

الذي تمده روافد تنبع من جوف الأرض. ونظام الماء الثابت والوفير هو الذي سمح لفاس، كما سنرى بالصمود لحصار العبيديين مدة نحو سبعة أشهر. وتوفر الماء هو الذي يسمح لمشاغل فأس ومعاملها ومدابغها بالعمل باستمرار، كما إنه هو الذي يسمح للسكان بالعناية بحدائقهم وبساتينهم لإنتاج المواد الغذائية التي يحتاجون إليها بحيث تعيش المدينة في مناعة تامة ضد الجيوش المحاصرة.

وهذا الاعتبار يفسر لنا حقيقة نادرة في تواريخ المدن، وهي إنه لا توجد حالة واحدة استولى فيها جيش غاز عنوة على هذه المدينة إذا استثنينا الحصار الذي شارك فيه بلكين بن زيري الذي تسلق أسوارها بطريقة امتزجت فيها براعة التخطيط بالخدعة الحربية.

وصف ابن حوقل التاجر والرحالة الذي زار المغرب بعد قيام فاس بوقت قصير هذه المدينة في العبارات التالية:

«وفاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان، ونهرها كبير غزير الماء عليه أرجية، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة أحدثها إدريس بن إدريس. في كل من أيام الصيف يرسل في سوقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات»[1].

ويمضي الرحالة فيقول: «إنها في خفض من العيش وطيبة المآكل وخاصة من الهبط في ضمن عبد الله بن إدريس بن إدريس وفي غاية من الخصب ورخص الأسعار واللذيذ من الأغذية الحسنة»[2].

وفي معرض الحديث عن عدوة الأندلس، وصف البكري بعض خصائصها كمايلي: «وبهذه العدوة تفاح حلو يعرف بالأطرابلسي جليل حسن الطعم يصلح بها، وله غلة ولا يصلح بعدوة القرويين»[3].

---

(1) كتاب صورة الأرض (ص 89).
(2) نفس المصدر (ص 100).
(3) البكري (ص 116).

ثم يمضي في المقارنة بين الخصائص المميزة لكل واحدة من العدوتين فيقول: «وسميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد عدوة القرويين لحذقهم بصنعته. وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أنجد وأشجع ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين»[1].

على ان وصف الإدريسي هو ـ بدون شك ـ أوفى وأدق لما تتمتع به فاس من الخيرات التي يأتي بها نهرها وذلك حين يقول:

«ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة، وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر. والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلس. والأندلس ماؤها قليل لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه ببعضها. وأما مدينة القرويين، فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فَجَّروها فغسلوا مكانهم منها ليلاً، فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة وفي كلّ دار منها، صغيرة كانت أم كبيرة، ساقية ماء نقياً كان أو غير نقي. وفي كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام»[2].

ويمضي حفيد إدريس فيقول:

«وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبانٍ سامية وقصور ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم. ونعمها كثيرة، والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً، دون غيرها من البلاد القريبة منها، وفواكهها كثيرة وخصبها زائد. وفي كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية وعليها قباب مبنية ودوامس مخفية ونقوش وضروب من الزينة. وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفَّة»[3].

وقد اشتهر نهر فاس أيضاً بوفرة ثروته السمكية وبتعدد أنواع السمك

---

(1) نفس المصدر.

(2) الإدريسي (ص 75 — 76).

(3) نفس المصدر.

الذي يعيش فيه. وأهم هذه الأنواع فيما يذكر الجزنائي هي: اللبين والبوري والسلباح والبوقة. ويضيف هذا المؤرخ قائلاً إن هذه كلها «أنواع رفيعة»[1].

وغير بعيد من فاس يقع معدن للملح (ملاحة) في المنطقة التي تمتد بين مدشر شاطىء ووادي مكس[2] ومحجر للجص والصلصال[3] ومحاجر تستخرج منها أنواع رفيعة من حجارة البناء.

وكذلك تمتد غابات كثيفة من شجر الأرز تغطي جبال بني بزغة التي تقع على مسافة ثلاثين ميلاً من فاس وتحتوي على أنواع رفيعة من خشب الأرز، ويقول الجزنائي إن أحمالاً كثيرة من الخشب كانت تصل كل يوم إلى فاس[4]، وهذا الخشب مشهور بصلابته ومتانته بحيث يعمر، متى كان بعيداً عن الماء ألف سنة وأكثر. وقد كان العمال يقطعون هذه الأخشاب ويصنعون منها مختلف مواد البناء والأثاث وينقلونها جاهزة على ظهر البغال إلى المدينة[5].

وبالإضافة إلى هذه الغابة كانت الجبال المجاورة (مثل جبل بني بهلول)، تنتج أنواعاً مختلفة من الخشب العادي الذي يستعمل للأغراض اليومية (الطبخ والتدفئة والصناعة الخ).

وغني عن البيان أنه بتوفر الماء والصلصال والوقود من الخشب قد تهيأت للمدينة ظروف ممتازة لمختلف الصناعات، وفي مقدمتها صناعة الفخار

---

(1) زهرة الآس (ص 23).

(2) لا نستطيع تحديد موقع الشاطبي بالضبط. وأما وادي مكس فهو لايزال يحمل هذا الاسم. والمعروف إن الملح يوجد بكثرة في ضواحي فاس، ولاسيما في المنطقة التي تمتد في الشمال الشرقي وعلى الطريق التي تؤدي من تازا إلى فاس. وقد استمرت هذه الثروة المعدنية عبر القرون بحيث أن الكلونيل أسكوت الذي جاء لمساندة الأمير عبد القادر في اوائل العقد الرابع من القرن الماضي، كرس لها فقرة قال فيها إنه لما رأى هذه الجبال الملحية من بعيد اعتقد أنها مغطاة بطبقة من الثلج (راجع ترجمتنا العربية لمذكرات الكلونيل أسكوت).

(3) لاحظ بيل في دراسته لصناعة الفخار في فاس ان الصلصال الذي يوجد فيها نوعان مختلفان أحدهما لا يصلح لصنع الفخار المطلي. راجع Bel (A). industrie de faience emaillé à Fès (P. 20 — 21).

(4) المصدر المذكور (ص 26).

(5) نفس المصدر

والصيني والزليج التي اشتهرت بها فاس عبر القرون والتي ستزدان بفضلها قصور الأمراء والمساجد ومنازل الأغنياء في مختلف مدن المغرب. ونحن مدينون بدارسة وافية عن هذه الصناعة نشرها المستشرق الفريدبيل في سنة 1919، وقد سبقت الإشارة إليها.

والغابات المجاورة لفاس اشتهرت أيضاً بما تحتوي عليه من مختلف أنواع الحيوانات البرية التي كانت توفر مجالاً خصباً لرياضة الصيد وللقنص.

وكذلك يعتبر قرب فاس من نهر سبو[1] من عوامل ازدهار المدينة الاقتصادي، فإن هذا النهر صالح للملاحة. ويقول صاحب زهرة الآس إنه كانت تسير فيه القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم، وتصعد منه إلى ملتقى النهر مع وادي فاس الذي يقع على مسافة ثلاثة كيلو مترات من المدينة[2].

وهذه الملاحة النهرية تتطلب مهارات معينة كما تتطلب أحواضاً لصنع السفن والقوارب التي تتوفر لها المادة الأساسية من الخشب في المنطقة كما ذكرنا.

والواقع إن نفس المؤلف يخبرنا بوجود دار لصناعة السفن في مكان يسمى الحبلات ويقع في أراضي بني عبودة، بالقرب من ملتقى نهر فاس بسبو، وذلك في أيام عبد المؤمن الموحدي.

والنصوص التي بين أيدينا لا تذكر شيئاً عن صناعة السفن في عهد الأدارسة، ولكننا نلاحظ ان جميع الإمكانيات متوفرة لصناعة السفن، وان هذه الإمكانيات قد استغلت فعلاً في فترة لاحقة. وبالتالي فإن من المنطق أن نطرح سؤالاً بشأن الملاحة النهرية وبناء السفن في عهد الأدارسة.

ولكن نهر سبو إذا كان يصلح طريقاً مائياً للمواصلات إلى البحر

---

(1) ينزل نهر سبو من جبال الريف من سلسلة الأطلس الأوسط ويمر في شرقي مدينة فاس على نحو ثلاث كيلومترات منها، ثم يمر بمدينة القنيطرة وينصب في المحيط الأطلسي في شمال مدينة الرباط بعدما يقطع مسافة 458 كيلومتراً.

(2) المصدر المذكور (ص 27).

المحيط (الأطلسي)، فهو يصلح خصوصاً، لصيد السمك الكبير الذي يميز المؤرخون من بين أنواعه الشابل الكبير والحوت الذي يعرف باسم القرب[1] والذي يبلغ وزن السمكة الواحدة منه قنطاراً وأكثر، كما يوجد فيه السمك المعروف باسم الشولي.

وأخيراً فإن فاس تحتل مركزاً تجارياً مـرموقـاً بين الجنـوب والشمال والشرق والغرب، حيث إنها تقع عند ملتقى أكبر طرق القوافل في المغرب كله: الطريق الآتية من الجريد عبر تلمسان متجهة إلى المحيط الأطلسي[2]، والطريق المتعرجة التي تخترق جبال الريف متجهة إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وإلى الأندلس. وأخيراً تلك الطرق التي تمر بمضايق سلسلة جبال الأطلس المتوسط، وتتجه إلى سجلماسة ثم إلى الصحراء الكبرى.

وكذلك نرى انه على الرغم من أن الدوافع الأسـاسية التي دفعت إدريس الثاني إلى تأسيس فاس، هي دوافع روحية «ليعبد الله فيها»، كما جاء في خطبته، فإن ما يحيط بالمدينة من المياه الجارية والغابات والأشجار وغير ذلك من الاعتبارات الطبيعية لا بدَّ وأن يكون قد أغراه ورجح في ذهنه اختيار موقع فاس.

* *

*

(1) يعتقد فانيان Fagnan إن هذا السمك هو التنّ.

(2) راجع عن هذه الطريق ترجمتنا العربية (لكتاب «الإسلام في مجده الأول» (ص. . .) للعلامة لومبار، Lombard (M) L'Islam dans sa première grandeur (P. 62).

خاتمة الفصل

بينما كان سلطان إدريس الثاني يقوى ويشتد تحت وصاية أبي خالد يزيد ابن الياس العبدي، كان الأغالبة يتبنّون القلق الذي كان يساور هارون الرشيد في عهد إدريس الأول

ومنذ سنة 181 هـ. ، أخذ إبراهيم ابن الأغلب، الذي لم يكن قد تولى مقاليد افريقية بعد[1] يهتم بنموّ نفوذ الأدارسة بل ويعتزم، فيما يقول ابن الأثير[2]، الزحف على المغرب الأقصى، ولكن أصْحابه نهوه عن ذلك قائلين: «اتركه ما تركك، فأعمل الحيلة».

وكذلك راح يحبك المؤامرات حول الملك الطفل بقصد احداث الشقاق بين كبار رجاله ولحملهم على مبايعة هارون الرشيد. وقد اصطفى، من بين هؤلاء زعيمًا اسمه بهلول بن عبد الواحد[3]، وغمره بالهدايا وعينه قائمًا على

(1) عين عاملًا على الزاب في سنة 179، ولكنه كان يلعب دوراً مهمًا في شؤون افريقية، بسبب مناصرته لابن مقاتل الذي تغلب عليه أحد عماله في سنة 181 هـ. ، ولما عزل الرشيد مقاتل في سنة 184، ولاه على افريقية في مقابل ضريبة مقدارها 40 ألف دينار يدفعها سنوياً. راجع سيرته في الخلاصة النقية (ص 33 — 35)، الاستقصا (60/1) أعمال الأعلام (ص 14 — 15)، الغبر (196/4)، البيان (92/1)، الكامل (51/6).

(2) الكامل (156/6).

(3) لا صلة لبهلول بن عبد الواحد، ببهلول بن راشد الذي درس على الإمام مالك والذي ضربه مقاتل وحبسه حتى مات في حبسه، أيام إبراهيم بن الأغلب، راجع ترجمة قصيرة له في الجذوة (ص 154).

شؤونه. ولم يزل يتابعه حتى فارق إدريس وأعلن الطاعة لابن الأغلب وخرج معه كثير من أتباعه على طاعة إدريس.

وقد سبق هذا الحادث تبادل رسائل شعرية بين إبراهيم ابن الأغلب وبهلول ردّ فيها الأخير على دعوة الأغلبي[1] بالأبيات التالية:

لئن كنت تدعوني إلى الحق ناصحاً	لتكشف عن قلبي ضمير خلاف
لَقِدْماً أتانا عنك أنك ناصح	لمن قال بالصلح الخلافة كاف
وانك محمود النقائب عندهم	تزيّن ما تأتي لهم بعفاف
فعجل علي ردّ رأي فإنني	أردّ الهوى للحق حين يوافي

فأجابه إبراهيم بن الأغلب بقوله:

عرضتُ على البهلول ما إن أصابه	تَعَوَّض منه طاعة بخلاف
ليركب نهج الحق والحق واضح	ونهج العمى وعر المسالك عاف
فلا تتركن رشد الهدى لضلالة	كمستبدل رنق الشراب بطاف
وبايع لهارون الإمام بطاعة	تجده على الإسلام خير مكاف

ويبدو ان انقلاب بهلول بن عبد الواحد المدغري كانت له أبعاد خطيرة، لأن ابن الأبار يخبرنا أن إدريس الثاني كتب إليه عندما بلغه عزمه على خلع طاعته ومبايعة هارون الرشيد يدعوه إلى مراجعة قراره ويحذره من كيد إبراهيم بن الأغلب[2] قائلاً:

كأنّك لم تسمع بمكر ابن أَغْلَب	وما قد رمى بالكيد كلَّ بلاد
ومن دون ما منَّتْك نفسك خالياً	ومناك إبراهيم خرط قتاد

بل إن إدريس الثاني (أو على الأقل، مستشاروه، حيث إن من الصعب أن نتصوره يقرض شعراً سياسياً في هذا المستوى وعمره لا يكاد يتجاوز العاشرة)، سيبلغ به القلق درجة يضطر معها إلى الكتابة إلى خصمه وممثل

---

(1) الحلة السيراء (111/1 — 112).

(2) نفس المصدر (55/1).

قاتل أبيه، إبراهيم بن الأغلب، ليدعوه إلى طاعته أو على الأقل، إلى الكف عن مضايقته، ويذكِّره بقرابته من رسول الله (صلعم)[1]. وفي أسفل كتابه هذه الأبيات الشعرية:

أُذكِّـر إبـراهـيم حـق محـمـد وعتـرتـه والحق خـير مقـول
وأدعوه للأمـر الذي فيـه رشده ومـا هـو لـولا رأيـه بجهـول
فـإن آثـر الـدنيـا فـإن أمـامـه زلازل يـوم للعقـاب طـويـل

ولكن مؤامرات إبراهيم بن الأغلب ستستمر وسيكون آخر فصولها اغتيال راشد مولى إدريس الأول في سنة 186 هـ[2] كما رأينا.

ومهما يكن من أمر، فقد أقام إدريس الثاني في عاصمته الجديدة حتى سنة 197 هـ ثم خرج لغزو من بقي من الكفار بنِفِّيس[3] ودخل هذه المدينة، ثم اتجه إلى الجنوب، واستولى على مدينة أغمات[4] وبعدما أخضع البلاد التي تمتد بين المنطقتين، عاد إلى فاس وأقام بها حتى شهر محرم سنة 199 هـ

---

(1) نفس المصدر والكامل (156/6).

(2) رواية ابن الخطيب في أعمال الأعلام (ص 196 — 197)، العبر (14/4) الاستقصا (161/1)، وأما صاحب روض القرطاس فيذكر أن راشد قتل في سنة 188 هـ.

(3) نفيس (بكسر النون وتشديد الفاء) هي غير نفيس التي تقع على ميلين من المدينة المنورة وصفها البكري (ص 160)، فقال إنها مدينة كثيرة الأنهار والأثمار وقال إنه: «ليس في ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل منظراً» والبلدة تقع على ضفة نهر يحمل نفس الاسم ويتلقى منابعه من أعالي الأطلس، عند تنمال، وينصب في بحيرة جنوبي مراكش (راجع الإدريسي، ص 63)، وفي مكان نفيس تقوم حالياً قرية تعرف بالمدينة، تقع بين تانْزَلْتْ ودَرْكَالة.

(4) تقع أغمات في جنوبي مراكش على النهر الذي يحمل اسمها والذي ينزل من جبال الأطلس عند وريكة، والمنطقة ستصبح ولاية من ولايات أبناء إدريس في عهد ابنه محمد، وأغمات مدينتان، أحداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة، والمنطقة كانت مساكن لقبيلة مصمودة في قصور وقرى، وقد اشتهرت فيما بعد بقبر المعتمد بن عبّاد الذي سجن ودفن فيها، وساحل أغمات يمتد على المحيط الأطلسي، ويسمى ميناؤه رباط فوز، ويقول البكري إن الطريق بين نفيس وأغمات تمتد على 35 ميلاً، راجع، البكري (ص 153 — 154)، الإدريسي (ص 29 — 61)، المعجب (ص 246، هامش 2 و 155 — 156)، روض القرطاس ومحمد بن الحسن الوزان، في وصف افريقية، طبعة شيفر Schefers (209/1 وما بعدها) وكذلك مقالة دوتيه Douté في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية ـ 230/2).

(814م) حين قام بحملة لاسترجاع تلمسان التي دخلها، مثل أبيه، صلحاً.

وفي تلمسان أقام إدريس الثاني نحو ثلاث سنوات قضاها في تنظيم شؤونها الإدارية وإصلاح أحوالها، وقد كان من بين الآثار ومعالم المدينة التي أصلح أحوالها وبنى أسوارها، مسجدها الجامع.

وكذلك تمكن في غضون هذه الاقامة من محو دعوة الخوارج «واقتطع الغربين من لدن السوس الأقصى حتى نهر شلف، ودافع إبراهيم ابن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالمكايد واستمال بهلول بن عبدالواحد بمن معه من قومه عن طاعة إدريس إلى طاعة هارون الرشيد، واستراب إدريس بالبربر، فصالح ابن الأغلب وسكن من غربه وعجز الأغالب من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغض من إدريس والقدح من نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيط العنكبوت»[1].

وبعد ذلك عاد إدريس الثاني إلى فاس حيث توفي بحبة عنب أشرقت في حلقه في جمادى الأخيرة في سنة 213 هـ. (أغسطس828م)[2]. ودفن في فاس بجامع الشرفاء في رواية، وفي أوليلي، بجانب قبر أبيه في رواية أخرى:

وباختفاء إدريس الثاني، قلّبت صفحة مجيدة في تاريخ المغربين الأقصى والأوسط، فإن إدريس الثاني الذي سار على نهج أبيه كان المؤسس

---

(1) العبر (4/13 — 14).

(2) هذا هو تاريخ وفاة إدريس الثاني كما أورده ابن الأبار في الحلة السيراء (1/53) والتنسي في شرف بني زيان (مخطوط ـ ورقة 119 ظهر) وابن خلدون في العبر (4/14) وصاحب روض القرطاس الذي قال إنه دفن في فاس، ويحيى بن خلدون في بغية الرواد (ص 80)، والقلقشندي في صبح الأعشى (5/180) وابن عذاري في البيان (1/211) والبكري في كتاب المغرب (ص 123) والسلاوي في الاستقصا (1/75) الذي ذكر انه دفن في وليلي، ولكنه يَنْقُل رواية أحمد زروق الذي قال إنه دفن بفاس، والجزنائي صاحب زهرة الآس (ص 22) الذي قال فإنه دفن بفاس. وعبد الحي الكتاني في الدّرّ النفيس (طبعة حجرية ـ فاس) وأما ابن الأثير، فقد أورد وفاة ادريس الثاني في الكامل ضمن حوادث سنة 214 (6/415)، وقد تبعه في ذلك إسماعيل أبو الفدا في المختصر في أخبار البشر (2/30)، ولكنه ذكر الرواية التي تقول بوفاته في سنة 213 هـ.

الحقيقي لأول دولة كبيرة في المغرب منذ الفتح الإسلامي، فقد استطاع بحزمه وحكمته إحباط مؤامرات الأغالبة، ومن ورائهم قوة هارون الرشيد وموارده التي لا تنضب، وتمكن من تثبيت سلطانه على قبائل البربر العاتية دون أن يكون له سند من العصبية بينها، كما كان الحال بالنسبة إلى مؤسسي الدول المغربية الكبيرة بعده، مثل ابن تومرت وزيري بن منادٍ ويوسف ابن تاشفين. وكذلك تمكن في طرف وجيز نسبياً (مع اعتبار صغر سنه) من توسيع القاعدة الصغيرة التي وضعها أبوه والتي تشكل أوربة دعامتها، ومد حدود مملكته عبر جبال الأطلس الأعلى في جنوب مراكش حتى درعة التي تمثل مناجم الذهب فيها موارد ذات قيمة كبيرة، لمشروعاته للتوسع والتشييد، وكذلك ضمن لنفسه موانىء المحيط الأطلسي والسّيطرة على مضيق جبل طارق من طنجة وسبتة اللتين كانتا القاعدتين التقليديتين، قبل عهده وبعده، للقفز إلى الأندلس.

وفي هذا السياق يطرح نفسه سؤال، وهو: لماذا لم يفكر إدريس الثاني في غزو الأندلس بعدما توطدت دعائم ملكه على المناطق التي بين السوس الأقصى وشلف؟

تنقصنا المعلومات للإجابة عن هذا السؤال، ولكن إشارة وردت في كتاب التنسي، «قلائد العقيان في بيان شرف بني زيان» ذات مغزى خاص حين يقول: «فامتدت جنوده إلى شلف وضايق بني الأغلب ملوك أفريقية، وسمت همته إلى مضايقة بني أمية، الكائنين بالأندلس وعوّل على الاقتحام عليهم في جزيرتهم، فأدركه أجله قبل الشروع في ذلك»[1].

وسياسة التوغل عبر الجبال المنيعة ومواجهة القبائل شبه المتوحشة المعتصمة بهذه الجبال والتي ظلت في عزلة تامة عن العالم، قد تبدو سياسة سهلة التخطيط والتنفيذ، بعدما استقر الأمر لإدريس الثاني في السهول، ولكن الحقيقة هي ان هذه السياسة التي تستهدف لا مجرد الاستكشاف، بل وأيضاً السيطرة على مناطق مجهولة، تحتاج إلى كثير من الجرأة والحزم، وخصوصاً إلى

---

(1) المصدر المذكور، المخطوط (ورقة 119 ظهر).

روح المخاطرة، ونحن، لكي نأخذ فكرة عن طبيعة الصعوبات التي كانت تواجه إدريس الثاني، يكفي أن نعرف ان جميع الولاة الذين جاءوا بعد عقبة ابن نافع، قد فشلوا في إخضاعها، بل وحتى في نشر الإسلام بين معظمها. وهذا شيء لا غرابة فيه إذا عرفنا ان حدود المستعمرات الرومانية لم تكن تتجاوز في اتجاه الجنوب نهر بورقراق الذي ينصب في المحيط عند الرباط - ساله، وأما ما وراء هذا النهر، فقد كان الاعتقاد السائد عند الرومان، هو أنها عبارة عن أراض متوحشة وبرار تتصل بالصحراء مباشرة، لا خير فيها ولا مطمع للاستعمار، فإن المؤرخ الروماني بلين (PLINE) يصف المنطقة التي تمتد وراء بورقراق بأنها منطقة وحشية ترتع فيها الفيلة المتوحشة والسباع الضارية وتعيش فيها عصابات اللصوص التي هي أخطر من الفيلة والسباع، على حد قوله.

والمهم ان جيوش أباطرة الرومان لم تحاول اقتحام هذه الجبال للنفوذ إلى الصحاري الشاسعة التي تمتد وراءها، وهذه المناطق، هي التي نشر فيها إدريس الثاني الإسلام ومدنها خصوصاً، بمركز الإشعاع الثقافي العظيم الذي تمثله مدينة فاس.

ولو لم يكن لإدريس الثاني من عمل سوى تأسيس مدينة فاس التي شهدت بداية الازدهار الثقافي الاقتصادي في حياته، لكان هذا العمل وحده كفيلاً بتخليد ذكره في التاريخ، لأن تشييد مدينة فاس يمثل، كما قال جوتييه «أعظم عمل قام به الأدارسة، فهي ترمز، بحق لمجدهم وعبقريتهم، وهذا العمل إذا نظرنا إليه من زاوية تركيز الحضارة الإسلامية في المغرب، يفوق كل ما قامت به دولة أخرى في المغرب، من قبل ومن بعد»[1].

والصعوبة الأخرى التي قد تبدو لنا هينة، وهي ليست كذلك، هي تخليص المغرب من قبضة القبائل الكبيرة التي اعتنقت مذهب الصفرية وطوحت بالمغرب في بحر من الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادي والاجتماعي خلال فترة تقرب من نصف قرن، وتحطيم سلطان هذه القبائل

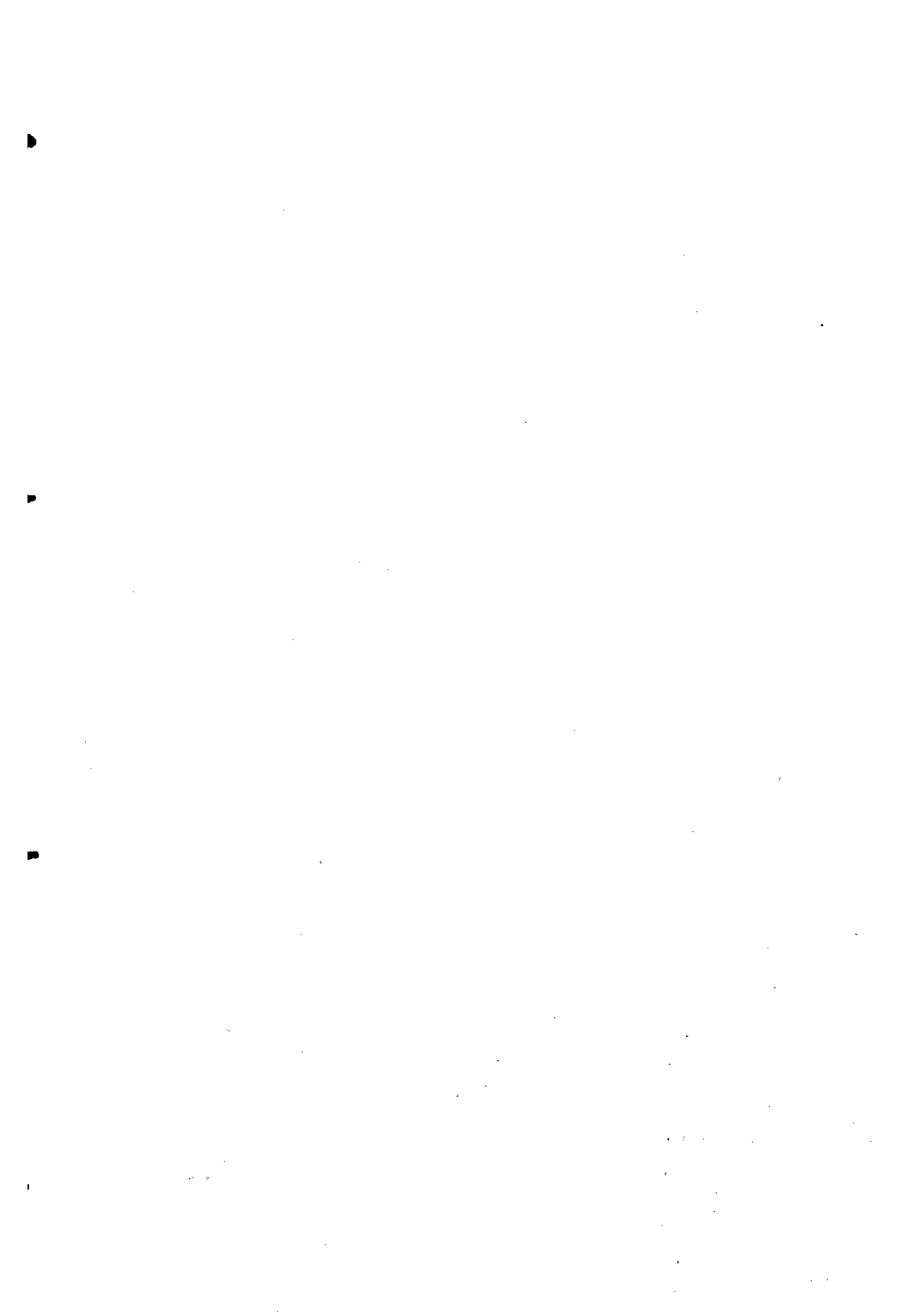
---

(1) Gautier (F): Le Passé de L'Afrique du Nord (p - 292 - 93).

والقضاء على مذهب الصفرية وإحلال مذهب أهل السنة محله يمثل - إذا نظرنا إليه رجعياً - حجر الزاوية في تاريخ المغرب الإسلامي. ولكن عبقرية إدريس الثاني السياسية تبدو لنا في أعظم مظاهرها، إذا تذكرنا ان النضال الطويل الذي خاض غماره، هو وأبوه، لم يمنعه من التعايش السلمي مع دولتين من دول الخوارج كانت كلتاهما واحة للسلام ومركز إشعاع ثقافي عظيم، ونعني بذلك دويلة بني مدرار في سجلماسة، ودويلة تيهرت الرستمية، على الرغم من أن الأخيرة لم تلعب دور الدويلة / الحاجز الذي قد تتصوره، لأنها دخلت في صلح مع الأغالبة في فترة متأخرة من حياتها.

ومهما يكن من أمر فإن دولة الأدارسة الأولى قد بلغت أوج عظمتها في عهد إدريس الثاني، وأما عهد ابنه محمد بن إدريس، فهو يمثل استقراراً للأمور، ويعكس ميلاً إلى الرضى بما تحقق في العهد السابق. إنه عهد المحافظة على المكاسب وتوزيع التركة. وقد كان من الضروري ان يعقبه - حتماً - عهد التقلص الذي سرعان ما يتحول بظهور العبيديين والتنافس بينهم وبين الأمويين في الأندلس، إلى تدهور سريع، ثم إلى الاضمحلال. وفي الصفحات التالية سنتابع مصير الدولة الإدريسية تحت أمرائها المتعاقبين - العظماء والحكماء منهم، مثل المستبدّين والطائشين، على السواء.

* *
*



الفصل الرابع

عهد محمد بن ادريس

بعد وفاة إدريس الثاني تولى الأمر ابنه محمد الذي ولد من امرأة من أشراف قبيلة نفزة، واستمر على اتخاذ فاس عاصمة لملكه، وعلى عكس العادة المتبعة من استئثار الوارث للعرش بالحكم، فإن الروح الديمقراطية المتغلغلة في البربر، أبتْ له إلّا أن يجعل حكم الامبراطورية حكمًا جماعياً.

وبناءاً على نصيحة جدته كنزة، أم إدريس الثاني، فقد قسم المملكة إلى عدة ولايات وضع على رأس كل ولاية منها واحداً من اخوته الكبار، واحتفظ هو لنفسه بولاية فاس، كما استبقى أخوته الصغار في كفالة جدته.

وهذا التوزيع قد تم بعناية ومع مراعاة للتقسيم الجغرافي للمغرب ومع اعتبار ما يتمتع به كل واحد من اخوته من قوة الشخصية وما اشتهر به من الشجاعة والفضل، والرواية التي وصلت إلينا تتفق على النقاط الجوهرية في هذا التوزيع، ولكنه يوجد اختلاف بين المؤرخين بشأن بعض التفاصيل، ولذلك فنحن نورد الروايات الأساسية في الموضوع وهي: رواية ابن خلدون (عبد الرحمن) في العبر، وابن الخطيب في أعمال الأعلام، والبكري في كتاب المغرب، وابن أبي زرع في روض القرطاس، والناصري السلاوي في كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى.

وفيما يلي جدول توزيع محمد بن إدريس لمملكته:

توزيع محمد الولاية على أخوته(*)

البكري	ابن الخطيب	ابن أبي زرع	ابن خلدون	السلاوي
القاسم: البصرة ـــ وطنجة وما والاهما	سبتة وطنجة وقلعة النسر وما وَالاَ ذلك من القبائل والبلاد	طنجة وسبتة وقلعة النسر وتطوان ومصمودة وما والا ذلك	طنجة والبصرة وتيطاوين وما وَالا ذلك	مثل ابن أبي زرع
عمر: صنهاجة وغمارة	صنهاجة وغمارة	تمجنساس وبلاد غمارة وما والاهما	تيكسان وتدغة[1] وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة	مثل ابن خلدون
داود: هوارة وتاسلمت	بلاد هوارة وما والاهما	بلاد هوارة وتسول ومكناسة وغياثة	هوارة وتسول وتازا وما بينهما من القبائل:	مثل ابن خلدون
يحيى: داي وما والاها	مدينة البصرة ومدينة أصيلا	مدينة البصرة ومدينة أصيلا ومدينة العرائش إلى بلاد درعة[2]	مكناسة وغياثة أصيلة والعرائش وبلاد ورغة	أصيلة والعرائش والبصر وورغة

حمزة: الأودية بقرب وليلي	تلمسان	تلمسان وأعمالها	وليلي وأعمالها	مدينة وليلي وأعمالها
عيسى: وازمور وسلمى	شالة وازمور وتامستا وبرغواطة	مدينة شالة وبلاد تامسنا	شالة وسلى وازمور وتامستا وما إلى ذلك من قبائل	شالة وازمورة وتامستا وما انضم إلى ذلك من قبائل
عبد الله: لمطة وما والاها	السوس الأقصى وبلاد نفيس	أغمات وبلاد نفيس والسوس الأقصى	أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى	مثل ابن خلدون
أحمد: لم يذكر له ولاية	لم يذكر له ولاية	مكناسة وبلاد فازاز وبلاد تادلة	لم يذكر له ولاية	
إدريس: لم يذكر له ولاية	شالة	لم يذكر له ولاية .	لم يذكر له ولاية	لم يذكر له ولاية

(*) في البيان: أعطى القاسم طنجة ومايليها، وأعطى عمر صنهاجة الهبط وغمارة وأعطى داود هوارة تامليث وولى عيسى ويحيى بلاداً أخرى.

(1) كذا في العبر، تقرأ: ترغة.

(2) كذا في روض القرطاس: تقرأ؛ ورغة.

ويبدو ان الرياح كانت رخاء في عهد محمد، لأن المؤرخين لا ينقلون إلينا أية حوادث تذكر عن حكمه، وهم، على كل حال، مجمعون على وصفه بالعقل وحسن السياسة، وبالعلم والفضل والعدل في الرعية، وانه كان ينهج نهج أبيه وجده.

وقد استمرت مملكة الأدارسة تنعم بالسلام والرخاء حتى خطر لشقيقه الأمير عيسى الذي ولاه شالة وبلاد تامسنا[1]، ان ينكث العهد ويثور على محمد ويستقل بعمله.

وإثر ذلك، كتب الإمام إلى أخيه القاسم، صاحب سبتة وطنجة، يأمره بالزحف على عيسى لإخضاعه بالقوة، ولكن القاسم أحجم عن القيام بهذه المهمة واعتذر إليه عن عدم تنفيذ أوامره بأبيات من الشعر أوردها صاحب الحلة السيراء[2] فيها يقول:

سأترك للرَّاغب الغرب نهباً ... وإن كنت في الغرب قيلا ونَدْبا
وأسمو إلى الشرق في همة ... يعزّ بها رُتَباً من أحبّا
وأترك عيسى على رأيه ... يعالج في الغرب هَمّاً وكربا
وَلَوْ كان قلبي عن قلبه ... لكنت له في القرابة قلبا
وإن أحدث الدهر من ريبه ... شقاقاً علينا وأحدث حربا
فإني أرى البعد ستراً لنا ... يجدد شوقاً لدينا وحبا
ولم نجنِ قطعاً لأرْحَامِنا ... نلاقي به آخر الدهر عتبا
و[illegible] العداوة في عقبنا ... وأكْرِمْ به حين نعقب عقبا
وأوفق من ذاك جوب الفلاة ... وقطع المخارم نقبا فنقبا

---

(1) يطلق اسم تامسنا على الشريط الساحلي الذي يمتد على المحيط الأطلسي من الرباط حتى مصب نهر أم ربيع، وراء الدار البيضاء، ومنطقة تامسنا هي التي كانت مهداً لدويلة برغواطة الذين اخترعوا لأنفسهم ديناً وخرجوا عن الدين الإسلامي واشتهروا خلال حقبة تاريخية طويلة بأعمال القرصنة ضد السفن التجارية التي تمر بجبل طارق. وقد استمرت هذه الطائفة تصارع جميع الدول التي حكمت المغرب، حتى قضى عليها المرابطون، راجع البكري (ص 87)، الإدريسي (ص 80) أعمال الأعلام (ص 180 — 181).

(2) المصدر المذكور (1/132 — 133).

وهذه الأبيات صريحة واضحة الدلالـة على ان اعتـذار القاسم ابن إدريس عن تنفيذ المهمة التي كلفه بها أخوه، مرجعه إلى الحرج والإشفاق من أن يأتي بعمل يقسم صفوف الأسرة ويـزرع الإحن والعداوة في الأجيـال التالية.

ومهما يكن من أمر فقد كتب محمد إلى أخيه عمر، صاحب صنهاجة وغمارة، وكلفه بالمهمة الشاقة التي رفضها القاسم.

وقد أجابه عمر إلى ما أراد وخرج على رأس جيش كبير من قبائل غمارة وصنهاجة وأوربة، ولكنه بدلاً من أن يسير إليه مباشرة، اتجه أولاً إلى فاس، ولما قرب من أحوازها كتب إليه يستمده بألف فـارس من قبائـل زناتة[1].

ثم مضى عمر لسبيله حتى لحق بأخيه عيسى وأوقع به قبل أن يصله مدد محمد وهزمه وأخرجه من بلدة شالة وهرب إلى سلا، ثم كتب عمر إلى أخيه يخبره بالنصر والفتح، فرد عليه محمد يشكره على فعله ويوليه عمل أخيه المهزوم، ويأمره بالزحف على أخيه القاسم الذي عصى أمره وامتنع عن حرب عيسى، فسار إلى لقائه وجرت بين الأخوين حروب ومعارك قاسية انتهت بهزيمة القاسم واستولى عمر على ما كان بيده من البلاد.

وأما القاسم الذي ترك وشأنه، فقد ضاق ذرعاً بالسياسة ومتطلباتها القاسية فتزهد وبنى لنفسه مسجداً في أصيلا، على ساحل المحيط بمكان يعرف بتمدارت[2] فلزمه وبقي يتعبد هناك إلى أن مات.

تلك رواية صاحب روض القـرطاس والبكـري وابن الخطيب وابن خلدون، ولكن ابن الأبار يخبرنا ان حياة القاسم لم تنته في الزهد والتعبد، لأنه لما عاين البربر مصيره المؤلم نهضوا لنجدته كما يقول: «فصرفوه إلى عمله ورجع إليه كل من صدر إلى أخويه محمد وعمر»[3].

---

(1) قارن روايات ابن الخطيب في أعمال الأعلام (ص 205 — 206) الدرر البهية (ص 86) الحلة السيراء (133/1) البكري (ص 124) الاستقصا (156/1) العبر (14/4) روض القرطاس.

(2) يقول محققا أعمال الأعلام إن هذا المسجد لايزال قائمًا قرب طنجة، (ص 206 هامش).

(3) المصدر المذكور (133/1)، وعمر بن إدريس هو جد الخلفاء الحموديين الذين ملكوا قرطبة =

ومهما يكن من شيء، فقد أقام الأمير عمر على ما كان بيده من الأراضي حتى توفي بموضع يقال له «فجّ الفارس» ببلاد صنهاجة الصحراء[1] فحمل إلى مدينة فاس وصلى عليه أخوه محمد، فدفن بها في سنة 220 هـ.، وعقد الإمام محمد بعده لابنه علي بن عمر على عمله، وكان عمر قد ترك من الأبناء إلى جانب علي، إدريس وعبد الله.

وبعد وفاة الأمير عمر بسبعة أشهر، توفي محمد بن إدريس بفاس في ربيع الثاني سنة 221 هـ. (فبراير 836م)، ودفن بشرق جامع المدينة، فكانت أيامه في الحكم ثمانية أعوام[2].

* *

*

= وسبتة وطنجة والجزيرة الخضراء والذين سنتناول تاريخهم في القسم الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله.

(1) تمتد أراضي صنهاجة في المغرب في ثلاث مناطق أساسية:

1 — بين مليانة عبر أشير ولمدية ومتيجة وحمزة (البويرة) حتى جنوب بجاية في المغرب الأوسط.

2 — توجد في المغرب الأقصى فروع لصنهاجة تحتل جزءاً من جبال غمارة وسهولها.

3 — في المناطق التي تمتد بين تازا حتى منابع وادي العبيد، ومن هناك في اتجاه الجنوب الشرقي وجنوب الأطلس المغربي حتى مصب نهر سوس، والجزء الشرقي من ولاية تادلة أيضاً تابع لأراضي صنهاجة.

(2) اعتمدنا رواية القرطاس والاستقصا والعبر.

علي بن محمد بن إدريس

بعد وفاة محمد بن إدريس ولي مكانه باستخلافه، ابنه علي الملقب بحيْدَرَة (وهو لقب علي بن أبي طالب (ض)).

ولد علي من حرة اسمها رقية بنت إسماعيل بن عمير بن مصعب الأزدي، ومن نسله ينحدر الأشراف العلميون (أهل جبل علم) الذين منهم المشيشيون، أولاد عبد السلام بن أمشيش (الذي تبالغ العامة في تقديسه في المغرب) والوزنيون.

وقد بويع علي بن محمد وسنه لم تكن تتجاوز التاسعة وبضعة أشهر، فقام بأمره الأولياء ورجال دولة أبيه من العرب والبربر وأحسنوا تربيته وكفالته.

وقد سار علي بن محمد الذي اشتهر بالذكاء والفضل، على سيرة أبيه وجده في الحكم بالعدل والقسطاس، فكانت أيامه أيام سلام ورخاء. واستمر عهده بدون أحداث تذكر حتى توفي في رجب سنة 234 هـ (يناير 848م)، وعهد لأخيه يحيى بن محمد بالأمر من بعده.

يحيى بن محمد بن إدريس

عرف يحيى بحسن السيرة والتمسك بالدين ومقاومة البدع. وقد عرفت المملكة في عهده الاستقرار والرخاء، كما شهدت فاس نشاطاً نـادر المثال في تاريخ المغرب، فازدهرت الثقافة فيها واتسع عمرانها، فكان الناس يقصدونها من الأندلس ومن افريقية للإقامة والتجارة ولغير ذلك من الأغراض.

ونتيجة لذلك، ضاقت المـدينة بسكـانها واتجه النـاس إلى البناء في الضواحي (الأرباض) خارج أسوارها.

وإلى جانب الحمامات والفنادق للتجار ولغيرهم، عُنـي يحيى بن محمد، خصوصاً، بتشييد الأثار الدينية؛ وفي أيامه بني مسجدان يعتبران بحق أهم آثار فاس والمغرب الأقصى كله: جامع القرويين ومسجد الأندلس.

يروى انه كان، من جملة القادمين الوافدين على فاس في عهد يحيى بن محمد، رجل يسمى محمد بن عبد الله الفهري، نزل بعدوة القرويين، وقد خلف بنتين تدعى احداهما فاطمة وتكنى أم البنين، وتسمى الأخرى مريم، وبوفاة والدهما، حصلت الفتاتان على ميراث كبير رغبتا في أن تصرفاه في عمل البر. ولما عرفتا ان الجامعين القائمين قد ضاق كل منهما بالمصلين، خطرت لكل منهما فكرة بناء مسجد جامع.

شرعت فاطمة الفهرية في بناء جامع القرويين في مستهل رمضان سنة 245 هـ، في أرض تابعة لرجل من هوارة اشترتها منه بالمال الذي ورثته.

وبعد حفر الأساس، قاموا بحفر البئر ليأخذوا منها الماء الضروري للبناء وقد نصبت قبلة الجامع على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي بناه إدريس الثاني وزود الجامع بأربع بلاطات، في كل بلاط اثنا عشر قوساً، متجهة من الشرق إلى الغرب، وجعل في مؤخره صحن صغير وبمؤخر هذا الصحن صومعة المسجد[1].

وقد استمر جامع القرويين يؤدي وظيفة مسجد عادي حتى سنة 370 هـ[2] حينما حولت إليه خطبة الجمعة من جامع الأشياخ[3].

وأما مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري، فقد قامت ببناء جامع الأندلس في سنة 245 هـ، وأنفقت عليه من المال الذي ورثته عن أبيها، وقد سمي الجامع كذلك لأن الجالية الأندلسية ساهمت في بنائه.

ويقول البكري إن الجامع يشتمل على ست بلاطات وله صحن صغير به أصول جوز وغيره من الأشجار وساقية غزيرة الماء تعرف بساقية مصمودة[4].

* *
*

(1) قارن رواية ابن خلدون والجزنائي وابن أبي زرع.

(2) في رواية روض القرطاس أن تحويل الخطبة وقع في سنة 321 هـ.

(3) ولما بايع أهل فاس الناصر لدين الله (عبد الرحمن بن محمد) خليفة الأندلس، ولى على فاس عاملاً له، وهو أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن سعيد الزناتي، كتب العامل إلى الناصر يستأذنه في إصلاح الجامع وتوسيعه، فأذن له وبعث إليه بمال كثير لهذه الغاية، فزاد فيه العامل أربع بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق، وثلاثة من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه بلاط واحد، بعد ان هدم الصومعة وأعاد بناءها، وقد تمت هذه الإصلاحات في سنة 345 هـ.

(4) ومثلما فعل في جامع القرويين، أدخل عامل الناصر إصلاحات على جامع الأندلس ووسعه في سنة 245 هـ. ، وقد نقلت خطبة الجمعة من جامع الأشياخ إلى جامع الأندلس قبل ذلك بأمر حامد بن حمدان الهمذاني عامل العبيديين حين تغلبوا على فاس في سنة 321 هـ.

يحيى بن يحيى بن محمد

ولما هلك يحيى في تاريخ لا تحدده المصادر التي بين أيدينا[1] تـولى الأمر بعده ابنه يحيى بن يحيى، وقد عرف يحيى هذا بسوء السيرة، فكان يدمن على الخمر والخلوة بالنساء، وهذا السلوك كان له أثر سيّء بين اخوة يحيى الذين كانوا يتولون أعمالاً، فأراد كل واحد منهم أن يستغل هذه السمعة ليستقل بإمارته، وفي هذا السياق يقول ابن عذاري:

«وتشاغل يحيى عما كان يحق له من سياسة أمره، فملك إخوته أنفسهم واستمالوا القبائل وقالوا: «إنما نحن من أب واحد وقد ترون ما صار إليه أخونا يحيى من إضاعة أمره» فقدمهم البربر على أنفسهم تقديماً كلياً، وكان يحيى منهمكاً في الشراب معجباً بالنساء»[2].

والفعلة الكبيرة التي كلفت يحيى سمعته ثم عرشه ثم في نهاية الأمر حياته، هي انه دخل على يهودية تسمى حنة في الحمام، وراودها عن نفسها، فأثارت هذه الفضيحة أهل فاس عليه، وخلعوه، فهرب إلى عدوة الأندلس ومات غمّا إثر ذلك بليلتين[3].

ومما زاد من شناعة الفعلة التي عُزيت إلى يحيى، ان الرجل كان متزوجاً

---

(1) الواقع ان بعض هذه المصادر، مثل البيان وأعمال الأعلام، يهمل ذكر عهد يحيى بن محمد كلية وتنتقل من علي بن محمد إلى يحيى بن يحيى مباشرة.

(2) البيان (312/1).

(3) راجع البكري (ص 124 — 125) والعبر (15/4) وأعمال الأعلام (ص 207 — 208).

بقريبة له اسمها عاتكة بنت علي بن عمر الإدريسي، ونحن نفهم كيف رفضت هذه السيدة في تلك الظروف مرافقة زوجها إلى عدوة الأندلسيين، وفضلت البقاء وحدها لتواجه الأحداث في عدوة القرويين، التي استولى عليها زعيم الثوار، عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي.

ولما مات زوجها استدعت أباها، علي بن عمر، الذي كان أميراً على الريف والسواحل الشمالية، فجاء إلى فاس واستولى على الحكم فيها، وبذلك انتقل الملك وولاية فاس من سلالة محمد بن إدريس إلى أبناء عمر ابن إدريس[1].

* *
*

(1) رواية البكري لهذه الأحداث أوفى وأدق من غيرها (ص 24 — 25).

علي بن عمر بن إدريس

بايعه العرب والبربر بمدينة فاس على سائر أعمال المغرب بعد وفاة ابن عمه يحيى بن يحيى بن إدريس، واستقام له الأمر، وقد كان علي، فيما يقول ابن خلدون، «أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم»، وكان فقيهاً عارفاً بالحديث[1] وظل في الحكم إلى أن خرج عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي المذهب، وكان صفري النزعة، قيل إنه جاء من الأندلس وتبعه خلق كثير، وقد بدأت ثورته في جبل مديونة الذي يقع في جنوب فاس ودارت بين الفريقين معارك انتهت بهزيمة علي بن عمر الذي فرّ إلى بلد أوربة، واستولى الخارجي على فاس، فملك عدوة الأندلسيين وخطب على منابرها، وامتنع عنه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالعدام فبايعوه وولوه على أنفسهم، ثم سار لقتال عبد الرزاق الفهري وهزمه فدخل عدوة الأندلس وبايعه جميع أهلها من الأندلسيين، ولما خرج منها عائداً إلى عدوة القرويين، استعمل يحيى بن القاسم عليها ثعلبة بن محارب بن عبد الله، من أهل فاس، ولم يزل والياً عليها، حتى توفي، فقدم يحيى مكانه ولده عبد الله المعروف بعبود بن ثعلبة (والأسرة تنتمي إلى الأزد من نسل المهلب بن أبي صفرة).

وأما يحيى بن القاسم، فقد سار لمقاتلة الخوارج الصفرية فكانت له معهم وقائع وحروب كثيرة، ولم يزل يحيى بن القاسم ملكاً على فاس وأعمالها حتى اغتاله الربيع بن سليمان في سنة 292 هـ (904 — 905م)[2]، وقام بالأمر من بعده يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس.

(1) العبر (16/4).

(2) كذا في العبر والبيان والبكري، وفي روض القرطاس وأعمال الأعلام، اغتيل يحيى في سنة 272 هـ.

يحيى بن إدريس بن عمر

كان يحيى بن إدريس أميراً على الريف حيث اكتسب شهرة شخصية خاصة بين بني إدريس بحيث وصفه ابن الخطيب بأنه كان «ملكاً جليلاً فصيحاً كريماً شجاعاً فاضلاً صالحاً»(1). ويضيف صاحب روض القرطاس قائلاً إنه «كان ذكياً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان، ومع ذلك كان شجاعاً حازماً وذا صلاح ودين وورع لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه»(2).

وبالاختصار، فقد كان أميراً من طراز نادر يتمتع بمزايا خاصة هو أشد ما يكون حاجة إليها لمواجهة الظروف الاستثنائية التي يجد نفسه فيها المغرب عموماً، ودولة الأدارسة الأولى خصوصاً، وقد كانت هذه الظروف نتيجة لقيام دولة العبيديين الذين ينتسبون هم أيضاً (على الرغم من الشكوك التي تحيط بنسبهم) إلى فاطمة بنت رسول الله (صلعم) وإلى علي بن أبي طالب في المشرق، واشتداد نفوذ زعيم قبيلة مكناسة القوية في المغرب، وبالذات، في الأراضي الخاضعة لدولة الأدارسة، ولكن التطورات التالية تحتاج معالجتها إلى فصل خاص حتى يتمكن القارىء من فهم فسيفساء الحوادث الخطيرة التي

---

(1) أعمال الأعلام (ص 210) ويمثل هذا أيضاً وصفه التنسي في كتابه عن بني زيان (مخطوط ـ ورقة 121 وجه).

(2) روض القرطاس (الطبعة الحجرية)، وكذلك البكري الذي ينقل عن النوفلي قوله: «كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء، وكان أحمد الشافعي من جلسائه وممن يتكلم عنده في العلم، وكان ينتجعه الناس من الأندلس وغيرها، فيحسن إلى جميعهم وينصرفون عنه أكرم منصرف» (ص 132).

سيعيشها المغرب منذ عهد يحيى بن إدريس، والتي ستقضي في آخر الأمر على هذه الدولة.

ولكننا قبل ذلك سنحاول جمع المعلومات القليلة والغامضة التي تركها بعض المؤرخين والتي تتعلّق بالإمارات التي اقتطعها بنو عمومة الأدارسة من مملكتهم في المناطق الشرقية، ونعني بذاك بني سليمان بن عبد الله (شقيق إدريس الأول).

* *
*

أبناء سليمان

والحقيقة هي انه لا تكاد توجد في هذا الموضوع معلومات تذكر، وما قد يعثر عليه الباحث في مرجعين أو ثلاثة يشوبه الغموض وعدم تحديد للمناطق التي كانت تسيطر عليها هذه الأسرة الثانية من أبناء علي. وهذا الغموض نستطيع أن نفسره في الفترة الأولى حين كان التستر بالنسبة إلى الذين نجوا من مذبحة فَخّ وهربوا من أعوان العباسيين الذين كانوا يطاردونهم في جميع أنحاء الأمبراطورية؛ ولكننا لا نفهم هذا الغموض في الفترة اللاحقة، حين استقر الأمر للأدارسة بالمغرب الأقصى ولبني سليمان في المناطق الغربية من المغرب الأوسط.

نحن نفهم ان يخرج سليمان بن عبد الله متنكراً ويطوي المراحل دون أن يترك أثراً ينمّ عنه حتى يأمن على نفسه في مملكة أخيه، إدريس، ولكننا نجد صعوبة في إدراك الأسباب التي جعلت المؤرخين لا ينقلون حتى نوع المعلومات المشوَّشة التي يوردونها عن إدريس الأول وإدريس الثاني، وقد يقال إن مرجع ذلك إلى عدم تمكن اللغة العربية وعدم وجود الكتابة في المغرب الأوسط، وهذا صحيح، ولكنه يجب الا ننسى ان هذه كانت الحالة أيضاً في المغرب الأقصى.

وأيّاً ما كان الأمر، فإن مصير سليمان بن عبد الله نفسه مختلف فيه، فإن بعض المؤرخين وفي مقدمتهم الطبري[1] يذكرون ان سليمان قد قتل في

(1) التاريخ (مجلد 28/5).

وقعة فَخّ، يوم التروية سنة 169 هـ.، والبعض الآخر يذكرون انه هو الذي تولى الإمارة، بينما يروي الآخرون ان محمداً ابنه، هو الذي تولى الإمارة بتلمسان، وذلك في الوقت الذي يذكر فيه آخرون إمارات لأبناء سليمان آخر ينحدر، لا من سلالة الحسن، بل من الحسين بن علي...

وإزاء هذا التضارب بين الروايات وعدم وجود أي دليل يسمح بترجيح قول على قول أو استخلاص صورة معقولة عن هذه الإمارات، سنضطر إلى ترديد أقوال الرواة، وكلهم، على كل حال، من الثقات، ونضع هذه النواة للبحث بين يدي القارىء، وأملنا أن تكتشف مخطوطات غير معروفة لتلقي ضوءاً جديداً على القضية.

يقول اليعقوبي في كتاب البلدان، مايلي:

«وإذا خرج الخارج من عمل الزاب مغرباً صار إلى قوم يقال لهم بنو برزال[1] وهم فخذ من بني دمّر من زناتة وهم شراة كلهم».

«ومن هذا الموضع البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان ابن سليمان بن الحسين بن علي بن أبي طـــالب (ض)[2].

(1) بنو برزال فخذ من زناتة، وكانوا يسكنون المناطق الوسطى في الزاب الأسفل، في جوار مدينة المسيلة (المحمدية) التي أسسها علي بن حمدون في بداية عهد العبيديين، وقد دخلت قبيلة بني برزال في طاعة ابن حمدون بدون صعوبة، الأمر الذي أثار عليهم سخط زيري بن منادٍ، منافسه في الحظوة عند العبيديين، ولما أجلى زيري جعفر بن علي عن المسيلة وارتحل إلى الأندلس طلب إلى الخليفة الحكم الإذن لبني برزال الذين كانوا يعانون من اضطهاد صنهاجة بالعبور إلى الأندلس، وقد دخل كثير منهم في خدمة خلفاء بني أمية فقويت شوكتهم وكونوا إمارة مهمة عقب فتنة البربر كانت أهم مدنها قرمونة واستجة وحصن المدور، وقد تشتت جمع بني البرزال وانحسر نفوذهم عقب مقتل زعيمهم، محمد ابن عبد الله البرزالي في نهاية الحرب الطويلة التي خاضوها ضد المعتضد بن عباد، راجع أخبار بني برزال في البيان. (3/267 — 268).

(2) راجع تسلسل هذا النسب في جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص 55)، ونحن لا نملك أية معلومات أخرى غير ما ذكره اليعقوبي عن استقرار أحفاد الحسين بن علي (ض) وتملكهم في المغرب الأوسط في نفس الرقعة التي استقر فيها أحفادُ الحسن بن علي وفي نفس الفترة الزمنية، وقد يتبادر إلى الذهن ان هذا الخبر غلط نجم عن تحريف اسم الحسن إلى الحسين، ولكنه على الرغم من أن محققِ كتاب البلدان (وستنفلد) قد لاحظ في هامش أن إحدى نسخ مخطوطاته ـ

«وأول المدن التي في يده، مدينة يقال لها هاز[1] سكانها قوم من البربر القدم يقال لهم بنو يرنيان من زناتة أيضاً، ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزواوة، يعرفون بالبرانس، وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع، وإلى هاز ينسب البلد، وبينها وبين عمل أذْنَه مسيرة ثلاثة أيام، ثم إلى قوم يقال لهم بنو دمّر[2] من زناتة في بلد واسع، وهم شراة كلهم، عليهم رئيس منهم يقال له مصادف بن جرتيل في بلد زرع ومـواشٍ بينه وبين هاز مرحلة.

«ومنها إلى حصن يقال له حصن بن كرام، وليس أهله بشراة، ولكنهم جماعة بلدهم بلد زرع، ثم يصير إلى بلد يقال له متيجة[3] تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب (عـــم) يقال لهم بنو محمد ابن جعفر، وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون، وهو بلد زرع وعمارة بين هذا البلد وبين حصن مصادف بن جرتيل مسيرة ثلاثة أيام، مما يلي البحر.

«ثم مدينة مَدْكَرَة[4] فيها ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (عم)، ومدينة الخضراء[5]. ويتصل بهذه مدن كثيرة وحصون وقرى ومزراع، يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عم)، كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية، وعددهم كثير، حتى إن البلد يعرف بهم وينسب إليهم.

«وآخر المدن التي في أيديهم المدينة التي تقرب من ساحل البحر ويقال

= تحمل رسم الحسن، فإننا نستبعد ذلك تماماً، حيث ان المؤلف عني بذكر تسلسل الحسن بن سليمان حتى الحسين بن علي، وهو تسلسل صحيح.

(1) كانت مدينة هاز تقع على نهرشتوي في أراضي زناتة يسكنها بنو يرنان (عند البكري) أو بنو يرنيان (عند اليعقوبي) وهو الأصح. وقد أجلاهم عنها زيري بن منادٍ الصنهاجي إلى بؤرة نهر جار في غضون الحروب الضارية التي كان يشنها على زناتة (راجع عن هذه الحروب، كتابي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية).

(2) قبيل من بني يفرن الزناتيين، عبروا إلى الأندلس وأنشأوا إمارة هناك.

(3) البليدة حالياً

(4) مليانة حالياً.

(5) مدينة عين الدفلة حالياً.

لها سوق إبراهيم[1] وهي المدينة المشهورة فيها رجل يقال له عيسى بن إبراهيم ابن محمد بن سليمان ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن. ثم إلى تيهرت، المدينة العظمى، مدينة جليلة المقدار عظيمة الأمر، تسمى عراق المغرب، لها أخلاط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد ابن أفلح ابن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي»[2].

وكذلك نرى ان المغرب الأوسط، حسب هذه الرواية لليعقوبي، ينقسم إلى ثلاث مناطق: المنطقة الغربية وبها إمارة (أو إمارات) بني محمد بن سليمان ابن عبد الله؛ والمنطقة الوسطى، التي يسيطر عليها الرستميون، أصحاب تيهرت، والمنطقة الشرقية التي تشمل متيجة، وفيها إمارات أبناء الحسن بن سليمان بن سليمان الذين ينحدرون من الحسين بن علي بن أبي طالب (ض).

ولما تعرض لمملكة بني محمد بن سليمان، قال اليعقوبي:

«ثم من مملكة ابن مسالة الهواري[3] إلى مملكة لبني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، سوى المملكة التي ذكرناها وهي مدينة مَذْكَرة، ومسكنهم في المدينة العظمى التي يقال لها تَمَطْلَاس[4]، وأهل هذه المدينة قوم من بطون البربر من سائر قبائلهم، وأكثرهم يقال لهم بنو مَطْمَاطَة، وهم بطون كثيرة، ولهم في مملكتهم مدينة عظيمة يقال لها أيزرج.

«ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان، وعليها

---

(1) سوق إبراهيم قرية صغيرة كانت تقع قرب الأصنام حيث ينصب وادي أسلي في وادي شلف، يقول البكري إنها تتكون من 400 منزل، غير بعيد من تنس، ولما بنيت تنس الحديثة في سنة 262 هـ، على يد بعض البحريين من أهل الأندلس، انتقل سكانها إلى المدينة الجديدة، راجع البكري (ص 61 — 62) والإدريسي الذي يقول إنها مدينة صغيرة تقع بين معسكر وتنس على نهر شلف (ص 83).

(2) كتاب البلدان (ص 352 — 353).

(3) تعرف هذه المملكة أيضاً بقلعة هوارة الاباضية قرب أغيل أزان.

(4) يذكر الإدريسي تمطلاس بين القبائل التي تقطن في الرقعة، التي تمتد بين تلمسان وتيهرت، مع مغراوة وبني راشد، راجع كتاب المغرب وأرض السودان (ص 88).

سور حجارة وخلفه سور حجارة آخر، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة ينزلها رجل منهم يقال له محمد بن القاسم بن سليمان، وحول هذه المدينة قوم من البربر يقال لهم مكناسة[1] ثم إلى المدينة التي تسمّى مدينة العلويين[2] كانت في أيدي العلويين، من ولد محمد بن سليمان، ثم تركوها، فسكنها رجل من أبناء ملوك زناتة، يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتي، ثم إلى مدينة يقال لها نُمالَة فيها محمد بن علي بن محمد بن سليمان، وآخر مملكة بني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، مدينة فلوسن وهي مدينة عظيمة، أهلها بطون من البربر من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة وانجفة، ثم بعد مملكة بني محمد بن سليمان، مملكة رجل يقال له صالح بن سعيد، يدَّعِي أنه من حمير، وأهل البلد يزعمون انه من أهل البلد، واسم المدينة العظيمة التي ينزلها نَكُور[3] على البحر المالح»[4].

وتعرض ابن خلدون لذكر بني سليمان فقال إن سليمان فرّ إلى المغرب أيام العباسيين، فلحق بجهة تيهرت بعد مهلك أخيه إدريس وطلب الأمر لنفسه هناك، «فاستنكره البربر وطلبه ولاة الأغالبة، ولحق بتلمسان فملكها

(1) كانت أراضي مكناسة تقع على ضفاف نهر ملوية وتشمل جرسيف ومليلة وتازا وتسول والرباط، وهذه الأراضي كانت تمتد في اتجاه الجنوب، وهذه من النصوص القليلة التي تشير إلى توسع القبيلة في الاتجاه الشرقي ووصولها إلى منطقة تلمسان، راجع النبذة التي خصصها ابن خلدون في العبر لمكناسة (134/6).

(2) كانت مدينة العلويين فيما يقول الإدريسي تقع على مرحلة من تلمسان، على نهر يأتيها من القبلة (نهر تافنة) في الطريق من تلمسان إلى فاس.

(3) تسمى أيضاً بوزكور، تقع على مسافة عشرين ميلاً من مدينة بادس، وفي البيان المغرب انه بعدما هدم أبو العافية أسوار نكور، سار يريد بني محمد بن سليمان أصحاب جراوة (سنة 317) وكان عميدهم يومئذٍ الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العيش، وأضاف قائلاً، «وهي أشرف مدائن ذلك الجانب ثم حاصر ابن أبي العافية ابن أبي العيش. ولما أحس بالهزيمة هرب بالليل بأهله وولده ومن تبعه ونجى إلى مرسي جراوة ودخل منه إلى البحرُ ولاذ بجزيرة ملوية، ثم سار إلى جزيرة أرشغول وهي منيعة لا ترام فتحصن بها بأهله وولده ومواليه» وإثر ذلك اتجه موسى إلى تلك الناحية واستولى على أرشغول وهرب منها من كان بها من آل محمد بن سليمان وخلص الموضع لموسى، وكان ملكه يمتد من تيهرت إلى السوس الأقصى ـ البيان (194/1).

(4) كتاب البلدان (ص 356/357).

وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك، وورث ملكه من بعده ابنه محمد بن سليمان على سننه، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط واقتسموا ممالكه ونواحيه، وآلت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم (وهذا القاسم هو الذي ينتسب إليه بنو عبد الواد).

وقد كانت أرشغول من نصيب عيسى أبي العيش بن محمد، بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة، وكانت جراوة[1] لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى، وكنيته أبو العيش، ولم تزل إمارتها في ولده، ووليها بعده إبراهيم ابن عيسى ثم ابنه يحيى بن ابراهيم، ثم أخوه إدريس بن إبراهيم، صاحب أرشغول، منقطعاً إلى عبد الرحمن بن الناصر[2] وأخوه يحيى كذلك، وقد ارتاب فيه ميسور قائد الشيعة وقبض عليه سنة 323 هـ».

«ولما أخذ أبو العافية بدعوة العلوية، أولياء الشيعة، حاصر صاحب جراوة، الحسن بن أبي العيش، وغلبه على جراوة، فلحق بابن عمه إدريس ابن إبراهيم صاحب أرشغول، ثم حاصرهما ابن موسى، البوري، وغلب عليهما وبعث بهما إلى الناصر فأسكنهما قرطبة».

وأما تنسى فقد كانت من حظ إبراهيم بن سليمان، ثم آلت بعده إلى ابنه محمد، ثم لابنه يحيى بن محمد ثم لابنه علي بن يحيى، وقد تغلب عليه زيري بن مناد سنة 342 هـ، ففر إلى الجبر بن محمد بن خزر، وجاز أبناه

---

(1) كان أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان هو الذي أسس مدينة جراوة في سنة 259 هـ، راجع البكري (ص 142).

(2) هو عبد الرحمن الناصر بن الحكم الربضي، أبو المطرف المرواني الأموي، ولد في سنة 277 هـ (890م) وبويع في سنة 300 هـ؛ وكان أول من تلقب بالخلافة من أمراء بني أمية في الأندلس، وتلقب الناصر لدين الله، اشتهر بحبه للعمران والتشييد، فبنى مدينة الزهراء وأنشأ بها قصر الزهراء المشهور، وقد وصفه ابن الأبار بأنه «أعظم بني أمية سلطاناً في المغرب، وأفخمهم في القديم والحديث شأناً». وامتد حكمه على خمسين سنة وستة أشهر. توفي في سنة 350 هـ. وفي الفصول التالية سنعرف سياسته تجاه الادارسة وحروبه في المغرب الأقصى، راجع الحلة السيراء (197/1 — 200) نفح الطيب (353/1 وما والاها) العبر (127/4) الكامل (77/8) غزوات العرب (167 — 181) أزهار الرياض (257/2 — 284) المغرب لابن سعيد (176 — 180).

يحيى وحمزة إلى الناصر فتلقاهما بالكرم والترحاب. فيما بعد، رجع يحيى منهما لطلب تنسى فلم يظفر بها، وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم، صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط، وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء، بطوش بن حناش ابن الحسن بن سليمان، روي عن ابن حزم ان سلالتهم بالمغرب كثيرة جداً، وكان لهم بها ممالك، وأما بنو حمزة، فقد حملهم جوهر الصقلي معه إلى القيروان، وقد بقيت بقايا بني سليمان في أطراف الجبال[1].

ورواية ابن خلدون مفيدة، بدون شك، من حيث إنها تؤكد رواية اليعقوبي فيما يتعلق بقواعد إمارات بني سليمان في المغرب الأوسط (تلمسان وتنس وسوق إبراهيم وأرشغول) ومن حيث إنها تقدم إلينا أسماء إضافية للأمراء، من بني سليمان. وهي توسع معلوماتنا قليلاً، بما ترويه عن استقرار الأمر لبني سليمان في مدينة تقع في داخل حدود مملكة الأدارسة، ونعني بذلك مدينة جراوة. وهي ذات أهمية خاصة من حيث إنها تقدم إلينا البوادر الأولى لاهتمام عبدالرحمن الناصر الأموي بمصير بني سليمان الذين يطاردهم العبيديون. وإذا كان عبدالرحمن الناصر قد فشل في وقف العبيديين في المغرب الأوسط وإقامة دويلة تكون حاجزاً دون توغلهم إلى المغرب الأقصى، فإن ذلك لم يمنعه من القيام بمثل تلك المحاولة فيما بعد، باعتماد سياسة تقوم على المحالفة تارة، وعلى الحرب تارة أخرى، مع الأدارسة ومع ابن أبي العافية في المغرب الأقصى، وذلك قبل أن يكشف القناع عن أطماعه نهائياً ويدخل ابنه الحكم في حرب ضروس مع الحسن بن كنون.

على ان رواية ابن خلدون تنقصها التفاصيل السياسية والجغرافية (امتداد إمارات بني سليمان - مثلاً - إلى الشرق في اتجاه متيجة) ولكن النقص الخطير فيها يتصل بخلوها من التواريخ. فنحن عبثاً نحاول الاسترشاد بها لمعرفة تاريخ دخول سليمان إلى تلمسان وتاريخ وفاته وتاريخ اعتلاء ابنه

---

(1) العبر (18/4).

العرش وتولي أحفاده الإمارة، لأن النص الذي نقلناه لا يشتمل إلا على تاريخ واحد.

وفيما يلي فقرة للتنسي في كتابه عن شرف بني زيان: «وفي اواخر أيّـامه (يحيى بن إدريس) استوسق الملك للعبيديين، فاستخلصوا المغرب الأوسط من أيدي بني سليمان، اخوة الأدارسة»[1].

وبعد ذلك يقول:

«وبنو سليمان بن عبد الله تملكوا المغرب، وكان سليمان الكامل لّما بلغه خبر موت أخيه إدريس بعدما تسنى له من الملك بالمغرب، جاء إلى المغرب متنكراً حتى بلغ تاهرت فطلب الأمر هناك، فلم يصدقه البربر بأنـه أخو إدريس، فاشتد البحث عليه من بني الأغلب، فأوجب ذلك تحقيق دعواه عند البربر، فجاء إلى تلمسان وبايعه من بها من قبائل زناتة وتملكها مدة طويلة، فلما هلك تملكها ابنه محمد بن سليمان، وفي أيامه استفحل ملك عمه إدريس ابن إدريس بالمغرب الأقصى، فاستدعاه محمد هذا ليستعين به على البلاد المشرقية، فقدم عليه إدريس وقدموا جيوشاً دوَّخوا بها شلفاً وما وراءه إلى أحواز بجاية، ثم رجع إدريس إلى بلاده وترك المغرب الأوسط بين يدي ابن عمه، محمد بن سليمان، ففرق محمد بنيه على أعماله، فأقام ابنه عيسى بأرشغول، وأقام ابنه إدريس بجواره، وأقام ابنه الحسن بتاهرت، وأقام ابنه إبراهيم بتنس، وكان ابنه أحمد، ولي عهده، بتلمسان.

فلما هلك محمد بن سليمان، تملَّك تلمسان من بعده ابنه أحمد، ولي عهده، فأبقى اخوته على نحو ما فعل أبوه، فصار كل من هو بموضع يتوارثه أعقابه، واحتصن هو وأعقابه بدار الملك التي هي تلمسان، فلما هلك تملكها من بعده ابنه أحمد، فلما هلك تملكها من بعده ابنه القاسم بن محمد، هو آخرهم، وعليه تغلب العبيديون.

ولما هلك عيسى، صاحب أرشغول، خلفه ابنه إبراهيم فلما هلك خلفه ابنه يحيى وخلفه أخوه إدريس.

---

(1) المصدر المذكور، المخطوط (ورقة 121 وجه).

وأما إدريس صاحب جراوة، فإنه لما هلك خلفه ابنه أبو العيش عيسى، فلما هلك خلفه ابنه الحسن. وأما الحسن صاحب تاهرت، فإنه لما هلك خلفه ابنه حناش، فلما هلك حناش، خلفه ابنه بطوش.

وأما إبراهيم، صاحب تنس، فإنه لما هلك خلفه ابنه محمد ومعه أخوه عيسى ومن ولد عيسى، هذا، كان إبراهيم الذي ينتسب إليه سوق إبراهيم بشلف، فلما هلك محمد، خلفه ابنه يحيى، فلما هلك يحيى خلفه ابنه علي وحمزة الذي ينتسب إليه سوق حمزة، من أحواز بجاية، وحمزة هذا، هو ابن علي، صاحب تنس، وغلب العبيديون عليهم كلهم حين ملكوا المغرب الأوسط[1].

وهكذا، فإن رواية التنسي تقدم لنا معلومات أوفى من غيرها عن حكم بني سليمان في المغرب الأوسط، فهي توسع حدود هذه الإمارات بحيث تتجاوز متيجة التي ذكرها اليعقوبي شرقاً، وتصل بها إلى نواحي بجاية، أو على الأقل، سوق حمزة في بلاد القبائل (البويرة حالياً)، ومن جهة أخرى، فهي تعطينا صورة وافية بتسلسل وراثة الحكم في كل إمارة من هذه الإمارات، وفي نفس الوقت يقدم لنا التنسي خبرين عظيمي الفائدة، ولا أعرف أحداً من المؤرخين غيره قد أوردهما:

1 — إن محمد بن سليمان هو الذي دعا ابن عمه إدريس الثاني لمساعدته بجيشه على إخضاع قبائل المناطق الغربية من المغرب الأوسط، وهذا شيء جديد كلية، حيث إن المؤرخين يجمعون على القول بأن إدريس الثاني قام بغزو تلمسان والاستيلاء عليها صلحاً، وهذا يفسر لنا أيضاً ان إدريس الثاني لما عاد إلى فاس بعد إقامة دامت ثلاث سنوات في تلمسان، لم يترك والياً على هذه المدينة، كما فعل والده إدريس الأول من قبل. فإن تعيين حاكم من قبله لم يكن ضرورياً، حيث إن المدينة وجميع المناطق التي تقع في شرقها كانت تحت حكم محمد بن سليمان الذي جاء إدريس الثاني لمساعدته لتدعيم ملكه وسلطانه عليها.

---

(1) نفس المصدر (ورقة 128 وجه ـ 130 وجه).

2 — والخبر الثاني المهم الذي ينفرد به التنسي، هو الذي يتعلق بتيهرت التي ولى عليها محمد ابنه الحسن عليها. وإذا صحَّ هذا الخبر يكون ما يقوله المؤرخون من أن العبيديين قد استولوا على هذه المدينة في سنة 196 هـ. ، (908م) وخربوها تماماً[1] قولاً يحتاج إلى مراجعة، حيث إن إدريس الثاني إنما عاد إلى فاس بعد الحملة التي قام بها في منطقة تلمسان في سنة 197 هـ. ، كما ذكرنا، والأرجح، على ضوء ما يقوله التنسي، ان جيوش العبيديين غزت تيهرت مع غيرها من المناطق ثم تراجعت عنها وتركتها ليحتلها بنو سليمان، بعدما تخلى عنها الرستميون. ولكننا ندلي بهذا الاستنتاج بكل تحفظ، ريثما تؤيّد رواية التنسي القيمة أقوال أخرى.

وكذلك خصص البكري فقرة عن حلول سليمان بن عبد الله بتلمسان نقلها عن النوفلي عن عيسى بن جنون، قاضي أرشغول لإدريس بن عيسى، جاء فيها قوله:

«إن سليمان بن عبد الله بن حسن، دخل المغرب أيضاً ونزل تلمسان وبها كمل عدد ولد عبد الله بن حسن ستة، لأنهم: محمد وإبراهيم وإدريس وعيسى ويحيى وسليمان، كما ذكروا»[1].

وهذا خبر، كما نرى، مقتضب وتنحصر قيمته في تأكيد ما نعرفه من أن سليمان بن عبد الله نجا من معركة فخّ ونزل بالمغرب.

والخبر الذي أورده هذا الكاتب في معرض الحديث عن مدينة تلمسان لا يضيف جديداً إلى معلوماتنا، وذلك حين يقول:

«ونزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن، ومن ولده عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان الذي بنى جراوة، وكان أميرها وبها توفي»[2].

---

(1) المصدر المذكور (ص 122).

(2) نفس المصدر (ص 77).

الفصل الخامس

صراع الادارسة من اجل البقاء

بدأت الأحداث التي ستزعزع عرش الأدارسة في حياة إدريس الثاني، وعلى وجه التحديد في سنة 286 هـ(899م)، ففي الوقت الذي كان فيه الأغالبة يحيكون المؤامرات والدسائس ضد سلطان الأدارسة في المغرب الأقصى، كانت بذرة الثورة عليهم تنمو في داخل أراضيهم، وكان الذي حمل علم هذه الثورة رجل من أهل اليمن ومن أعيان الباطنية، اسمه الحسين بن أحمد بن زكريا، ولقبه أبو عبد الله[1]، جاء مع حجاج من كتامة ونزل بايقجان في ناحية سطيف وبث بينهم دعوة الشيعة وحملهم على بيعة إمام (المهدي) لم يُسمِّه، فتبعوه وعظم شأنه ثم زحف على رأس قوة منهم على ميلة فملكها، وبعدما تحمل هزيمة مؤقتة على يد القائد الأغلبي، الأحول، الذي واجهه بعشرين ألف مقاتل، استأنف نشاطه السياسي الذي تُدعِّمه قوة عسكرية مهمة، ثم زحف على القيروان وامتلكها، وأجلى عنها الأغالبة في سنة 296 هـ. ، وأخذ فيها البيعة للمهدي.

وإثر ذلك لم يبق من عمل أمام عبيد الله المهدي الذي ينتسب إلى

---

(1) يذهب أغلبية المؤرخين إلى أنه من صنعاء، ولكن المقريزي يقول في «الاتعاظ» (ص 51) إنه كان من رامهرمز، وأصله من الكوفة، وقد وصف أبو عبد الله بأوصاف مثل الدهاء، والفهم، والمكر، والعلم وغير ذلك مما ضمن له نجاح دعوته وتأسيس أمبراطورية الفاطميين، راجع سيرته في العبر (362/3) الكامل (31/8) الخطط (10/1) البيان (124/1) سيرة الحاجب جعفر (مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة 1936) وفيات الأعيان (443/1) البداية والنهاية (180/11) رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (تحقيق وداد القاضي) (ص 59 وما والاها).

محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم (من ولد جعفر الصادق)[1]، إلا أن يحزم امتعته ويسير منتحلاً التجارة مهنة، ليصل إلى افريقية، بعد إقامة مضطربة في سجلماسة، وقد دُعي له بالخلافة يوم الجمعة لتسع ليالٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة 288 هـ، (يوليو 890م)[2].

وبعدما تمكن من إعادة الأمن إلى نصابه بين كتامة، عقب نكبة أبي عبد الله وأخيه أبي العباس، في سنة 298[3]، قمع ثورة قامت في طرابلس وأخضع برقة، وقتل رؤوس الثورة فيها، وفعل مثل ذلك بصقلية، ثم حاول افتتاح مصر فلم يفلح، فاتجه في طريق الغرب، فغزا تيهرت وافتتحها في سنة 299 في رواية ابن عذاري[4]، وولى عليها مصالة بن حبوس بن منازل ابن بهلول المكناسي[5] الذي سيتخذ منه أداة لفرض سيطرته على المغرب الأقصى.

وفي سنة 303 هـ، اختط عبيد الله المهدية[6] ليتخذها عاصمة لملكه، ثم

---

(1) وقع اختلاف كبير بين المؤرخين في نسبه، وقد وصف ابن حزم هذا النسب بقوله «وكل هذه دعوة مفتضحة» (جمهرة أنساب العرب ص 60 — 61)، وتقول رواية أخرى يؤيدها بعض الأعلام، ومنهم أبو الريحان البيروني، بأن نسبه يرقى إلى عبد الله بن ميمون القداح. وهذا أيضاً هو رأي ياقوت في المشترك (ص 409)، راجع أيضاً بشأن سيرة عبيد الله المهدي، وخصوصاً ما يتعلق بمشكلة نسبه، اتعاظ الحنفاء (ص 17 — 107) وفيات الأعيان (116/3 — 119) الكامل (90/8) العبر (11/4 و 30 — 40) رسالة افتتاح الدعوة (ص 245 وما والاها).

(2) رسالة افتتاح الدعوة (ص 253).

(3) راجع تفاصيل هذه النكبة في رسالة افتتاح الدعوة (ص 259 — 267) وفيات الأعيان (444/2) العبر (37/4) الاتعاظ (ص 68) الخطط (351/1 و 11/2) البيان (298/1) الكامل (52/8).

(4) قارن البيان (165/1 — 166) والكامل (35/8).

(5) كان مصالة زعيمًا لقبيلة مكناسة التي تغلبت في الشطر الثاني من القرن الثالث الهجري على قبائل البربر بأنحاء تازا، وتوغل نفوذها في الاتجاه الشرقي حتى تلمسان.

(6) تقع المهدية في جنوب شرق المنستير وسوسة على مسافة 29 ميلاً من الأولى و 43 ميلاً، من الثانية، وشمال شرق سفاقس على بعد 66 ميلاً منها، راجع وصف المهدية في صورة الأرض لابن حوقل (ص 73) البكري الذي قال إن المهدي شرع في بنائها في سنة 300 (ص 29) الإدريسي (ص 107 — 109) أقاليم الخوارزمي (ص 20) الاستبصار (ص 117) الحلة السيراء (192/1) معجم البلدان (229/5) الكامل (94/8) الاتعاظ (ص 70) البيان (169/1) رسالة افتتاح الدعوة (ص 275) وكذلك كتابنا «عواصم بني زيري».

سير عامله على تيهرت والمغرب الأوسط في سنة 305 هـ، على رأس جموع مكناسة وكتامة لمحاربة يحيى بن إدريس، وبعد معركة شديدة بقرب مكناس انهزم يحيى وعاد إلى فاس وتحصن بأسوارها، ولكن مصالة تعقبه وضرب حصاراً على المدينة، استمر حتى صالحه يحيى على مال يدفعه، وعلى البيعة لعبيد الله المهدي، وبذلك أبقى عليه مصالة في سكنى فاس وعقد له على عملها وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية الذي خلفه في زعامة مكناسة، على ما سوى ذلك من بلاد المغرب[1].

وبإعلان يحيى بن إدريس استسلامه وطاعته لصاحب المهدية كان من الممكن أن نعتبر دولة الأدارسة منتهية، على الأقل، من الناحية الشكلية، ولكن هذا المغرب الهائج المائج بالثورات، والثورات المضادة، لا يكاد ينتهي فيه شيء حتى يبدأ من جديد، إنه مثل غزل بنيلوب في غيبة زوجها، يوليس، تفسخ بالليل ما تنسجه بالنهار، وكما سنرى، فإن هزيمة يحيى كانت في نظره شيئاً مؤقتاً، وأما بيعته، فهي عمل من التاكتيك السياسي الذي لا يعتقد انه ملزم له من الناحية الدينية.

والمهم ان المغرب الأقصى قد أصبح الآن مسرحاً تتنازع فيه ثلاث قوى رئيسة بعد ما أصبح السلطان الفعلي فيه في يد مكناسة ورئيسها، موسى بن أبي العافية[2].

وهذه الشخصية الجديدة التي ستحسن استغلال الظروف السياسية المؤاتية لتخلق ثقلاً متوازناً مع ثقل الأدارسة، لا نكاد نعرف عنها شيئاً قبل توليته مقاليد الأمور بفضل ابن قبيلته، مصالة، وكل المعلومات التي نستخلصها عنه تنحصر في انه كان رجلاً ثرياً وصاحب ماشية.... وان

---

(1) قارن بشأن هذه الحوادث الاستقصا (166/1) البكري (ص 126) الدرر السنية (ص 56) أعمال الأعلام (ص 210/211) صبح الأعشى (182/5) العبر (134/6) روض القرطاس.

(2) راجع أخبار دولة موسى بن أبي العافية في العبر (134/6) جذوة المقتبس (ص 3) الاستقصا (80/1، 83). البيان (194/1 — 199 — 201 — 202 — 209 — 213 — 214) أعمال الأعلام (213 — 217) روض القرطاس.

اسمه موسى بن أبي العافية بن أبي باسل بن أبي الضحاك بن تامريس بن إدريس وليف ابن مكناس بن سطيف.

ولما استقرَّ له الأمر في تسول[1] وتازا[2] وكرسيف أخذ يوسع نفوذه ويمد سلطانه في مختلف الاتجاهات، ولكن صخرة كبيرة كانت تقف في طريقه، بعد ذهاب مصالة. فإن يحيى بن إدريس لا يحتفظ بالسلطان على فاس فحسب، بل إن نفوذه كان حقيقياً أيضاً، على الرغم من تقلص رقعة مملكته، وكيف يستطيع ابن أبي العافية أن يمحو في ذاكرة الناس ما كان يتمتع به هذا الملك من حسن السمعة بفضله وعلمه ودينه، بسبب هزيمة ألحقها بها به جيش أجنبي كانت نتيجة، خصوصاً، لتخاذل مكناسة وتحالفها مع العبيديين.

وهذا العائق في سبيل تحقيق أطماعه هو الذي سيحاول موسى بن أبي العافيه إزالته حينما عاد مصالة على رأس جيش إلى المغرب الأقصى في سنة 309 هـ، فقد سعى موسى بيحيى ابن إدريس عنده واتهمه بمختلف الاتهامات حتى أوغر صدره عليه، فعزم قائد العبيديين على القبض عليه، فلما اقترب من مدينة فاس، خرج إليه يحيى على الأمان، ليرحب به، حاملاً معه الهدايا والأموال، ومعه وجوه قومه. وعندما بلغ الركب إليه قبض عليهم جميعاً، وقيد يحيى بالحديد، ودخل مصالة فاس ويحيى بن إدريس بين يديه وكأنما هو أسير حرب، راكباً على جمل، وبعدما أهانه، وعذبه، استولى على ذخائره وأفرغ خزائنه، ثم أطلقه ونفاه إلى مدينة أصيلا[3].

---

(1) منطقة بنواحي تازا وصفها البكري بأنها مدينة مرتفعة تقع على ثلاثة أجبل (ص 141) والاستقصا (6/3).

(2) تبعد تازا عن فاس بنحو 127 كيلو متر وتقع في منتصف الطريق إلى وجدة، وقد كانت تازا مركزاً حربياً مهما في عهد الرومان، حيث إنها تقع على هضبة بين الأطلس المتوسط وجبال الريف، راجع وصفها في البكري (ص 118 و142) المراكشي، تاريخ الموحدين (ص 184 و260) مشاهدات ابن الخطيب (ص 114 هامش 2) أعمال الأعلام (ص 210 هامش 3) التعريف بابن خلدون (ص 134 هامش 2) روض القرطاس.

(3) تكتب أيضاً: أصيلة وأزيلي، مدينة قديمة أسست في عهد الفنيقيين وكانت من المدن التي عني بها الادارسة بصفة خاصة، وأول من وليها منهم، هو القاسم ابن إدريس، كما تقدم، ثم تولى الأمر من بعده فيها ابنه إبراهيم بن القاسم، ثم حسن بن إبراهيم الذي دام عهده نحو 25 =

وفي أصيلا ساءت حالة يحيى وانفض الناس من حوله، فأقام عند بني عمه بالريف لاجئاً مشرداً ولو أنهم منحوه بعض المال ليستعين به على أمره، ولكن الرجل الذي نعرف شهامته وكرم نفسه، لم يـرض بهذا الهوان، فارتحل إلى افريقية لكي يستعطف «أبناء عمومته» الآخرين - فيما يبدو، ولكن موسى ابن أبي العافية الذي حرمه من ملكه لم يقنع بما صنعه له، فتعرض له في الطريق وسجنه بمدينة لكّاي[1] حيث بـقي في محبسه نحو عشر سنين، ثم أطلق سراحهُ.

وعلى الرغم من هذا التأخر في توقيته، أَبىَ يحيى بن إدريس إلا أن يواصل طريقه في اتجاه المهدية، ولكن المهدية التي كانت تحاصر عاصمته، فاس، بجيوش جرارة منذ نحو عشرين سنة أصبحت الآن بدورها، محاصرة وتحت رحمة أبي يزيد مخلد بن كيداد الـيفرني الخارجي، صاحب الحمار، وقد كانت المدينة تشكو نقصاً خطيراً في المواد الغذائية، مما اضطر العبيدي معه إلى أن يستنجد بزيري بن منادٍ الذي أمده بحمل ألف جمل، فيما تقول الرواية، وهناك مات يحيى بن إدريس بالجوع، غريباً وحيداً، في سنة 332 هـ[2]،

= سنة، وذلك في الوقت الذي تولى فيـه الأمر في البصرة أخوه عيسى بن إبراهيم وكان فيه على رأس كتامة (المغرب) أخوهما أحمد بن إبراهيم، وفي فترة لاحقة، صار أمر كتامة والبصرة إلى يحيى بن إبراهيم بن القاسم المعروف، بابن برهوية، ولما تولىّ الحجام السلطة، استأثر بأصيلا دون بني عمه فولى عليها رجلًا اسمه حجاج بن يوسف من خاصته، فأحسن السيرة، وبعد وفاته طلب بولايته رجل من أهلها اسمه عبد الوارث ومنح الولاية عليها، ولكنه عثر على كنز في داره فبلغ خبره الحجام فعزله عن أصيلا طمعاً في الحصول على جزء من الكنز، ثم وليها رجل يسمى إبراهيم بن الغل المكناسي بعد ما قدم أموالًا للحجام. وثارت غيرة عبد الوارث، فقدم أموالًا كثيرة للحجام أقنعه بها بعزل إبراهيم وإعادة الولاية إليه، ولكن إبـراهيم لم يستسلم للهزيمة، فسار بهدية أكبر للحجام الذي أعاده إلى منصبه... وقد استمر الحال على هذا المنوال مدة سنتين، استقر الأمر فيها بعدهما لعبد الوارث... حتى انتهت أمواله، فعزله الحجام، وولى مكانه إبراهيم الذي لم يحل دون استمراره في الولاية سوى سقوط الحجام على يد ابن أبي العافية. راجع وصف أصيلا في البكري (ص 111 — 112) الإدريسي (ص 169) مشاهدات ابن الخطيب (ص 104) أعمال الأعلام (ص 204 هامش 1) البيان (2/333 — 334).

(1) كذا في معظم النصوص، وفي القرطاس: الكاي، وفي الحسن الوزان: LUKAI.

(2) رواية الاستقصا وروض القرطاس.

وبذلك انقلبت صفحة مهمة في تاريخ المغرب، ولكن الدولة الإدريسية الأولى لم تمت.

وأما مدينة فاس، فقد ولى عليها مصالة بن حبوس ريحان الكتامي قبل أن يعود إلى القيروان.

وقد أقام والياً عليها مدَّة ثلاثة أشهر، ثم ثار عليه الحسن ابن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام[1]، وذلك في سنة 310 هـ[2].

جاء الحجام إلى فاس في شيعة من أنصاره (وكان معروفاً بالشجاعة والإقدام)، على حين غفلة من أهلها، فقتل ريحان الكتامي[3]، واجتمع الناس على طاعته وبايعته أكثر قبائل البربر، وملك بعد فاس عدة مدن، مثل مدين ومكناسة والبصرة، واستقام له الأمر حتى وقعت بينه وبين ابن أبي العافية وحشة أدت إلى حرب. وقد خرج الحسن لقتال موسى في سنة 311 هـ، فلما التقى الجمعان في مكان يعرف بفحص الزاد، على مقربة من وادي المطاحن، بين فاس وتازا، فكانت وقعة عظيمة يصفها البكري بأنها «شنعاء» لم يكن بالمغرب بعد دخول إدريس فيه أعظم منها انجلت عن هزيمة له (موسى) وعن أزيد من ألفي قتيل، في جملتهم ابن موسى، يسمى منهل[4]، وقتل من جيش الحجام نحو السبعمائة.

ولكن موسى بن أبي العافية نجح في إعادة تشكيل قواته وطارد الحجام

---

(1) اعتمدنا رواية القرطاس والاستقصا، وهي التي اعتمدها صاحب الدرر السنية. وفي العبر ان ثورة الحجام وقعت في سنة 313 هـ، وأما البكري، فيذكر ان مصالة قدم ريحان الكتامي سنة 307 هـ وبقي بها حتى سنة 316 هـ.

(2) يروي البكري (ص 126 — 127) ان الذي سماه «الحجام» هو عمه، أحمد بن القاسم بن إدريس. وذلك حين لاحظ انه يضرب في المحاجم مرة وثانية ثالثة، دون أن يخطىء. وفي ذلك يقول الشاعر على سبيل المدح له:

وسُميّت حجَّاماً ولست بحاجم ... ولكن لضرب في مكان المحاجم

(3) رواية ابن خلدون (ع)، وفي رواية أخرى نفاه.

(4) البكري (ص 127)، قارن العبر (6/134) والاستقصا (1/167) وفيه: قتل من جيش موسى نحو ألفين وثلاثمائة.

الذي كان يعتقد ان المعركة كانت نصراً حاسماً له، وعاد في طريقه إلى فاس فلحق به وشتت، جموعه، ولما وصل إلى المدينة ترك جيشه خارج أسوارها، كما تقضي بذلك التقاليد، ودخل وحده أو مع عدد صغير من رفقائه وهناك غدر به حامد بن حمدان الهمذاني، عامله على المدينة، حيث دخل عليه ليلاً في داره وقيده بالحديد، وأخذه وأغلق أبواب المدينة في وجه الجيش، ثم سير الخبر إلى ابن أبي العافية بأن الرجل الذي قتل ابنه هو الآن أسير في يده.

وهذه كانت، بالطبع، فرصة ثمينة لموسى، لكي يشفي غليله بالانتقام لابنه ولجيشه الممزق، وكذلك سارع إلى فاس فاستولى على عدوة القرويين ثم على عدوة الأندلس. وبعدما ملك المدينة كلها، بعث في طلب غريمه لأخذ الثأر منه لابنه منهل. ولكن حامداً تيقظ الآن وأدرك خطورة الخيانة التي ارتكبها والتي توشك أن تتحول إلى جريمة، وكذلك راح يماطل موسى ويدافعه بحجة انه يكره سفك دماء أهل البيت.

فلما جن الليل، سار حامد إلى حجام وعرض عليه خطة للفرار، لم يدرك الحجام الذي قبلها مدى ما تنطوي عليه من الأخطار، أو إنه أدرك هذه الأخطار ورأى انها أهون من الوقوع في يد ابن أبي العافية.

والمهم ان حامد بن حمدان أزال عنه قيوده وأدلاه من على سور المدينة، فوقع وانكسرت ساقه، ولكنه تحامل على نفسه حتى وصل إلى عدوة الأندلس، فمات هناك بعد ثلاث ليالٍ من الحادث[1].

وأما حامد، فقد أشفق على نفسه وخشي أن يجري فيه ابن أبي العافية انتقامه بدلاً من الجسن فهرب ولحق بالمهدية.

وعند هذه المرحلة، أي في حدود سنة 319 هـ (931م)، انتهت حياة

---

(1) هنا أيضاً يوجد اضطراب في الرواية فيما يتعلق بتاريخ موت الحسن الحجام. فبينما يقول السلاوي إن الحجام أقام عشر سنوات في فاس، فإذا بابن الخطيب يذكر ان دولته لم تدم سوى عامين، وأما البكري، فيذكر ان انتهاء دولة الحجام كانت في سنة 317 هـ . . ولما كان هذا الكاتب قد ذكر ان الحسن تولى الحكم في سنة 316 هـ، فمعنى ذلك ان دولته لم تدم سوى سنة واحدة.

الدولة الإدريسية الأولى بالمغرب، بعد حكم متصل للمغرب الأقصى والمغرب الأوسط ابتدأ بمبايعة إدريس الأول بوليلي في سنة 172 هـ.، أي نحو مائة وتسع وخمسين سنة[1].

ومخطط هذا الكتاب الذي يتناول الدول الإدريسية يقضي بأن ننتقل مباشرة للحديث عن الدولة الإدريسية الثانية، ولكن إهمال السنوات التي وقع المغرب خلالها في قبضة موسى بن أبي العافية، قبل أن يستعيد الأدارسة زمام الأمور إلى أيديهم، أمر سيترك فجوة في ذهن القارىء ويحرمه من الخلفية الضرورية للأحداث التالية، ولذلك فسنملأ هذه الفجوة بعرض التطورات التي أعقبت سقوط الدولة الإدريسية الأولى، بما ينبغي من الإيجاز، حتى نخلص إلى عهد القاسم الملقب بكنون.

قلنا إن ابن أبي العافية قد استولى على فاس وإن حسن الحجام الذي نجا من انتقامه، لم ينج مع ذلك من الموت، وعقب ذلك، بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفراداً، حتى أطلق الناس على نهر فاس اسم «النهر الأحمر»، لغزارة الدماء - دماء الأدارسة خصوصاً - التي سالت فيه. والذين كانت لهم الرئاسة في مدن وبلاد أخرى، وفي مقدمتها شالة وأصيلا، أجلاهم عنها ولجأ من بقي منهم على قيد الحياة مغلوبين مطاردين إلى

---

(1) من الصعب تكوين فكرة جغرافية دقيقة من المعلومات التي وصلت إلينا عن امتداد رقعة الدولة الإدريسية الأولى، ولكنه مع ذلك، من الممكن وضع الخطوط الرئيسية لخريطة هذه الدولة بحيث تشمل شمال المغرب كله، باستثناء الشاطىء، ومنطقة تازا، وسهول الساحل الأطلسي، وبلاد مكناسة المتجهة إلى جنوب حتى درعة، وأعالي سبو، وذلك بالإضافة إلى القسم الشرقي الذي شمل تلمسان حتى نهر شلف والذي استقل به أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن، في مرحلة تالية. وقد تعرض المسعودي لتحديد تخوم مملكة إدريس الأول التي شاهدت توسعاً كبيراً، كما رأينا في عهد إدريس الثاني، فقال في مروج الذهب (368/1) مايلي:

«ويتصل أقاصي السودان العراة بآخر بلاد إدريس بن عبد الله من أراضي المغرب، وهي بلاد تلمسان، وتيهرت، وبلاد فاس، ثم بلاد السوس الأقصى» وفي مكان آخر من المروج (39/4) يقدر المسعودي امتداد مملكة الادارسة، ضمن تقديراته لمساحات مختلف الممالك، بألف ومائتي فرسخ في مائة وعشرين فرسخاً، ونحن لكي نكون فكرة عن هذا الامتداد، نذكّر بأن نفس المؤلف يقدّر مساحة مملكة عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس بثلاثمائة فرسخ وثمانين فرسخاً، أي إن مملكة إدريس بلغت مساحتها ثلاثة أضعاف الأندلس الإسلامية.

حصن بالغ الارتفاع صعب المدخل في منطقة الريف يسمى «جحر النسر»[1].

وهناك وضع جيشاً لمحاصرتهم بجيش بقيادة أبي الفتح[2] التسولي فبلغ عدد رجاله ألف فارس لمنعهم من التصرف.

وإثر ذلك استخلف موسى ابنه مدين على المغرب الأقصى وأنزله بعدوة القرويين واستعمل على عدوة الأندلس طول بن أبي يزيد، وعزل به محمد بن ثعلبة ونهض هو إلى تلمسان في سنة 319 هـ.،[3] فملكها، بعدما غلب عليها صاحبها، الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس الذي هرب منها والتجأ إلى مدينة مليلة[4]، ثم عاد موسى بن أبي العافية إلى فاس.

وفي السنة نفسها استغل الناصر لدين الله تضعضع سلطان الأدارسة فغزا مدينة سبتة التي كانت لاتزال خاضعة للأدارسة، وافتتحها. ويبدو أن هذا الغزو سبقه مسعى قام به وفد يمثل سكان المدينة، أو على الأقل، أنصار

---

(1) تقع قلعة النسر التي بناها إبراهيم بن محمد بن إدريس في سنة 317 على قمة جبل وعر في غمارة على مسيرة ثلاثة أيام من سبتة، ولا يرقى إليها إلاّ من طريق واحد ضيق بحيث لا يمر به في وقت واحد، سوى شخص واحد، وعلى الرغم من بعض الإشارات التي وردت إليه في كتب الجغرافيين، فإنه لم يمكن التعرف على هذا الحصن المندثر على وجه الدقة (راجع البكري ص 114 و126)، ولو أن البيانات التي نشرها الباحث موليير Molièras في كتابه Le Maroc inconu (2/390) تدلّ على إمكان التعرف على جحر النسر في أطلال لاتزال قائمة وتحمل اسم جحرة النسر، في ناحية جنان محبر، بين البرانس والدسول (التسول)، راجع أيضاً أحمد المكناسي، المدن الإسلامية المندثرة (ص 8 — 9) ومقالةت ريني باسي Basset (R) في دائرة المعارف الإسلامية (مادة جحر النسر).

(2) كذا في معظم الروايات، وفي البكري: أبو القمح، وهو فيما نرجح تحريف من النساخ.

(3) اعتمدنا رواية العبر وأعلام الأعلام والبيان. وأما صاحب الاستقصا، فيؤرخ لهذه الأحداث في سنة 317 هـ.

(4) مدينة في شمال المغرب الأقصى، على ساحل البحر، في منتصف الطريق بين سبتة ووهران، أسسها الفنيقيون واحتلها الرومان، وقد كان بنو البوري بن موسى بن أبي العافية هم أول من جدد بناءها في العصر الإسلامي. وقبل وفاة أمير مكناسة بوقت قصير، احتلها عبد الرحمن الناصر الأموي في سنة 315 هـ (927م) ومليلة في الوقت الحاضر، تحتلها إسبانيا، هي وسبتة، راجع البكري (ص 88 — 89) الإدريسي الذي وصفها بأنها «مدينة حسنة متوسطة (ص 171 — 172) ابن الخطيب في أعمال الأعلام (ص 114 هامش 1) مجلة دعوة الحق (العدد الثامن ـ مايو 1960) معجم البلدان (5/197).

خليفة قرطبة من بينهم. وقد طلبوا إلى عبد الرحمن، فيما يقول ابن حيان، أن بوفد إليها عامله وقوته[1]. وقد أوفد إليهم عاملاً، وهو أمية بن إسحاق، عامله على الجزيرة الخضراء الذي أراد له أن يجمع بين المنصبين لما بين المدينتين من التقارب، فوصل إلى سبتة في صدر ربيع الأول من السنة، وبذلك وقع مضيق جبل طارق بعدوتيه تحت سيادة الأندلس. وبمجرد احتلال المدينة شرع عبد الرحمن في تحصينها، فبنى حولها سوراً بالكدّان ووضع فيها حامية دائمة من القواد والجنود[2] مما يدل على عزمه على الاحتفاظ بها واتخاذها قاعدة عسكرية.

وهذه الاجراءات العسكرية سارع الخليفة بتدعيمها بإجراء سياسي، فكتب إلى أمراء البربر، وفي مقدمتهم محمد بن خزر، زعيم زناتة وموسى بن أبي العافية المكـناسي، ومنصور بن سنان، وزاكلة ابن سِرَاج، صاحب مدينة طنجة، والمؤيد بن عبد السميع، صاحب نكور ونفزة، ولغيرهم من زعماء القبائل الموالية له، مثل سمجون بن مقود، زعيم أهل لمسة وأنجرة، كما كتب إلى كتامة الهبط، وعلى رأسهم حسن بن سليمان والي لواتة وهـوارة وعلى رأسهم عروس بن بـداء. وقد ألحّ الخليفة في رسائله عـلى تمييزه لهؤلاء الأمراء، ودعاهم إلى التزام الهدوء والوئام، كما وعدهم بالمساعدة إذا احتاجوا إليها لمواجهة أعدائهم، إذا صاروا يداً معه «وإخواناً في الطاعـة، وأولياء للدعوة»[3].

وأما الأدارسة الذين كانت سبتة بأيديهم، فقد استقبلوا احتلال سبتة واقتحام الناصر لدين الله لبلـدهم بما نتصوره من السخط والاستنكار فعظم عليهم الأمر، خصوصاً، لأنهم أدركوا ان جيش قـرطبة لا يمكن مقـارنته بجيوش أمراء البربر ولا حتى بجيش العبيديين الذي يغزو بلادهم ويمعن فيها تقتيلاً وتخريباً ثم يعود أدراجه. وكذلك سارع إبراهيم بن محمد الحسني ومن معه من ولد أبيه محمد بن إدريس الحسني إلى جمع رجالهم ومن يواليهم من

---

(1) قارن المقتبس لابن حيان (نشر شالميتا وآخرين ـ مدريد 1979 ـ 289/5 و298 وما يليها) والبيان (204/2) ونفح الطيب (طبعة بيروت) 354/1، وفيه أن غزو سبتة وقع في سنة 317 هـ، وهو تاريخ لا شك في أن المقري نقله عن ابن خلدون (العبر 137/4-138)، والمرجح أن يكون من غلطة النساخ بسبب تقارب حروف سبعة وتسعة.

(2) البيان (204/2).

(3) المقتبس، (ص 290).

قبائل البربر، فزحفوا على سبتة[1]، التي صمد فيها جيش الناصر وقاومهم مقاومة شديدة بمساعدة أهل البلد، وعادوا مخذولين.

ولما أدرك الأدارسة ان القوة تعوزهم للوقوف في وجه القوة الجديدة التي دخلت على مسرح الأحداث بصورة غير متوقعة، قرروا الاعتراف بالأمر الواقع، بل وراحوا يعتذرون على هذه الغلطة إلى الناصر لدين الله بأعذار واهية مدعين إن البربر غالطوهم فأخبروهم ان عامل الجزيرة الخضراء قد غزا سبتة من تلقاء نفسه وبدون إذن من الخليفة، ولكنهم بعدما تأكد لديهم ان الخليفة هو نفسه الذي وجه جيشه لغزو بلدهم لا يسعهم إلا أن يهنّئوه على ذلك النصر والتوفيق[2].

وفي رسالة جماعية لبني محمد بن إدريس أورد نصها ابن حيان نقرأ العبارات التالية:

«وقد أنعم الله بك، يا أمير المؤمنين بأن صرف همتك إلى ناحيتنا، ووكل عزمك بعدوتنا... فلقد كنا نتمنى ذلك ونستبطئه منك، إلى أن تمّم الله عزمك ويسرك بتوفيقه إلى ما نرجو أن نرتقي فيه على يدك إلى أفضل الخطط وأشرف المنازل».

«فإلى إمامنا وسيدنا نرفع رغباتنا ونوجه طلباتنا في إتمام عزمك وتسديد فعلك، وتسديد بصيرتك فيما ألهمك الله إليه ووفقك له».

«وبعد، أعز الله أمير المؤمنين، فإنه قدم جندك علينا بسبتة بغتة، لا نعلم معنى الأمر فيه ولا المذهب إليه، فخفّ البربر الذين يلونها إليهم، واستبقوا إلى محاربتهم، فلما تكافأت الحرب بينهم، واستنصرونا عليهم، واستنهضونا للقيام معهم برجالنا ومواليا، وزعموا أنه إنما قدم إلى ما هنالك عامل الجزيرة الخضراء فيمن خف معه، متطاولاً إلى ذلك من ذاته دون إذنك ولا مذهبك، فتوقفنا عنهم طمعاً في أن يقدم إلينا من عندك كتاب أو رسول، إلى أن طال الأمر علينا، فنهضنا بأنفسنا لاستبانة الخبر، فنادانا القوم من أعلى السور بأنهم جندك وانك أنت الذي بعثتهم، وسألونا أن نكتب إليك لتعرفنا حقيقة الأمر وجلية الخبر، فصرفنا عند ذلك عساكرنا عنهم»[3].

(1) نفس المصدر، (ص 291).
(2) نفس المصدر، (ص 291 ـ 294).

أظهر الناصر لدين الله تصديق بني محمد بن إدريس فيما ادعوه وقبل عذرهم رغبة في استصلاحهم وسعياً لصلة الأرحام، فبعث إليهم شخصية تتمتع بثقتهم، وهو محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، قاضي جيان، فالتقى بهم وتلطف إليهم، وسكن روعهم، وهدأت نفوسهم.

ذلك هو موقف فخذ بني محمد من الأدارسة، وأما الفخذ الآخر، وهم أبناء عمر بن إدريس الذي كان على رأسه في ذلك الوقت إبراهيم بن إدريس ابن عمر بن إدريس، فقد كان منافساً لبني محمد، وقد استغل زعيمهم حوادث احتلال سبتة التي استنكروا موقف بني عمومتهم منها وحاولوا التقرب إلى خليفة قرطبة الذي كان قد وجه إليهم رسالة في اواخر ربيع الأول ليعلن إليهم هذه التطورات التي أعلنها أيضاً إلى زعماء البربر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وكذلك بعث بنو عمر بن إدريس من جهتهم رسالة إلى الخليفة لم يقتصروا فيها على تهنئته بما أحرزه من النجاح والتعبير عن ولائهم، بل ضمنوها كذلك التنديد ببني محمد من بني عمهم والإغراء بهم. فبعدما أعرب بنو عمر عن سرورهم وابتهاجهم وما كان من مسارعتهم إلى «بيعتنا سيدنا أمير المؤمنين»، يضيفون قائلين «ولا نأمن سلطان بني عمنا بني محمد المباينين لنا، إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه، الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور، إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبيعته، والكراهة لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده، وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك من الصغو له، أيده الله، والميل إليه، والاعتراف بحقه الخ».

ولم يكتف بنو عمر بكل هذا على كثرته بل هم سارعوا لحماية حامية سبتة ولمباطشة عدوه، ومنابذة كل من نابذه «وكتبنا متواترة على العامل (على سبتة) بما يشد أزره ويقوي نفسه، ويفرخ روعه، ويفرح قلبه من الظهور على من جاش به، والغض لمن تألب عليه، إلى أن جاءنا كتابه بخبر مسالمته لأولاد محمد، أضدادنا، يوم السبت لثمان خلون من جمادى الأولى، وإنما كان بيننا وبين سبتة يومئذٍ نحو بريد... فلم يمكنا التمادي على رأينا في الحرب، إذ قد سالم عامله وأمينه»[1].

---

(1) المقتبس (5/295).

ومع هذه الرسالة بعث بنو عمر بيعتهم للناصر لدين الله «مستوفاة مؤكدة» وكان ذلك في شهر رجب من السنة.

وكانت البيعة تشمل إلى جانب رؤساء بني عمر، وفي مقدمتهم إبراهيم وعيسى وأبو العيش، بنو إدريس، وابن عمهم يحيى بن محسن ابن محمد بن القاسم، زعماء قبيل غمارة الموالي لهم.

ونحن نستطيع أن نتصور بسهولة الوضع الذي وجد فيه نفسه خليفة قرطبة إزاء الأدارسة وما يسوده من الارتباك، ولاسيما إذا عرفنا ان بني محمد الذين يغريه بهم بنو عمر قد سبقوا هؤلاء في إعلان ولائهم وإرسال بيعتهم خفيفة الشروط مغلظة الإيمان، وكان ذلك في آخر جمادى الثانية. وقد جاء في رسالتهم التي بعثوا بها إليه في هذا الشأن خصوصاً مايلي:

«وقد سارعنا إلى كل ما رآه أمينك (محمد بن عبد الله بن أبي عيسى) من عقد الأيمان المؤكدة، وإعطاء العهود المغلظة التي حملناها على أن نوالي من والاك ونعادي من عاداك، ونكون يداً واحدة وكلمة متفقة على من حادَّك وناوأك وقد أمرنا إقامة الدعوة لك على جميع منابرنا في كل عملنا»[1].

ولكن هذه الرسالة التي كان يمكن أن تكون رسالة البيعة وإعلان الولاء، الأمر الذي يضمن لها تأثيراً أقوى لدى الخليفة، اشتملت أيضاً على شكوى من تصرف عامل سبتة. وخلاصة القضية ان بني محمد قد اشترطوا على هذا العامل في الاتفاق الذي عقدوه معه أن لا يقبل أحداً من الهاربين إلى سبتة من رعاياهم ولا يأويهم، وأن لا يمتد سلطانه (نظره) إلى ما يقع خارج المدينة. «ولكنه لم يلبث أن داس بالعهد، واستدعى قوماً من رعيتنا يقال لهم بني وامضة، أتوه فآواهم إليه بعد عهدنا»[2]. فلما طالبوه بإعادة هؤلاء القوم إليهم تثاقل وقال لهم إنه سوف يستطلع رأي الخليفة في الأمر.

وإلى جانب الأدارسة من بني عمر جرت مراسلات مهمة[3] بين عبد

---

(1) نفس المصدر، (5/297).

(2) نفس المصدر، (5/ 298).

(3) نفس المصدر

الرحمن الناصر لدين الله ومحمد بن خزر، أمير زناتة، الذي كان الخليفة يعتبره عونه وسنده الأول في تنفيذ مشاريعه بحيث إنه لم يتردد في أن يكشف له عن مخططه العسكري، بل وفي طلب مساعدته في هجوم شامل كان ينوي القيام به ويتخذ قاعدة له سبتة ووهران التي أعلن، إليه انه سوف يغزوها بأسطوله.

وفي ختام رسالته يقول أمير المؤمنين:

«فاستعد أسعدك الله وتأهب وشمِّر وتلبّب، وكن في انتظار ما يوافيك من أمير المؤمنين وولاته، لتكون صدر القواد، كما أنت صدر أولـي الوداد، ومتقدماً للرجال، كما أنت صدر الصيال، فإن أمير المؤمنين يرجو بالله عونه وعليه توكله، أن يكون قد قرب الوقت الذي قد رجوت الفوز به، والإدراك له، وبلوغ الأمل منه»[1].

كان الناصر لدين الله يشعر شعوراً دقيقاً بخطورة الوضع الذي نجم عن انهيار دولة الأدارسة ووقوفه وجهاً لوجه امام قوة العبيديين الهائلة، فخاطب ابن أبي العافية الذي أصبح الآن في غنى عن مناصرة جيوشهم، حيث تمت له السيطرة على المغرب الأقصى وجزء مهم من المغرب الأوسط، وتم الاتفاق بين العدوتين على الوئام والتقارب، فخلع موسى طاعة العبيديين وخطب للناصر على منابر مملكته[2]، وبذلك حقق خليفة الأندلس حلمًا ساور

---

(1) نفس المصدر (ص 308).

(2) لم يكن هذا الاتفاق أول خطوة لعمل الخليفة الأموي على تدعيم مركز قرطبة في المغرب. فبعد احتلال مليلة (سنة 315 هـ) وافتتاح مدينة بُبَشْتَر، آخر معاقل الثائر عمر بن حفصون اتجهت أنظاره إلى عدوة المغرب لدعم موقف القبائل المقاومة لنفوذ العبيديين. وفي نطاق معالجته لحوادث سنة 316 هـ، يصف ابن حيان هذا الاتجاه بالعبارات التالية:

«امتداد همة الخليفة الناصر لدين الله إلى استدعاء أكابر أمراء البرابر بالعِدْوة إلى ولايته، وثنيه لهم عن ولاية الداعي عبيد الله الشيعي المنتزي على بلد افريقية... وما تهيأ له من استجابة كثير منهم لدعوته، وتصييره لهم حرباً لعبيد الله، عدوه، وتذرعه بذلك إلى عبور بحر الجزيرة المعروف بالزقاق القريب المرام، الحاجز بين بلد الأندلس وبلدهم العريضة، واستيلائه قريباً على مدينة سبتة، فرضة المجاز إلى بلدهم، ومصيرها في مملكته، وانبساطه بذلك في أرضهم... وذلك أمر لم يتهيأ لأحد من سلفه أملاك الأندلس ومن قبلهم منذ افتتحت» (انظر المقتبس 255/5).

الكثيرين، قبله وبعده، بجعل مضيق جبل طارق ممراً مائياً يجري في مملكته ويوحّد الأندلس والمغرب بدلاً من أن يفصل بينهما.

كان موسى بن أبي العافية ـ فيما يقول ابن حيان ـ يحتل المكانة بعد محمد ابن خزر، بين أمراء البربر، وذلك على الرغم من أن شخصية موسى الذي كان العامل الأول مع العبيديين في القضاء على قوة الأدارسة قد تجاوزت في هذه المرحلة الإطار القبلي وأصبح رجل دولة، وذلك على عكس محمد بن خزر الذي ينحصر نفوذه في زناتة، وهذه الاعتبار كان خليقاً بأن يجعل من موسى الحليف الأول للناصر لدين الله في عدوة المغرب. ولكنه يجب أن لا ننسى أن الرجل كان صنيعة العبيديين وكان حليفهم مدة طويلة، وبالتالي، فإن تحالفه مع خليفة قرطبة لم يكن يقوم على إيمان بمبدأ أحقية الأمويين وأولويتهم بالخلافة. وهذا على خلاف زناتة الذين لم يفتأوا يقاومون العبيديين وحلفاءهم، صنهاجة، أعداءهم التقليديين منذ بداية ذلك العراك بين العمالقة.

وقد علل ابن حيان تفضيل الخليفة لزناتة وأميرهم، محمد ابن خزر، على ابن أبي العافية قائلاً:

«لأن موسى لم يكن لديه بالموثوق الطاعة، إذ كان والي عبيد الله الشيعي أول نجومه وارتسم بولايته، ثم مال عنه إلى الناصر لدين الله، ودخل في جملته، فعاتبه الناصر لدين الله في قطيعته لوليه محمد بن خزر»[1].

وسواء أكان الناصر هو الذي فاتح موسى (كما يقول ابن خلدون)، أم أن موسى هو الذي سعى لموالاة الناصر (كما يقول ابن عذاري)، فإن هذه المناورة كانت لها فوائد جمة للطرفين: فهي ستسمح لقرطبة بمقاومة أعداء الخليفة، في أفريقية، وبواسطة طرف ثالث لا يطالب الخليفة إلا بالتأييد

---

(1) كان خلاف قد نشب بين موسى بن أبي العافية ومحمد بن خزر، أدى إلى معارك طاحنة بين الطرفين، فبعث الناصر لدين الله إليهما سفيراً، وهو القاضي محمد بن أبي عيسى، فأصلح بينهما. انظر تفاصيل ذلك وكذا المراسلة التي تبودلت بين الخليفة وابن أبي العافية في نفس المصدر، 5/ 307 ومايليها). وانظر كذلك البيان (1/ 204).

المعنوي، وأما ابن أبي العافية، فسيجني من هذا الاتفاق الذي لا يكلفه إلا الدعاء في صلاة الجمعة لخليفة بعيد، التخلص من تبعية العبيديين الذين أتاحوا له الفرصة التي ينشدها لتخليصهم من الأدارسة، ولكنه يعرف انهم لن يسمحوا له بحكم دولتهم في أمن ودعة.

وبالفعل، فإن انتشار نفوذ ابن أبي العافية إلى الشرق بحيث كان يمتد على جميع رقعة مملكة الأدارسة تقريباً، سيقض مضجع سادة المهدية، وكان خلع بيعتهم بمثابة إعلان للحرب.

وكذلك سرح المهدي جيشاً مهمًا إلى المغرب بقيادة ابن أخي مصَّالة بن حبُّوس، حميد بن يصلت، (وهو كتامي فيما يبدو)[1] الذي كان والياً له على تيهرت، فزحف إلى ابن أبي العافية في سنة 321 هـ. ، ومعه سياسي قديم من رجال الأدارسة، وهو لم يكن سوى حامد بن حمدان الهمذاني الذي عرفنا قصته المفجعة مع الحسن الحجام.

وقد التقى موسى بجيش افريقية في فحص مسون، ووقعت بين الفريقين معارك دامت عدة أيام انتهت بهزيمة ابن أبي العافية الذي لجأ إلى تسول وتحصن بقلعته هناك.

وأما ابنه مدين، فقد هرب من فاس عندما علم بمقدم حميد وحامد، وترك المكان فارغاً لحامد بن حمدان الذي استرجع ولايته على فاس بدون كبير عناء تحت راية العبيديين.

ولما ورد الخبر بهزيمة موسى إلى القائد أبي الفتح، فك الحصار الذي ضربه على قلعة النسر وسار في طريقه، ولكن النسور الأدارسة سوف لا يتركونه ينعم بالسلام، حيث إنهم تعقبوه وانقضوا عليه وهزموه ثم نهبوا معسكره.

---

(1) كذا في العبر، وفي البكري: حميد بن يصل، وفي البيان: حميد بن يصال وفي روض القرطاس: شبيل، وفي الاستقصا: يصليت، وفي أعمال الأعلام تيسيل، وفي بغية الرواد: حميد بن شبل الكتامي. وفي المقبس: حميد بن يصل. وقد اعتمد المحقق هذا الشكل مع انه ورد في إحدى مخطوطاته برسم «يصلة» وهي قراءة أفضل لهذا الاسم البربري.

وإثر عودة القائد حميد الذي دوخ المغرب إلى افريقية، وردت الأخبار بوفاة عبيد الله الشيعي (سنة 322 هـ). وقد كان ذلك بمثابة الضوء الأخضر لا نتفاض أهل المغرب على الشيعة، وكذلك ثار أحمد بن بكر بن عبد الرحمن ابن سهل الجذامي على حامد بن حمدان الهمذاني فقتله وبعث برأسه إلى غريمه موسى بن أبي العافية الذي بعث بالرأس بدوره (وكأنه يريد أن يقول إنه انهزم في معركة وليس في الحرب) إلى الخليفة، عبد الرحمن الناصر.

وكذلك استرجع ابن أبي العافية المغرب ورجعت علاقاته بقرطبة إلى مجراها العادي.

ولكن أبا القاسم القائم الذي خلف المهدي في الحكم، لم يكن أقل حرصاً على هذه المنطقة الستراتيجية المهمة من أبيه، ولذلك، فقد وجه إلى المغرب جيشاً بقيادة ميسور الفتى في سنة 323 هـ.، ولكن ابن أبي العافية أحجم عن لقائه وفضل الاعتصام بحصن الكاي، وبذلك وجد ميسور طريقه إلى فاس خالياً من المقاومة، ولما بلغ أسوارها ضرب عليها الحصار واستنزل عاملها، أحمد بن بكر الجذامي، فخرج إليه يحمل هدية عظيمة وأموالاً جسيمة، أخذها منه ثم قبض عليه وأشخصه مقيداً إلى المهدية[1]، ولما رأى أهل فاس ما بدر من ميسور من الغدر، امتنعوا عن تسليم مدينتهم إليه، وقدموا على أنفسهم حسن ابن القاسم اللواتي الذي استمر على مقاومة ميسور، بينما واصل الأخير محاصرته لفاس لمدة سبعة أشهر، وبعد ذلك، أعلن سكان فاس رغبتهم في السلم واشترطوا على أنفسهم الطاعة والاتاوة، فقبل ميسور الصلح وأقر حسن بن قاسم على ولايته بفاس.

وصف ابن أبي العافية تحركات ميسور في عدة رسائل إلى الناصر لدين الله، وجاء في الرسالة الأولى منها والتي نقل إلينا نصها كاملاً ابن حيان قوله:

«فإن اللعين أبا القاسم، طاغوتهم، بعث إلينا غلامه ميسور الخصي،

---

(1) قارن روايات العبر (135/6) وأعمال الأعلام (ص 216) والبكري، (ص 128) وروض القرطاس.

وعفريته ابن أبي شحمة الكتامي وغيرهما من قواده، في كثف من شياطينه، فحلوا في البلاد، وبثّوا دعاتهم، فتوقف النـاس عنهم ولاذ البرابـرة منهم بأوعارهم ومعاقلهم»[1].

وبعدما يذكر موسى التفاصيل المتقدمة التي تتعلق بغدر ميسور بمحمد ابن ثعلبة وأحمد بن بكر وامتناع سكان فاس عن فتح أبواب مدينتهم، يخبر الخليفة ان جيش المهدية تحول إليه وأحاط به من القبلة والغرب والشرق، وان نتيجة المعركة التي وقعت بينه وبين المشارقة كانت نصراً مبيناً له. ولما أعادوا الكرة لأخذ الثأر منه في اليوم التالي «استظهرنا عليهم وردعناهم ردْعَتين عظيمتين، وقتلنا خلقاً منهم، وانصرفوا عشاء إلى محلتهم خاسرين مغيظين».

وكذلك تؤكد رسالة أخرى تحوّل الأدارسة بفخذيهم، أبناء محمد وأبناء عمر، إلى العبيديين، فيقول ابن أبي العافية:

«والذي يريد أمير المؤمنين، سيدي، من إعلامي إياه مـا نحن مع المشارقة، أهلكهم الله، وقطع مدتهم، فإنهم مشوا إلينا إلى لكاي، ومعهم الأدعياء من بني إدريس، بنو محمد وبنو عمر المعروفون ببني ميّالة، إخوتهم بعساكرهم كلها، فكان بيننا وبينهم قتال ما رئي مثله، في غربنا اليوم منذ زمن طويل، وجالت الخيل بيننا وبينهم جولة أخطأ فيها الحكيم حكمته، وأضل فيها العاقل سمته، فقتلوا لنا بعض صبياننا طاشوا. . . فولوا مدبرين ومنحنا الله أكتافهم فقتلنا فيهم نحو مائتي فارس»[2].

ولكن معركة أخرى وقعت بعد ذلك بينهم وبين جيش المشارقة بقيادة ميسور وطارده فالتجأ إلى تاكروت بالصحراء وقد أساءت هذه الأخبار خليفة قرطبة ولكنه لم يصنع شيئاً لنجدته[3].

وفي هذه الأثناء تنصل بنو عمر من الأدارسة الحسنيّين من التهمة التي

---

(1) المقتبس، (5/369).

(2) نفس المصدر، (5/371 — 372).

(3) نفس المصدر

وجهها إليهم موسى بن أبي العافية، فكتب اثنان من رؤسائهم، وهما إبراهيم وأبو العيش رسالة إلى الناصر لدين الله تبرّءا فيها مما رماهما به من الانضواء تحت لواء العبيديين مجددين العهد لولايته.

وبعدما تشير الرسالة إلى هزيمة ابن أبي العافية، تمضي فتقول:

«وبلغنا انه نمي إلى سيدنا أمير المؤمنين عنا اننا توجهنا إلى الفاسق ميسور، لا يسَّر الله أمره، على أسوأ الوجوه، ولم يكن ذلك، أكرم الله سيدنا أمير المؤمنين، إلا عن تقية منه ومداراة له، ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله، (صلعم)، فقد دارى صفوان بن أمية [بن خلف] الجمحيّ وغيره من المشركين والمنافقين حتى أظهر الله دينه، وأعلى ذكر نبيه، فلا يرتب أمير المؤمنين بطويتنا، ولْيَجْرُدْ عزمُه في معونتنا، فإنه متى فصل رأيه، أيَّده الله، بإخراج عسكر يناهض بنا هذا اللعين الذي عاش في أرضنا، وأتى بالعظائم التي لا يحل لأمير المؤمنين تركه لها، بادرنا إلى قائد ابن حزب الله بالرهائن التي تكون وثيقة على طاعتنا، وأسلمنا إليه مع ذلك رهائن كل من ضوى إلينا من البربر، حتى يقتنع بالوثيقة ويبلغ الغاية. فإذا اجتمعنا من الجيش المخرج إلينا، رجونا ألّا يثبت لنا عدونا الخ»[2].

وهذا المسعى لا نعرف نتيجته، وابن حيان الذي يورد نص هذه الرسالة لا يخبرنا، كما جرت عادته، بالأثر الذي تركته في نفس الخليفة، أو ما إذا كان أجاب صاحبيها عنها. وهذا الصمت قد يوحي بأن الخليفة الذي اتسع صدره ووالى مختلف العناصر المتطاحنة وتغاضى عن زلاتهم لأنهم يقاتلون العبيديين، أما أن يبلغ الأمر بالأدارسة إلى مقاتلة أنصاره (وهو أمر لا تتعرض له الرسالة بالنفي) على سبيل التقية، فهو لا بد وأن يكون قد وجده أكثر مما يحتمل، على الأقل، في السياق السياسي الحالي.

وفي سنة 324 هـ؛ برز موسى بن أبي العافية من جديد على المسرح السياسي، واستمرت كتبه ترد على خليفة قرطبة، يذكر فيها مقاومته في

---

(1) في العبر بتحريف: الغوري

(2) المقتبس، (5/374 — 376).

الصحراء لأنصار العبيديين، وإنه «يراصد رسل اللعين (ميسور) وسراياه كل مرصد، فيقطع بهم عن مرادهم ويصدهم عن وجهتهم، وان الخصي ميسور نكص بعد إقدامه، لتفرق القبائل عنه، فولى مدبراً، وأسلم الغرب عاجزاً، وسأل إخراج الجيوش إلى الأدعياء بني محمد وإخوتهم بني عمر، ولد إدريس، إذ كانوا السبب في انجذاب اللعناء إلى الغرب وطماعيتهم فيه»[1].

وفي رسالة تالية ذكر موسى للخليفة نهوضه من كبوته وعودته إلى وطنه، وقال إنه قد احتل قلعة حرماط بأهله وولده ومواليه وأنصاره. وفي فترة لاحقة ولّى ابنه مدين خليفة له على فاس التي دعاه إليها أهلها، بعد ما جلا عنها المشارقة، وقال للناصر لدين الله:

«إن الأدعياء من بني محمد وإخوتهم من بني عمر المعروفين ببني ميالة انحجزوا عنه، وخطبوا سلمه، فأبى عليهم من ذلك إلا بعد مُؤَامَرة سيدنا، أمير المؤمنين، ويستحث إخراج الجيش إليهم، على سبيله في الإغراء بهم»[2].

وبعد ذلك توالت كتبه على قرطبة يطلب معونة الخليفة بالفعلة والآلات لبناء قلعة «جارة» التي انزوى إليها، كما يطلب إليه تجريد الأسطول وإرساله إليه بصفة مستعجلة، فأجابه الناصر لدين الله فوجه إليه رئيس المهندسين لديه مع ثلاثين بناء وعشرة من النجارين، وخمسة عشر من الحفارين، وستة من الجيّارين ورجلين من الحدادين، وكلهم من حذاق مهنهم، وبعث إلى موسى بكميات كبيرة من الطعام والثياب ونفيس الهدايا[3].

وفي نفس الوقت وصلت رسالة إلى الناصر لدين الله من إبراهيم ابن محمد الحسني، رئيس بني محمد يعتذر فيها إليه باسم قومه مما نقم عليهم من موالاة المشارقة ويخطبون مراجعة عصمته وولايته والدخول في دعوته «ويصفون ان الذي كان منهم من مداهنة المشارقة لضرورة شديدة ضمتهم إلى ذلك، واستدفعوا به مكروههم، واستكفوا به شرهم، وذادوا به عن حرمهم

---

(1) نفس المصدر، (5/386).

(2) نفس المصدر، (5/387).

(3) نفس المصدر، (5/388 — 389).

ونعمهم، وأنهم صيروا دليلهم على صحة ما ذكروه من ذلك، رغبتهم في مسالمة موسى بن أبي العافية، وليّ أمير المؤمنين، والتماسهم مؤالفته على طاعته، مطرحين الأحقاد بينهم وبينه، على فرط مانالهم من ضره، وشملهم من خوفه، فأجيبوا إلى ما يوافقهم من ذلك عند ظهور ثباتهم عليه»[1].

وفي أوائل سنة 325 هـ. ، سجل موسى بن أبي العافية انتصارات كبيرة، خصوصاً بفضل تأييد أسطول قرطبة الذي أرسى في نكور، وذلك في معارك مع العبيديين ومع الأدارسة. وقد سجل تفاصيل هذه المعارك في رسالة أوردها ابن حيان بعث بها إلى الناصر لدين الله. وقد جاء فيها بعد الديباجة:

«ورد علينا الأسطول المنصور، وحل بمرسى نكور. ناهضنا الفاسقين بها، فنجحنا فيهم، واستولينا على جميع نعمهم، وحملنا السيف على من استحق منهم... ثم أخرجنا شوانىء من الأسطول الميمون، فقدمناها إلى جزيرة أرشغول[2] التي كان الداعي، ابن أبي العيش[3] قد اتخذها مستقراً، وكان قد استبعد عنها، لما كان يتوقعه منا. صيرنا في الشوانىء رجالاً من قبلنا، فدخلها رجالنا وافتتحوها واستولوا على جميع ما كان المنافقون استعدوا به فيها، ونقلت المراكب جميعه إلينا، وخربنا ما كان الداعي قد ابتناه بها من دار وغيرها، فأعَدْناها خراباً».

«ثم قصدنا مدينة جراوة[4] بجميع ما كانَ معنا، بعد تدويخنا الساحل

---

(1) نفس المصدر.

(2) راجع وصف الجغرافيين العرب لجزيرة أرشغول في كتابنا، «المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي».

(3) عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله ابن حسن بن علي بن أبي طالب، باني مدينة جراوة وكان أميراً عليها. ولد بتلمسان وآلت إليه أرشغول، وقد مات في حوالي سنة 330 في مدينة جراوة. راجع البكري، ص 77.

(4) اسم قبيلة ومدينة، تقع في شرق المغرب الأقصى غير بعيد من تلمسان، ووصفها البكري بأنها مدينة تقع في سهل من الأرض كان عليها سور مبني بالطوب، وداخلها قصبة، وحولها أرباض من جميع جهاتها وعيون ملحة، وداخلها آبار عذبة، وخمس حمامات أحدها ينسب إلى عمرو بن العاص، وجامع من خمس بلاطات على عمدة حجارة، أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس في سنة تسع وخمسين ومائتين، وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي، ورابع جوفي، وحواليها بسائط =

ونكايتنا بأهله، ومنعنا المراكب من الحلول به وصرفنا بجميعها إلينا، فنزلنا بثغرة المخذول، ابن أبي العيش، وجرج إلينا بعدته وعديده، يلتمس دفاعاً عن موضعه، فدارت بيننا وبينه حرب يسيرة، ثم نكص أصحابه مدبرين، وأخذهم القتل، ولولا تعلقهم بالأوعار وقـربها منهم لاصْطُلموا عن آخرهم، فسفكنا دماء حماته، وأخذنا له خيلاً عديدة، وانحصر لنا في القلعة التي ابتناها، فأحطنا به، وأدرنا العسكر حوله، وتغلبنا على مدينة جراوة، وغنمنا جميع ما كان فيها»[1].

وفي رسالة أخرى يخبر الخليفة بتمادي ولده، مدين بن موسى على حصار ابن أبي العيش بقلعته، وأخذه بمخنقه، وان الجهد بلغ به ان سأله إقالة العثرة، على أن يعاود الطاعة ويتخلى عن كل ما كـان ينازعـه من الأعمال، إلاّ حصنه ذلك الذي هو فيه، ويذكر مصالحته لمحمد بن خزر، أمير زناتة ومصاهرته له، ثم ذكر معاقدته لابن أبي العيش ومؤالفته إياه، وارتفاع الشر بينهما.

وبينما كان موسى بن أبي العافية في مرضه الأخير (سنة 326 هـ.)، كتب ابنه الثاني، مدين بن موسى كتاباً إلى الناصر لدين الله يستعرض فيه الوضع في المغرب ويذكر إنه لايزال محاصراً لمدينة فاس ولا ينوي الإقلاع عن هذا الحصار، ثم يندد بغدر بني إدريس بن عمر الحسني وبنكثهم «بما أتوه من طاعتهم، ورجوعهم إلى بني عمهم محمد الذين كانوا مضادين لهم، وتألبهم

= عريضة للزرع والضرع، وجبل ممالو في قبليها، وفيه حصن بناه الحسن بن أبي العيش حواليه بساتين ومياه تطرد، وبينه وبين المدينة أربعة أميال. وحول جراوة عدة قرى لقبائل من البربر، مطغرة وبني يفرن وودانة، ويغمر الجبل وبني راسين وبني باداسن وبني وريمش وغيرهم. كان لابن العيش ومن خلفه مدينة تلمسان. نفس المصدر، (ص 142). وقد غلط ياقوت وحدد موقع جراوة في معجمه (117/2) في مكان قال، إنه يقع بين قسنطينة وقلعة بني حماد. انظر كذلك ابن الخطيب، أعمال الأعلام، (ص 213 — 214)، والمقدسي، وصف إقليم المغرب، مقتبس من كتـاب أحسن التقاسيم نشـره شارل بيـلا Ch. Pelat في الجزائـر، سنة 1950، (ص 66).

(1) المقتبس، (414/5).

لعساكرهم إليه إذ طمعوا بانتهاز فرصة منه، وان الحرب دارت بينهم وبينه فانهزموا مدبرين»[1].

وقد أثرت هذه التطورات في نفس الخليفة تأثيراً عظيمًا، ولاسيما وأن بني عمر كانوا قد جددوا بيعته في تلك السنة واستسمحوه على ما فرط منهم، فتقبل عذرهم وتوبتهم وأهدى إلى زعيميهم إبراهيم وأبي العيش هدية فخمة، من بينها خمسون ثوباً من الثياب العُبيْدية الرفيعة، وعشر عمائم من الخز، وثلاثون شقة من شِقاق الخز، وبغلتان من بغال الركاب وغير ذلك.

ولما بلغت الأدارسة من بني عمر أخبار سعاية مدين بن موسى بهم لدى الناصر لدين الله، بعثوا إليه بكتاب ينكرون فيه ما عـزا إليهم ويتنصلون من التهم التي رمـاهم بها، ولكن الخليفـة أعرض عنهم ولم يعـد يصغي إلى أقوالهم[2].

وعقب ذلك وصلت إلى الناصر لدين الله أخبار وفاة موسى بن أبي العافية (في شوال سنة 326 هـ.) فأرسل تعزية إلى ابنه، مدين، كما وجه إليه سجلاً من قبله ولاه به أبوه في العدوة.

وفي هذه المرحلة كانت الرئاسة في بني إدريس عائدة إلى ابنيْ القاسم ابن إدريس وهما:

إبراهيم بن القاسم والقاسم الملقب بكنون (أو جنون)، وهما اخوان لمحسن الحجام، وكنون هو الذي قدمه بنو إدريس، وأسس الدولة الإدريسية الثانية، وكانت قلعة جحر النسر هي عاصمته.

* *

*

---

(1)

(2)

تسلسل ملوك الأدارسة

لناظم مجهول

قد جاء راشد بإدريس الإمام ... وفي أوليلي عام عقب أقام

وامتد ملكه إلى أن وصلا ... إلى الرشيد فلذلك أرسلا

من سمّه فمات عام زغق ... وقام راشد بأمر الخلق

وكان قد ترك حملاً وضعا ... ولده إدريس منه بويعا

وهو ابن عشرة من السنين ... واختط عام قصب فاس المعين

ومات في ريب وبعد وليا ... ولده محمد توفيا

سنة ركائم بعد علي ... ومات في ولده وبعد وليى

يحيى الحفيد بعده أبو الحسن ... وقام موسى عام نسح فامتهن

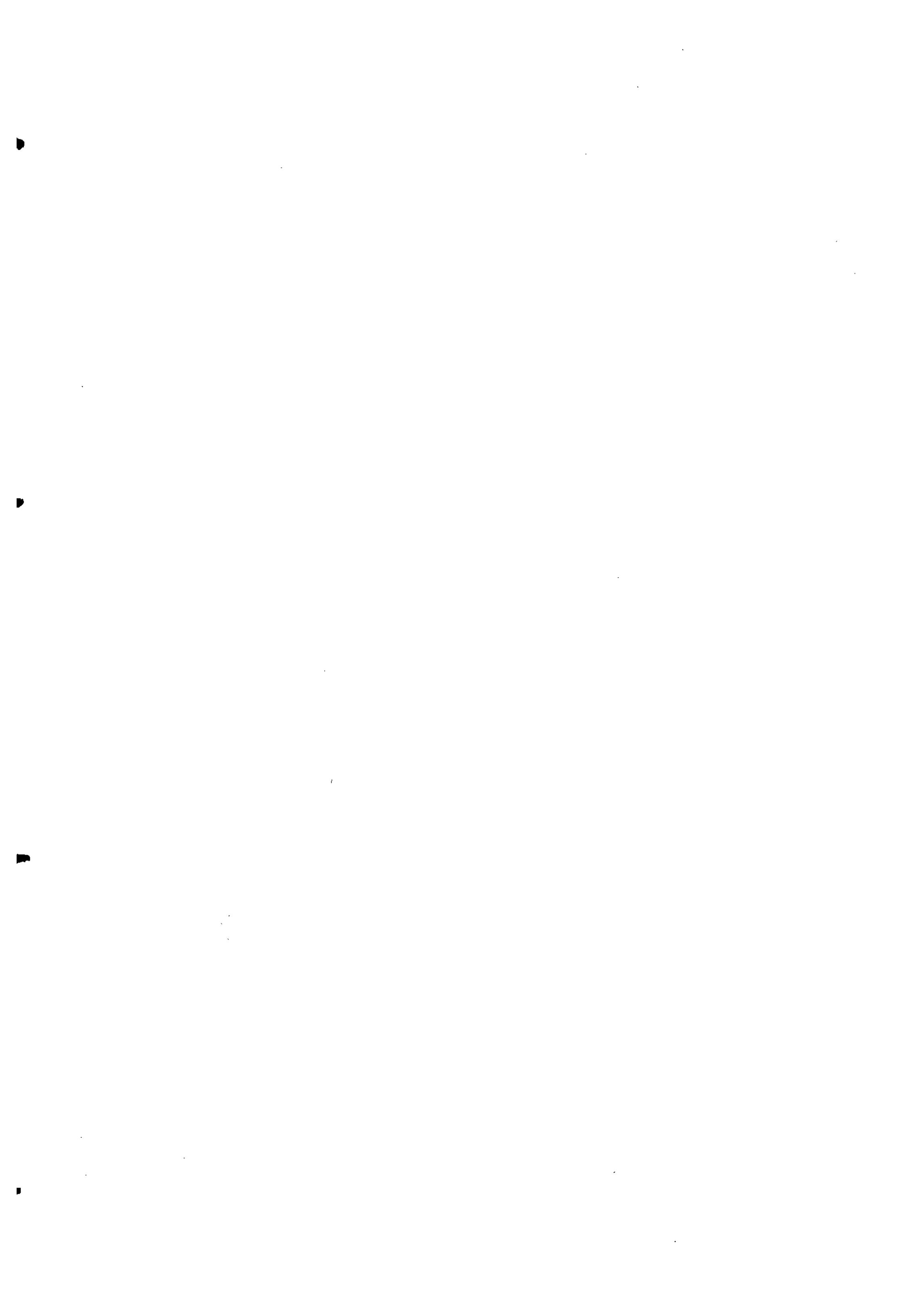
محمد أحسنهم من بعده ... وعام جص اختفى في لحده

وعادت الدولة للأدارسة ... من بعد أن صيروها دارسة

بعد محمد تولى القاسم ... أبو العيش الأخير منهم

وهو ابنه فانقرضت ذي الدولة ... في عسه فمن بهم للملة

الدولة الإدريسية الثانية



الفصل السادس

دولة كنون وابي العيش

أسست مدينة البصرة[1] في نفس الوقت الذي أسست فيه أصيلا، وفي مكان يقرب منها، على هضبة تشرف من ناحية الغرب على وادي مدا، ومن ناحية الشرق على الطريق المؤدية إلى وزان، وهي تبعد عن فاس بنحو عشرين ميلاً، ونحن لا نعرف تاريخ تأسيس البصرة على وجه التحديد، ولكننا نرجح بصورة تقرب من الجزم، انها بنيت في عهد إدريس الثاني، حيث ان الولاية عليها كانت من نصيب يحيى في التقسيم الذي أجراه محمد ابن إدريس للمملكة بعد وفاة أبيه (راجع الجدول أعلاه).

وفي الجيل التالي آلت الولاية على البصرة إلى أبناء القاسم بن إدريس فوليها ابنه إبراهيم (باني جحر النسر) نحو أربعين سنة، ثم وليها برهون بن

(1) وصف ابن حوقل الذي كان يكتب في عهد الادارسة، مدينة البصرة بالعبارات التالية: «والبصرة مدينة مقتصده عليها سور ليس بالمنيع، ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسيرة من شرقيها، ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى افريقية وغيرها. ومن غلاتهم القمح والشعير والقطاني وسهمهم في ذلك وافر. وهي خصبة كثيرة الخير حسنة الأسواق والعمارة، طيبة الهواء صحيحة التربة، وفيها قوم لهم خطر وميل إلى السلامة والعلم، ولهم محاسن في خلقهم عمت نساءهم ورجالهم». راجع صورة الأرض (ص 81)، وقد احتفظت البصرة برخائها ورفاهيتها عبر الأجيال بحيث ان وصف الإدريسي لها (ص 169) يردد نفس العبارات تقريباً، ولكن ياقوت الذي يردد وصف ابن حوقل يقول إنها خربت (خربها بلكين بن زيري)، معجم البلدان (1/440 — 442)، راجع أيضاً أعمال الأعلام (ص 164 هامش 1) البكري (ص 110 — 111) أحمد المكناسي المدن الإسلامية (ص 9) ومقالة يفر Yver في دائرة المصارف الإسلامية (مادة البصرة).

عيسى بن إبراهيم ثم أحمد بن القاسم بن إدريس، ثم عادت المدينة من جديد إلى برهون بن عيسى.

ولما استولى مصَالة بن حبوس، قائد العبيديين، على المغرب، عين والياً عليها غلاماً يدعى سعيد، ولكنه لما استعاد حسن الحجام ملك فاس، بسط سلطانه على البصرة أيضاً.

ولكن المدينة ظلت فيما يبدو، في يد الأدارسة بعد ذهاب الحجام، وفي الفترة التي تمت فيها السيطرة على المغرب لموسى بن أبي العافية، فإن ابن عذاري يخبرنا بأن يحيى بن القاسم ولد الجوطي[1] هو الذي ولي البصرة بعد الحجام، ثم وليها عيسى بن أحمد المعروف بأبي العيش ثم أحمد بن القاسم ثانية، وبعد فترة قصيرة كانت المدينة خلالها خاضعة لوالي من قبل ابن أبي العافية، عادت المدينة إلى الأدارسة وإلى عيسى أبي العيش نفسه الذي ورث الولاية عليها ابنه، أحمد بن أبي العيش[2].

وهكذا كانت البصرة في نفس الوقت ملجأ وعاصمة لما تبقى من نفوذ الأدارسة، فإن ابن خلدون يقول إنه لما استولى ابن أبي العافية على جميع المغرب وأجلى محمد بن القاسم بن ادريس وأخاه الحسين إلى الريف، نزلوا بالبصرة واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم، أخي الحسين وولوه عليهم[3].

---

(1) راجع عن الأشراف الجوطيين محمد بن أحمد المسناوي الدلائي (ت 1136 هـ = 1724م) في كتابه، رسالة في نسب السادة الأشراف الجوطيين (مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (مجموعة 3158 ـ ورقة 9)، وقد كانت منازل الأشراف الجوطيين في فاس ومكناس الزيتون، ولكن فروعاً منهم تفرقت وتشتّت في مختلف مناطق المغرب عبر القرون، والجوطيّ عند ابن حزم، هو يحيى بن القاسم بن إدريس (راجع جمهرة أنساب العرب، ص 49 ـ وقد ورد الاسم محرفاً بالحاء المهملة). ولكن ابن خلدون وأبو إسحاق بن أبي بكر التلمساني يريان ان الجوطي هو يحيى ابن محمد بن يحيى بن أبي القاسم بن إدريس.

(2) توفي في سنة 347 هـ.

(3) قارن روايات البكري (ص 128 — 129) العبر (17/4) الاستقصا (178/1) أعمال الأعلام (ص 218).

هذا فيما يتصل بأبناء القاسم، وأما أبناء عمر بن إدريس، فقد التجأوا إلى جبال غمارة[1] التي تمتد بين تيجاس (مقر ولاية عمر) حتى سبتة، وهناك ظلوا بمنجاة من مطاردة ابن أبي العافية والعبيديين، متمسكين بعصبية البربر الذين أصبحوا الآن منهم بالتزاوج واللغة والمحيط.

وإذا أخذنا هذه الحقائق إلى الاعتبار، فإننا سننتهي إلى نتيجة، وهي ان الأدارسة الذين فقدوا، ملكهم وعاصمتهم، فاس، قد تفتت مملكتهم إلى إمارات صغيرة، أهمها إمارة البصرة، اتخذوها إطاراً لاستمرار الحكم حسب التقاليد المتبعة بمبايعة أكبر الأمراء سناً وأكثرهم علماً وفضلاً، والقائمة التي أوردناها بتسلسل الولاية، هي أكبر شاهد على ذلك، ومن هذه الزاوية، يمكن القول باستمرارية الدولة الإدريسية، بصورة أو أخرى، خلال فترة محنتهم وفي عهد موسى بن أبي العافية.

والمهم انه بعدما طورد ابن أبي العافية، رجع الملك إلى بني إدريس، رمزياً وحقيقة، وعادوا لممارسة الحكم في المغرب كله (فيما عدا مناطق معينة)، ولما مات إبراهيم بن محمد بن القاسم، كبير الإخوة الثلاثة آلت الرئاسة إلى القاسم الملقب بكنون الذي اتخذ جحر النسر عاصمة له.

ونحن قد رأينا كيف ان الأدارسة أصبحوا الآن حلفاء العبيديين في مطاردة ابن أبي العافية، ومن ثم، فلا غرابة في أن يقيم كنون دعوتهم ويقف في صفهم لمعارضة نفوذ المروانيين خلفاء قرطبة، وفي مقابل ذلك، سمحوا له باستعادة ملكه على أكثر المغرب.

---

(1) العبر (4/16-17) وغمارة قبيل من بطون المصامدة من ولد غمار بن مصمود، وأشهر بطونهم بنو حمير ومثيوة وبنو ملال وأغصاوة ومجسكة، تمتد أراضيهم في منطقة الريف من لدن عساسة فتطوان وسبتة على أكثر من خمسة مراحل، وهي جبال مرتفعة يتصل بعضها ببعض حتى تتخطى قصر كتامة ووادي ورغة، وعلى هذه جبال كان يحكمها قبل الإسلام يليان (الذي يذكره بعض المؤرخين العرب باسم بلبان) الذي صانع موسى بن نصير وأمده بمعلومات قيمة عن الأندلس، وأذعن للجزية، وأقره موسى على ملكه، وجبال غمارة ستظل عبر الأجيال معقل بني عمر بن ادريس حتى بعدما رحلوا إلى الأندلس وتولوا الخلافة في قرطبة، كما سيأتي خبر ذلك في القسم الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله.

وقد استمر كنون في الحكم حتى توفي في سنة 337 هـ. فولي مكانه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم.

كان أبو العيش فقيهاً ورعاً حافظاً للسير وحافظاً لأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر، وكان شجاعاً جواداً. وقد عرف بين بني إدريس بأحمد الفاضل.

وتحت هذا الأمير، استعاد المغرب وحدته (فيما عدا بقع هنا وهناك)، حيث بايعه الناس من شواطىء المحيط، حتى سجلماسة. وقد كان سلطانه يرتكز على حسن سياسته وحكمته وفضله، ولكن أيضاً على الذكريات التي لاتزال عالقة بأذهان الناس، وعلى أسطورة الأدارسة وما عرفوه من المجد والعبودية، وهي أمور أصبحت الآن من صميم الفلكلور الشعبي المغربي، فإن الأدارسة تَمَغْرَبوا تماماً ونسوا مشاكل الشرق، وذلك على عكس العبيديين أبناء عمومتهم الذين لم يكونوا يرون في المغرب إلاّ وسيلة لجمع المال والرجال، وصخرة لينقضوا منها على الشرق لاسترجاع حقوق أجدادهم المغتصبة في الخلافة.

حقاً يمكن القول بأن الأدارسة نسوا الشرق، ولكن الشرق، أو بعبارة أدق، المغرب الأموي، لم ينس هذه المشاكل ولا العلويين، ولئن كان خلفاء قرطبة في الماضي يخشون تهديد العبيديين، فإنهم الآن، بعدما اتضح ان أطماع هؤلاء تتجه إلى الشرق، أصبحوا يشعرون بإغراء خاص إلى شواطىء المغرب التي لا يستطيع الأدارسة الدفاع عنها بصورة جدية.

ومنذ سنة 333 هـ، أي قبل تولي أبي العيش الأمر بنحو خمس سنوات، وجه عبد الرحمن الناصر جيشاً إلى العدوة بقيادة قاسم بن محمد، لمحاربة الأدارسة الحسنيين، بحجة نقضهم للطاعة، في الوقت الذي وجه فيه رسله إلى محمد ابن الخير زعيم زراته وغيره، يستثيرهم ضد الأدارسة[1] ويعدهم

---

(1) البيان (2/311 — 312).

بالمعونة (أي بالمال) لذلك. وقد وصل الأسطول الأموي إلى سبتة في منتصف ربيع الأول.

ولما رأى أبو العيش بن عمر بن إدريس، رئيس بني محمد، انه لا طاقة لإمارته الصغيرة بمواجهة أمبراطورية الأمويين، سارع بتقديم الطاعة للناصر الذي منحه الأمان على نفسه، وأنفذ إليه ابنه محمد بن أبي العيش ليبقى عنده في قرطبة ضماناً لتنفيذ اتفاق الطاعة والولاء.

وبالطبع فإن الناصر الذي قضى في الحكم الآن 33 سنة، يعرف كيف يضفي على هذه النتيجة التي حققها بالاحتلال والتهديد العسكري، رداءاً ديبلوماسياً خلاباً، بحيث اتخذ من وصول محمد بن أبي العيش الذي هو في حقيقة الأمر رهينة، مناسبة للاستعراضات والاحتفالات العظيمة وبالغ في تكريمه.

والمهم هو أن عبد الرحمن الناصر يملك قاعدة هامة في العدوة حينما تولى الحكم أحمد بن القاسم، أبو العيش، ولكنه كان يرى انها غير كافية، حيث لا تضمن له السيطرة المطلقة التي يريدها على مضيق جبل طارق، وكذلك طلب إلى أبي العيش أن يتنازل له عن طنجة ليضيفها إلى سبتة.

ولكن أبا العيش الذي اشتهر بولائه الذي لا يتزعزع لبني أمية[1]، رأى مع ذلك، في هذا الطلب شططاً، فرفضه، وعند ذلك، سارع الناصر، كما صنع من قبل، بتوجيه أسطوله وجيش عرمرم إلى شواطىء العدوة، وضرب حصاراً على أبي العيش الذي اضطر إلى التنازل عن طنجة للأمويين.

وإثر ذلك انزوى أبو العيش الذي رأى الأخطار تحدق مرة أخرى بمملكة أجداده (هو واخوته) في مدينتي أصيلا والبصرة مدة من الزمن متمسكين مع ذلك بدعوة الأمويين، وكأن دولتهم الآن محمية ومجرد امتداد لعدوة الأندلس.

ولمحاولة تثبيت وجوده السياسي راح الناصر يوزع الأموال بسخاء على

---

(1) قارن البكري (ص 129 — 130) أعمال الأعلام (ص 218 — 219) الاستقصا (182/1).

القبائل، بل إن جيشه وقواده كانوا يجتازون المضيق لمحاربة حلفاء الأدارسة من القبائل البربرية[1].

وشيئاً فشيئاً، انجرف المغرب إلى سلطان الأمويين الذين امتد نفوذهم تدريجياً، باتساع المناطق التي تحتلها جيوشهم، حتى ملكوا أكثر بلاد المغرب وبايعتهم زناتة وأهل فاس، ولم يبق خارج نفوذهم سوى سجلماسة[2].

ومرة أخرى، أخذ الأدارسة يدخلون في الظل في الوقت الذي أخذت الأضواء تسلط فيه على زعماء آخرين من رؤساء القبائل البربرية. وفي هذه الظروف لم يجد الناصر أي عائق في الاستيلاء على فاس، التي ولى عليها محمد ابن الخير المغراوي، الذي كان يجمع إلى جانب الشجاعة وقوة النفوذ بين زناتة وغيرها من القبائل، ولاءاً لا يهن لبني أمية.

ولما ارتحل محمد بن الخير عن فاس برسم الجهاد إلى الأندلس بعد سنتين من ولايته لم تعد فاس إلى الأدارسة، بل استخلف عليها ابن عمه، أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي الذي بنى صومعة جامع القرويين، كما ذكرنا (سنة 344 هـ).

وفي سنة 347 هـ، ولى الناصر على طنجة التي ضم إليها أحوازها عنوة واقتداراً بربرياً آخر، وهو يعلى بن محمد اليفرني.

وإزاء ازدياد الأوضاع تدهوراً مع مرور الأيام، ونتيجة لتفتيت سلطانه وإحاطته بأمراء وملوك من البربر من كل جهة، هان الأمر على أحمد بن القاسم، أبي العيش، ومَلَّ تلك الرئاسة واللقب الذي لا طائل تحته، فكتب إلى الناصر يستأذنه في الرحيل للجهاد في الأندلس.

وهذا الحل من شأنه أن يُخَلِّص الناصر من الأدارسة نهائياً، ولذلك رحب بالاقتراح وحثه في القدوم، وكما فعل مع محمد ابن أبي العيش منذ أكثر من عشر سنوات، سيستغل الناصر هذه المناسبة التي هي وليدة شعور ديني

---

(1) الاستقصا.

(2) نفس المصدر.

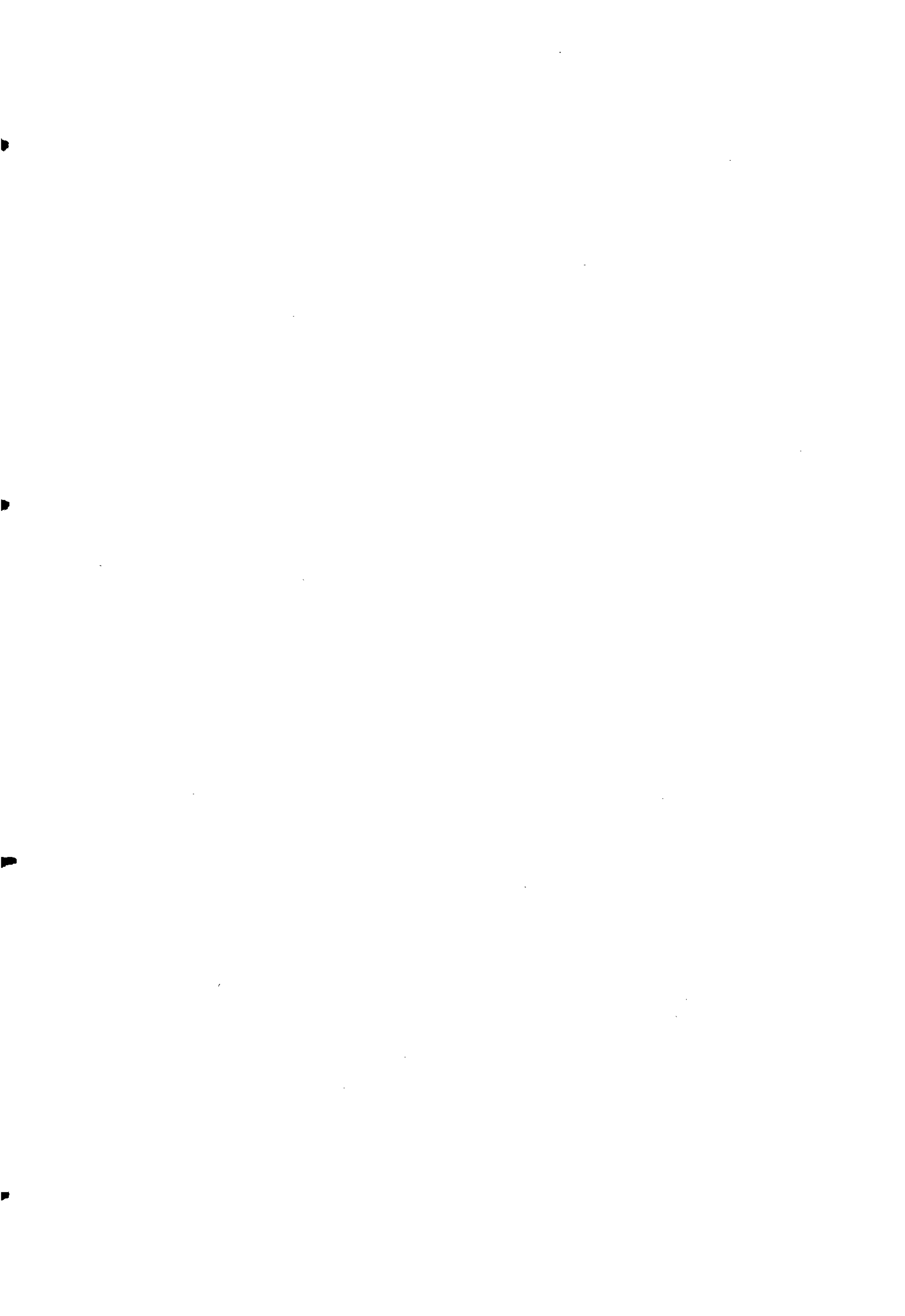
وظروف سياسية مؤلمة، لاستعراض ثرائه وبذخه، فكتب إلى أبي العيش، ذلك العالم التقي، يبلغه قراره بأنه لن ينزل محلة من الأندلس، أثناء رحلته، ما بين نزوله بالجزيرة الخضراء إلى نزوله بمحلة بلاط حميد من أقصى الثغر (أي ثلاثون محلة) إلا أمر أمير المؤمنين ببناء قصر في كل محلة لينزل به وبأن ينفق في كل قصر ألف مثقال ليكون أثراً باقياً بالأندلس مع الأيام[1]، وكذلك أجرى له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافة، وأمر بأن يُعَدَّ لَهُ من الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر.

وعلى مستوى هذه الضيافة الغريبة، سار أبـو العيش خلال رحلتـه للاستشهاد وطلب جوار الله، ونزل في ثلاثين قصراً، حتى وصل إلى أقصى الثغر، حيث لقيى أبو العيش ربه في جهاد الإفرنج في سنة 348 هـ.

ولكي لا يفسر الأمويون بادرة أبي العيش بأنها تنازل منه على العرش وتسليم من الأدارسة للدولة، ترك على عمله أخاه وهو آخرهم، الحسن بن كنون.

* *
*

(1) رواية البكري (ص 130) الذي اختلط عليه الأمر فأرخ لهذه الحوادث في سنة 332، بينما هي وقعت في سنة 347 هـ.، في رواية ابن خلدون والسلاوي (وفي القرطاس سنة 343 هـ، وفي أعمال الأعلام سنة 346 هـ).



الفصل السابع

دولة حسن بن كنون وحروبه

المرحلة الأولى:

ولما بلغت أخبار التحالف الذي قام بين زناتة والناصر المعز لدين الله، معد بن إسماعيل العبيدي[1] وعرف أن يعلى بن محمد اليفرني، داخل الأمويين من وراء البحار، وان أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة، وجه قائده المشهور، جوهر الصقلي[2] في سنة 348 هـ. ، إلى المغرب على رأس جيش يقول ابن الخطيب إنه اشتمل على عشرين ألفاً من صنهاجة وكتامة وتلكاتة، وخرج معه جعفر بن علي، صاحب المسيلة، وزيري بن مناد

---

(1) هو معد بن إسماعيل المنصور بن القاسم بن عبيد الله المهدي الفاطمي، أبو تميم ولد بالمهدية في سنة 319 هـ. وبويع بالخلافة في المنصورية، بعد وفاة أبيه في المنصورية في سنة 341 هـ. (952م). وهو الذي وجه جوهر ففتح مصر وبنى القاهرة في سنة 359 هـ. ـ 361 هـ؛ وبعد رحيله إلى مصر، استخلف على افريقية بلكين بن زيري الصنهاجي (سنة 362 — 363 هـ). كان سياسياً بارعاً حازماً وأديباً ينسب إليه شعر رقيق. وقد مدحه الشاعر ابن هانىء الأندلسي بعدة قصائد، راجع سيرته في العبر (46/4) وفيات الأعيان (224/5 — 228) البيان طبع بيروت (316/1) الخلاصة النقية (ص 41) أعمال الأعلام (ص 48 و 55) الكامل (165/8 — 220) هدية العارفين (465/2) اتعاظ الحنفا (134).

(2) هو جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن القائد العبيدي، راجع سيرته في وفيات الأعيان (375/1 — 380) النجوم الزاهرة (28/4 وما والاها) تاريخ ابن عساكر (416/3) الكامل (الفهرست) الخطط للمقريزي (352/1) تاريخ أبي الفدا (115/2) وكذلك:

Wustenfeld: Gesch. d. Eatémiden chalifen (p. 100).

Muller: Der Islam en Morgen Und Abendland (p. 118).

Lane Poole (S): A History of Egypt in the Middle Ages (p. 99).

الصنهاجي، صاحب أشير، وزحف على المغرب في سنة 486 هـ. ، ثم حاصر سبتة ولكنه تراجع عنها لمناعتها، ثم سار في اتجاه الصحراء فاستولى على سجلماسة وقبض على صاحبها محمد بن الفتح (الشاكر) الذي تلقب بأمير المؤمنين، وولى ابن المعْتز من بني عمه مكانه، ثم سار إلى فاس وأقام حصاراً عليها حتى افتتحها عنوة على يد زيري بن مناد[1] الذي تسلق أسوارها ليلاً ودخلها وقبض على عاملها من قبل الأمويين، أحمد بن أبي بكر الجذامي، وبعد ما دوَّخ المغرب وقتل ولاة المروانيين دون أن يعترض طريقه جيش أموي، عاد إلى افريقية عقب حملة مظفرة دامت نحو سنتين[2]

ماذا كان موقف الحسن بن كنون من غزوة جوهر التي قضت على نفوذ بني أمية في المغرب الأقصى؟ يقول ابن الخطيب: «إنه ظل متمسكاً بدعوة الناصر». ولكن السلاوي يخبرنا بأن الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم أثناء زحف جيوشهم، ولما عادت جيوشهم، نكث الحسن بيعتهم وعاد إلى أحضان بني مروان.

وأياً ما كان الأمر، فإن الحسن كان في حاجة إلى كل دهائه حتى لا يقع بين القوتين المتطاحنتين، وأي مخرج آخر ممكن له غير مبايعة القوي، مؤقتاً، ليراجع موقفه بعدما يـخف ضغط القوة عليه؟

وهذا الوضع نفسه، هو الذي سيواجهه الحسن بعدما تولى بلكين بن زيري الأمر في افريقية وتحرك إلى المغرب حركته الشهيرة التي استأصل فيها ملوك زناتة، وقطع دعوة بني أمية بالمغرب وقتل ولاتهم، كما صنع جوهر من قبل.

---

(1) زيري بن مناد زعيم صنهاجة وباني مدينة أشير وحليف العبيديين قبل أن يستخلفوه على المغرب، بعد رحيلهم إلى مصر، وهو الذي بنى مدينة الجزائر ومليانة، قتل في حرب زناتة بعد ملك دام 26 سنة، راجع سيرته في أعمال الأعلام (ص 63 — 64) وفيات الأعيان (343/2 — 344) البيان (الفهرست) الإحاطة ـ طبع عنان (ص 339) وكذلك كتابنا، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية في عدة مواضع، والمقتبس لابن حيان (ص 26 — 27).

(2) قارن عن هذه الحملة روايات العبر (46/1 — 47) أعمال الأعلام (ص 219 — 220) البيان طبع بيروت (ص 316) الاستقصا (183/1).

وفي هذه المرة اتخذ الحسن موقفاً أكثر صراحة؛ فهو لم يكتف بمبايعة العبيديين، بل قدم إليهم كذلك مساعدة لا ندري قيمتها.

ولما قفل بلكين إلى افريقية وبلغت أخبار هذا الانقلاب في موقف الحسن إلى الحكم المستنصر الأموي، اشتد غيظه وحنقه عليه وقرر توجيه قائده محمد بن القاسم على رأس جيش كثيف إلى العدوة لكي يستعيد النفوذ الذي كان للأمويين في عهد أبيه[1] ويؤدب حسن بن كنون.

وفي يوم الخميس 12 من شهر رمضان سنة 361 هـ (28 يونيو 971م) استدعى الحكم المستنصر وزيره محمد بن قاسم طُمْلس، وعهد إليه بالتهيؤ للإبحار إلى مدينة سبتة بالأسطول ثم زوده بتعليماته بأن يستعمل جده وجهده وأوصاه، إنْ أظهره الله أن يأخذ بالعفو والصفح وإصلاح البلاد المغربية، وأن يستعين بمن دخل في طاعة الأمويين.

وبعدما خلع عليه الخليفة خلعاً من ثياب الخز وغيرها ووضع فوقها سيفاً ثقيل الحلية، ومع ذلك بدرة من خمسمائة دينار، خرج القائد ليتشاور مع زملائه الوزراء ويشرف بنفسه على توزيع أعطية الجند الخارجين معه.

وفي يوم سبت 16 رمضان خرج القائد الوزير وحوله عدد كبير من طبقات الجنود، وبين يديه من العدد والأثقال «ما يتجاوز الوصف» على حد تعبير ابن حيان، وركب البحر من الجزيرة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة 361 هـ، فصار مع الجيش[2] إلى سبتة، ثم سار في

---

(1) توفي عبد الرحمن الناصر الأموي في جمادى الأولى سنة 350 هـ، وخلفه ابنه الحكم الذي ولد في سنة 302 هـ. بقرطبة. قام الحكم بعدة غزوات في إسبانيا وأخضع كُنْت برشلونة وسائر أمراء الكتلان. وسيمتد نفوذ الحكم، كما سنرى، إلى المغرب ليخضع هذه البلاد بدورها ويستعمل عليها زعماء البربر. راجع سيرته وأخباره في العبر (144/4) نفح الطيب (386/1 — 396) جذوة المقتبس (ص13) البيان (الفهرست)، المقتبس لابن حيان (الفهرست) غزوات العرب (ص 182 — 192) الكامل (677/8).

(2) اعتمدنا رواية ابن حيان التي اعتمدها ابن عذاري، وأما يحيى خلدون وابن الخطيب، فيذكر كل منهما ان جيش محمد بن القاسم قد عبر إلى المغرب في ربيع الأول سنة 362 هـ. وهذه الرواية هي التي أوردها السلاوي أيضاً.

آواخر الشهر، إلى تـطوان التي ألفاها خالية، ثم اتجه إلى طنجة التي احتلها في 4 من ذي القعدة، بعد قتال مع حسن بن كنون، وهذه المعركة جرت في أحواز طنجة في مكان يعرف باسم فحص بني مصرخ.

كان الحسن بن كنون نفسه في طنجة حينما أحاطت بها قوات قرطبة. والمؤرخون لا يذكرون شيئاً عن جيش ابن كنون، ولكنه من الواضح انه كان تحت تصرفه جيش مهم، وإلا لما أقدم على خوض معركة حول هذه المدينة التي تقع غير بعيد من قواعد تموين جيش الخليفة.

وعلى كل حال، فإن الأندلسيين كانوا متفوقين على المغاربة لا بالعدد فحسب، ولكن أيضاً بعدة الحرب وبالمهارة في استعمال النبال[1].

ولما أدرك حسن ان الأندلسيين سيحتلون المدينة ولا محالة، قرر التخلي عنها والانسحاب إلى الداخل، بينما تولى شيخها، ابن الفاضل، الذي خرج على رأس أعيان المدينة لتسليمها إلى قائد البحر، ابن رُمَاحِس، بعدما أعلنوا الطاعة للمستنصر.

وإثر ذلك، أعلن القائد الأمان لأهل المدينة، ولكنه استباح ممتلكات حسن بن كنون وأصحابه.

وفي يوم الأربعاء لتسع بقين من ذي القعدة، كتب، ابن طُمْلس إلى الخليفة تقريراً عن معركة أخرى دارت بين قواته وقوات حسن بن كنون، وصفها بأنها كانت شديدة وانها استمرت «من ضحى النهار إلى اصفرار الشمس». وقال إنها قد انتهت بمقتل مائتين من جنود الحسن وان الأخير قد فرّ بمن بقي معه من أصحابه واعتصم بجبل حصين يدعى «جبل الريح»[2]. ولكن جيش الأندلس تعقب ابن كنون إلى ملجئه ودارت بين الفريقين معركة

---

(1) توحي رواية السلاوي بأن القائد محمد بن القاسم قتل في هذه المعارك، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن طُمْلس لم يُقتل إلا في سنة 362 هـ.، وهذه الرواية نقلها بدون شك عن ابن الخطيب، لمراجع أعمال الأعلام، (ص 221).

(2) قارن الاستقصا (183/1) والمقتبس (ص 89 — 90) البيان (247/2).

أخرى يسيرة، وطردوه منه واستولوا على أثقاله، ثم انسحبوا في اليوم التالي إلى مدينة دلول[1].

وهناك لحق بهم الوزير طُمْلس على رأس قوة أخرى وقاد هجوماً على مدينة أصيلا، ففتحها.

ولما دخل مسجد هذه المدينة الإدريسية العريقة، وجد الوزير فيه منبراً جديداً موسوماً باسم معدّ بن إسماعيل، فأمر باقتلاعه وإضرامه النار، بعدما اعتنى بخلع القطعة التي نقش عليها اسم المعز لدين الله وبعثها إلى خليفة قرطبة.

ومن أصيلا، عاد الوزير إلى دلول، فبات فيها ليلة وأذن للجند بنهبها، ثم أمر بهدم أسوارها وتحصيناتها وإضـرام النار في منازلها.

وهذه الأخبار كلها أخبار طيبة بالنسبة لقرطبة، على الأقل، حسب التقارير الرسمية التي يردد صداها بدقة ابن حيان الذي هو مؤرخ عظيم، ولكنه في هذه الحرب مؤرخ البلاط الذي لا يرى سوى الأبيض، والأسود، وكذلك استحق جيش قرطبة وقائده الوزير ابن طُمْلس مكافأة تتلاءم مع الجهد المبذول والنتيجة المحققة مـع سخاء الخليفـة بمناسبـة اقتراب عيـد الأضحى، وقد كانت المكافأة من الضخامة بحيث ان الأمر قد احتاج إلى خمسة وعشرين جملاً لحملها.

وفي نفس الفترة وجه المستنصر شخصيتين من العلماء الذين يتمتعون بثقته، وهما: «محمد بن مفرج، قاضي رية وأبوعبيد القـاسم بن خلـف الجبيري»[2] ليطلعا على الأحوال ويستألفا قلوب الناس، وبعبارة أخرى، لنشر

---

(1) وصف البكري هذه القلعة، فقال إنها تقع في جبل منيف شديد الحصانة وإنها تقع على مسافة خمسة فراسخ من البحر، وقال إن بين قلعة دلول ومستغانم مسيرة يومين (ص 69)، ونحن لا نستبعد أن يكون «جبل الريح» الذي التجأ إليه ابن كنون، هي قلعة دلول نفسـها وان يكون جيش الخليفة قد هبط منها إلى قرية قريبة أو إلى المدينة التي تحمل نفس الاسم.

(2) عالم وفقيه ولاه المستنصر بالله خطة القضاء بطرطوشة وسافر مع والده إلى الشرق وهو صغير، وكان أبوه، أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جبير، قد تولى قبله قضاء الثغور الشرقية =

الدعاية للمروانيين في المغرب. وبعدما قاما بمهمتهما، رجعا إلى قرطبة ليقدما ملاحظاتهما إلى الخليفة.

وكذلك أراد الخليفة أن يكون غزو المغرب في هذه المرة لا مجرد عمليات تستهدف احتلال قواعد إستراتيجية، بل غزواً فكرياً وسياسياً وعسكرياً، في نفس الوقت، مادام قد قرر أن يملأ الفراغ الذي تركه الأدارسة والعبيديون في هذه المنطقة، ولكن هذا المخطط الطموح سوف تعترضه عقبات لا يستهان بها، على الأقل، ما يتصل منه بالناحية العسكرية.

وأول هزيمة عسكرية واسعة النطاق تواجهها قرطبة، هي التي تحملها جيشها في المعركة التي وقعت بفحص مهران، في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة 362 هـ والتي قتل فيها الوزير القائد محمد بن قاسم على يد حسن بن كنون وقتل فيها من جيش الخليفة 500 من الفرسان وألف من الرجالة[1].

وهذا الانتصار الساحق لآخر ملوك الأدارسة يمثل تهديداً خطيراً لزعماء البربر الذين يتعاونون مع جيش قرطبة ويدينون بالولاء للخليفة، وكذلك بدأ هؤلاء يرحلون زرافات ووحداناً، إلى طنجة المحتلة أولاً، ثم إلى قرطبة، فإن قبيلة مصمودة وحدها، هجر منها في أول جمادى الثانية التالي، سبعون من رجالها[2].

ولكن حسن بن كنون لم يغتر بانتصاره العسكري؛ فهو يعرف أن التوازن مفقود بين موارد قرطبة من المال والرجال وبين ما يستطيع أن يرجوه هو من قبائل البربر من المجهود والولاء؛ ولذلك فقد أراد أن يحول تفوق أسلحته إلى مكسب سياسي، فاتصل بممثلي الخليفة، وعلى رأسهم ابن رُماحِس يعرض عليهم إجراء مفاوضات لعقد الصلح على أسس وبشروط، أهمها أن يعين نائباً للخليفة في المغرب.

= قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة، وفي فترة لاحقة استعفى من القضاء، وكان من كبار مستشاري الخليفة، راجع نبذة عنه في الجذوة (1/410 — 411) المقتبس (ص 91 هامش 4) نفح الطيب (2/511 — 512).

(1) قارن المقتبس (5/96) والبيان (2/246).

(2) نفس المصدر.

ولما نقلوا عرض ابن كنون إلى الخليفة رفضه وأصدر إلى ولاتـه بالمغرب أمراً بمواصلة القتال.

وقد جاء في رسالة الخليفة التي نقل إلينا ابن حيان نصها والتي وجهها إلى عبد الرحمن بن أرمطيل، قائد جيشه في أصيلا، مايلي:

«أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك (الذي) تذكر فيه ما أتاك به حمـود بن محمد بن محمـد وحنون بن سـروج ويحيى السراقـة، من أتباع الملحد ـ أهلكه الله ـ عند خروجك لملازمة الطلائع على عادتك من استئذانهم إياك في القرب منك والمشافهة لك، وإنك أجبتهم إلى ذلك وفهمت عنهم ما أبلغوك من رغبته في الإنابة، وقد ضرب الله تعالى بيننا وبينهم بسور من الخذلان قطع به دونها في حينها وأوان قبولها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكيف يذهب الآن هذا المذهب، وهو في طغيانه مستمر وفي دينه مستبصر ولكم في كل أيامه محارب! هذا هو الضلال والمحال وعين المحال وسبب الخبال وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره وغير من أصر إصراره إلى أن يحكم الله عليه ويفتح فيه وهو خير الفاتحين لا شريك له»[1].

وفي رسالة لقائد آخر من قواده يكرر المستنصر بالله نفس المعنى إذ يقول:

«وإن الله تعالى جده أحلَّ حسن بن كنون من المعصية له والتعطيل، لحقوقه ومفارقة أولياء الطاعة محلَّ من لا تسمع له كلمة ولا يوثق منه بإنابة. وأمير المؤمنين في محاكمته مستنصر وفي مجاهدته ومطالبته حتى يمكنه الله منه بحوله ويظفره وينصره عليه»[2].

على ان موقف الخليفة الصارم سيطرأ عليه تحول في مرحلة تالية بحيث يُؤْثِر الحلم والفضل ويتيح فرصة لحسن بن كنون لتحقيق رغبته في السلم، بل وفي تركيز حكمه على المغرب أيضاً، ولكن بشرط أن يعلن التوبة ويتراجع

---

(1) نفس المصدر (ص 98).

(2) نفس المصدر (ص 98).

عن موقفه السياسي ومذهبه الديني (الشيعية). وهذه الشروط سيصيغها كتاب الخليفة في عبارات دقيقة الحبك والتوازن وتمتزج فيها المرونة الديبلوماسية بالتصميم السياسي، وقد جاء في رسالة أخرى للخليفة إلى قواده، يبدو انها كتبت بعد محاولات أخرى للصلح قام بها ابن كنون، مايلي:

«وأما ما دعـا إليه الآن من المراجعة والتحكيم في النفس والولد والمال والبلد فكلمة حسنة لا يدع أمير المؤمنين قبولها، إذا صدقها فعل وحققها برهان... لكن ذلك لا يكون إلا بفعلة معروفة مكشوفة، كما كان فعله ظاهراً، بقتله الجند صبراً وقذفهم في النار الجاحمة، فإن كان معتقداً ما قاله، أو منطوياً على صحته مؤثراً له راغباً في استجزال حظه من حسن رأي أمير المؤمنين ورضاه وتوطين بلده، وإن مذهبه تمحيص ما فرط وتكفير ما سبق والاصحار بموالاته وانقياده، أَخَذَ البيعة على أهل عمله وخرج مطهراً لنفسه إلى باب سدته، فإنه إذا أتى ذلك، خرج مما دخل فيه وفاز بالقدح المعلى والمنزلة الكبرى عنده»[1].

ولكن شروط الخليفة التي تبدو لينة لطيفة، ليست في الحقيقة سوى قفاز من القطيفة على يد من حديد، فإن بيـعة المستنصر بالله لا تطلب من ابن كنون أقل من أن يأخذ البيعة له على رعيته، وهو في زمن الحرب، ويسلم نفسه بعد ذلك إلى رحمة أمير المؤمنين، مضافاً إلى ذلك رهائن من الولد وضمانات من المال، ولو كان ابن كنون منهزماً في الحرب وانسدّت في وجهه جميع السبل، لوجد صعوبة في قبول مثل هذا العرض للاستسلام بدون قيد ولا شرط، أما وهو المنتصر في حرب طويلة ويتفاوض وهو في مركز القوة، فإن المرء لا يستطيع أن يتصور ما يغريه بالاستسلام.

وهذه المفاوضات التي كانت تجري عن طريق الوسطاء، لم تدم سوى قرابة شهر، حيث إنها بدأت في أوائل جمادي الأولى (أي بعد مقتل القائد طُمْلس بنحو شهرين) وانتهت في آخر الشهر نفسه، حين بدأ الخليفة يستعد لشن حرب شعواء لسحق حسن بن كنون.

---

(1) نفس المصدر (ص 100).

ففي هذا الوقت استدعى الخليفة المستنصر بالله، الوزير والقائد الأعلى للجيش، غالب بن عبد الرحمن الذي كان قد ضرب معسكره في شرقي قرطبة وأهاب به للاستعداد للسفر لقتال حسن بن كنون.

وبعدما قام غالب بالتفتيش على الجيش، أمر باستنفاره، ثم تقدم على رأسه في حركة استعراضية أثارت حماسة الجمهور، بما اتسمت به من الترتيب والتنظيم، في شوارع قرطبة الرئيسية اتجه إلى مدينة الزهراء، حيث أشرف الخليفة بنفسه على استكمال تجهيز الجيش وتعزيزه، ثم رحل غالب على رأس هذا الجيش في 9 رجب سنة 362 هـ[1].

وفي نفس اليوم، تلقى الخليفة رسالة من قواده تفيد بأنهم فتحوا مدينة أصيلا التي كان قد استرجعها حسن بن كنون، وإنهم قد التقوا في معركة مع الأخير انتهت بهزيمته وقتل عدد كبير من جنوده وأسر رئيس لوائه، يحيى بن قشاش، وعدد من قواده، وفي مقدمتهم ختن بن حسن وأنا قُول بن سبع.

ورد الخليفة عليهم برسالة أمرهم فيها بتجميد العمليات الحربية حتى يلحق بهم الوزير القائد غالب الذي هو في طريقه إلى العدوة.

وفي نفس الوقت، سجلت قرطُبة انتصاراً سياسياً ذا بال بمقدم حنون ابن إدريس صاحب عدوة الأندلس من فاس، ورسول من صاحب عدوة القرويين، ليعلنا طاعتهما لأمير المؤمنين والقيام بدعوته[2].

وفي أوائل شعبان، خرج صاحب الشرطة العليا والحشم، قاسم بن محمد بن قاسم بن طُمْلس، على رأس قوة إلى الجزيرة الخضراء في طريقه إلى العدوة لتعزيز جيش غالب. وكذلك أرسل الخليفة أحمد بن محمد بن حيدر بمبلغ كبير من المال، (ثمانين ألف دينار) ليفرق على الجيش المرابط في طنجة وأصيلا للترفيه عليهم بمناسبة حلول شهر رمضان، وهذا المبلغ سيعززه

(1) قارن البيان (2/246 — 247) المقتبس (5/102) الاستقصا (1/184) وفيه ان غالب بن عبد الرحمن خرج من قرطبة في آخر شوال.

(2) البيان (2/346 — 347). وفي المقتبس أن رسول صاحب عدوة القرويين إنما وصل إلى قرطبة في منتصف شهر رمضان.

الخليفة في نفس الشهر بمبلغ عشرة آلاف دينار لتوزيعه على سبيل «الهدايا» لرؤساء القبائل الذين يتخلّون عن حسن بن كنون، وذلك بالإضافة إلى أحمال من ثياب الديباج والخز والمطارف والسيوف المحلاة لخلعها عليهم[1].

وفي هذه الأثناء استعد حسن بن كنون لاستقبال القائد غالب، فجلا عن المدن التي كانت بيده إلى قلعة جحر النسر وتحصن بها، ولما نزل غالب قادماً من الجزيرة، في قصر مصمودة، سار للقائه هناك في جموع غفيرة من البربر واستمر القتال أياماً، التجأ بعدها إل سلاحه الأخير، وقد ثبت انه سلاح فعّال، فوزع، الأموال واهدايا بسخاء، كما نصحه الخليفة، وفرق منها على رؤساء القبائل التي تناصر الحسن ووعدهم ومنّاهم، فانتقضوا عليه، حتى لم يـبق معه سوى خاصته.

وفي اوائل شهر شوال، وجه الخليفة ثقته، محمد بن أبي عبد الله بن أبي عامر إلى العدوة، بأحمال أخرى من المال والحلى وأسند إليه في نفس الوقت منصب قاضي القضاة بالعدوة، وذلك بالإضافة إلى خطتي الشرطة الوسطى والمواريث وقضاء كورة إشبيلية التي يتقلدها.

وفي هذه الأثناء زاد عدد رؤساء البربر الـذين تخلوا عن حسن بن كنون، وقد بلغ عدد الذين قصدوا قرطبة لإعلان الطاعة منهم في اواخر رمضان، 60 فارساً، وبالطبع، فقد استقبلوا جميعاً بالحفاوة وأرضوا بالعطاء بحيث «صبّ المال عليهم صبّاً في أطنابهم» على حدّ تعبير ابن حيان.

وفي 2 شوال انتقل غالب من محلته بطنجة وسار في اتجاه محلة حسن بن كنون في جرماية[3]، وفي يوم 5 منه احتل هذه القاعدة وطرد منها حسن، وفي نفس الوقت وصل إلى الخليفة تقرير من قائده يقول إنه طارد حسن حتى وصل إلى جبل الكرم، وإنه قام بضبط المنطقة التي تفصل بين هذا الجبل

---

(1) المقتبس (ص 106).

(2) الاستقصا (1/184).

(3) لم أستطع التعرف على هذا الموقع، وهو ليس جرمة ولا جرمي، حيث ان كلا من البلدتين يقع في السودان.

وجبل مهران الذي وضعه الحسن تحت إمدة ابنه وابن عمه، وقال إن حسن قد منع وصول الماء المنحدر من الجبلين إلى معسكر الجيش في السهل، وقد استدرج غالب الحسن للقتال في السهل ودارت بين الفريقين معركة في يوم 14 شوال، إنتهت بهزيمة ابن كنون ومقتل عدد من رجاله واستيلاء الجيش على ماشيتهم وأنعامهم[1].

ردّ المستنصر بالله على رسالة قائده ووزيره برسالة يثني فيها على الانتصارات التي حققها جيشه ويبلغه ان بني خزر سيلحقون به مع بني عمهم من بادية فاس للاشتراك في المجهود الحربي، وفي نفس الوقت، أمر بتعزيز جيش غالب بعدد من القادة والفرسان، وفي مقدمتهم الاخوة التجيبيّون، يوسف وهاشم وهذيل واخوة العاصي بن حكم، وحميد بن قياطن وغيرهم من ثقات أصحابه، ومعهم مائة غلام من الرماة المماليك وطائفة من فرسان الرياضة[2].

على ان غالب قد حقق انتصاراً آخر على حسن بن كنون فقتل عدداً كبيراً من حماته، كما قتل عشرين رجلاً من خاصته، وذلك قبل أن تصله هذه الإمدادات العظيمة.

ولكن الانتصار في معركة أو معارك لا يعني كسب الحرب، وهذه الحقيقة تذكرها غالب، بدون شك، بعد المعركة المذكورة بنحو أسبوع، حينما شاهد ابن كنون يحشد جموعاً كثيفة ويعزز جانباً سياسياً بانضمام ابن عمه محمد بن أحمد بن عيسى، صاحب البصرة، إلى صفه.

وعقب ذلك بوقت قصير، وقعت معركة بين الجانبين مني فيها جيش الأندلس بخسائر كبيرة في الرجال.

وهكذا استمرت الحرب سجالاً تلتهم الحرث والنسل في المغرب دون أن يكون للإمدادات العسكرية والأموال الطائلة التي يغذي بها خليفة قرطبة

---

(1) المقتبس (ص 125 وما قبلها).

(2) المقتبس (ص 125) البيان (2/247).

المعارك أثر يذكر في مجراها، ولكن الخليفة مع ذلك ليس لديه حل بديل عن السياسة التي اختطها والتي يتطلب تنفيذها المزيد من الأموال والقوات العسكرية.

وفي 5 من ذي القعدة (362 هـ) استقبل الحكم المستنصر بالله وزيره، يحيى التجيبي فحدثه في نيته في أن ينفذه على رأس إمدادات جديدة لغالب، لمقاتله «الملحد» «حسن كنون» وأمره بالتأهب فوراً للسفر، ولما خرج الوزير من مجلس الخليفة، وجد الفتى الخازن في انتظاره ببدرة ضخمة ومنديل واسع مشدود على خلع نفيسة، ولكن هذه لم تكن إلا أول الغيث، لأن الوزير حينما غادر قرطبة بعد ذلك ببضعة أيام على رأس جيش ضخم، كان بين يديه ستة عشر حملاً من المال العين، وعدة أحمال من الكسى الفخمة والسيوف المرسلة إلى غالب ليوزعها على «من يستأنس إليه من كبار البربر».

وهذا التصميم من الخليفة وتعبئة جميع موارده المالية والبشرية للحرب، إذا لم يقض على مقاومة كنون، فهو يزيد من تعقيد وضعه في كل يوم، فإلى جانب المئات من زعماء القبائل الذين خذلوه وهربوا إلى قرطبة، والذين عاد بعضهم إلى المغرب لمحاربته، أصبح يرى الآن أبناء عمومته من الأدارسة ينفصلون عنه أفراداً في البداية ثم جماعات في آخر الأمر.

وفي هذه الوقت التجأ شيخ بني إدريس أحمد بن عيسى وأخوه إبراهيم في بنيهم وعبيدهم وأتباعهم إلى معسكر غالب.

ولما كتب غالب إلى الخليفة ينبئه بهذه التطورات، لاحظ في رسالته ان البلد يشكو من نقص في المواد الغذائية وفي ارتفاع الأسعار، وقد ردّ عليه الخليفة قائلاً:

«وقد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مال أو طعام، فموادها موصولة بك متلاحقة لديك حتى يفتح الله في الظالم القاطع بعدله ولو أتى ذلك على بيوت الأموال المترعة وأهراء الأندلس المغتصة، فلو لم يبق منها غير ما في الأهراء الخاصة بقرطبة لاحتمل إليك جميع ما فيها، كما انه لو تقاصرت يدك

والتوى عزمك وانتكثت الأحوال بك ـ ولن يفعل الله ذلك ـ لاستسهل أمير المؤمنين التحرك إلى الجزيرة واتخذها وطناً ومستقراً، ولأجاز لمجاهدة هذا الفاسق كل جندي في ديوانه، مع كل متصرف في مملكته، فأقبل على ما بيدك إقبال من لا يناجي نفسه بانصراف أو انحراف إلا بعد الظهور على عدوك بحول الله وقوته أو اضطراره إلى الجنوح والرجوع عن غيه والإنابة إلى رشده باللحاق بباب سدة أمير المؤمنين. فهذه أقل الأحوال المرتضى بها منه، ونفيه عن أرضه وإخراجه عن جميع ذلك البلد»[1].

وهكذا يضع أمير المؤمنين النقط على الحروف؛ فهو لا يقبل نتيجة لهذه الحرب غير استسلام حسن كنون بدون قيد ولا شرط، ليطرق عند باب سدته ويطلب العذر والمغفرة، أو خروجه من جميع بلاد المغرب، وللوصول إلى هذه الغاية، فهو مستعد للتضحية بكل جندي من جنوده وبكل ما في خزائنه من الأموال وبكل ما في أهرائه من الأقوات.

ويمضي المستنصر بالله في هذه الوثيقة النادرة والعظيمة القيمة التي نقلها إلينا ابن حيان بنصها، موجهاً الخطاب للوزير والقائد الأعلى غالب في لهجة من الأنذار والتحذير الذي لا يمكن لغالب أن يسيء فهمه أو تأويله، فيقول:

«وإذا تصفحت مكانك من العبودية[2] ومحلك في النصيحة والخدمة ومكانك من الخصوصية والنعمة، والنصاب الذي نصبت فيه والمحل الذي أحللته والاسم الذي حملت عند عدو الإسلام من فرق الشرق في الحنكة والتجربة ومقارعة الحروب ومساجلة الخطوب والوقوع تحت وقائعها المثخنة والمنازلة، لأقرانها المتألبة حتى طالت ندك على من طاولك وقرعت قناتك من قارعك، أبت لك هذه الأحوال المتظاهرة والحقوق المتوافرة من رضى بغير ما يرضاه أمير المؤمنين منك والانقياد لما لا يستقيدُ لك حُسن رأيه أو الانصراف إلا على ما لم تزل منصرفاً إليه من الظهور والعلاء بفضل الله تعالى المرجو لك

(1) المقتبس (5/130-131).

(2) كان غالب بن عبد الرحمن مولى المستنصر.

والموثوق به في كفايتك ورعايتك، فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطّن فيه على إلاَّ مرجع له عنه ألاَّ بما يجب أو يموت فيعذر»[1].

ولما وصلت أحمال المال العين إلى العدوة، وزعها غالب، فنال الأدارسة الذين استسلموا وأعلنوا طاعة الخليفة حصة الأسد: فقد بلغت صلة أحمد بن عيسى شيخ بني محمد وكبيرهم، سبعة آلاف دينار (صحيح) وسيفاً عربياً بحلية الذهب وكسى ثمينة، ولم ينس الخليفة أن يضيف إلى كل ذلك فرساً أشهب؛ وصلة أخيه إبراهيم بن عيسى، خمسة آلاف دينار من الصحاح وسيف عربي من ذهب (بما في ذلك غمده) واكسية الخ، ولغيرهما ما دون ذلك.

وأما رؤساء البربر، مثل إبراهيم بن الحويطي وحزر بن لقمان، فقد كانت صلتهم في مستوى 500 دينار عيناً وسيوفاً من فضة وأكسية وسروجاً الخ.

وفي هذه الأثناء تحولت حرب حسن كنون الذي يعاني صعوبات متزايدة، إلى نوع من حرب العصابات بعدما فقد مدنه ومراكزه العمرانية، فبعدما استولى غالب على حصن الكرم[2] وأشرف بنفسه على عمليات نهب هذا الحصن وتدميره. (وكان الحسن قد هرب منه مع صهره محمد بن حنون، صاحب البصرة) في ذي القعدة سنة 362، ثار سكان البصرة على خليفة محمد بن

---

(1) نفس المصدر، أورد عدد من المؤرخين هذه الجملة الأخيرة، «. . . أو يموت فيعذر» على انها الوصية التي زود بها الحكم قائده عند تأهبه للسفر، ولكن الحقيقة ان الخليفة بعث بهذه الرسالة إلى غالب بعد مرحلة مهمة في الحرب حينما أصبحت كفة النصر متأرجحة.

(2) ومناسبة سقوط حصن الكرم في يد قوات الخليفة هي التي يشيد بها محمد بن شخيص حين يقول (من الطويل) موجهاً الخطاب إلى الحكم:

لقد حل بأس الله بالكرم الذي	غدا وهو في حزب الضلال بلاقع
فلو حله غيلان نادى طلوله	«هل الأزمن التي حضيْنَ رواجع؟»
وما جحر النسر المنيع بزعمه	منيع وهل حصن من الله مانع
فلو طار فوق الأرض أو غار تحتها	لما خال أن المنتأى عنك واسع
وما يضعُ الإدبارُ من أنت رافع	ولا يرفع الإقبال من أنت واضع

حنون وقتلوه وأعلنوا الطاعة لخليفة قرطبة[1] في اوائل سنة 363 هـ. ولكن أخبار هذه الانتصارات لم يتلقها الخليفة إلا بتحفظ. وبدلاً من أن يدفع عصب الحرب إلى الاسترخاء، كان همه الآن متجهاً إلى مشاكل تموين الجيش في الشتاء المقبل (شتاء سنة 971 — 972م) فقد كتب إلى قائده يقول:

«وليس يخفى عليك ان الشتاء بين يديك والبحر دونك وربما تعذر ركوبه فاجعل الطعام ذخيرتك وحفظه تجارتك. فالأموال بحمد الله موفورة وإحتمالها في كل وقت ممكن، فمن مذهب أمير المؤمنين إخراج خازن من قبله بألف ألف دينار إلى سبتة يقرها هناك بالقرب منك فيسهل كل وقت إنفاذ الحاجة منها إليك، فاسكن إلى ذلك واحتط في الطعام جهدك ووَطن على الصبر نفسك ولا تمنها برجوع إلى بيتك حتى يقطع الله دابر الفاسقين ويفرق ملأ الملحدين، الضالين»[2].

وفي اواخر محرم استخلف غالب على البصرة عبد الرحمن بن محمد بن الليث وسار هو إلى منازل مجموعة قبائل رهونة الموالية لحسن ابن كنون وأخضعها بدون قتال، وبذلك أمكن للقائد الوزير أن يعلن للخليفة انه قد صار إلى الطاعة جميع أمراء المغرب وعامة قبائل البربر، فليس به منابذ غير الشقي حسن ابن كنون»[3].

وبعد ذلك بأيام استولى جيش الأندلس على جبل العيون المتصل بالقمة التي يقع عليها جحر النسر الذي وضع غالب لحصاره ألف رجل، وبذلك أصبح حسن كنون سجين قلعته محاطاً به ولا سبيل له للحصول على التموين الضروري لمن بقي معه من أنصاره وحاشيته.

وفي هذه الأثناء، وصل إلى قرطبة فوج آخر من الأدارسة، وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن أبي العيش وحسين بن يحيى بن إبراهيم وحسن بن حنون، ثم

---

(1) البيان (247) المقتبس (5/ 131) وفيه ان استسلام البصرة وقع في 8 محرم.
(2) المقتبس (5/ 135).
(3) نفس المصدر (5 / 146).

تلاه فوج آخر منهم في ربيع الأول يتقدمه محمد وإبراهيم ابنا عيسى بن يحيى ابن القاسم بن ادريس وكنون بن عيسى بن الحسن، فاستقبلهم الخليفة جميعاً، بالحفاوة والكرم وخصص لهم منازل فخمة.

وبذلك أصبح كل شخص ذو أهمية في المغرب الأقصى من البربر والعرب والأدارسة تقريباً يوجد الآن ضيفاً على قرطبة.

ومع ذلك، فإن الحسن بن كنون الذي يضيّق عليه غالب الحصار يوماً بعد يوم، ظل صابراً ثابتاً متمسكاً بالمقاومة في معقله، ولكن الصبر له حدود، مثل الشجاعة والإباء والعناد.

وبعدما تخلى عن حسن بن كنون حلفاؤه وأنصاره وبنو عمومته، كما رأينا، جاء دور أفراد أسرته نفسها، حيث خرج عنه ابنه المنصور مع أخته وامها، مع عدد من رجال حاشيته المقربين إليه وطلبوا الأمان من الوزير القائد ودخلوا في طاعة قرطبة.

وبذلك اتضح للجميع ان حرب العدوة تعيش آخر أيامها وإن الحسن بن كنون يسير في طريق مسدود.

وأما النتيجة المنتظرة (استسلام حسن كنون) فسيعلنها الخليفة بنفسه في يوم الجمعة في سلخ جمادى الأخرى سنة 363 هـ. (فبراير 974م)[1].

فإن الحسن بن كنون لما اشتد عليه الحصار، طلب من غالب الأمان على نفسه وماله وأهله ورجاله حتى ينزل إليه ويسير معه إلى قرطبة ليقيم بها، فأجابه غالب إلى ذلك وعاهده عليه، فنزل حسن بن كنون بأهله ورجاله وماله وأسلم الحصن إلى غالب فملكه، واستنزل غالب جميع الادارسة العلويين بأرض العدوة من معاقلهم وأجلاهم عن المغرب؛ ثم سار إلى فاس وملكها واستعمل عليها محمد بن علي بن قشوش بعدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوة الأندلسيين، ولم تزل فاس عاصمة الادارسة الكبرى بيد بني أمية، حتى استولى عليها زيري ابن عطية المغراوي.

---

(1) قارن البيان (248/2) أعمال الأعلام (ص 221 — 222) الاستقصا (184/1) روض القرطاس (الطبعة الحجرية) بغية الرواد (ص 83).

المغرب الأقصى
بين العبيديين والأمويين

والآن، وبعد هذه الجولة المتأنية في مسرح الحرب المدمرة بين الخليفة الحكم وحسن بن كنون في جبال الريف وفي حوض سبو وعلى شواطىء المحيط الأطلسي، يجدر بنا أن نتوقف لحظة أخيرة لنستعرض المعطيات السياسية التي ينطوي عليها الموقف والتي كان من نتائجها اختفاء الدولة الإدريسية الأولى.

على الصعيد الداخلي، يمكن القول بأن الروح الديموقراطية التي حَدَتْ بمحمد بن إدريس إلى إقامة نظام جماعي للحكم، كانت دليلاً على سعة أفق تفكير هذا الأمير ونضوجه السياسي، ولكنه نظراً لأن هذه التجربة التي تستحق كل تقديرنا من حيث المبدأ، قد طُبِّقت في بلد لايزال (باستثناء المدن) متخلفاً وكانت لاتزال تتوزعه النعرات الدينية والمذهبية إلى جانب العصبية القبلية، فإن نتائجها كانت عكس المنتظر، وبدلاً من أن «تزدهر مائة زهرة» حسب التعبير، الحديث، وتكون هذه اللامركزية الواسعة وسيلة لدعم الدولة المركزية، كانت بداية للتفتت ولعهد إقطاعي بالمعنى الذي عرفته أوربا في العصور الوسطى.

ولو قدر لهذه الدولة أن تعمر طويلاً وتخرج بالعبرة من تلك التجربة، ولو تركها جيرانها في سلام، لأمكن أن يقوم زعيم من أبناء إدريس ليصلح الأخطاء ويعيد الأمور إلى نصابها، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فإن عهد محمد ابن إدريس واخوته لم يكن طويلاً والضغوط الخارجية كانت أقوى مما تحتملها هياكل هذه الدولة الفيدرالية.

ونحن قد رأينا كيف كان عبد الرحمن الناصر يخطو خطوات بطيئة ولكنها ثابتة على العدوة، بعدما اضطر أبا العيش للتنازل له عن طنجةالتي اتخذ منها ومن سبتة نقطة إرتكاز لسياسته الأفريقية، وكذلك اكتشف الناصر ثغرة في النزاع التقليدي بين زناتة وصنهاجة من جهة، وبين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة، من جهة أخرى.

ومن هذه الزاوية، يمكن القول بأن سياسة الحكم الأفريقية إنما تمثل توسيعاً جغرافياً للقواعد التي احتلها أبوه في العدوة وتطبيقاً موسعاً لمبادئه في سياسة التوغل.

ولكن الناصر كان يقيم نفوذ قرطبة على دعامتين أساسيتين:
قوة أمراء زناتة الحربية ومكانة الأدارسة الذين أتاح لهم نسبهم ومجدهم السياسي السابق، نفوذاً واسعاً بين قبائل المغرب، ولاسيما في الشمال. وهذه النظرة واقعية وسليمة ولكنها لم تكن تحسب حساب التحالف القوي الذي ظهر في الشرق بين العبيديين وصنهاجة؛ وكذلك انهارت نظرية الناصر بصورة مفجعة تحت ضربات جوهر ورجال صنهاجة، وهذا الدرس استفاد منه الحكم، الذي قرر عندما تولى الحكم أن يجعل سياسته ترتكز على القبائل البربرية مباشرة، مستغنياً عن وساطة الادارسة الذين تورطوا في التحالف مع العبيديين وصنهاجة في أكثر من مناسبة.

وهذه السياسة وجدت مقاومة عنيفة في المغرب، على الرغم من ضخامة وسائل الإغراء والترهيب التي التجأ إليها الحكم، حيث إن الحكم لم يكن يمثل بديلاً جديّاً عن الادارسة.

وقد تمكن الحكم من تطبيق سياسته بالنجاح الذي عرفناه، خصوصاً عقب تقلص نفوذ العبيديين عن المغرب الأقصى بسبب قرار المعز لدين الله الارتحال بدولته نهائياً إلى مصر، ونحن يجب الا نغفل عن حقيقة تاريخية هامة في هذا السياق: وهي ان سنة 361 التي بدأت فيها حرب خليفة قرطبة لحسن كنون، هي نفسها السنة التي ارتحل فيها المعز لدين الله، بعدما هيأ له جوهر الصقلي القاهرة لتكون عاصمة لملكه بدل المهدية.

وهذا التوافق التاريخي لا يمكن أن يكون من محض الصدف وإنما هو، في نظرنا، نتيجة لتخطيط وحسابات سياسية دقيقة في بلاط قرطبة.

صحيح ان المعز قد ولى على إفريقية أميراً صنهاجياً كان له دور مهم في تمهيد المغرب، وأن لصنهاجة مصلحة حيوية في بقاء المغرب على ولائه للشيعة، ولكن مركز الثقل والقرارات لم يعد المهدية التي تحولت الآن إلى عاصمة ولاية، بل هو القاهرة البعيدة، وخليفة قرطبة لا يواجه في المغرب خليفة مثله ذا أصل شرقي مثله، وإنما هويواجه الآن والياً من البربر، ثم إن الحكم يعرف ان خليفة القاهرة يهتم بامتداد حدود أمبراطوريته نحو الشرق أكثر مما يهتم بحدودها الغربية؛ لأن نظره وجيشه الكتامي يتجه الآن، بقيادة جوهر نفسه، إلى سوريا وليس إلى شواطىء المحيط الأطلسي.

والغارات التي حقق فيها بلكين بن زيري انتصاراته المشهورة، لم تكن موجهة إلى الأمويين مباشرة، بل كانت قبيلة زناتة هي هدفها الأساسي، وعندما صال وجال ودوَّخ المغرب في سنة 360 هـ، وقضى على عشرين من أمراء زناتة، وفي مقدمتهم قائدها المحنّك محمد بن الخير الذي قتل نفسه بسيفه، إنما كان غرضه الأول، أخذ الثأر لأبيه الذي سقط من على فرسه أثناء محاربته لزناتة وقتل في عين المكان.

ومما لا يخلو من دلالة على تحول اهتمام العبيديين عن المغرب الأقصى، ان المعز لدين الله، عندما عرف أن بلكين قد أخذ ثأره وشتت شمل زناتة، لم يكلفه بتعيين ولاة من قبله لتنظيم إدارة البلدان التي فتحها، كما فعل قواد العبيديين من قبل، وإنما بعث إليه برسالة يأمره فيها بالكف عن القتال والرجوع إلى إفريقية. والحق ان انتصارات بلكين لم تكن سوى «بارود» شرفي للاحتفال برحيل المعز لدين الله الذي عرف العالم انه خرج من افريقية في قمة النصر. وكذلك كان تحول اهتمام المهدية بالمغرب الأقصى، بمثابة الضوء الأخضر لخلفاء قرطبة لملء الفراغ الذي كانوا يشغلونه، مباشرة، أو بواسطة أعوانهم من أمراء مكناسة والأدارسة، وتقلص نفوذ العبيديين، هو الذي

سمح للحكم بمواصلة حربه الأفريقية بكل اطمئنان حتى الانتصار على الحسن ابن كنون.

ولكن مشكلة قرطبة مع الحسن بن كنون لم تنته بتدمير جحر النسر وبعبور الأخير إلى قرطبة، لأن مسلسل المقاومة الإدريسية له حلقة أخرى.

* *
*

الدولة الإدريسية المغربية الثالثة

الفصل الثامن

دولة حسن بن كنون وحروبه

المرحلة النهائية

جمع الخليفة الحكم وزراءه في مقصورته بجامع قرطبة إثر صلاة الجمعة، وأبلغهم الأخبار السارة التي تلقاها من الوزير القائد، غالب، بأن الحسن بن كنون قد استسلم، وإن خطبة الجمعة قرئت باسم الخليفة في مسجد جحر النسر، وان آخر ملوك الأدارسة قد بعث اثنين من أبنائه علياً والمنصور، في رفقة ابن عمه، إبراهيم بن حسن الحسني، إلى قرطبة.

وإثر ذلك، أمر الخليفة في أوائل شهر رجب دري بن الحكم بوضع الترتيبات وإعداد الهدايا لاستقبال هؤلاء الأمراء، وقد امتثل هذا الموظف السامي للأمر، فأعد الآلات الرفيعة والكسي واللجم المفرغة والسروج النفيسة، وذلك بالإضافة إلى العطاء والوطاء، وغير ذلك من الأشياء الضرورية، ثم سار وفد من رجال القصر لاستقبال هؤلاء الضيوف لدى وصولهم في 13 من الشهر، وكأنهم ملوك يقومون بزيارة لعاصمة الأندلس، وليسوا ممثلي أمير غلب على أمره.

وهذه الأحداث التي هزَّت قرطبة بالفرح الذي نتصوره، بنهاية حرب العدوة، صادفت حلول عيد الفطر الذي سيتخذ منه الشعراء مناسبة لتهنئة الخليفة بالعيد والنصر.

ومرة أخرى سيرتفع صوت الشاعر ابن شخيص[1] الذي كان مشهوراً

---

(١) محمد بن شخيص، أبو عبد الله. من أهل الأدب المشهورين ومن أعيان الشعراء المتقومين. =

منذ الآن، ولكن نجمة سيرتفع أكثر، في مجالس المظفر ابن أبي عامر، لينشد قصيدته التي نعرف مطلعها جميعاً:

أتم شعبـان مـا أبـدى رجب ... من قبل ما كانت الآمال ترتقب
وزادنـا إن شهر الصـوم قابلنـا ... بخير عيدين منه: البدر والعقب[1]
في عـام غضـراء لفتنـا طوالعه ... نصراً وخصباً فمات النكث والجدب

ولما وصل إلى ذكر الحسن بن كنون سماه بالخائن وقال:

لما رأى الخائن المخذول ما كشفت ... لعينه من دواعي حينه العقب[2]
وان غـزو أمـير الله لاحِقُـه ... من ليس تلحقه خيل ولا نجب
وأن عَـزْمتـه حتـمٌ وغضبتـه ... حتفٌ رِفي الله منه الحتف والغضب
وانـه لو رمـاه الجدُّ في هـرب ... بالصين لم ينجه من سيفه الهرب
وكيف يـطمع في منجى يُفَـوِّتُـه ... من جـد لله في آثـاره الـطلب

إلى أن يقول:

اعطاؤه الحكم مولانـا وقى دمه ... وكنت أطمع أن يُشفيى به الكَلَب
نَجَـا بـإمْكـانـه من نفسـه رَمَقٌ ... بـين الحيـاة والمـوت مضـطرب
....
أَشابة[3] تـدعى في هاشم نسبـا ... وما يصلح لها في معشـر نسب
عُمْيِ البصائر لم يسلس معاطفها ... إلى مساعي التـقى دين ولا حسب
وزادهــا في عمـاهــا أن أولها ... ألقى العصى حيث لا علم ولا نسب
نَشَتْ مع الوحش في دهماء ليس لها ... في غير حسو الحسى رأي ولا أرب
إذا غدا حسن في الآل من حسن ... رأساً فياليت شعري أيما الذنب

وبعد ذلك أعقبه عبد العزيز بن حسن القروي وعبد القدوس ابن عبد

= ترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر (1/273) البغية للضبي (ص119) المغرب لابن سعيد (1/208) وقد قال عنه إنه «من أهل البيت الرفيع والنظم البديع».

(1) العقب جمع عقبة بالكسر وهي عودة القمر.

(2) الدول، أي المرة تلو المرة.

(3) الاشابة من الناس: الأخلاط.

الوهاب، فألقى كل منهما قصيدة بليغة يتبارى فيها مع صاحبه في هجو الحسن ابن كنون وتهنئة الخليفة بالمناسبتين[1].

وفي هذه الأثناء أمر الخليفة الوزير والقائد الأعلى غالب بالعودة إلى الأندلس بعدما حقق الشرط الذي وضعه لهذه العودة، فقد وجه إليه رسالة في منتصف ذي الحجة يأمره فيها بالقفول من العدوة، في خاصته ورجاله وترك عمل المغرب للوزير يحيى بن محمد التجيبي.

وفي يوم الأربعاء لثلاث خلون من المحرم سنة 364 هـ، وصل الوزير والقائد الأعلى، غالب، إلى قرطبة عائداً من العدوة مصطحباً معه الحسن بن كنون ومن بـقي معه من الأدارسة الحسنيين، وفي مقدمتهم شيخهم المعروف بجنون[2] وأخوه إبراهيم ابن عيسى، وابن عمه ميمون بن القاسم وأخوه يحيى ابن القاسم وبنوهم وذويهم، وقد ضرب غالب معسكره خارج قرطبة وأقام هناك مع ضيوفه حتى جنّ الليل ثم نقل عيال هؤلاء الأمراء متستراً بجنح الظلام عن أعين الفضوليين من المحلة إلى الدور التي أعدت لهم في المدينة، وهذه الدور فرشت بأفخم الأثـاث ونضدت أتم تنضيـد وأترعت مخازنها بالأطعمة الفاخرة والأدهان والحطب والأواني والآلات.

وفي اليوم التالي نظمت قرطبة الاستقبال الرسمي للوزير والقائد الأعلى المنتصر، فسار في حركة استعراضية على رأس جيشه مخترقاً شوارع المدينة وقد أحاط به كبار قواده.

وتحرك بحركة القائد غالب، بنو إدريس الذين سـاروا وراء القائـد مباشرة وكأنهم جميعاً من صناع هذا النصر، وقد رتبوا حسب أسنانهم ومنازلهم الشرفية، ولما تجاوز الركب قرطبة، ضرب القائد محلته بفحص الناعورة، ونزل هناك، ونزل الأشراف الأدارسة في مظلات رفعت لهم فأقاموا بالمحلة يـومي الخميس والجمعة.

---

(1) راجع مجموعة من القصائد التي قيلت بهذه المناسبة في المقتبس (5/ 156 — 168).

(2) قارن أعمال الأعلام (ص 222) بغية الرواد (ص 83) البيان (2/248) المقتبس (5/ 196 — 197) روض القرطاس، الاستقصا (1/184).

فلما كان يوم السبت التالي، وصل الأمر إلى الوزير والقائد الأعلى غالب ومن معه بالحركة، فركب هو وقواده وركب معهم الأشراف الأدارسة مع بنيهم ورجالهم وساروا وراءه في الصف الأول بين صفين متصلين من جنود قرطبة، ومضوا حتى المكان الذي كان ينتظرهم فيه فرسان القصر والرماة العبيد، وعلى جميعهم الدروع والبيضات، ثم أصحاب الطبول والقرون وأصحاب الرايات التي تحمل صور الأسود والثعابين والعقبان وغيرها، فلما انتهى الموكب إلى باب الزهراء، سار بين صفين من الرماة الأحرار والعبيد، وقد لبسوا المدارع الملونة وتنكبوا القسي الأعجمية.

ولما وصل الموكب إلى القصر، تقدم الوزير غالب بن عبد الرحمن فدخل على باب سدة القصرة ومعه بنو إدريس ونزلوا في المجالس (القاعات) القبلية، وهناك تلقى كبارهم، وفي مقدمتهم أحمد بن عيسى شيخهم، وإبراهيم أخوه وميمون بن القاسم، ويحيى أخوه، وسائر بني محمد أوصال ديباج سرية على سبيل الهدايا[1].

وفي المجلس (القاعة) الشرقي جلس أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله محاطاً بوزرائه وكبار رجال دولته وقواده وحجابه في أبهة وعظمة تليق بهذه اللحظة التاريخية. ولما تمت مراسم الاستقبال، أمر الكتاب بالسير لمرافقة بني إدريس للمثول بين يدي أمير المؤمنين، وقد نهض الأشراف من موضع نزولهم وساروا في موكب التزمت فيه دقائق المراسيم يتقدمهم أحمد بن عيسى وإبراهيم أخوه وميمون بن القاسم ويحيى بن القاسم، حتى انتهوا إلى المجلس الشرقي الذي تربع فيه خليفة الأندلس مضافاً إليه المغرب الآن، فقدموا شيخهم عليهم (أحمد بن عيسى) فدنا وسلم وعظم، فكرمه أمير المؤمنين بالقعود، ورفع منزلته في الجلوس، ثم تقدم من بعده الأسن فالأسن، وكلما سلم واحد منهم أحسن الرد عليه وأمره بالجلوس.

فلما استوى مجلسهم، بدأ أمير المؤمنين بالكلام، فأثنى عليهم وشكر طاعتهم، ووعدهم بإحسان مكافأتهم وترتيب النعمة عندهم، ثم أمر بإحضار

---

(1) راجع تفاصيل أخرى في المقتبس.

بنيهم الأكبار تشريفاً لهم، ولما وصل المأذون لهم من ولدهم إلى أمير المؤمنين، قدموا حسب منازلهم فسلموا وقعدوا دون آبائهم على مراتبهم، فوعدهم بواكف فضله ووابل نواله، حسب تعبير ابن حيان، ثم خرجوا إلى مكان نزولهم وانطلقوا لسبيلهم[1] وتقدم من أوصلهم إلى الدور التي أعدت لهم ونزل بها أهلوهم.

وكانت الدار التي خصصت لزعيمهم، أحمد بن عيسى بن حنون هي الدار المنسوبة إلى طرفة، بظهر مقبرة بني عامر، واستقر الأمر بأخيه إبراهيم إلى الدار المنسوبة إلى سعد وانتهى أمر ميمون، جد الأدارسة الحموديين، الذين سيتولون الخلافة في قرطبة، في الدار المنسوبة إلى ريان الوصيف، وأنزل رجال بني إدريس وأصحابهم وخدمهم بدور مجاورة لدورهم بداخل مدينة قرطبة، أو في أرباضها.

* * *

ماذا كان وضع حسن بن كنون بين الأشراف الأدارسة وكيف استقبله الخليفة إذا كان قد استقبله كلية، وأين نزل؟

لا يذكر المؤرخون شيئاً عن ذلك كله، ولكنا إذا تذكرنا ان الرواية التي بين أيدينا عن هذه الأحداث كلها أندلسية الأصل تقريباً، فهمنا صمت المؤلفين بشأن كل ما يتصل بمقاومة آخر الأدارسة، فإن هؤلاء كانوا يصفونه أثناء الحرب بأشنع الأوصاف مثل «الخائن» و«الملحد» وغير ذلك، وكانوا يتوقعون إطاحة رأسه بالسيف إذا استسلم، ولكنه بعدما تلقى الأمان على نفسه وأمواله وسار في ركب غالب المنتصر واستضافه الخليفة هو وعائلته، مثل بقية الادارسة، لم يكن لدى هؤلاء المؤرخين - وخصوصاً مؤرخي البلاط - ما يقولونه عنه.

ومهما يكن من أمر، فإن الحسن بن كنون أقام بقرطبة حتى سنة 365 هـ.، وقد وفّى له المستنصر بالله بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء (وكانوا، في

---

(1) نفس المصدر (5/ 199 — 200).

رواية القرطاس، سبعمائة ويعدلون سبعة آلاف من غيرهم)، وذلك حتى قام شقاق خطير بين الخليفة وضيفه، وهذا الشقاق لم يكن يتصل بالملك أو بشأن من شؤون السياسة والحرب، وإنما كان بشأن قطعة عنبر كبيرة الحجم، غريبة الشكل، ظفر بها الحسن في بعض سواحل مملكته السابقة وظل يحتفظ بها باعتزاز كتذكار شخصي لأيام عظمته ومجده الزائل.

ولما بلغت أخبار قطعة العنبر إلى الخليفة، طلب من ضيفه أن يقدمها إليه ليضمها إلى كنوزه وذخائره، على أن يعوض له عنها بما يرضيه، ولكن الحسن بن كنون رفض هذا الطلب وامتنع عن تسليم قطعة العنبر إلى الحكم.

وقد كان هذا الموقف كافياً لإثارة غضب الخليفة ولحلول نقمته، حيث استولى على جميع أموال الحسن بن كنون وسلبه كل ما يملك، بما في ذلك قطعة العنبر المشئومة.

وتقول الرواية إن هذه القطعة من العنبر بقيت في خزائن المستنصر بالله وخلفائه من بعده، إلى أن استولى علي بن حمود الحسني على الملك في الأندلس ودخل قرطبة وسكن القصر وفتح خزائنه، بعدما ظفر ببني أمية، فوجد ضمن ما وجده من التحف والذخائر عنبرة الحسن بن كنون، وقد عفنها مرور الأيام، ولكنها على كل حال، عادت إلى أيدي الأدارسة أربابها.

والنكبة التي تسببت فيها قطعة العنبر لم تكن قاصرة على الحسن بن كنون وذويه، بل شملت جميع الادارسة الذين تعب المُستنصر الآن من النفقات الباهظة التي تكلفها ضيافتهم خزائنه، وكذلك أمر بإجلائهم جميعاً ودفع بهم في عرض البحر من مرفأ المرية إلى تونس.

ومن تونس، سار الحسن بن كنون وبنو عمه إلى مصر فنزلوا بها على نزار بن معدّ وأقاموا هناك حتى سنة 372 هـ. ، في أيام هشام المؤيد الأموي.

وفي تلك السنة، اعتقد العبيديون ان الاضطرابات التي تشهدها الأندلس خليقة بأن ترخي من قبضتهم على المغرب. ومن غير الحسن بن كنون يستطيع أن يسترجع لهم هذه الولاية البعيدة؟.

وكذلك بعث به مع رجاله العزيز بالله نزار إلى افريقية وكتب إلى عامله بلكين بن زيري يأمره بأن يقويه بالجيوش، فأعطاه جيشاً يتكون من ثلاثة آلاف فارس، اقتحم بهم بلاد المغرب، وسارعت القبائل إلى تقديم الطاعة إليه، فشرع في إظهار دعوته.

ولما اتصل خبر هذا الغزو بالمنصور بن أبي عامر، حاجب هاشم المؤيد، والقائم بملكه، وجه إلى المغرب الوزير أبا الحكم عمر بن عبد الله ابن أبي عامر، في جيش كثيف وقلّده أمر المغرب وسائر أعماله، وأمره بحرب الحسن بن كنون، فنفذ لوجهته[1].

ركب أبو الحكم البحر من الجزيرة الخضراء ونزل بسبتة حيث كان الحسن بن كنون في انتظاره، ووقعت بين الطرفين معارك وضرب عليه الحسن الحصار أياماً.

وإثر ذلك أجاز المنصور بن أبي عامر ابنه عبد الملك المظفر على رأس جيش كبير لنجدة أبي الحكم[2].

فلما رأى الحسن بن كنون جيوش قرطبة التي سبق له إن عرف بإسها تجتاز مضيق جبل طارق، جيشاً بعد جيش، أسقط في يده واعتقد ان التاريخ سيظل يعيد نفسه إلى الأبد، وكذلك بدا له ان المخرج الوحيد هو الاستسلام، فطلب الأمان على أن يصير إلى الأندلس كما فعل في المرة الأولى، فأعطاه الوزير أبو الحكم أمانا وثق به وكتب إلى المنصور ابن أبي عامر بأمره، فرد عليه الحاجب يأمره بتعجيله إلى قرطبة موكلاً به من يحفظه، فبعثه ووصل الخبر إلى المنصور بقدومه وجوازه، فلم يمض أمان الوزير ابن عمه، وأنفذ إلى الحسن بن كنون من قتله في طريقه إلى قرطبة، وقطع رأسه ودفن جسده وحمل الرأس إلى المنصور بن أبي عامر، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة

---

(1) قارن الاستقصا (1/185) البيان (2/181) روض القرطاس؛ بغية الرواد (ص 84) أعمال الأعلام (ص 221).

(2) ينكر دوزي DOZY في تاريخه عن الأندلس (3/200) هذه الرواية بحجة ان سن عبد الملك لم تكن تتجاوز حينئذٍ الثانية عشرة.

375 هـ (سبتمبر 985م). وبعد ذلك استقر الأمر في المغرب للمنصور بن أبي عامر الذي أخرج من بقي فيه من الادارسة.

وبذلك انتهت دولة الحسن بن كنون الثانية ودولة الآدارسة[1] الثالثة بالمغرب، فكانت مدة دولته الأولى 16 سنة (من سنة 349 حتى سنة 364 هـ) وأما دولته الثانية، فإنها لم تعمّر سوى سنة واحدة وتسعة أشهر.

وكذلك ركدت ريح الآدارسة العلويين بالمغرب وتفرق جمعهم في كل اتجاه، ولو أن جماعة منهم بقيتْ في قرطبة وأخرى في جبال غمارة بالمغرب، ومن هؤلاء ستندفع قوة إدريسية جديدة، لا لاسترجاع المغرب، بل للإستيلاء على الخلافة نفسها، في قرطبة، وسيكون رأس حربة هذه القوة، عليّ بن حمود وأخوه القاسم بن حمود.

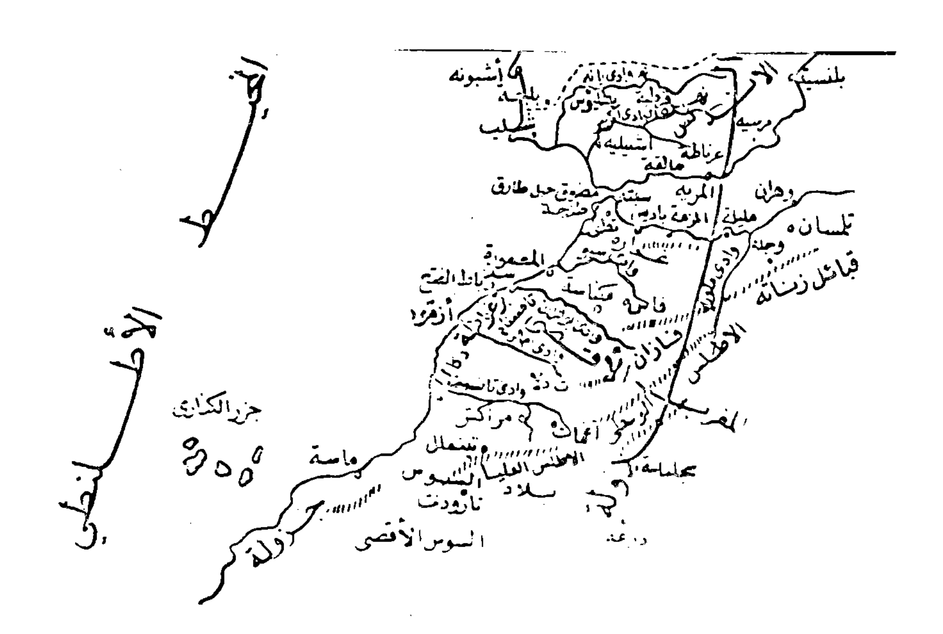
---

(1) وفي سياق استيلاء المنصور على دفة الأمور في الأندلس والمغرب يقول الشاعر (كامل):

فيما أرى عجب لمن يتعجب ... جلت مصيبتنا وضاق المذهب
إني لأكذب مقلتي فيما أرى ... حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حياً في أمية واحد ... ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب
تمشي عساكرهم حوالي هَوْدَجٍ ... أعوادهنّ فيهن قرد أشْهَبُ
أبني أمية أين أقمار الدجى ... منكم وما لِوُجُوهها تتغيَّب

القسم الثاني

عن دَولتي الادارسَة الحَموديين بالاندلسْ



إشبونه
بلنسية
مرسيه
إشبيلية
غرناطة
مالقة
المريه
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
وهران
مليلة
تلمسان
وجدة
قبائل زناتة
وادي ملوية
المعمورة
فاس
مكناسة
أزمور
مراكش
أغمات
تينملل
الأطلس العليا
سجلماسة
السوس
تارودنت
السوس الأقصى
ماسة
جزر الكناري

ثورة البربر وبداية عهد ملوك الطوائف

رأينا كيف استتب الأمر للحكم بن عبد الرحمن الناصر الأموي في المغرب بعدما قضى على دولة الحسن بن كنون وأجلى عنه الادارسة إلى قرطبة في المرحلة الأولى ثم طردهم إلى الشرق في مرحلة تالية لسبب تافه، وهو رفض الحسن بن كنون تسليمه قطعة من العنبر كان يعتز بها، وقد جرت هذه الأحداث في أواخر أيام الحكم، حيث إنه توفي في سنة 366 هـ.

وعقب ذلك بويع ابنه هشام بن الحكم «المؤيد»[1] الذي لم تكن سنّه تتجاوز الحادية عشرة، فقام بتدبير أمور دولته وزير أبيه، وهو السياسي العبقري المشهور، محمد بن عبد الله، الملقب بالمنصور بن أبي عامر[2] والذي

(1) راجع عن سيرة هشام المؤيد وخلافته نفح الطيب (1/396 — 402) العبر (4/147) جذوة المقتبس (ص 17) البيان (2/253 و 3/3 — 112) الحلة السيراء (1/258 — 259) المغرب لابن سعيد (1/155 — 157).

(2) هو المنصور بن أبي عامر (محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد) ولد سنة 326 هـ أصله من الجزيرة الخضراء، قدم قرطبة شاباً لتلقي العلم، فبرع فيه واستخلف على قضاء كورة «رية» ثم تولى النظر في أموال أمّ هشام، فارتفعت مكانته في القصر، فولي الشرطة والسكة والمواريث كما أضيف إليه قضاء إشبيلية، كانت له اليد الطولى في نشر الهدوء في البلاد قبل أن يقوم بعدة غزوات مظفرة لبلاد الإفرنج لم تنهزم فيها جيوشه قط، وقد كان من بين البلاد التي فتحها قشتالة وليون ونابرة وأرجون وكتلونية، ووصلت جيوشه حتى جنوب فرنسا. وقد مات ابن أبي عامر في إحدى غزواته في مدينة سالم، راجع ترجمته في نفح الطيب (1/396 — 399) العبر (4/147) الكامل (9/61) الحلة السيراء (1/268 — 277)، وفيه أنه ولد في سنة 327 وتوفي سنة 392 هـ؛ بغية الملتمس (ص 105) الوافي بالوفيات (3/312) البيان (2/301) الذخيرة (المجلد =

عرفنا كيف غدر بالحسن ابن كنون الذي استسلم بناء على عهد وزيره، أبي الحكم[1].

ولما توفي المنصور بن أبي عامر في إحدى غزواته بمدينة سالم[2] قام بأمر الحجابة على الخليفة هشام من بعده، ابنه، عبد الملك، الملقب بالمظفر (أبو مروان)[3] فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، بينما استمر الخليفة محجوباً عن الناس، وبعد وفاته أعقبه في الحجابة أخوه، عبد الرحمن بن محمد[4] الذي طمح إلى الخلافة وطلب إلى هشام بن الحكم أن يوليه العهد، فأجابه إلى ذلك وعقد له بولاية العهد، فتلقب بالناصر لدين الله، واستمر على سنة أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة والاستبداد بالأمر دونه.

= الأول من القسم الرابع (ص 39 — 58) المغرب (1/394) تاريخ غزوات العرب (ص 246 وما والاها).

(1) راجع القسم الأول من هذا الكتاب.

(2) تسمى بالإسبانية medinaceli، مدينة صغيرة تقع في شرق إسبانيا على الخط الحديدي الذي يربط مدريد بسرقسطة، في منتصف الطريق بين المدينتين، ويبلغ ارتفاعها على مستوى البحر 3500 قدم، وهي على الضفة اليسرى لنهر جالون Jalon وصفها الإدريسي (ص 189) بأنها «مدينة جليلة في وطأة من الأرض، كبيرة القطر كثيرة العمارات والبساتين والجنات». وكذلك وصفها أبو الفداء وصفاً شيقاً في تقويم البلدان (ص 178) وصاحب البيان (1/213) وفيه أن ابتداء بناء مدينة سالم كان في سنة 335 هـ؛ على يد الناصر، راجع وصفها أيضاً في معجم البلدان (3/172).

(3) هو عبد الملك (المظفر) بن محمد (المنصور بن أبي عامر) كان في أيام أبيه ينوب عنه في الحجابة للمؤيد وقد رافق أباه في كثير من غزواته، بما فيها غزوته الأخيرة التي مات فيها، وقد كتب له المؤيد بولاية الحجابة في سنة 392 هـ. فقام بشؤون البلد على سنة أبيه ومن الإصلاحات التي استحدثها، إسقاط سدس الجباية في البلد. وقد كان مثل أبيه شجاعاً وسياسياً داهية، فكان يستبد بأمور الدولة بدون رقيب، وقاتل الإفرنج وانتصر في عدة معارك. وقد مات في غزوته السابعة بمقربة من أرملاط في سنة 399 هـ.، راجع سيرته في الجذوة (ص 271) المغرب (1/207) بغية الملتمس (ص 106) الذخيرة (المجلد الأول، القسم الرابع، ص 55 — 66) البيان (3/1 — 9) نفح الطيب (1/423).

(4) هو عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، أبو المطرف، ويلقب بشنجول تولى الحجابة لهشام بعد وفاة أخيه وتلقب بالناصر، ثم بالمأمون، خرج غازياً، ولما علم ان عبد الجبار ثار بقرطبة وخلع هشاماً، رجع يريد قرطبة، ولكن قادة جيشه تخاذلوا عنه وعاد مع صغار الناس وأخذ وذبح وصلب على باب سدة عبد الجبار في سنة 400 هـ. راجع نبذة عن سيرته وحكمه في البيان (3/38 — 50) الحلة السيراء (1/270).

كانت ولاية العهد هذه غلطة كبرى، والشرارة الأولى لنار الفتنةالتي ستقضي على دولة بني أمية ودولة بني عامر، قبل أن تقضي في نهاية الأمر على دولة الإسلام كلها في الأندلس. فإن الاعتداء على الحقوق الوراثية للملك، أثار سخط كثير من رجال الدولة والشعب واتهموا شنجول بأشنع الاتهامات، وقامت ثورة بدأت بقتل صاحب الشرطة، وهو في باب قصر الخلافة بقرطبة (سنة 399)، وانتهت بخلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله الذي لقبوه «المهدي بالله»[1].

وبعد ما تلقى البيعة، سار على رأس الغوغاء من «الخدم والجزارين» و«الزبالين» على حدٍّ قول ابن عذاري، لنهب الزاهرة، فاستباح حرمة آل عامر واستولى على خزائنهم وممتلكاتهم، ولما فرغ من ذلك، أمر بهدم المدينة العظيمة وتدميرها وأباح للعامة ما اقتلعوه من مرمر قصورها وأبوابها» (16 جمادي الثاني سنة 399 هـ).

وكذلك ترك ابن عبد الجبَّار الحكم في يد الغوغاء، فكانوا يشتمون ويعتدون على كل من كان له منصب في الدولة أو مكانة بين قومه. وقد كان رؤساء البربر في مقدمة من تعرضوا لسوء المعاملة، وذلك على الرغم من أنهم كانوا في مقدمة مؤيديه، فعندما سار رئيس صنهاجة، زاوي بن زيري بن منادٍ، راكباً إلى القصْر، احتبس بالباب، وكلما تقدم خطوة إلى الأمام ردوه وقرعوا رأس فرسه.

فلما أكثروا من ذلك، قال لهم: «هذه رأسي، فاضربوا، فالدابة لا ذنب لها».

وفي اليوم التالي، نهبت دور بني ماكسن بن زيري ودور لزاوي ودور أخرى لغيره من زعماء البربر، ولما دخل زاوي بن زيري وحبوس وحباسة على

---

(1) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي ولد في سنة 366 وخرج على المؤيد وبايعه الناس وملك قرطبة وحبس المؤيد ومات في سنة 400 هـ راجع سيرته في الجذوة (ص 88) بغية الملتمس (ص 129) نفح الطيب (1/426 — 428) الحلة السيراء (12/2 — 16).

عبد الجبار، وأخبروه بما تعرضوا له من العدوان، اعتذر لهم في نفاق ووعدهم بتعويض ما نهب لهم.

ومن جهة أخرى فقد بلغت أخبار إلى البربر بأن ابن عبد الجبار يستعد للفتك بهم. فقد كان عبد الجبار عدواً للعامريين ويكره الأمويين، ولكن حقده وبغضه الحقيقي كان ينصب على البربر، وهذه هي جرثومة ما يسمى بفتنه البربر التي كانت أيضاً محنتهم[1].

ولما دخل عبد الجبار قصر قرطبة، حبس هشام المؤيد، وأعلن على الناس انه مات، وقد صادف إن مات رجل نصراني في تلك الآونة يشبه المؤيد، فأبرز جثته للجمهور وذكر انها جثة المؤيد، فلم يوجد بين ذويه وخدمه ورجال قصره من يعارضه أو يعرب عن شكه، فصلُّوا عليه ودفنوه في مقابر المسلمين.

وكذلك انقلبت ثورة عبد الجبار ضده، فإن أهل الأندلس، وفي مقدمتهم البربر، سرعان ما نقموا عليه كذبه وتزويره وعبثه بالأمن، ولذلك قصدوا هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله وبايعوه ولقبوه بالرشيد (26 شوال) ثم اجتمعوا بظاهر قرطبة وحاصروا ابن عبد الجبار، وترددت الرسل بينهم وبين عبد الجبار. ولكن المفاوضات انتهت بالفشل ودخل الفريقان في معركة انتصر فيها ابن عبد الجبار وقد قتل في هذه المعركة خلق كثير. وأما هشام فقد أخذ أسيراً وقتل هو وأصحابه.

وقد كان من بين المنهزمين في هذه المعركة سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر[2] (وهو ابن أخي هشام المقتول)، فبايعه أصحاب عمه،

---

(1) قارن روايات الكامل (6/679 — 681) البيان (3/59) الحلة السيراء (2/5) نفح الطيب (1/426) العبر (4/150) جذوة المقتبس (ص 17) أعمال الأعلام تحقيق ليفي بروفنسال (ص 4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (المجلد الأول القسم الأول) (ص 25) بغية الملتمس (ص 20 — 22) المعجب في أخبار المغرب (ص 42 — 45).

(2) راجع سيرته في فوات الوفيات (1/175) الجذوة (ص 19) الذخيرة (القسم الأول من المجلد الأول ص 24) المعجب (ص 42 — 45) البيان (3/91) نفح الطيب (1/426) العبر (4/150) جمهرة أنساب العرب (ص 93) الحلل السندسية (2/218).

وأكثرهم من البربر، بعد الوقعة بيومين، ولقبوه «المستعين بالله» ثم نهضوا إلى ثغر طليطلة[1] واستجاش بابن أذفونش النصراني، ثم نهض في جموع البربر والنصارى إلى قرطبة وبرز له المهدي (ابن عبد الجبار) على رأس أهل المدينة وجيشه بمكان يسمى بقنتيش[2].

ومعركة بقنتيش معركة حاسمة في تاريخ الأندلس الإسلامية، وذلك لأن الخلافة والانقسام قد بلغ فيها درجة لا أمل معها في استعادة وحدة الصف واسترجاع الخلافة الأموية، وبالتالي، فقد كانت نقطة البدء في تاريخ ما يسمى بملوك الطوائف[3]. وعقب هذه المعركة التي قتل فيها، فيما يقول ابن الأبار والمقري، نيف وعشرون ألف رجل (منهم عدد كبير من العلماء والأئمة)، تفتتت السلطة المركزية التي يمثلها الخليفة، وأخذ حكام الولايات

---

(1) Tolèdo، تقع في وسط شبه جزيرة الأندلس على مسيرة ستين ميلاً، إلى الجنوب الغربي من مدريد، وطُلَيْطُلة (هكذا ضبطها الحميدي) مدينة قديمة شيدت على ارتفاع ألفي قدم فوق مستوى البحر، على هضبة يحيط بها نهر تاجه، وعدد سكانها الآن يقرب من أربعين ألف نسمة، وهي قصبة مديرية تحمل نفس الاسم، وللمدينة تاريخ عريق، حيث ورد ذكرها في كتاب المؤرخ الروماني «تيتليف» باسم Tolèteum واستولى عليها الرومان في سنة 192 ق.م.، وذلك قبل أن تصبح عاصمة للقوط Visigoths. ولما افتتحها المسلمون وجدوا فيها ذخائر وكنوزاً يقول الحميري إنها «تفوق الوصف»، منها مائة وسبعون تاجاً مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة والدر والياقوت، ومائدة سليمان بن داوود المشهورة والتي صنعت من زمرّد، وقد وصفها صاحب الروض المعطار بقوله: «طليطلة عظيمة القطر كثيرة البشر... وهي حصينة لها أسوار حسنة... ولها قنطرة من عجائب البنيان، وهي قوس واحد «والماء يدخل تحته بعنف وشدة». راجع وصف طليطلة في معجم البلدان (4/39 — 40) الإدريسي (ص 173, 175, 187) الحلل السندسية (1/363 وما والاها) صفة جزيرة الأندلس (ص 130 — 135) صورة الأرض (ص 111) جغرافية ابن سعيد (ص 179) المعجب (الفهرست) العبر والكامل والبيان ونفح الطيب في مواضع مُختلفة، وكذلك:

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne . (الفهرست)

Ramon Parro (S): Toledo en la mano, (طليطلة سنة 1857)

Menedez Pidal: La Espana del Cid (Madrid 1929).

Calvert (A. F): Toledo (London, 1907).

(2) يقع هذا المكان غير بعيد من ملتقى وادي أرملاط، Guamellato بالوادي الكبير، في شمال شرق القليعة Alcolea، وقد ورد اسم هذا المكان في بغية الملتمس برسم: قنتش.

(3) راجع، Lévi — Provençal: Histoire de L'Espagne Musulmane, (II, 310).

يستقلون بما اقتطع لهم الخليفة. وكذلك يمكننا أن نؤرخ بداية عهد ملوك الطوائف في 11 ربيع الأول سنة 400 هـ. (نوفمبر 1009م)[1].

دخل سليمان الذي انتصرت جيوشه على عبد الجبار في معركة بقنتيش في ربيع الأول سنة 400 هـ إلى قرطبة واحتل قصر الخلافة وبويع في منتصف هذا الشهر[2] وتلقب «الظافر بحول الله» وذلك بالإضافة إلى لقب «المستعين بالله».

وأما خصمه عبد الجبار العاثر الحظ، فقد سلك طريق طليطلة التي جاء منها المستعين بالله بمدد من النصارى(وقد كانت الثغور على طاعته ودعوته من طرطوشة[3] في أقصى الشرق إلى الأشبونة في المغرب[4]، وفي طليطلة استنجد

---

(1) نفس المصدر.

(2) رواية ابن الأبار في الحلة، وأما المعجب فيذكر أن دخول سليمان قرطبة كان في ربيع الأخير، والحميري في شهر شوال من نفس السنة، وفي أعمال الأعلام انه نزل بقصر قرطبة لأول مرة في 17 ربيع الأول ومادامت المعركة قد وقعت في ضواحي قرطبة في 11 من الشهر، فإن الأيام الثلاثة القادمة كافية فيما يبدو لنا لدخول سليمان إلى المدينة واحتلال قصر الخلافة بحيث يأخذ البيعة في منتصف الشهر.

(3) Tortoso بالإسبانية، والنسبة إليها: طرطوشي، مدينة تقع في نهر أبرة غير بعيد من دلتاه على مسافة 115 ميلاً من بلنسية و105 أميال من برشلونة، ويبلغ عدد سكانها حالياً نحو 50 ألف نسمة، وقد كانت طرطوشة بفضل مركزها الجغرافي الممتاز عبر العصور مركزاً تجارياً عظيم الأهمية، وصفها عبدالمنعم الحميري بقوله: «هي في سفح جبل ولها سور حصين وأسواق وعمارات وضياع وفعلة وإنشاء للمراكب الكبار من خشب جبالها، وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجدُ له مثيل في الطول والغلظ، ومنه تتخذ السواري والقرى، وهو خشب أحمر صافي البشرة. . . لا يفعل السوس ما يفعله في غيره». وقد كانت طرطوشة منذ بداية عهد ملوك الطوائف تشكل إمارة صغيرة اقتطعها الفتيان الصقالبة العامريون، راجع وصف طرطوشة في صفة جزيرة الأندلس للحميري (ص 24 — 25) معجم البلدان (31/4) الحلل السندسية (107/1) صبح الأعشى (133/5) الإدريسي (ص 176 و 190) تقويم البلدان (ص 180) نفح الطيب (الفهرست) البيان (73/2) الكامل 11/(90) جغرافية ابن سعيد (ص 167) كتاب الجغرافيا (مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالجزائر لمؤلف مجهول - أرجح إنه محمد بن أبي بكر الزهري من القرن السادس الهجري (رقم 1552 - ورقة 51 ظهر و52 وجه)، وكذلك Alany bolufer: Geografia iberice (غرناطة، 1921) (ص 97-98) lévi — provençal.inscriptions arabes d'espagne.

(4) وتكتب أيضاً لشبونة lisvonne، من كورباجة بالأندلس، على شمال نهر تاجة الذي يمر على طليطلة، وبينها وبين شنترين santaren في الشرق ثمانون ميلاً، وهي مدينة على سيف البحر، =

هو الآخر بالنصارى وأقبل بهم إلى قرطبة، فخرج إليه سليمان بن الحكم على رأس جيشه ودارت معركة بين الفريقين في مكان يسمى عقبة البقر[1] انتهت (في 14 شوال) بهزيمة سليمان، ودخل عبد الجبار قرطبة في أثرها دخول الفاتحين واستولى على الخلافة للمرة الثانية.

وإثر ذلك خرج المستعين هائمًا على رأس البربر يفسدون في الأرض وينهبون، ويقتلون ويقفرون الأرض ولا يبقون على أحد في فورة من الجنون الجماعي دون أن تعترض طريقهم قوة، وبعد جولات في مختلف أنحاء البلد، اتجهوا إلى الجزيرة الخضراء، حتى يقترب البربر من المجاز إلى أفريقية متى دفعوا إلى ذلك، فإن ابن عبد الجبار قد حصل على مساعدة النصارى وأخذ يتعقبهم في هذا الاتجاه ولهذه الغاية. ولما التقى الجمعان، كرّ سليمان على جيش عبد الجبار وحلفائه من النصارى، وشتت شملهم ثم طاردهم في اتجاه قرطبة.

عاد ابن الجبار إلى عاصمته وأخذ يستعد لتحمل الحصار، فحفر الخنادق حول قرطبة وزود قصوره بالطعام والحطب، ولكنه استمر على طريقته الخاصة في المعيشة وكأن الهزيمة التي لحقته لا تعنيه في شيء، وبينما كان الأمن مختلًا في المدينة والمذابح تجري هنا وهناك، كان ابن عبد الجبار، فيما يروي ابن عذاري منهمكاً في حريمه وخمره وأدوات الموسيقى التي تعزف له وقد كان يستعمل مائة خبية من الخمر ومائة عود للضرب، وذلك بالإضافة إلى الغلمان الصقالبة الذين كان يهواهم[2].

= ومنها خرج «المغرَّرون» الذين روى قصتهم الإدريسي لاستكشاف بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه، وقد وصفها عبد المنعم الحميري بأنها «مدينة حسنة ممتدة مع النهر، قصبة منيعة». راجع وصفها في وصف جزيرة الأندلس (ص 16 — 17) الإدريسي (ص 55 و 184 — 185) الحلل السندسية (1/98) معجم البلدان (1/195) صبح الأعشى (5/222 — 223) البيان (الفهرست) القزويني، آثار البلاد (ص 496).

(1) يحمل المكان الآن اسم elvacar وهو يقع على مسافة عشرين كيلو متر في شمال قرطبة.

(2) إعتمدنا رواية البيان (3/88 — 90).

ولكنه في نهاية الأمر، قرر أن يواجه الجيش المحاصر، فعزز جيشه كما جاءه واضح العامري من مدينة سالم بإمدادات على رأس 400 فارس.

وفي يوم الأربعاء 11 ربيع الأول (سنة 403)، نزل البربر بأرملاط حيث كانوا يواجهون مقدمة جيش ابن عبد الجبار، ولكن الفريقين لم يشتبكا في معركة، فظل الوضع هادئاً حتى يوم السبت حين اختار البربر موقع المعركة، فقد برزوا إليه في سفح الجبل، وبين جيش قرطبة وادٍ وعر، ولما عبر بعض الجند إليهم «حمل عليهم نحو ثلاثين ألف فارس» من جيش سليمان، وكان ذلك بداية هزيمة منكرة، فقد هرب واضح العامري وأعمل البربر السيف في أهل قرطبة، بينما حمل النهر الكثيرين، ودخل البربر ربض قرطبة.

ولما رأى ابن عبد الجبار الحالة ميئوساً منها، لعب الورقة الأخيرة التي بقيت في يده وأخرج للناس هشام المؤيد الذي سبق أن نظم مقتله الوهمي وأشرف على تشييع جنازته، فتنازل له عن الخلافة واحتفظ لنفسه بمنصب الحاجب كما ضمن له مقاليد الدولة.

وإثر ذلك بعث القاضي ابن ذكوان إلى المستعين بالله وحمله رسالة يقول فيها: إن الخليفة هو هشام....

فأجاب البربر القاضي قائلين:

«سبحان الله يا قاضي، يموت هشام وتصليّ عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش ويعود إلى الخلافة»[1].

ولما رأى واضح وجماعة من الفتيان العامريين تدهور الأوضاع، قرروا التخلص من ابن عبد الجبار، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى البربر وأعلنوا الطاعة لهشام المؤيد، ولكن البربر رفضوا هذا الحلّ.

وفي 24 ربيع الأول دخل البربر مدينة الزهراء، ومن هناك ساروا إلى مختلف المناطق يعيثون فساداً.

---

(١) نفس المصدر.

وفي هذه الأثناء، وفّى هشام وحاجبه واضح العامري بما تعهدوا به للنصارى في مقابل المساعدة التي قدموها للخليفة لمقاتلة البربر، وسلموا إليهم في حفل حضره قاضي قرطبة والعدول والفقهاء، تلك الحصُون التي أخذها منهم الحكم بن عبدالرحمن والمنصور ابن أبي عامر بالسيف وكلفت المسلمين جيلاً طويلاً من الجهاد.

ولكن الحصار المضروب على قرطبة جعل المدينة تعاني من الضيق الاقتصادي، وغلاء الأسعار بصورة أصبحت الحياة معها لا تطاق.

وإزاء الضرورة الاقتصادية وإلحاح ولاة الثغور، كتب واضح إلى البربر باسم هشام يستعطفهم ويرغبهم في قطع الفتنة.

ولما وصل الكتاب إلى سليمان قطعه بسكين دُون أن يقرأ منه حرفاً واحداً.

وفي آواخر شوال، سنة 403 هـ (إبريل 916م)، وقعت المعركة الحاسمة بين البربر بقيادة سليمان وجيش الخليفة وأهل قرطبة، انتهت بهزيمة المدينة واستسلامها[1].

وإثر ذلك، دخل سليمان قرطبة واحتل قصرها للمرة الثانية وأحضر امامه الخليفة البائس هشام المؤيد ووبخه قائلاً: «أما كنت تبرأت لي من الخلافة وأعطيتني صفقة يمينك؟ فما حملك على أن تنقض عهدك؟» فاعتذر إليه بأنه كان مغلوباً على أمره، ثم تنازل له عن الخلافة وسلم إليه الأمر، وعقب ذلك، انتقل سليمان مع الجيش والبربر إلى مدينة الزهراء، ولكن المدينة ضاقت بهم، ولذلك نزل كثير من البربر في الضواحي.

وقد كان ضمن فرق الجيش التي ضربت معسكراتها خارج المدينة فرقة

---

(1) نفس المصدر (ص 112) في البيان وقع استسلام قرطبة في «ثلاث بقين من شوال» ولكن ابن الأثير (الكامل 218/6) يقول إن سليمان على استولى قرطبة في منتصف شوال.

(2) البيان (ص 113).

العلوية التي كان يقودها الأخوان الادريسيان علي والقاسم ابنا حمود[1] والتي عسكرت بشقندة[2].

وبعدما استقر له الأمر، قام سليمان المستعين بالله، بتعيين علي بن حمود والياً على سبتة وأخيه القاسم والياً على طنجة وأصيلا، وقسم بلاد الأندلس بين رؤساء قبائل البربر التي كانت ستاً، فأعطى صنهاجة البيرة[3] التي بقيت

---

(1) إبنا حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس الثاني ابن إدريس الأولى. راجع سيرتهما في الجمهرة (ص 50 — 51) البيان (3/218 و 230 و 242) الذخيرة (القسم الأول من المجلد الأول (ص 78) الجذوة (ص 21) الحلة السيراء (2/26 — 27) المعجب (ص 43 — 44 و 49 — 50) نفح الطيب (الفهرست) العبر (4/151) الإحاطة (طبع عنان، ص 241) أعمال الأعلام الجزء الخاص بالأندلس (ص 120) بغية الملتمس (ص 22).

(2) شَقُنْدة هكذا ضبطها الحميري الذي قال إنها «قرية بعدوة نهر قرطبة قباله قصرها» صفة جزيرة الأندلس (ص 104)، والاسم معرب عن اللاتينية Secunda. وقد كان هذا الربض مسكن العمال والأسواق، وفيه قامت الثورة على الحكم وانكشفت عن هزيمة الثوار وطردهم من الأندلس، وهذا هو الحي الذي يحمل اليوم في قرطبة اسم «حيى الروح المقدس» أو Barrio del Espiritu Santo، راجع عن شقندة أيضاً الحلة السيراء (ص 0/44) المغرب (1/188) المقتبس (ص 219 هامش 1) وكذلك مقاله لفي بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الانجليزية 4/291).

(3) Elvira وتسمى أيضاً لبيره وبلبيره، والتسمية مأخوذة من الاسم الأيبيري Elibiri القديم، ومعناه: المدينة الجديدة، وقد كان هذا الاسم يطلق في أواخر الفتح العربي على الأقليم الذي اتخذ فيما بعد اسم غرناطة، كما ذكر صاحب الروض، وكانت قصبته العربية التي تسمى في ذلك الحين قسطيلية (أو مدينة البيرة) عاصمة غنية مزدهرة حتى هجرها سكانها عند قيام ثورة البربر، وقد ذكر ابن سعيد المغربي إنها كانت «قاعدة المملكة في القديم، ولها ذكر شهير ومحل عظيم، إلا أن رسمها قد طمس» وينسب إلى مدينة البيرة خلق عظيم أورد ياقوت قائمة كبيرة لهم في معجم البلدان (1/244 — 245) وقال الحميري في وصفها إنها «من كور الأندلس، جليلة القدر، وكانت حاضرة البيرة من قواعد الأندلس الزاهرة ولكنها خربت أيام الفتنة وانفصل أهلها إلى غرناطة» راجع صفة جزيرة الأندلس (ص 25 — 30) تقويم البلدان (ص 76) المغرب (2/93) القزويني، أثار البلاد (ص 502) مراصد الإطلاع (1/111) الإدريسي (ص 175) راجع أيضاً. Gomez — Moreno, de Iberri de grenada, Bolt, de la Real Acadimia de la Historia de (1905 — I / 44 — 61; dozy, Reecherches sur l'histoire et la littérature de l'espagne (I /327 — 340).

في يد حبوس بن ماكسن الصنهاجي وذريته نحو قرن من الزمن، وأعطى مغراوة الجوف ومنذر بن يحيى سرقسطة[1] ومنح بني يفرن جيّان[2] وما والاها،

---

(1) سرقسطة Soragossa، وتسمى أيضاً البيضاء، قصبة مملكة أرجون سابقاً. وصفها صاحب الروض المعطار بأنها «قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر آهلة، ممتدة الأطْناب، واسعة الشوارع حسنة الديار والمساكن متصلة الجنات والبساتين، وهي على ضفة نهر كبير» صفة جزيرة الأندلس (ص 96 — 97) وكذلك نقل ابن سعيد في المغرب (434/2) عن الرازي ما يدل على طيب أرضها وحسن بقعتها، فقال: «ونحن لا نعلم بالأندلس مدينة يحدق بها أربعة أنهار سواها» وبمثل هذه العبارات يصفها الشريف الإدريسي أيضاً وإن كان قد نقل كثيراً من وصفه عن الحميري. قارن وصف الإدريسي (ص 90 — 91) بوصف ابن سعيد في كتاب الجغرافيا (ص 180) وياقوت في معجم البلدان (212/3 — 214) وابن عذاري في مواضع متفرقة في الجزء الثالث من البيان، والمراكشي في المعجب (ص 71 هامش 4) والحلة لابن الأبار في عدة مواضع وابن الأثير في الكامل في عدة مواضع وروض القرطاس (طبعة طور نبرج، ص 104) وكذلك:

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (I, II et IV).

Almany Bolufer: Géografia de la péninsula Iberia (p. 101).

Fagnan: Extraits (p. 66, 97, 127).

Codera (F): Estotios de Historia Arabe (p. 95).

(2) جيّان Jean ، بالفتح ثم التشديد (كما ضبطها ياقوت) مدينة تقع في شمال الأندلس على نهر الوادي الكبير في شرقي قرطبة. وصفها صاحب الروض بأنها «كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم والعسل، ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربى فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع وغلات القمح والشعير وسائر الحبوب» وذكرها ابن سعيد وقال عنها نقلاً عن الرازي: «مملكة جليلة معروفة بالمحارث، والأخشاب بين غرناطة وطليطلة، جمعت بين تناهي طيب الأرض وكثرة الثمر وغزر السقي وكثرة الحرير» ووصفها الإدريسي بأوصاف مشابهة، وجيان كورة واسعة تتصل بكورة البيرة، والمدينة تقع على الشمال الشرقي لجبل Jabacuz غربي وادي بلون Guadalbullon وفي مدينة جيان يقول الشاعر:

أجيان أنت الماء قد حيل دونه وإني لظمآن إليك وصادي

وجيان اليوم واحدة من مديريات منطقة الأندلس الثمان، مع ولبة وقادس وإشبيلية وقرطبة ومالقة وغرناطة والمرية، وينتمي إلى جيان عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء، أورد ياقوت قائمة بأسمائهم، راجع معجم البلدان (195/2 — 196) المغرب (49/2 — 51) الإدريسي (ص 202 — 203) الحلة السيراء (121/2) الهمذاني الذي يقول إن بها معدن الفضة ومعدن الزئبق (ص 287) كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 167) الحلل السندسية (127/1 — 128) البيان (الفهرست) صفة جزيرة الأندلس (ص 70 — 71) نفح الطيب (الفهرست).

وبني دمّر وازداجة شذونة[1] ومرور[2] والبرزالي قرمونة[3]، واستولى آخرون، مثل ابن عباد وابن الأفطس على ولايات أخرى. على أن تعيين ابنيْ حمود على سبتة وطنجة لم يُمَرَّ دون أن يثير الامتعاض بين كبار أنصار المستعين بالله من البربر، وذلك على الرغم من أن الأدارسة قد أصبحوا الآن بربراً مثل غيرهم من البربر[4]. فقد ذكر ابن عذاري انه لما بلغ خبر تولية ابنيْ حمود في العدوة عبد الله البرزالي قال للخليفة:

- بلغني انك وليّت بني حمود العلويين على المغرب، فأجابه سليمان:

- نعم، فقال له البرزالي: - أليس العلويون طالبيين، قال:

- نعم. قال: - تأتي إلى الحشاش[5] وتردهم ثعابين، قال:

- نُفِّذ الأمر!

---

(1) شذونة (بفتح أوله حسب ياقوت) medina sidonia، وتعرف أيضاً بمدينة ابن السليم، وتقع في جنوب شرق قادس، وصفها الحميري بأنها «كورة جليلة القدر جامعة لخيرات البر والبحر، كريمة البقعة، عذبة التربة». وقال عنها ابن سعيد «إنها من أجل كور إشبيلية محرثاً وشجرة ومياهاً وضياعاً وماشية» وينتمي إلى شذونة عدد كبير من أعلام العلم والأدب ذكريات قائمة بأسمائهم، وشذونة اليوم مركز إداري في مديرية قادس، على نحو 40 كيلو متر إلى شرقها، راجع وصف شذونة في معجم البلدان (3/329) الحلة السيراء (2/297) مراصد الاطلاع (2/786) نفح الطيب (1/141) الإدريسي (ص 174 و 206).

(2) مورور Moron كورة متصلة بأحواز قرمونة جنوبي الوادي الذي يجري بين كورة قرطبة وكورة تاكُرنا، وتقع مدينة مورور التي اشتهرت بحصانتها على سفح جبل يحمل نفس الاسم. وفي بداية الأحداث التي نؤرخ لها، استولى محمد بن نوح الدمري على مورور وأنشأ بها إمارة بربرية ضمها ابن عباد إلى مملكة إشبيلية فيما بعد، راجع عن مورور معجم البلدان (5/222) الحلة السيراء (الفهرست) وصف جزيرة الأندلس (ص 188) الحلل السندسية (مورون) (ص 40 — 41) المغرب لابن سعيد (1/312) نفح الطيب (الفهرست) البيان (3/114).

(3) Caramona مدينة في شرق إشبيلية تقع في سفح جبل وذات جنبات حصينة، إفتتحها عبد الرحمن بن محمد سنة 305 هـ. راجع صفة جزيرة الأندلس (158 — 159) الحلة السيراء (2/183)، مقالة سيبولد في دائرة المعارف الإسلامية (مادة قرمونة) معجم البلدان (4/230) وقد أوردها ياقوت باسم قرمونية، الإدريسي (ص 174 و 206) نفح الطيب (الفهرست) الحلل السندسية (1/74 و 132).

(4) يذكر ابن عذاري انه عندما استولى سليمان على الحكم في قرطبة كان الحاجب والوزير وغير ذلك من أعلام الدولة كلهم من البربر البيان (3/114).

(5) كذا في أعمال الأعلام. وفي روايات أخرى: الخشخاش.

الفصل العاشر

خلافة علي بن حمود (الناصر) الحسني

كانت غمارة أشد قبائل المغرب تمسّكاً بولائها لبني إدريس، وقد ظلت على هذا الولاء منذ أن تولّى أمر هذه القبيلة، مع غيرها من المناطق، عمر ابن إدريس الثاني في عهد محمد بن إدريس، والأحداث العنيفة التي كان المغرب مسرحاً لها بغزوات العبيديين المتوالية ثم حروب ابن كنون مع قرطبة، وما تلي ذلك من نقل الادارسة إلى الأندلس، ثم تشريدهم إلى المشرق في عهد الحكم، لم يكن لها، فيما يبدو، أثر يذكر على هذا الولاء، وهذا شيء لا غرابة فيه إذا عرفنا إن بني إدريس قد امتزجوا بهذه القبيلة بالاختلاط والمصاهرة والتعايش، كما لم يمتزجوا بقبيلة أخرى.

وعندما ولّى سليمان المستعين بالله عليًّا والقاسم الحموديين على سبتة وطنجة وأصيلا، كان، بدون شك مدركاً لهذه الحقيقة ومقتنعاً بأن هذين الأميرين هما خير من يمكن الاعتماد عليه لضمان ولاء ولاية العدوة لحكمه.

وهذه الولاية كانت حلاً مثالياً بالنسبة لعلي والقاسم أيضاً، فإن الادارسة (على عكس كثير من قبائل البربر)، لم يكن لهم معقل أو عصبية في الأندلس يعتمدون عليها في تركيز حكمهم في تلك البلاد لو عينوا على رأس إحدى ولاياته، وفي مقابل ذلك، فإن رصيد صيت أجدادهما في العدوة، والعلاقات الشخصية التي تربطهما بغمارة وبمنطقة الريف، بصفة عامة، ستضمن لهما قاعدة معتبرة لإقرار حكمهما، بل ولربما للانطلاق منها إلى الأندلس في مرحلة تالية.

ومخطط الانطلاق إلى الأندلس، كان من الأحلام المعقولة في تلك الظروف المضطربة التي تفككت فيها كل القوى، بما في ذلك قوة الأمويين والعامريين، وأصبح الطريق إلى قصر قرطبة مفتوحاً في وجه كل مغامر جريء.

ونحن لا نستطيع تحديد الفترة التي وضع فيها عليٌّ بن حمود مخططه للقفز على الأندلس، لأنه لا توجد لدينا معلومات دقيقة عن ذلك، بل إن المعلومات تنقصنا حتى فيما يتعلق بحياة هذا الأمير المغمور الذي سيستولي على مقاليد الخلافة في الأندلس، فنحن لا نعرف، أين ومتى ولد، وماذا كان يفعل قبل ثورة البربر، وقبل أن يعينه سليمان المستعين بالله قائداً لفرقة العلوية في جيشه، ولكننا، إذا اعتمدنا ما ذكره ابن الأثير[1] من أن عليًّ بن حمود مات (في سنة 408 هـ) وكان عمره 47 سنة فإن من السهل أن نستنتج إنه ولد في سنة 361، أي قبل اشتعال نيران حروب ابن كنون والحكم بسنة واحدة، وهذا الاستنتاج يسمح لنا باستنتاج آخر يقرب من الجزم، وهو أن علياً ولد في الأرض المغربية، وليس في الأندلس، أو في المشرق، حيث إن الآدارسة لم يكونوا قد هاجروا بعد إلى عدوة الأندلس.

ونفس الاستنتاج يصدق بصفة خاصة، على شقيق علي، القاسم بن حمود الذي يكبره بعشر سنوات.

وفيما عدا ذلك تبقى أمامنا فجوات واسعة في حياة الخليفتين لا سبيل إلى ملئها. هل كان الشقيقان من بين الادارسة الذين أجلاهم الحكم إلى المشرق، أم ظلوا في الأندلس؟ هل عادا إلى العدوة في فترة أو أخرى، وكم أقاموا بالمغرب؟

تلك وغيرها أسئلة لا يمكن الجواب عنها على ضوء المعلومات التي بين أيدينا، وما ذكره ابن الخطيب من أن علياً «كان من جملة أمراء المغاربة المترسمين في ديوان بني أمية بقرطبة»[2] لا يفيدنا كثيراً، مع الأسف، حيث أن

---

(1) الكامل (273/9).

(2) أعلام الأعلام (الجزء الخاص بالأندلس، ص 128).

جميع الأمراء الادارسة كما رأينا، كانوا مترسمين أو محتمين بقصر قرطبة، قبل أن ينكبهم الحكم المستنصر بالله.

ومهما يكن من أمر، فإن علي بن حمود لم يكد يستقر في العدوة بين قومه وانصاره حتى أخذ يعمل للاستقلال عن قرطبة ويدعّم حكمه الشخصي. وهذا الاتجاه، لم يكن ليرضي الخليفة الذي يبدو انه بث حوله العيون والجواسيس بين رجاله وأعوانه، وقد كان من بين من وجه إليهم علي تهمة التجسس لحساب قرطبة، قاضي سبتة، محمد بن عيسى وشخصية أخرى، وأحد فقهاء المدينة، اسمه ابن يربوع وقد أمر بهما فقتلا في سنة 404 هـ[1].

وقبل أن يقوم بتنفيذ مخططه في القفز على الأندلس، خاطب أخاه القاسم في ذلك، وكان يقيم في قرطبة، فهرب واحتل الجزيرة الخضراء، ثم أعلن خلع طاعة سليمان، مستغلاً ما كان يواجهه من الاضطرابات والقلاقل، خصوصاً، من الفتيان العامريين.

فقد كان هؤلاء يعارضون البربر وغير راضين عن حكم سليمان منذ البداية، وقد وقفوا في وجهه بالسلاح، ولما هزمهم سليمان وتتبعهم البربر، نجا منهم فتى يسمى خيران العامري بعدما أصيب بعدة جراحات وتُرِكَ على إنه ميت[2]. وعندما عاد إليه وعيه، تحامل على نفسه وقام يمشي حتى أخذه رجل من البربر إلى داره بقرطبة سراً وعالجه فبرىء، ثم أعطاه مالاً وسرّحه إلى شرق الأندلس[3]. وهناك كثر جمعه وقويت شوكته وقاتل من كان هناك من البربر وملك المرية[4] وجمع جيشاً كبيراً تمكن به من الاستيلاء على إمارات البربر

(1) البيان (115/3).

(2) الكامل (270/9).

(3) تقسيم الأندلس إلى متوسطة وشرق وغرب شائع بني الكتاب الأندلسيين منذ القدم، ويقصد بالمنطقة المتوسطة، لا تلك التي تقع في وسط الجزيرة، بل المنطقة التي تتوسط ما كان يملكه المسلمون من الأندلس، وقرطبة تقع في قلب هذه المنطقة.

(4) Almeria مدينة أندلسية محدثة بناها عبد الرحمن الناصر في سنة 344 هـ وقد وصفها عبد المنعم الحميري بأنها «اليوم أشهر مراسي الأندلس وأعمرها ومن أجلّ أمصارها وأشهرها. عليها سور حصين منيع بناه أمير المؤمنين عبد الرحمن، وعلى ربضها المعروف بالمصلي سور تراب بناه خيران العامري»، صفة جزيرة الأندلس (ص 183 — 184) وهذا الوصف، أو على الأقل، ما يتصل =

المجاورة. وكذلك راح خيران يخطب لهشام المؤيد الذي عرفنا مأساته، على منابر البلاد التي استولى عليها.

وفي هذه المرحلة وقعت اتصالات بين علي بن حمود وخيران العامري، وفي أحد كتبه إلى خيران ذكر الإدريسي الذي قرر الآن القفز على الأندلس ان هشاماً المؤيد كتب له بولاية العهد والأخذ بثاره، إن قتل.

ويقول ابن عذاري، نقلاً عن المظفري انه (علي) أخرج كتاباً نسبه إلى هشام بن الحكم يقول فيه:

«أنقذني من أسر البربر والمستعين (بالله) وأنت ولي عهدي، انهض إلى مالقة وبها يتم أمرنا»[1].

ولكن المقرّي يحدثنا عن ولاية العهد المزعومة بصيغة أخرى إذ يقول:

«وبلغ هشاماً المؤيد، وهو محبوس، خبره (علي) فدسَّ إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: إن خاطري يحدثني ان هذا الرجل (يعني سليمان) يقتلني. فإن فعل فخذ بثأري، وكان هذا هو الأمر الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة، وحمله على الأخذ بثأر هشام، فكان المؤيد أحد منَ أخذ بثأره بعد موته...»[2].

وكلمة «نسبه إلى هشام» هي التي يستعملها ابن الخطيب أيضاً في سياق الحديث عن كتاب ولاية العهد الذي اتخذه علي ذريعة للثورة على سليمان[3]، وهي عبارة تنطوي على الشك وتوحي بأن الإدريسي كان يريدُ أن يستعمل مصير

= منه بحالة المرية في عهد المرابطين قد نقله عن الإدريسي الذي يقول إنها كانت في أيام الملثم «مدينة السلام» وإنه كان بها من الصناعات كل غريبة، حيث «كان بها من طرز الحرير 800 طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني والستور المكللة والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير» وذلك بالإضافة إلى آلات الحديد والنحاس وغير ذلك، المغرب وأرض الأندلس (ص 197)، راجع أيضاً معجم البلدان (5/119 — 120) الحلل السندسية (الفهرست) الحلة السيراء (الفهرست).

(1) البيان (3/115).

(2) نفح الطيب (1/482 — 483).

(3) أعمال الأعلام (ص 121).

آخر الخلفاء الأمويين ليسبغ على ثورته رداء من الشرعية[1]. على إن الشكوك التي تساورنا بشأن قضية ولاية العهد تخف نوعاً ما، حين نقرأ صيغة التأكيد التي عرضها فيها ابن بسام، وهو الناقد الممحص الصارم، إذ يقول:

«إن هشاماً عند ما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته، بما مني به من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه وقيامهم واحداً في خلعه، صيَّر إلى علي بن حمود ولاية عهده وأوصى بالخلافة من بعده، وراسله بذلك إلى سبتة أيام تردده عليها بمعنى الاستعداد وجمع طوائف البربر للجهاد، وولاه طلب ذحله[2] واستكتمه السرَّ فيه إلى اوانه وبلوغه، هائجاً للحفاظ القرشية ومحركاً للطوائل[3] الطالبية، فرماهم يومئذٍ من علي هذا بثالثة الأثافي، طوى كشحه منها على مستكنة أرجأها لوقتها»[4].

وبينما كان علي بن حمود يجند الجيوش ويجمع الأنصار للوثوب على قرطبة، حاول ثائر آخر أن يسبقه إلى دفة الحكم. فقد خرج على سليمان رجل من بني أمية اسمه عبد الله ويعرف بالمعطي وكان ذا علم غزير وثقافة واسعة.

كان المعطي بقرطبة ثم سار على رأس جموع كبيرة إلى مجاهد

---

(1) سبق ان عرفنا ان هشام بن الحكم، قد ولى عهده لعبد الرحمن بن الناصر بن أبي عامر، وان ذلك كان بداية الفتنة، وتوليته العهد لعلي في الظروف التي كان يعيش فيها في حبس سليمان والتي كانت من الشدة بحيث كان يعتبر ميتاً، أمر من الصعب قبوله. والنظرية الأساسية التي تقوم عليها ثورة علي بن حمود، هي انه يريد الأخذ بثأر هشام ويخلفه في الحكم، ولكن العامريين، وفي مقدمتهم خيران الذي يقيم خطبة الجمعة باسم هشام المؤيد في مملكته، كانوا على العكس، يعتقدون ان هشاماً حي يرزق. وكذلك كان عليهم أن يتظاهروا بتصديق قصة ولاية العهد حتى يستعينوا بقوة بني حمود للإطاحة بحكم سليمان. والذي يبدو لنا هو أن كلا الجانبين كان يحاول أن يستغل الآخر للوصول إلى الحكم، وقد نجح هذا التحالف في المرحلة الأولى التي تم فيها القضاء على نظام سليمان، ولكنه بعد ذلك تحولت المناورة إلى خصام ونزاع بين الأدارسة والعامريين حينما أصبحت المسألة، مسألة من يتولى الحكم.

(2) دمه

(3) جمع طائلة: العداوة

(4) الذخيرة المجلد الأول من القسم الأول، (ص 26).

العامري[1]، في سنة 404 هـ، بعد ما استولى على مدينة دانية[2]، وكان لا يدعو لأحد، ولما اجتمع بمجاهد قرروا تسميته خليفة وسموه أمير المؤمنين، وكانوا يصدرون عن رأيه.

وبعدما قام المعطي مع أنصاره نحو خمسة أشهر في دانية مع مجاهد العامري، سار في رفقة مجاهد إلى ميورقة وأقلعوا منها على رأس أسطول يتكون من مائة وعشرين قطعة وفتح مجاهد به سردانية.

وعندما بلغت سليمان أخبار هذه الثورة وان مجاهداً أقام خليفة عليه، استعظم الأمر، ولكنه لمّا عرف خبر ثورة علي بن حمود، أسقط في يده وأدرك مدى ما بلغه نظامه من الضعف والتفكك.

ومهما يكن من أمر، فقد راح خيران يكاتب الناس ويأمرهم بالخروج

---

(1) انظر نبذة عن حياة مجاهد العامري في المغرب (2/401 — 402)، نفح الطيب (الفهرست) بغية الملتمس (ص 457 — 459)، ومجاهد هو الذي يعرف بأبي الجيش وتسمية الرواية الأوربية، Mustt, Mugeto، وفي مجاهد العامري يقول أبو بكر محمد بن قاسم أشكهباط:

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد ... وكم أبصرت عيني وكم سمعت أذني
ولاقيت من دهري صروف خطوبه ... كما جرت النكباء في معطف الغصن.

(2) Dania مدينة تقع في الناحية الشمالية من كورة ألقنت الإسبانية، أنشئت في القرن السادس قبل الميلاد، اتخذت عدة أسماء قبل أن تعرف في العهد الروماني باسم Dianium (أي مدينة الإلهة ديانا)، ثم سماها العرب دانية، عرفت دانية ازدهار كبيراً في عهد الرومان ولكنها بلغت أوج عظمتها في العصر العربي حيث بلغ عدد سكانها في بداية هذا العهد 50 ألف نسمة، وصفها الإدريسي بأنها، «مدينة حسنة لها ربض عامر وعليها سور حصين... وهي على عمارة متصلة وشجرات تين كثيرة وكروم» الإدريسي (ص 192 — 193). وهذا هو الوصف الذي نقله عنه صاحب الروض المعطار في صفة جزيرة الأندلس (ص 76)، ويضيف ياقوت ان دانية «هي قاعدة أبي الجيش، مجاهد العامري، وأهلها أقرأ الناس بالأندلس، لأن مجاهداً كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق عليهم الأموال». معجم البلدان (2/434)، وتحدث ابن سعيد عن دانية فقال إنها «مدينة مشهورة عظيمة الذكر، عظيمة القدر وكثرت إليها الأسفار وشدت نحوها الرحال من الأقطار وامتلأت بالعلماء والشعراء والكتاب...» المغرب (2/400)، راجع أيضاً كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 167) مراصد الاطلاع (2/510) العبر (4/164) وكذلك:

Roque Chabas: Historia de la Guidad de Dania (في مجلدين)

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (IV/48, 304)

على سليمان، فاستجاب إليه جماعة من الشخصيات، وفي مقدمتهم عامر بن فتوح، وزير المؤيد الذي كان بمالقة[1]، وكاتبوا علي بن حمود، وهو بسبتة، ليعبر إليهم ليسيروا معه إلى قرطبة، فعبر إليها على رأس جيشه في سنة 405 هـ.

ولما وصل إلى مالقة تنازل له عنها عامر بن فتوح وسلم إليه مقاليد المدينة، ودعا له بولاية العهد، ثم سار خيران ومن أجابه إليه فاجتمعوا بالمنكَّب[2] التي تقع بين المرية ومالقة في سنة 406 هـ، وهناك قرروا الخطط العسكرية والسياسة التي ينتهجونها، ثم عاد كل منهم إلى مدينته ليتجهزوا بقصد الزحف على قرطبة.

وإثر ذلك، بايعوا علياً على طاعة هشام المؤيد،ثم ساروا إلى قرطبة.

ولما بلغوا غرناطة، انضم إليهم أميرها الصنهاجي على رأس قوات من البربر، وسارت هذه الجيوش في اتجاه قرطبة، وعندما اقتربت من عاصمته، خرج إليهم سليمان على رأس قوات من البربر ونشب قتال بين الفريقين في مكان يبعد عن قرطبة بعشرة فراسخ، انتهى بهزيمة سليمان والبربر الذين قتل منهم خلق كثير، وأخذ سليمان نفسه أسيراً وحمل ومعه أخوه وأبوه، الحكم بن سليمان، بن عبد الرحمن بن الناصر، ودخل علي قرطبة في المحرم سنة

---

(1) MALAGA مدينة من أعمال رية على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، وصفها الإدريسي (ص 200) بأنها «مدينة حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار متسعة الأقطار بهية كاملة، أسواقها عامرة ومتاجرها دائرة ونعمها كثيرة» وقال ابن سعيد في كتاب الجغرافيا إنها اشتهرت بالتين واللوز الذي يحمل منها إلى الأقطار (ص 140) وذكر عبد المنعم الحميري ان لها ربضين كبيرين وشرب أهلها من الآبار راجع صفة جزيرة الأندلس (ص 177 — 178) معجز البلدان (43/5) المغرب (1/421 وما والاها) الحلل السندسية (1 / الفهرست).

(2) المنكب تسمى حالياً ALMUNECAR، فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز غرناطة الإداري وتقع على مسافة 23 كيلو متر شرقي هذه المدينة، وصفها الإدريسي (ص 199) بأنها «مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك وبها فواكه جمة» وبهذا المرسى خرج عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس في ربيع سنة 138 هـ راجع صفة جزيرة الأندلس (ص 186) الحلة السيراء (348/2) الحلل السندسية (الفهرست).

407 هـ (يناير 1016م) ودخل معه خيران وغيره من حلفائه القصر، وكانوا يطمعون في أن يجدوا هشاماً المؤيد حياً ولكنهم لم يجدوه[1].

وبعد إتمام الترتيبات الضرورية، بويع علي بن حمود بالخلافة يوم الإثنين لسبع بقين من المحرم[2] ولم يتخلف أحد عن مبايعته، وقد جاءه الناس من كل صوب فكرم منازل الوافدين وأجمل خطابهم وتسمى ليومه من الألقاب السلطانية بلقب الناصر لدين الله، وهو لقب حمله قبله بالمشرق المتوكل العباسي (أبو أحمد)وحمله بعده بالأندلس أيضاً عبد الرحمن بن محمد.

كان أول ما اهتم به، أو تظاهر بالاهتمام به، علي بن حمود عند دخوله قصر قرطبة، هو معرفة مصير هشام البائس، فلما أبلغ انه قتل، طلب التوجه إلى قبره، وهناك أمر بنبش قبر رجل مدفون وجمع الناس حوله ثم أحضر بعض فتيان هشام، فعرض عليه الجثة، فعاينها وفتش أسنان الرجل (لأنه كانت للمؤيد سن سوداء) ثم صرح، هو وغيره، تحت تأثير الخوف من علي، بأن الجثة فعلاً هي جثة هشام المؤيد.

وبهذه الشهادة التي تدخل في مخطط علي بن حمود حذوك النعل بالنعل وتطلق ريحاً ملائمة لشراع مطامعه، اطمأن هذا الأمير إلى أن الأندلس قد أسلمت له القياد فأمر بإعادة دفن الرجل في احتفال رسمي دعـي لحضوره الأقارب والأنصار.

وإثر ذلك، أحضر سليمان المستعين بالله فضرب عنقه صبراً، قائلاً بلهجته البربرية إنه «لا يقتل الزلطان إلا الزلطان»، ثم قطع رأس أخيه عبد

---

(1) اعتمدنا رواية ابن الأثير في سرد هذه الحوادث (الكامل .9 — 171) وهي أوفى من غيرها. ولكنه، مع ذلك يمكن مقارنتها بفائدة بالمصادرة التالية: أعمال الأعلام (ص 121) المعجب (ص 43 — 44) العبر (153/4) الذخيـرة (المجلد الأول القسم الأول ص 89) الحلة السيراء (6/2 — 7) البيان (119/3 — 121) الجذوة (ص 17).

(2) روايةابن بسام. وفي البيان: يوم الأحد لثمان بقين من المحرم. وفي الجذوة: يوم الأحد لتسع بقين من المحرم، وأما ابن الأبار وابن الأثير، فإنهما لا يذكران تاريخ البيعة ولكنهما يحددان تاريخ قتل علي لسليمان في 7 من المحرم، وهذه أيضاً رواية الضبي.

الرحمن، ثم استدعى أباهما، الحكم، وهو شيخ يتجاوز عمره السبعين، فلما عاين مقتل ابنيه، قال له علي:

ـ «أهكذا يا شيخ، قتلتم هشاماً؟» فأجاب الشيخ قائلاً::

ـ «لا والله ما قتلناه، ولا هو إلا حي يرزق».

وعندئذٍ عاجله علي بضربة بسيفه[1].

وبعدما أتم فعلته الشنيعة أبي إلا أن يمثل بجثث ضحايـاه، فقطع رؤوسهم وأمر بوضعها في طشت وأخرجها مع منادٍ لينادي: «هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد».

ولما أعيدت إليه الرؤوس الثلاثة، نظفت وطيبت ووضعت مع رؤوس كبار القتلى في المعركة مع البربر، وعلق في أذن كل رأس منها رقعة فيها اسم صاحبها، وراح الخليفة يحملها معه من محلة إلى محلة...

وعند هذا الحد، كان علي يعتقد انه تخلص نهائياً من أعدائه ومنافسيه على كرسي الحكم، ولكنه نسـي أصدقاءه، أو بالأحرى أصدقاءه السابقين..

وفي مقدمة هؤلاء خيران العامري الذي استقدمه وساعده حتى النصر.

فإن الفتى العامري لما دخل قصر قرطبة منتصراً مع علي ابن حمود وعلم بموت هشام المؤيد، أسقط في يده وأدرك بحكم التجربة ان رأسه ستكون الرأس التالية في قائمة الضحايا، ولذلك تسلل وخرج من قرطبة وعاد إلى إمارته ليبحث... عمن هو أصلح من علي للخلافة. وقد دله بحثه بين بقايا بني أمية على عبدالرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر الأموي[2] وكان قد خرج من قرطبة مستخفياً ونزل بجيان فبايعـه خيران وأنصاره بالخلافة ولقبوه المرتضى.

---

(1) هذه هي الرواية الشائعة، وفي رواية أخرى نقلها ابن عذاري عن الرقيق (البيان 3/117) ان علياً لما دخل القصر بعث سليمان بأن يحضر هشاماً فقال له إن هشاماً قتله ابني محمد مع الوزير أحمد بن يوسف بن الدب.

(2) راجع سيرته في المعجب (ص 49) الكامل (9/272) جمهرة أنساب العرب (ص 93) البيان (3/21) وفيه ان جده اسمه «عبد الله» وليس «عبد الملك» الذخيرة (المجلد الأول من القسم الأول 397) المغرب (2/106 هامش 1) نفح الطيب (1/430).

كان المرتضى هذا إلى جانب نزعته العصنرية المروانية، يمتاز خصوصاً بكرهه الشديد للبربر، ومن شعره السياسي الذي يعبر عن نزعته هذه قوله:

قد بلغ البربر فينا بنا ما أفسد الأحوال والنظما
كالسهم للطائر لولا الذي فيه من الريش لما أصما
قوموا بنا في شأنهم قومة نزيل عنا العار والرغما
أما بما نملك أولا نرى ما يرجع الطرف به أعمى

والقومة التي يتمناها المرتضى على البربر، هي التي تكفل خيران بإعداد الوسائل الضرورية لها، فراح يجمع له الأنصار والأعوان من الأندلسيين فراسل منذر بن يحيى التجيبي[1]. صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، وراسل أهل شاطبة[2] وبلنسية[3] وطرطوشة[4] وغيرها فأجابوا كلهم إلى بيعته والخلاف

(1) أبو الحكم ويلقب بالحاجب المنصور ذي الرئاستين، كان في بداية حياته جندياً بسيطاً ليس له سوى إلمام بالكتابة وترقى إلى القيادة في آخر عهد المنصور بن أبي عامر، ثم ولاه سليمان، كما رأينا، سرقسطة، فأحسن إدارة شؤونها فازدهر العلم والثقافة فيها بحيث كانت تنافس قرطبة. راجع سيرته في البيان (13/3 و175 و178) المغرب (435/2) الذخيرة (المجلد الأول من القسم الأول ص 152) أعمال الأعلام (الجزء الخاص بالأندلس، ص 231/226) نفح الطيب (الفهرست). الحلة السيراء (246/2).

(2) JATIVA مدينة في شرق الأندلس من أعمال بلنسية تقع على ارتفاع 500 قدم على مستوى البحر على سفح جبل، وقد اشتهرت شاطبة بصناعة الورق الذي كان يصدر منها إلى مختلف الأقطار، وقد وصفها الإدريسي بأنها «مدينة حسنة ولها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمناعة، ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير في معمور الأرض» المغرب وأرض السودان (ص 192) معجم البلدان (309/3 — 310) تقويم البلدان (ص 168) نفح الطيب (الفهرست) البيان (الفهرست) المغرب لابن سعيد (379/2 — 381) وكذلك، DOZY, (II/RECHRECHES 120 — 121).

(3) VALENCIA مدينة تقع في شرق الأندلس على مسافة أربع كيلو مترات من البحر في مستوى من الأرض، وصفها الإدريسي بأنها «عامرة القطر كثيرة التجار والعمارة وبها أسواق وتجارات وحط وإقلاع» المغرب وأرض الأندلس (ص 191 — 192). وقال عنها صاحب الروض المعطار إنها على نهر «والسفن تدخل نهرها، وسورها مبني بالحجر والطوابي... وهي من أمصار الأندلس الموصوفة وحواضرها المقدمة» صفة جزيرة الأندلس (ص 47 — 55) راجع أيضاً الحلة السيراء (الفهرست) المغرب لابن سعيد (297/2 — 301 و307 — 309) معجم البلدان (490/1 — 491) وكذلك، DOZY, HISTOIRE DES MUSULMANS D'ESPAGNE, (الفهرست).

(4) TORTOSA مدينة أندلسية تقع على الضفة اليسرى لنهر أبرة غير بعيد من دلتاه على مسافة 115 =

على علي بن حمود، «فاتفق عليه أكثر أهل الأندلس واجتمعوا بموضع يعرف بالرياحين في عيد الأضحى سنة 408 هـ، ومعهم الفقهاء والشيوخ وجعلوا الخلافة شورى واتفقوا على بيعة المرتضى»[1].

ولكنه في الوقت الذي كان فيه خيران وخليفته الأموي يعملان بجد واجتهاد لقلب نظام حكمه لأنه كان يقوم على أكتاف البربر، كان هو (علي ابن حمود) يضطهد البربر الذين تحت حكمه، ويفرض عليهم ألواناً من القهر والتعسف بحجة أنهم كانوا سند سليمان ابن الحكم، متناسياً ان البربر كانوا أيضاً عمدة أجداده الادارسة في العدوة (المغرب)، بل وفي مسيرته العسكرية أيضاً من سبتة عبر مالقة، حتى قرطبة.

وفي السياق يقول ابْن بسام:

«ولما صارت لعلي ابن حمود الخلافة تقدم من القهر للناس بالغلبة والإرهاب لهم بما خامر القلوب من هول سيطرته، ولاسيما برابرة العسكر لما أحل بهم من الذل والقتل وقادهم قود الإبل المخطومة وأعدى عليهم الخصوم، حتى صار أقل الرعية يدفع أعتاهم إلى الحكم بما شاء من وجوه الدعاوى، فتجري عليهم الأحكام»[2].

ويروي نفس المؤلف، ضمن ما يرويه مما كان يجري في مجلسه من مباشرة إقامة الحدود، انه قدم إليه ذات يوم عصابة (جماعة) من البربر الأكابر، فأمر بهم وضربت أعناقهم «وعشائرهم ينظرون خِفْوة لا ينبسون ولا يجسرون بشفاعة».

= ميل من بلنسية و150 ميل من برشلونة. وهي قصبة ولاية طركونة، وصفها الادريسي بأنها مدينة صغيرة متحضرة ولها أسوار منيعة، راجع وصفها في صفة جزيرة الأندلس (ص 124 — 125) الإدريسي (ص 191) الحلة السيراء (الفهرست) المغرب لابن سعيد (2/421 — 423) نفح الطيب (الفهرست) معجم البلدان (4/30 — 31) وكذلك، ALMANY BOLUFER (J). LA PENINSU- LA Ibirice en los escritores arabes 1921 طبع غرناطة (98 — 97 .P).

(1) الكامل (9/273).

(2) الذخيرة (المجلد الأول من القسم الأول، ص 79).

وذات يوم خرج علي بن حمود فالتقى بفارس من البربر وقدامه حمل عنب فاستوقفه وقال له: «من أين لك هذا العنب؟» قال: «أخذته كما يأخذ الناس»، فأمر به فضربت عنقه ووضع رأسه وسط حمل العنب وطيف به في المدينة[1].

وبمثل هذه الإجراءات التعسفية ضد البربر من بني عمومته، فتن علي ابن حمود أهل قرطبة الذين أصبحت عداوة العنصر البربري عندهم مذهباً سياسياً وتقليداً متعباً.

ولكنه فيما عدا سياسته البربرية وأعماله الوحشية، كان عهد علي بن حمود عهداً نادر المثال في استتباب الأمن وفي ازدهار التجارة، وعموم الرخاء ورخص الأسعار بحيث «راح الناس يتفننون في الأغذية ويطلبون النسل»[2].

وكذلك فسح هذا الخليفة المجال لحرية الرأي وتباري المذاهب والنحل، بحيث كان المذهب الذي له السيادة في عهده، هو مذهب المعتزلة[3].

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها علي بن حمود بعد توليه، انه أعاد رسم القضاء الذي كان معطلاً خلال ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر في خلافة سليمان بن الحكم في قرطبة، وأحيا القضاء بأن ولاه الفقيه عبد الرحمن بن بشر[4] الذي استمر في شغل هذا المنصب بعد مقتل علي، فأبقى عليه أخوه القاسم وابنه يحيى (المعتلي بالله).

---

(1) نفس المصدر (ص 80).

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر.

(4) هو عبد الرحمن بن بشر بن أبو المطرف المعروف بابن الحصّار، لأن أباه كان حصاراً. كان ابن بشر فقيهاً محدثاً وعالماً ماهراً في شؤون الحكومة «لا يعدله أحد من أهل زمانه في التوثيق واستنباط النوازل» مع حلاوة اللفظ وحسن الخط، كما يقول عنهُ ابن سعيد. وإلى عبد الرحمن ابن بشر وجه محمد ابن حزم قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكري النهب =

وكذلك كان علي بن حمود الناصر، على عجمته البربريةوغلظته، يشجع الأدب ويصغي إلى مدح الشعراء ويصلهم بالعطاء، وقد مدحه عدد كبير من شعراء الأندلس ولكن اثنين كانا من أبلغهم وأعظمهم كانـا مختصين به، وهؤلاء هم: ابن الحنَّاط القرطبي[1] ومن قصائده في مدحه قصيدة مطلعها:

راحت تـذكـر بـالنسيم الـراحـا   وطفـاء تكسر للجنـوح جنـاحـا
أخفىَ مسالكها الطلاع فأوقدت   من برقها كي تهتـدي مصباحـا

والشاعر الثاني الذي اصطفاه علي بن حـمود واختص به، هو عبادة بن ماء السماء[2] الذي كان معروفاً بالتشيع، وهو الذي يقول في مدحه:

أبوكم علي كان بالشرق بدء ما   ورثتم وذا بـالـغـرب سميُّـه
فصلوا عليـه أجمعـون وسلمـوا   لـه الأمـر إذ ولاه فيكم وليـه

= وقد كان ابن بشر يعتز بعلمه ورأيه بحيث انه رفض القضاء حتى هدده علي بن حمود ولم يقبله إلا بعدما سلمه العهد بيده، وقد ولي القضاء في صدر سنة 407 هـ وظل فيه حتى سنة 419 هـ حين عزله المعتمد بسعايات ومطالبات، وقد توفي في سنة 422 هـ، راجع ترجمته في الشذرات لابن العماد (223/3) الديباج لابن فرحون (ص 149) تاريخ قضاة الأندلس للنباهي المالقي (ص 87 وما بعدها) المغرب لابن سعيد (158/1) نفح الطيب (81/2) الصلة لابن بشكوال (ص 319 — 321).

(1) هو محمد بن سليمان بن الحنَّاط الرعيني الأعمى، كان أبوه يبيع الحنطة بقرطبة، ولما مات تعهد بتربية ابنه وتثقيفه بنو ذكوان، وقد توفي في سنة 437 هـ بالجزيرة الخضراء. ترجم له ابن بسام في الذخيرة (المجلد الأول من القسم الأول، ص 383) والجذوة (ص 53) بغية الملتمس (رقم 24، ص 67) المغرب لابن سعيد (121/1 — 122) الصلة لابن بشكوال (ص 640) التكملة لابن الأبار (ص 387) نفح الطيب (483/1).

(2) عـبـادة بـن ماء السماء من ولد سعد ابن عبادة، صاحب رسول الله (ص)، اشتهر خصوصاً بالموشحات وألف كتاباً فـي «أخبار شعراء الأندلس» لم يصلنا، وقد كان على رأس شعراء المائة الرابعة في عهد المنصور بن أبي عامر، وهو غير عبادة المعروف بابن القزاز والمشهور أيضاً بالموشحات، فإن ابن ماء السماء مات في مالقة في سنة 422 هـ، بينما كان ابن القزاز حياً في عهد ابن صمادح، راجع ترجمة ابن ماء السماء في فوات الوفيات (199/1) جذوة المقتبس (ص 274) الصلة لابن بشكوال (ص 443) الذخيرة المجلد الثاني من القسم الأول، (ص 1) الحلة السيراء (83/2) نفح الطيب (الفهرست) المغرب (115/1).

وكذلك مدح الناصر أحمدُ بن محمد بن دراج القسطلي[1] الذي يقول فيه :

لعلك يا شمس عند الأصيل شجيت لشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي لابن الشفيع وكوني رسولي لابن الرسول

* * *

استمرت العلاقات الحسنة بين أهل قرطبة وعلي بن حمود مدة نحو ثمانية أشهر بسبب سياسته نحو البربر من جهة، ولأنهم كانوا في حاجة إلى فترة استراحة من ثوراتهم من جهة أخرى، ولكن الخليفة لم يلبث ان شعر بتحول في نفوس القرطبيين عليه وأَنِسَ منهم الكراهية لنظامه.

هل كان هذا التحول لأسباب سياسية أو اقتصادية معقولة أم انه كان مجرد نزوة ورغبة طارئة في تجديد الحاكم؟ لا نستطيع تأكيد شيء في ذلك.

وقد صادف ان الفترة التي فقد فيها علي الثقة بسكان قرطبة هي التي ازداد فيها ضغط العامريين وخليفتهم المرتضى، في شرق الأندلس، وفي هذه الحالة ليست المسألة مسألة جمع الجيوش للزحف على المرتضى، بل هي مسألة الدفاع عن قرطبة نفسها. ماذا يفعل؟ أيجلو عنها ويترك القرطبيين وشأنهم لخليفة أموي جديدة؟ ذلك ليس بالحل.

خطر له في البداية أن يبيد أهل قرطبة عن آخرهم ويجلو عنها بحيث لا يعود للأئمة المروانيين سلطان عليها آخر الدهر، ثم يعود إلى الشواطىء ويجمع شمل البربر الذين شتتهم شذر مذر ويستولي بهم على جميع الأندلس،

---

(1) هو أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي (أبو عمر) من أهل قسطلة دراج (cacella حالياً)، كان شاعر المنصور ابن أبي عامر، راجع سيرته في الذخيرة (المجلد الأول من القسم الأول ص 43) النجوم الزاهرة (4/272) بغية الملتمس (147) الصلة (ص 42) الجذوة (102 — 106) يتيمة الدهر (1/438 — 450) نفح الطيب (الفهرست).

كما حاول ذلك من قبل ولي نعمته وضحيته سليمان بن الحكم، ولكنه عدل عن هذه الفكرة التي تنطوي على عدد من العوامل المجهولة، وليس أقلها شأناً إرادة البربر أو عدم إرادتهم السير وراءه بعد ما لحقهم منه.

ومهما يكن من أمر، فقد اكتفى بتغيير سياسته نحو البربر فانصرف عن أهل قرطبة وتحول إلى البربر وآثرهم وأغضى على مساوئهم بقدر ما كان يضطهدهم وينكي بهم في السابق، وكذلك راح علي يصبّ الآن على أهل قرطبة ضروباً من التنكيل ويفرض عليهم مغارم فادحة وينتزع أسلحتهم بل ويهدم دور من يرى ضرورة هدم دورهم، كما كان يهين أعيانهم بتسليط الأشرار عليهم، واقتداء بالخليفة، أحجم الحكام والقضاة عن انصافهم[1].

وبذلك انفتحت أبواب البلايا على مصراعيها، فتقرب الناس إلى الخليفة بالوشاية والسعاية، بحيث صار شطر الناس أشراطاً على سائرهم، كما يقول ابن بسام الذي يضيف:

«وقلما تلقى أحداً منهم إلا بموكل عليه، فأظلمت الدنيا وأبلس أهلها وغشيهم من أمر الله ما غشيهم، فلزموا البيوت وتطمروا في بطون الأرض حتى قل بالنهار ظهورهم وخلت الأسواق، فإذا أذن المساء، وكفّ الطلب عنهم، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم[2]».

وقد امتحن بصفة خاصة أولئك الأعيان الذين خدموا سليمان ابن الحكم، أو كانت لهم حظوة عنده، فاعتقلوا وصودرت أموالهم وامتهن بعضهم بالضرب.

ومن بين الشخصيات التي تعرضت لامتحان علي بن حمود واضطهاده، أبو الحزم بن جوهر وأحمد بن برد الأكبر وغيرهما.

ولما اشتدت وطأته وأثقلته الأوزار، أجمع أهل قرطبة على بغضه والتقت عليه الأكف، «فسلط الله عليه أضعف خلقه صبياناً أغماراً من صقالبة بني

---

(1) الذخيرة (81/1/1).

(2) نفس المصدر.

مروان، كانوا أقرب الناس إليه وأدناهم إلى حرمته، وأحقرهم في عينيه، جسروا على الوثوب عليه في موضع أمنه، في حمام قصره»[1].

ففي ذي القعدة سنة 408 هـ تجهز علي بن حمود للمسير إلى جيان لقتال من كان بها من عسكر خيران، فلما كان الثامن والعشرون منه برزت الجيوش إلى ظاهر قرطبة بالبنود والطبول ووقفت تنتظر خروجه، وكان قد دخل الحمام ومعه ثلاثة صبيان رفقاء، فيهم وصيف حسن جميل الوجه والآخر لبيب والثالث غريب الأطوار، وبمجرد دخوله الحمام ابتدره منجح بكوب نحاس ثقيل صبه على رأسه فشجّه، فغشي عليه، ونادى صاحبيه وانهالوا عليه بالخناجر حتى فاضت روحه، فتسللوا وصعدوا إلى سقف بعض القصور وكمنوا في مخاب هناك كانوا يعرفونها، فلم يشعر بوجودهم أحد.

ولما استطال نساؤه بقاءه في الحمام، دخلن عليه، فلم يرعهن إلا مسيل دمه، وهو قتيل ممزق الإهاب.

وإثر ذلك شاع خبر الفتك به وتفرقت جيوشه، وابتهل الناس بالشكر لله.

ثم اجتمع البربر من زناتة وغيرهم ووجهوا الدعوة إلى أخيه القاسم، صاحب إشبيلية يومئذٍ، فوجه من طرفه رسولاً إلى قرطبة ليقف على الأمر ويتأكد من أن الأمر لم يكن مجرد خدعة من أخيه للإيقاع به، فلما تيقن الرسول من حقيقة الأمر، انكفأ إلى القاسم وأخبره بجليته، فقصد القاسم إلى قرطبة، حيث تولى الصلاة بنفسه على جسد أخيه وأنفذه إلى سبتة. موطنهما، ليدفن هنالك[2].

كان علي بن حمود، الناصر، أسمر أعين الكحل خفيف الجسم طويل القامة. وإلى جانب خصاله الأخرى، حازماً عادلاً ما لم تدفعه ضرورات السياسة إلى الظلم، كما كان سخياً شجاعاً، وقد دامت خلافته من يوم قتل سليمان بن الحكم حتى لقي مصرعه، 21 شهراً، وسبعة أيام.

---

(1) نفس المصدر (82/1/1).

(2) قارن عن مقتل علي بن حمود البيان (22/3) المعجب (ص 50) الكامل (273/9) الذخيرة (83/1/1) الجذوة (ص 22).

خلافة القاسم بن حمود (المأمون) الحسني

بعدما صلى القاسم بن حمود (أبو محمد) على شقيقه، علي (الناصر) ودفنه، بويع بالخلافة في قصر قرطبة في يوم الثلاثاء لأربع خلون من ذي القعدة[1] سنة 408 هـ. (مارس 1018م)، وكان ذلك في اليوم السادس من وفاة أخيه، وتلقب المأمون، وأحسن استقبال الناس، ثم أجرى تحقيقاً في جريمة قتل أخيه وأمر بقتل المعتدين بعدما تأكد من عدم وجود أية مؤامرة أو تواطؤ، ثم أخرج إلى الأقطار من ينادي بالأمان وبراءة الذمة (وهو ما يشبه إصدار عفو عام) وأقر القضاة والحكام في مناصبهم، وبذلك تنفس الناس الصعداء واطمأنت بهم الديار، مستبشرين بالعهد الجديد.

ولكي يتخلص المأمون من الحلقة المفرغة التي كانت تدور فيها سياسة سليمان بن الحكم وسياسة أخيه علي، وهي الاعتماد على البربر، أو على أهل قرطبة من العرب، ولكي يأمن على ملكه من الطائفتين، اتخذ بطانته وحرسه من العبيد السود وأسند إلى بعضهم مراكز القيادة ومناصب الرئاسة.

ولكن هذه الإجراءات بدلاً من أن تدعِّم مركز المأمون وتضعه في وضع الحكم بين الطائفتين، كما كان يأمل، كان من نتائجها فرض عزلة على عرشه، فأسخط البربر والعرب معاً، ومالوا إلى احتقاره والاستهانة بشأنه، بعدما رأوه من تسلط السود على أجهزة الحكم في دولته.

وعبثاً حاول القاسم وقف عملية تفتت حكمه وتدهور سمعته

(1) رواية ابن عذاري، وفي الذخيرة إن البيعة وقعت يوم الأحد.

بالاستنجاد بعناصر أجنبية، فقد استعطف منذر ابن يحيى التجيبي الذي عرفنا انضواءه تحت لواء المرتضى في المناطق الشرقية منذ بداية عهد أخيه، بل إنه لم يتحرج، فيما يقول ابن الأثير[1] حتى من الكتابة إلى بعض الفتيان العامريين، وفي مقدمتهم زهير الذي أقطع له جيان وقلعة رباح[2]وبياسة[3]. ولكن هذه المساعي كلها كانت بدون نتيجة إيجابية.

وإثر ذلك حاول القاسم استمالة البربر، ولكنهم تثاقلوا عنه وفضلوا اتخاذ موقف التربص والتفرج على تطورات الأحداث.

والأحداث التي واجهها المأمون في السنة الأولى من حكمه كانت متعددة ومتنوعة. فإلى جانب الإجماع الذي كان يبدو من قبل مستحيلاً من العرب والبربر على معارضته والاستهانة بأمره، كان يوجد أيضاً نفوذ المرتضى المرواني الذي كان يزداد انتشاراً مع مرور الزمن، ولكن الأخطر من تلك المعارضة وذلك التهديد، هو قيام يحيى بن علي بن حمود بالمطالبة بعرش أبيه.

ففي الشرق كان خيران العامري (وهو رجل طموح وبدون مبدإ)، قد جمع كثيراً من الأنصار والجيوش وراء صنيعته، المرتضى الأموي، كما وعده النصراني صاحب برشلونة (حليف منذر بن يحيى) بمدِّه بالجنود والسير معه إلى قرطبة، وقد جمع جيوشاً كثيرة في مدينة شاطبة. وبينما كانوا يستعدون

---

(1) الكامل (9/273).

(2) مدينة تابعة لطليطلة في التقسيم الإداري الأندلسي، وقد كانت تشكل مع طلبيرة الحد الفاصل بين أراضي المسلمين وأراضي غير المسلمين، وصفها صاحب الروض المعطار بأنها «مدينة حسنة ولها حصون حصينة» صفة جزيرة الأندلس (ص 163). وهي تقع على ضفة وادي يانة، وقد سميت باسم علي بن رباح الذي اشترك في فتح الأندلس، راجع وصفها أيضاً في الإدريسي (ص 186 و 189) معجم البلدان (3/23) الحلة السيراء (2/177 — 178).

(3) من كبار مدن ولاية جيان وتسمى بالإسبانية Baez، وبينها وبين جيان عشرون ميلاً وصفها الإدريسي بأنها «مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وحولها زراعات، ومستغلات الزعفران بها كثيرة جداً» (ص 203)، وهو وصف نقله عنه صاحب الروض المعطار في وصف جزيرة الأندلس (ص 57 — 59) وأردفه بنبذة تاريخية مفيدة للغاية، راجع وصفها أيضاً في الحلة السيراء (2/253 — 254) معجم البلدان (1/518) نفح الطيب (الفهرست).

للزحف، بلغهم خبر مقتل علي بن حمود، وهو أمر من شأنه أن يزيد من تصميم خيران والمرتضى على القضاء على دولة بني حمود.

وفي سنة 409 هـ. زحف المرتضى القائم والعامريون على قرطبة، ولكن المتآمرين رأوا أن يبدأوا أولاً بالاستيلاء على غرناطة التي كان الزيريون أصحابها محافظين على ولائهم لبني حمود[1].

ولما وصلوا إلى جوار غرناطة، كتب المرتضى إلى أميرها، زاوي بن زيري الصنهاجي رسالة يدعوه فيها إلى طاعته ووعده بوعود جميلة، فلما قرئ الكتاب على زاوي، قال لكاتبه: «أكتب على ظهر رقعته: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» الخ. السورة، وعندما تسلم المرتضى الرد اغتاظ ووجه إلى زاوي كتاب تهديد ووعيد. ومرة أخرى، ردّ عليه بآية قرآنية: «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر».

وإثر ذلك هجم عليه المرتضى، وبعد قتال استمر بضعة أيام، وقع خلاف بين خيران الذي كان يريد أن يتخذ المرتضى مطية للوصول إلى أغراضه، والأموي الذي كان شجاعاً قوي العزيمة ويأبى إلا أن يمثل دور خليفة حقيقي، وكذلك تواطأ خيران مع حلفائه على خيانته كما خان سليمان وعلي بن حمود من قبل.

كان جيش المهاجمين يتكون من نحو 4000 فارس، بينما كان جيش زاوي لا يتجاوز عدده ألف فارس، ولكنه كان قوة حسنة التدريب والطاعة.

وكذلك تآمر خيران وأصحابه وانسحبوا من المعركة منهزمين، هم وحلفاؤهم من النصارى، وتركوا في المعمعة المرتضى الذي اضطر إلى الفرار ولحق به العامريون وقتلوه.

وبعد هذه المعركة ركدت ريح المروانيين وبدأ عهد اضطهادهم ومطاردة فلولهم وتشتيت شملهم في عرض البلاد، ودخلوا في غمار الناس وامتهنوا واستهينوا، كما حدث للأدارسة في المغرب قبل ذلك بنصف قرن[2].

---

(1) راجع معلومات أوفى عن حركة المرتضى الأموي (Dozy, Recherches (1/228 — 231.

(2) قارن البيان (126/3) الكامل (273/9) نفح الطيب (485/1).

وعقب هذه المعركة، كتب زاوي بن زيري إلى الخليفة المأمون في قرطبة يشرح له تفاصيلها ويخبره بنصيبه من الغنائم العظيمة التي فاز بها والتي كان من جملتها سرادق المرتضى العاثر الحظ، وقد بعث به وبحق بيت المال إلى القاسم، فرأى الخليفة أن يعطي هذا الانتصار ما يستحقه من الدعاية والإعلان عند أهل قرطبة، فضرب السرادق على نهر المدينة وغشيه المشاهدون من علية القوم.

وبمناسبة هذا النصر الذي لم يكن فيه يدٌ للقاسم في الحقيقة، يقول الرعيني الأعمى[1] الذي تقدم ذكره، يمدح المأمون ويذكر خيران وقتل المرتضى المرواني:

لك الخير خيران مضى لسبيله	وأصبح ملك الله في ابن رسوله
وفرق جمع الكفر واجتمع الورى	على ابن حبيب الله بعد خليله
وقام ولاء النصر فوق ممنّع	من العزّ جبريل أمام رعيله
وأشرقت الدنيا بنور خليفة	به لاح بدر الحق بعد أفوله
فلا تسأل الأيام عما أتت به	فمازالت الأيام تأتي بسوله
ولما دعا الشيطان في الخيل حزبه	وأقبل حزب الله فوق خيوله
كتائب صنهاجة وزناتة	تضايقن في عرض الفضاء وطوله
تقدم خيران إليها بزعمه	ليدرك ما قد فاته من دخوله

وأما زاوي بن زيري الذي حققت على يده الدولة الحمودية أعظم انتصاراتها، فبدلاً من أن يستقر في عاصمته، غرناطة، ويوسع رقعة نفوذه، فقد شعر بالانزعاج والقلق معتقداً ان المروانيين لن يخلدوا إلى الراحة بعد هذه الهزيمة، وانهم ولا ريب، سيجمعون شملهم ويعيدون الكرة؛ ولذلك فقد صمم على مغادرة الأندلس بعد أن استأذن من المعز بن باديس صاحب افريقية، وكذلك رحل عن غرناطة على متن عدد من السفن المشحونة بذخائره

(1) رواية ابن بسام (396/1/1) وأما صاحب نفح الطيب فيعزو القصيدة إلى عبادة بن ماء السماء (485/1)، وقد أوردها ابن عذاري في البيان (130/3) دون أن يعزوها إلى أحد.

وكنوزه التي من بينها الغنائم التي استولى عليها في معسكر المرتضى. ولما وصل إلى افريقية، أحسن المعز استقباله وأقره في دولته.

وأما القاسم، فقد استقر الأمر له ولأنصاره من البربر في مملكته بعد هذا النصر الذي كان بدون شك، أول من فوجىء به، ولكن هذه السحابة الطيبة لم تكد تنقشع حتى تلبّد الجو بالغيوم المنذرة بالعواصف في سمائه من جديد.

فإن ابن أخيه، يحيى بن علي[1] قد بايع القاسم بعد مقتل أبيه على مضض، لأنه كان يعتقد انه أولى بالعرش من عمه، ولكنه مع ذلك، قام بضبط أمور مالقة هو وأخوه إدريس، وأقاما ينتظران ريحاً ملائمة للانقضاض على قرطبة.

ولما اشتدت شوكة يحيى في العدوة وشوكة أخيه في مالقة، خلع طاعة عمه وكاتب كبار البربر في قرطبة يشكو من أن عمه قد أخذ ميراث أبيه (العرش)، وقال لهم إنه «قدم في ولايتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان؛ وأنا أطلب ميراثي وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس»[2].

فأجابه زعماء البربر، وجمع جيشاً وأسطولاً وجاز به إلى مالقة حيث كان أخوه إدريس في انتظاره.

وهناك كتب إليه خيران العامري ليعرض عليه تأييده، كما صنع مع أبيه من قبل، ويرشح نفسه لمكان الصدارة في الدولة التي يعتزم إقامتها مذكراً بسالف أعماله لمساعدة أبيه للوثوب إلى الحكم.

(1) اختلف في كنيته، فقيل «أبو زكريا» وقيل «أبو محمد» وقيل «أبو إسحاق» أمه هي بنت عم أبيه، واسمها ليونة بنت محمد بن الحسن ابن كنون، وبذلك يعتبر هاشمي الأبوين، وهي ميزة نادرة في سلالة الادارسة، راجع سيرته وأخباره في البيان (3/131 و 144 و 188) الكامل (9/273 و 279) الذخيرة (1/2/12) الجذوة (ص 23 و 24 و 28) أعمال الأعلام (القسم المتعلق بالأندلس) (ص 154) المعجب (50 — 54) الجمهرة (ص 45) وفيات الأعيان (5/22) نفح الطيب (الفهرست).

(2) نفح الطيب (6/396).

عبثاً حاول إدريس بن علي الذي يعرف بحكم وجوده في الأندلس خبايا هؤلاء الانتهازيين أن يقنعه بسوء طوية خيران، وأن يثنيه عن عزمه على الاستعانة بالعامريين، ولما قال له ان خيران رجل خداع، أجابه يحيى مراوغاً بقوله: «ونحن منخدعون فيها لا يضرنا»[1]. وبعبارة أخرى، فقد أراد أن يقول لأخيه إنه إذا لم يكسب شيئاً من تأييد خيران، فهو ليس لديه ما يفقده.

ذلك كان منطق ملوك الطوائف بصفة عامة، فهم يغامرون ولا يقامرون إلا برؤوس الرعية. والمهم هو الوصول إلى الحكم.

ولما شعر القاسم بقوة تهديد ابن أخيه وأدرك ان وضعه من الضعف بحيث لا يسمح له حتى بإقامة دفاع صوري عن مملكته، قرّر ترك القصر والعرش ومشاكل العرش، وفرّ ليلاً (ليلة السبت 28 ربيع الأول سنة 412 هـ.) في رفقة خمسة فرسان من أصحابه.

وهذا أقصى ما تطمح إليه أحلام ابن أخيه الذي لم يكلفه الاستيلاء على عرش قرطبة معركة، ولا حتى مشادة، وكذلك انتظر شهراً ثم سار في موكب الفاتحين إلى قرطبة حيث بايعه البربر والسودان أهل البلد بالخلافة في مستهل جمادى الأولى من السنة، وتسمى من الأسماء السلطانية بالمعتلي.

* * *

عرف يحيى بن علي الحمودي بخصال أهمها نقاوة نسبه، حيث كان هاشمي الأبوين، كما ذكرنا (وهي ميزة مهمة في ذلك العهد)، كما اشتهر أيضاً بولعه بركوب الخيل ورياضة القنص، ولكن المؤرخين يعزون إليه، على الأقل، خصله سلبية، وهي الغرور والكبرياء.

وعلى الصعيد السياسي، كان من بين الإجراءات الأولى الهامة التي اتخذها منذ تسلمه مقاليد الأمور في قرطبة، تنفيذ وعده للبربر بإسقاط مراتب السود الذين اتخذ منهم عمه العمود الفقري لدولته. وقد عمل على استرضاء

---

(1) نفس المصدر.

البربر الذين كانوا عونه وسنده، فوهب لهم المال والمناصب، ولكنه في نفس الوقت، عمل على تجنب العصبية وعلى تحقيق العدل والإنصاف؛ وبذلك ضمن لنفسه ولاء البربر وأهل قرطبة وأعمالها.

وبعد توليه الحكم مباشرة، عين يحيى عدداً من الشخصيات البارزة في مجال الفكر في الوظائف العليا، فجعل الكاتب والشاعر المعروف، أحمد بن برد كاتباً له[1] وقرب إليه من بين الشخصيات المغربية جعفر بن محمد بن فتح وأبا عمر موسى اليماني الرواق الذي ولاه خطة الوزارة. وقد كان جعفر بن فتح هو الذي أوصل ابراهيم بن الأفليلي[2] كبير أدباء قرطبة وصاحبه، بيحيى بن علي، ورغبه في الإحسان إليه وقد ارتفعت مرتبته لدى الخليفة.

---

(1) هو أحمد بن محمد بن أحمد (أبو حفص) المعروف بابن برد الأصغر. اشتهر أحمد بن برد في الكتابة والشعر والسياسة منذ عهد المنصور ابن أبي عامر الذي خدمه وخدم ابنه عبد الملك، وكان ابن برد هو الذي تولى تحرير وثيقة ولاية عهد هشام المؤيد لعبد الملك المظفر (راجع أعلاه ص . . .). وصفه صاحب المطمح بأنه «غذي بالأدب وعلا إلى أسمى الرتب، وما من أهل بيته إلا شاعر كاتب لازم لباب السلطان راتب. وهو بديع الإحسان بليغ الفكر واللسان مليح الكتابة فصيح الخطابة، مثقف المباني مرهف الحسام اليماني». وقال عنه ابن بسام إنه «فلك البلاغة الدائر ومثلها السائر» ويتميز أسلوب ابن برد في الكتابة بالالتجاء إلى السجع واستعمال المحسنات اللفظية، ونحن لم يصل إلينا كثير من نثره ولا من شعره، فيما عدا الاقتباسات التي أوردها المقري في نفح الطيب (1/424 و 3/ 292 و 293 و 545 و 5/601). ولابن برد الأصغر الذي توفي في سنة 418 هـ رسالة بعنوان «السيف والقلم» أوردها ابن بسام في الذخيرة (1/2/435) كما نسب إليه الحمّيدي، في الجذوة (ص 111) كتاباً في علوم القرآن، وذكر له ابن بسام (1/19) معاصره، كتاباً آخر بعنوان «سر الأدب وسبك الذهب»، ونقل عدة فقرات منه، راجع غير ما ذكر، معجم الأدباء (طبعة القاهرة لفريد رفاعي (5/41 — 43) بغية الملتمس (ص 153) المغرب لابن سعيد (1/86) الحلة السيراء (1/271) المطمح (ص 24).

(2) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكرياء بن مفرج الزهري المعروف بالأفليلي، من أئمة النحو واللغة، ولد في سنة 352 وتوفي في سنة 440 هـ. وصفه ابن حيان بأنه «بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان والضبط لغريب اللغة». روى عن أبي بكر الزبيدي كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، وقد ولي وزارة المستكفي بالأندلس وقد أخذ نسبته، الأفليلي، من قرية أفليل بالشام، وأصله منها. راجع ترجمته في وفيات الأعيان (1/51) الذخيرة (1/1/240)الصلة (ص 93) معجم الأدباء (طبع القاهرة 4/2) الجذوة (ص 142) بغية الملتمس (ص 199) بغية الوعاة للسيوطي (ص 186) شذرات الذهب (3/266) المغرب لابن سعيد (1/72 — 73).

وكذلك ارتفع في أيام دولة يحيى بن علي الأولى ذكر ابن ذكوان الذي كان يعيش أيامه الأخيرة[1]، ونال الشهرة أخوه، الشاعر أبو بكر بن ذكوان[2]، وكلاهما، فيما يقول ابن بسام قد عين في مناصب وزارية.

بذل يحيى بن علي مجهوداً كبيراً لتسيير دفة سفينة الحكم المضطربة في قرطبة، ولكن المعجزة الوحيدة التي استطاع تحقيقها في ذلك الجو المشحون بالمؤامرات والقلاقل، هو انه استطاع أن يبْقى على كرسي الخلافة سنة ونصف سنة.

فإن زناتة لم تقنع بما نالته من الحظوة والمال والمناصب في الوقت الذي تحسدها فيه قبائل أخرى من البربر وقطاعات أخرى من سكان قرطبة، وفي نفس الوقت فرّ السود الذين فقدوا ما كانوا يتمتعون به من الحظوة والنفوذ ولحقوا بسيدهم السابق، القاسم في إشبيلية.

---

(1) هو أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الأموي قاضي القضاة بقرطبة (ت سنة 413 هـ) أيام المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن. وقد اشترك في عدد من غزوات ابن أبي عامر كما كان من مستشاريه السياسيين المقربين، بحيث كانت منزلته فوق منزلة الوزراء، وهو أول من وقع على وثيقة تولية هشام المؤيد العهد لعبد الرحمن بن أبي عامر، وفي عهد عبد الرحمن، ولي ابن ذكوان الوزارة بالإضافة إلى منصب قاضي القضاة، وقد كانت تربطه بالشاعر ابن شهيد وشائج قوية من الصداقة، ولما توفي رثاه بقصيدة مطلعها:

ظننا الذي نادى محقاً بموته ... لعظم الذي انحى من الرزء كاذبا
وخلنا الصباح الطلق ليلاً وإننا ... هبطنا خداريا من الحزن كاذبا
ثكلنا الدنى لما استقل وإنما ... فقدناك يا خير البرية ناعبا
وما ذهبت إذ حل في القبر نفسه ... ولكنما الاسلام أدبر ذاهبا

راجع سيرة ابن ذكوان، قضاة الأندلس (ص 84-87) نفح الطيب (الفهرست) أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس (ص 49) بغية الملتمس (ص 174) الحلة السيراء (271/1) الذخيرة (15/2/1).

(2) هو أبو بكر محمد بن أبي العباس بن ذكوان، كما أورد اسمه ابن سعيد نقلاً عن ابن حيان، راجع ترجمته في الذخيرة (15/2/1) المغرب (70/1) الصلة (ص 34) قضاة الأندلس للنباهي (ص 84).

وصلات يحيى بن علي بملوك الطوائف الآخرين لم تكن أقل تعقيداً من علاقاته برعاياه الاسميين من البربر.

ولما أصبح الوضع لا يحتمل بالنسبة إليه وخشي أن يقبض عليه بعض جنود البربر فكر في الفرار من قرطبة، ومما عزز في نفسه هذا التصميم إن خيران العامري الذي ساعده على تولي الحكم، كان يطمع في الإستيلاء على مالقة (وأما إدريس بن علي الذي كان والياً عليها، فقد بعثه يحيى إلى سبتة)، وقد خاطب خيران أهل مالقة في الأمر وتقدمت المفاوضات بين الفريقين مرحلة مهمة، وكذلك خرج يحيى من عاصمته ليلاً في رفقة عدد من خواصه، تماماً كما فعل عمه من قبل، وترك قرطبة، وشأنها ولحق بمالقة.

* * *

ولما فرّ يحيى بن علي بن حمود من قرطبة، خلعه من بها من الجند والبربر واستدعوا للأمر القاسم الذي كان قد استقر بإشبيلية واستمر على حمل لقب «الخليفة» وتسمية نفسه بأمير المؤمنين، وفي نفس الليلة التي فرّ فيها يحيى ابن علي دخل القاسم قرطبة، وجددت له البيعة فخطب له بها مرة أخرى يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة 414 هـ (فبراير 1023م).

كان يبدو ان الأمور قد رجعت إلى مجراها الطبيعي بعودة الخليفة إلى عرشه. ولكن سياسة القاسم التي تقوم على محاباة البربر وتفضيلهم وعلى مطاردة القرطبيين والتنكيل بهم، لم تلبث ان نفخت روح الثورة من جديد على نظامه، دون أن يفكروا حتى فيمن يخلفه، وحاصروه في قصره أياماً خرج بعدها إلى الربض الغربي على رأس البربر في اواخر جمادى الثانية. وهناك في الربض، ضرب القاسم حصاراً على قرطبة دام نحو شهرين منع فيه دخول المؤن إلى المدينة. وقد حاول السكان فك هذا الحصار وراحوا يقاتلون من أسوار المدينة، ولكنه لما اشتد الحصار عليهم هدموا أحد أبواب المدينة وخرجوا منه خرجة رجل واحد وقاتلوا مستبسلين حتى انتصروا على البربر الذين ساروا إلى يحيى بمالقة.

وأما القاسم فقد فرّ في رفقة السود في اتجاه إشبيلية التي كانت خاضعة له والتي ترك فيها أسرته، وكان ذلك في يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الأولى من نفس السنة[1].

كان محمد بن القاسم والياً على إشبيلية أثناء إقامة أبيه بقرطبة وكان يساعده في مهامه شخصيتان يتمتع كل منهما بثقته، هما، محمد بن زيري، أحد كبار صنهاجة من البربر، وقاضي المدينة محمد بن عباد (جد المعتمد) الذي كان يتمتع بثروة طائلة وأطماع في الملك لا حد لها. وقد استغل ابن عباد فرصة غياب القاسم ومنصبه الخطير فأنفق المال وبذل الوعود لكبار الشخصيات وصفا له الجو حتى لم يبق أمامه سوى محمد بن زيري الذي لم يجد صعوبة في إغرائه بالملك.

ولما وصل القاسم إلى اشبيلية أمر ابن عباد بإغلاق أبوابها دونه، ونشب قتال بين الطرفين ذهب ضحيته كثير من السود والبيض، وعندما رأى القاسم استحالة استرجاع المدينة اتفق مع خصومه على تركها لهم في مقابل إخراج ابنه وبقية أفراد عائلته، ومن هناك سار معهم إلى شريش[1].

وفي هذه الأثناء، كان يحيى المعتلي، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء حيث أودع القاسم أمواله وترك جزءاً من عائلته، فاستولى عليها، كما استولى أخوه إدريس، صاحب سبتة على ثغر طنجة التي كانت أيضاً من أعمال القاسم بن حمود، وكان يعدّها ملجأً له وملاذاً يحتمي به في حالة ما إذا انقلبت الأمور ضده في قرطبة.

وكأن بني علي لا يكتفون بسلبه والإستيلاء على أملاكه بل يريدون رأس عمهم نفسها، فإن المقام لم يكد يستقر بالقاسم البائس بعد تلك الأحداث

(1) قارن روايات هذه الأحداث في نفح الطيب (487/1) أعمال الأعلام (الجزء الخاص بالأندلس ص133) لبيان (133/3 — 134) الذخيرة (15/2/1).

(2) وصف الإدريسي شريش بأنها مدينة «متوسطة حصينة مسورة حسنة الجهات، وقد أطافت بها الكروم الكثيرة وشجرة الزيتون والتين والحنطة بها ممكنة، وأسعارها موافقة» (ص 602) وقال صاحب روض المعطار إنها من كور شذونة، وهي على مقربة من البحر، راجع صفة جزيرة الأندلس (ص 102) معجم البلدان (340/3) الحلل السندسية (الفهرست).

التي جعلت منه لاجئاً سياسياً، حتى سار إليه يحيى بن علي من مالقة على رأس جيش كبير فضرب حصاراً على شريش استمر عشرين يوماً[1]. وبعد معارك طاحنة قتل فيها خلق كثير من الطرفين، استسلمت المدينة ليحيى وقبض على عمه الشيخ وأسره مع أولاده وعاد بهم إلى مالقة حيث أودعهم السجن.

وهناك، كان يحيى كلما اشتد به السكر، عزم على قتل عمه، ولكن ندماءه يرغبونه عن ذلك، قائلين إنه على كل حال، سجين ولا قدرة له على الخلاص. وقيل إن أباه كان يظهر له في الأحلام ويرغبه هو أيضاً عن ذلك، قائلاً إن أخاه أكبر منه سناً، ومع ذلك بايعه كما كان يحسن إليه أيام صغره، ولكن الرغبة، الرغبة في قتل الشيخ الذي لا حول له ولا قوة استمرت تساور يحيى مدة ثلاثة عشر عاماً بعد القبض عليه، وكذلك انتهى به الأمر إلى أن قتله خنقاً في أحد حصون مالقة في سنة 427 هـ[2].

وهكذا استقر الأمر ليحيى بن علي بعد أن هزم عمه وامتد سلطانه ليشمل، إلى جانب المدن الأندلسية، مدن العدوة (سبتة وطنجة) حيث بايعه البربر بالخلافة.

وأما إشبيلية، فقد وقعت تحت سيطرة القاضي محمد بن عباد الذي سيحولها إلى قاعدة مملكة سيتوارثها أبناؤه من بعده حتى يقضي عليهم، بدورهم أمير المسلمين المغربي، يوسف بن تاشفين.

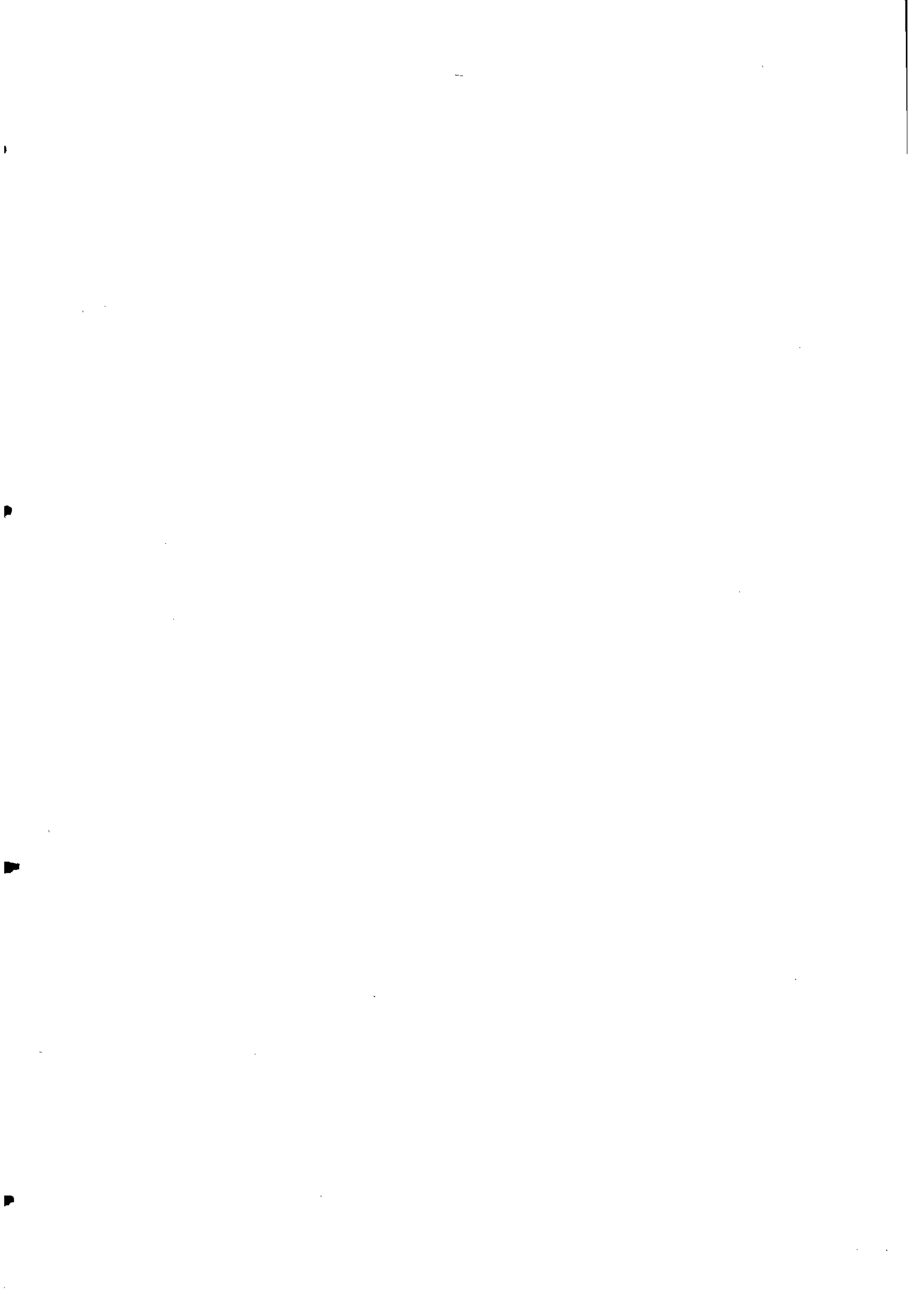
وأما أهل قرطبة، فقد ملّوا بني حمود والبربر، كما ملوا من قبل هشام المؤيد وابن عبد الجبار وسليمان بن الحكم وغيرهم، ولكن الضرورة حتمت عليهم طلب حاكم لهم، فأجمعوا على إعادة الأمر إلى بني أمية.

---

(1) نفح الطيب (488/1).

(2) نفس المصدر، والبيان (190/3) وفيه ان القاسم حمل ودفن بالجزيرة، وفي المعجب (ص 52) إن القاسم قتل في سنة 431 هـ. فيكون إدريس بن علي هو الذي قتله، حسب هذه الرواية، والذخيرة (16/2/1).

(3) راجع عن بني عباد المطمح (ص 11 — 22) نفح الطيب (الفهرست) البيان (244/3 و 257) الكامل (86/10) قلائد العقيان (الفهرست) الشذرات (386/3) الوافي بالوفيات (183/3) مقدمة ديوان المعتمد بن عباد وخصوصاً الحلة السيراء (34/2 وما والاها).



عهد يحيى وادريس بني علي الحموديين

قلنا إن أهل قرطبة سئموا حكم البربر وأجمعوا على إعادة الأمر إلى بني أمية. وقد كان المرشحون الذين تتوفر فيهم الشروط للخلافة ثلاثة: سليمان ابن المرتضى ومحمد بن العراقي وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله.

وقد قرر القرطبيون اختيار أحدهم بطريقة الشورى وعقدوا لهذه الغاية اجتماعاً كبيراً في مجلس الجامع حضره الوزراء وأعيان المدينة، وجرت مداولة بين المجتمعين أسفرت على اختيار ابن المرتضى وشرعوا في تحرير عقد البيعة، حينها فاجأهم عبد الرحمن بن هشام عن رأس قوة مسلحة ودخل المقصورة وأرغم المجتمعين على البيعة له وبايعوه في الحال وتلقب «المستظهر» وكان ذلك في 16 رمضان سنة 414 هـ (ديسمبر 1023م)[1].

وبعد إتمام رسوم البيعة خرج عبد الرحمن من المسجد مصطحباً معه المرشحين الفاشلين، واعتقلهما.

وقد عين المستظهر في المناصب الوزارية[2] بعض قدماء وزراء بني أمية،

---

(1) الذخيرة (1/1/35 — 36).

(2) أورد ابن حيان قائمة هذه الوزارات كمايلي: خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة الحشم، وخدمة القطع والطعام، وخدمة الأسلحة، وخدمة الخزانة، وخدمة مواريث الخاصة، وخدمة الطراز، وخدمة الوثائق، وخدمة خزانة الطب والحكمة، وخدمة الإنزال، وخدمة أحكام السوق.

وجماعة من الفتيان الطامحين، مثل أبي عامر بن شهيد وأبي محمد بن حزم المؤرخ الفيلسوف المشهور.

كان المستظهر قد أرسل الدعاة إلى الولايات لأخذ البيعة، ولكن هذه الجهود لم تأتِ بنتيجة بسبب حرص كل ولاية على الاستقلال، أو على الاحتفاظ بولاء صوري ليحيى بن علي.

وعلى الصعيد الداخلي، أخذت الأمور تسوء، نتيجة لضعف الموارد المالية وعجز الخزانة عن مواجهة تكاليف الدولةونفقات القصر والحاشية، وكذلك اضطر هذا الخليفة، لكي يفرض وجوده، إلى اعتقال عدد كبير من الشخصيات، ومن بينهم عدد من المروانيين (بالإضافة إلى سليمان والعراقي).

وفي هذه المرحلة، ظهر للمستظهر أن يلعب «ورقة» البربر، كما فعل غيره من قبل، فاستقبل وفداً كبيراً من رؤسائهم وأكرم مثواهم وأنزلهم في القصر، ولكن البربر كانوا دائماً سيفاً ذا حدين، لأن محاولة التقرب منهم وحدها كانت كافية لإغارة صدور سكان قرطبة الذين تمثلت لهم العهود القديمة بكل فضاعتها، وقبل أن يتمكن المستظهر من تنظيم قوة من بربره، زحفوا على قصره واقتحمته العامة على غرة وقتلوا من فيه من البربر، ثم فتحوا أبواب السجون وأخرجوا من كان بها من المعتقلين السياسيين[1].

ولما أدرك الخليفة انه هالك لا محالة، اختبأ في أتون حمام، ولكن العامة اهتدوا إليه وقتلوه بمحضر الخليفة الجديد الذي أحضروه معهم إلى القصر ليحل محله.

وأثر ذلك بايعوا ابن عمه، محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر [2] وكان ذلك في 13 من ذي القعدة سنة 415 هـ (17 يناير 1024م)، وقد تلقب محمد من الألقاب السلطانية بالمستكفي بالله.

---

(1) الذخيرة (1/1/38 — 39) البيان (3/138 — 139) نفح الطيب (1/488 — 489).

(2) راجع نبذة عن سيرته في الجذوة (ص 25) المغرب (1/54 — 55) الجمهرة (ص 92) الكامل (9/95) الذخيرة (1/1/379) البيان (3/140 — 141) نفح الطيب (الفهرست).

كان المستكفي هذا عاطلاً عن جميع الخلال الحسنة، ميالاً إلى البطالة شغوفاً بالمجون والشراب، حتى إن ابن حزم يسميه بالمستكفي العباسي (الذي تولى الحكم في مثل سنه وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر، وتركه أبوه صغيراً كما توافقا في الميل إلى اللهو).

وقد كان من بين الأعمال التي ارتكبها ولم تغفر له، انه حنق على ابن عمه محمد العراقي المذكور ونعاه للناس، وكذلك اضطهد معظم رجال السياسة من القدماء والمفكرين والأدباء الذين اضطر كثير منهم إلى مغادرة قرطبة والالتجاء إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة، حيث وجدوا الكرم وحسن الاستقبال وكان في مقدمة هؤلاء، الوزير السابق والشاعر ابن شُهَيْد[1] وقد وصف لخليفة مالقة هؤلاء اللاجئون الحالة السائدة في قرطبة، وما يجري فيها من المظالم وكره القرطبيين للشخص الذي ولّوه على أنفسهم.

وقد اغتنم وزراؤه وكبار الشخصيات في حكومته ذيوع الأخبار التي تتصل بسمعته وقصدوا إلى خليفة قرطبة وأغلظوا له في القول ونادوا بخلعه، ولكن الرجل راح يترجاهم ويستعطفهم.

وفي نفس اليوم (25 ربيع الأول سنة 416 هـ) غادر الخليفة قرطبة متنكراً في زيّ امرأة وسار في اتجاه الثغر، ولما وصل إلى أقليج من أحواز قرطبة اغتاله بعض مرافقيه لاعتقادهم انه كان يحمل معه مالاً، وكان ذلك بعد 17 يوماً من خلعه ولم يكن قد مضى على خلافته سوى 47 يوماً.

ومرة أخرى بقيت قرطبة بدون خليفة واضطرب أمرها بضعة أشهر، قبل أن يقرر يحيى بن علي بن حمود السير إليها للمرة الثانية، وقد دخلها يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شهر رمضان، سنة 416 هـ.

---

(1) هو احمد بن عبد الملك بن شُهَيد الأشجعي، من بني الوضاح، وزير أندلسي وشاعر وعالم كبير. ولد في سنة 382 وتوفي في قرطبة في سنة 426 هـ.، له شعر جيد، وعدة تآليف. راجع سيرته في البغية (ص 178) وفيات الأعيان (1/116 — 119) نفح الطيب (1/295) الذخيرة (1/1/161) الجذوة (ص 124) المغرب (1/253).

ويبدو أن مقدم يحيى بن علي كان بناء على اتفاق مع أهل قرطبة الذين كاتبوه وهو بمالقة وخاطبوه، كما يقول ابن الأثير، بالخلافة[1].

ومهما يكن من أمر، فإن يحيى لم يقم في قرطبة سوى نحو ثلاثة أشهر، حيث خرج منهاوعاد إلى مالقة في 8 من المحرم سنة 417 هـ. تاركاً في مكانه وزيره وكاتبه أبا جعفر أحمد بن موسى ودناس بن أبي روح، ليديرا أمرها، على رأس حامية صغيرة من البربر.

ولكن الأمر لم يلبث ان اضطرب من جديد في قرطبة التي لم تعد تعرف الهدوء والاستقرار.

ومرة أخرى، كان العامريون مصدراً للثورة والانقلاب، فقد سار خيران الذي عرفناه وزهير العامريان إلى قرطبة وأوعزوا إلى أهلها بالثورة على البربر، فثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية، وكان عددها نحو ألف رجل، وفر أحمد بن موسى كما قتلوا عدداً آخر من غيرهم[2]، ومرة أخرى، قرر القرطبيون إعادة الأمر إلى بني أمية، وكان زعيم القرطبيين إذ ذاك، الوزير جهور بن محمد بن جهور (أبو حزم)[3] واتفقوا على مبايعة هشام ابن عبد الرحمن الناصر[4]، أخي المرتضى الذي أسلفنا الحديث عنه، وكان قد نجا من المعركة التي قتل فيها أخوه في سنة 409 هـ. ، ولجأ إلى البونت[5] في

(1) الكامل (279/9).

(2) أعمال الأعلام (الجزء الخاص بالأندلس ـ ص 137).

(3) هو جهور بن محمد الذي ينحدر من أسرة من الوزراء دخلت إلى الأندلس قبل عبد الرحمن الداخل، أصلهم من الفرس، ولي الوزارة في أيام الدولة العامرية واستمر في هذا المنصب حتى انقرضت، واعتزل السياسة ولم يظهر على مسرحها إلا في غضون هذه الأحداث، حين أعلنوا الدعوة لهشام «المعتد بالله» وسار وراءه وجهاء قرطبة. راجع سيرته في العبر (159/4) الذخيرة (117/2/1) مطمح الأنفس (ص 16) نفح الطيب (الفهرست) المغرب (56/1) وفيه وصف ابن سعيد أبا الحزم بأنه «قديم الرئاسة، موصوفاً بالدهاء والسياسة» البيان (185/3)، الجمهرة (ص 93) الحلة السيراء (30/2 — 34) بغية الملتمس (ص 244).

(4) هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر (أبو بكر) المعتد بالله، آخر ملوك بني أمية، ولد في سنة 364 هـ. ، راجع سيرته في البيان (145/3) الجذوة (ص 26) المغرب (45/3) الكامل (97/9) المعجب (ص 57) الحلة السيراء (30/2).

(5) البونت Alpuente مدينة تقع في شمال غربي بلنسية، وصفها صاحب الروض المعطار بأنها «قرية =

شمال شرقي الأندلس واستظل هناك بحماية واليها، عبد الله بن قاسم الفهري[1]، وقد بعث إليه القرطبيون بالبيعة وهو في مقره، بحصن البونت، وتلقاها في 25 ربيع الأول سنة 418 هـ. ، وتلقب بالمعتمد بالله، ولكن الرجل بلغت به قلة الاكتراث بأمر هذه الخلافة بحيث إنه لم يسر إلى قرطبة لشغل عرشه ولاحتلال قصورها إلا في سنة 420 هـ.

كان حكم هشام في البداية محل الرضى من القرطبيين، ولكن الحالة لم تلبث أن تغيرت، بعدما ألقى بزمام السلطة والشؤون المالية في يد رجل يسمى ابن سعيد القزاز استأثر بالحكم وأطلق يده في جمع الضرائب، في الوقت الذي أحاط فيه نفسه بشرْ ذِمَة من السفهاء وترك العنان لشهواته وأغرق نفسه في الشرب والمجون.

وكذلك فَقدَ الخليفة، الذي أحاط به أعوان القزاز، الهيبة، بعدما فقد السلطان والنفوذ. ونتيجة لذلك، انتشر السخط وعمت الشكوى جميع الأوساط في قرطبة.

وفي ذي القعدة، سنة 422 هـ، تربصت بالوزير المستبد جماعة من الناقمين، فاغتالوه وحزوا رأسه وطافوا برأسه في المدينة وتركوا جثته في العراء.

وإثر ذلك، خُلِعَ المعتد بالله الذي كان يميل إليه ويمضي على أقواله، وهتف الناس بإِبْطال الخلافة جملة، ونزل هشام من قصره والتجأ إلى الجامع مع ولده ونسائه وبقي في المسجد بقية يومه وليلته أسيراً ذليلاً حقيراً بحيث كان يطلب من المصلين رغيف خبز لطفلته الجائعة، وبذلك ذهبت دولة بني

= صغيرة ينسب إليها صاحب الوثائق المجموعة عبد الله بن فتوح بن عبد الواحد» وصف جزيرة الأندلس (ص 56) راجع أيضاً الإدريسي (ص 163) معجم البلدان» (1/511) الذي يقول إنه ينسب إليها أبا طاهر ابن عمران بن إسماعيل الفهري البونتي، المغرب لابن سعيد (2/395).

(1) عبد الله بن قاسم الفهري، أمير أندلسي كان صاحب حصن البونت ويحمل لقب: نظام الدولة وقد كان المعتمد بالله مقيًا عنده بينما كان يخطب له في قرطبة خلال مدة سنتين وسبعة أشهر وقد توفي عبد الله بن قاسم الفهري في سنة 421 هـ.

أمية إلى غير رجعة، وبدأ عهد الفتن التي لا تنتهي في قرطبة إلا بنهاية حكم المسلمين الأندلس.

وأما يحيى بن علي، فقد كان أمر قرطبة وثوراتها التي لا تنتهي لا يهمه في قليل ولا كثير، وإنما الذي كان يهمه ويقلق مضجعه هو إشبيلية، أو بعبارة أدق، صاحبها ابن عباد الذي عرفنا كيف استقل بهذه المدينة وأحوازها.

كان القاسم بن حمود قد اصطنع أبا القاسم محمد بن عباد (ذي الوزارتين) بعد مهلك أبيه إسماعيل ورد إليه قضاء البلدة الذي أبعد عنه وقربه وحصل منه على منزلة الثقة الأمين، قبل أن يخونه بالطريقة التي رأينا، عندما أدبرت عنه الأيام، فصده عن إشبيلية بلده ومقر إمارته ومنزل أسرته.

وقد اعتمد ابن عباد في توطيد نفوذه على نفر من أكابر المدينة الذين كانوا يظاهرونه، خصوصاً من أجل ثروته، حيث كان يملك، فيما يقول ابن عذاري ثلث ضياع إشبيلية[1].

وبينما كان أعيان المدينة ورؤسائها يداهنون ابن عباد ويخادعونه طمعاً في ماله، كان هو يبذل المال بسخاء، ويشتري أنفسهم وهم لا يشعرون، وقد كان في مقدمة هذه الجماعة بنو أبي بكر الزبيدي (النحوي) وبنو مريم، وبنو العربي، وعدد من نظرائهم، وعن طريق هؤلاء الرؤساء نفذ ابن عباد إلى العامة واستمالهم حتى حصل على ملك إشبيلية بحكم الأمر الواقع في غيبة القاسم بن حمود.

ولما طرد القاسم وابنيه من إشبيلية، خلا الجو لابن عباد واتسع المجال أمامه للقيام بمناورة أخرى لتصفية أنصاره من شيوخ المدينة ولإبعادهم عن الحكم، فانقادت له الأمور بحيث أصبح في مستوى يساوي ملوك الطوائف، وزاد على أكثرهم بوفرة ماله وكفاءة غلمانه.

وبعد ذلك، انطلق في تطبيق المرحلة الثالثة من مخططه، بوضعه يده على رجل يشبه هشام المؤيد، ذلك الذي قتل وبعث من قبره ثلاث مرات.

---

(1) البيان (3/194 — 195).

فقد راجهت إشاعة في البلد تقول إن هشاماً أفلت من يد سليمان وغاب ببلاد المشرق مدة ثم عاد إلى الأندلس. وكذلك استغل ابن عباد هذه الإشاعة وأخرج الدُّعـاة ليؤكدوا أن هشاماً لم يمت، وقد ردد صدى هذا التأكيد المروانيون وشيعتهم من المتعطشين إلى الحكم. يقول ابن عذاري، نقلاً عن ابن حيان. :

«ولم تزل قصة هذا المشبه بهشام تدب في قلوب الناس دبيب النار في الفحم، فدبر ابن عباد أمره واهتبل الغرة في ذلك، وإنه أقل ما يجيء له دفع مكروه ابن حمود، ونظم الناس على حربه، فأخبر انه حصل هشام وعنده وجمع له من بـقي بإشبيلية من نساء القصر والخدم، فاعترف به أكثـرهم،» (تماماً كما تعرَّف عليه رجال القصر عندما نَبَشَ عليّ بن حمود قبره من قبل في قرطبة) ووقفوا على عينه وأومأ إلى ثقتهم عنده بما يريد فاجتنبوا خلافه واتبعوا موافقته، فوجد ابن عباد بذلك سبيلاً إلى ما دبَّره من حرب (يحيى بن علي) ابن حمود وحَجَبه عن أعين الناس، وبث كتبه بذلك إلى سائر الرؤساء، واستنهضهم للإجتماع على دعوة هذا الخليفة المخبوء... فكثر الخوض في الأندلس بذلك ومالت أهل قرطبة في نصبه إماماً للجماعة وأشخصوا الرسل للوقوف على عينه وتثبيت الشهادة فيه، وزَوَّرَ ابن جهور وغيـره في ذلك شهادات، على علم منهم ابتغاء عرض الدنيا، وإذعاناً من ابن جهور أيضاً لما رآه من دفع (يحيى) ابن حمود الفاغر فاه على قرطبة»[1].

وفي هذه الظروف سار يحيى بن علي الذي يعرف ان أفضل وسائل الدفاع هي الهجوم، على رأس جيش لـه إلى قرمـونة[2]، حصن إشبيليـة

---

(1) نفس المصدر (3/198).

(2) قرمونة Caramona. كانت قرمونة واسعة تضم عدة مدن وحصون أخرى، وصفها الإدويسي بأنها مدينة كبيرة يضاهي سورها سور إشبيلية، وهي على فحص ممتد جيد الزراعات كثير الإصابة في الحنطة والشعير (ص 206) وقد خصص صاحب الروض المعطار مكاناً بارزاً لقرمونة في وصف جزيرة الأندلس (ص 158 — 159). كما أورد ياقوت الذي يسميها، قرمونية أسماء عدد من الشخصيات الذين ينتسبون إلى قرمونة. راجع معجم البلدان (4/330) وكذلك الحلة السيراء (2/183). وقد سقطت قرمونة نهائياً في يد الفونس الثالث في سنة 644 هـ (1247م).

واستولى عليها، وكانت في يد محمد بن عبد الله البرزالي[1]، واستقر بها وراح يرقب الفرصة الملائمة للوثوب على إشبيلية للإطاحة بحكم ابن عباد.

وأما البرزالي، صاحب قرمونة، فقد سار إلى إشبيلية وتحالف مع ابن عباد على الإدريسي.

وبينما كان يحيى بن علي عاكفاً على الخمر والنساء في قرمونة كان جنوده يشنون الغارة تلو الغارة على إشبيلية ونواحيها فخضعت له كثير من المدن والقرى.

وأما ابن عباد، فبعدما أظهر أمر هشام المزيف،[2] سير جيشاً إلى قرمونة بقيادة ابنه إسماعيل، ومعه طائفة من رؤساء البربر المتحالفين معه، فطوقوا المدينة ليلاً، ووضعوا كمائن في أماكن مستورة.

ولما اتصل خبر هذا الهجوم بيحيى وكان عاكفاً على ملذاته وشرابه (وقيل إنه كان ثملاً)، صاح بين ندمائه ورفقائه، يطلب سيفه وفرسه، وبادر

---

(1) راجع أعلاه، ص... هامش...

(2) مضى ابن عباد في تمثيل فصول المهزلة التي أعدها بعناية فخرج ذات يوم مع ابنه إسماعيل في ثياب الخلفاء في موكب ضم خاصته بأزيائهم الرسمية، واتجه الموكب إلى قرية كان يقيم بها عامل بسيط اسمه خلف الحصري، وكان يشبه هشاماً المؤيد، فلما وصلوا إليه أحاط الركب بالرجل المسكين، وترجل ابن عباد وابنه وحاشيته وهرعوا إليه وقبلوا الأرض بين يديه ثم ترامى القاضي ابن عباد وقبل رجليه والرجل في كل ذلك لا يعي من أمره شيئاً وأذهلته المفاجأة، ولكنه بعد ما عاد إلى ذهنه ما سمعه عن شبيه هشام، أخذ يصيح: «لست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون» ولكن القاضي وأنصاره لا يردون عليه بشيء سوى التوسل، والتضرع، حتى أقاموه في مكانه ثم جرَّدوه من أخْلاقه وألبسوه ملابس الخلفاء ووضعوا القلانس على رأسه وأركبوه جواداً ومشى القاضي ومن معه أمامه، ولما وصل الركب إلى إشبيلية، صاح منادٍ يقول: «يا أهل إشبيلية، اشكروا الله على ما أنعم به عليكم، فهذا أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم وجعل الخلافة في البلد». وفي الغد نصب الرجل وحشر لبيعته خلق كثير وبويع كما ذكرنا، ولكنه وراء ستار مسدول، ثم أعلن الخليفة انه جعل حجابته في يد القاضي إسماعيل بن عباد. وإثر ذلك خرج ابن عباد مع هذا الرجل بطبوله وأعلامه إلى قرطبة، ولكن قرطبة أغلقت أبوابها في وجهه، ولما قضى وطره واستتب الأمر له، أعلن ابن عباد وفاة الخليفة المزيف، وبذلك اسْتُغِلَّ موت هشام المؤيد لأغراض سياسية ثلاث مرات.

بالخروج على رأس رجاله ثم مضى يضرب ابطي فرسه وألقى بنفسه على جيش ابن عباد ونجح في دفعه في الجولة الأولى، وكاد يلحق به هزيمة لولا خروج الكمائن التي أعدوها له وبعد مقاومة عنيفة، انهزم أصحابه وتراجعوا ووقع يحيى في يد أعدائه وضربه ابن عباد بالسيف وحز رأسه وحمله إلى ابيه لدى عودته إلى إشبيلية، بحيث ظل ابن عباد يحتفظ به في خزانته مع غيره من جماجم الأعلام مدة طويلة حتى طلبته حفيدته سبيعة من الأمير سير، وكان بعلها، ودفنته في المسجد الذي قتل فيه عبد العزيز بن موسى بن نصير، وكان في اذن الرأس براءة فيها اسم يحيى بن علي[1].

وكذلك استولى جيش إسماعيل بن عباد على قرمونة في 7 من المحرم في سنة 427 هـ (نوفمبر 1035م) واستمر الفتك بالبربر، مدة ولم يتوقف إلا بعد أن تدخل البرزالي الذي اشفق مما حلّ بقومه البربر، لدى إسماعيل ابن عباد الذي أجابه إلى طلبه، وإثر ذلك، استولى البرزالي على ما تركه يحيى من مال ومتاع وسبى نساءه وجواريه وعاد إلى حكم قرمونة.

ومقتل يحيى بن علي كان خاتمة وقصة لتطورات مسرحية ومغامرات عديدة، بدأت منذ خروجه من سبتة للزحف على قرطبة، وقد أورد هذه المأساة المؤثرة ابن بسام في الذخيرة نقلاً عن ابن حيان (المؤرخ) الذي نقلها بدوره عن شاهد عيان اشترك في المعركة التي حزّ فيها رأس الخليفة الإدريسي، وهو أبو الفتح البرزالي الذي يقول:

«لما كان عيد الأضحى، سنة 426 هـ. انغمس يحيى بن حمود في شربه ولهوه، سِرْتُ مع ثلة من بني عمّي إلى اللحاق بإشبيلية للاجتماع بابن عمنا محمد بن عبد الله، (البرزالي) والقاضي ابن عباد، فوصلنا وأنبأناهما بخبر يحيى بن حمود ولهوه (ف) رأيا إن يوجها إليه بجيش لقتاله، فخرج إسماعيل ابن عباد، مع ابن عمنا محمد بن عبد الله في المحرم من سنة 427 هـ؛ وهما في بيعة هشام بن الحكم تلك الأيام، فجئنا إلى باب قرمونة، فطار الخبر إلى

---

(1) قارن روايات البيان (195/3) الكامل (279/9) الجذوة (ص 24) العبر (154/4) الذخيرة (271/1) أعمال الأعلام (ص 137).

يحيى، وهو تلك الليلة على شراب وقد أخذ منه، فنعر نعرة ووثب قائماً وهو يقول: «وابياض بختي الليلة، وابن عباد زائري»

«وأمر بالسلاح وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وبادر بالخروج ليلاً على باب قرمونة وأصحابه يتلاحقون، فالتأمت عذته في نحو ثلاثمئة فارس، أكثرهم دغل السريرة، فمضى على وجهه مغتراً يضرب إبطي أهجن[1] خيله».

ويمضي أبو الفتح فيقول:

«وأقول إنه على ذلك عند انتهائه، لو ضرب مضافاً يقيم فيه ويقدم رجاله للحرب طائفة يمدهم بطائفة وتقف خيلهم رداءاً لهم، فارق الصواب، ولكن الحين غضى على بصره، فألقى نفسه علينا في اوائل خيله، ولما تستبن الأشباح ظلمة، فانتشبت الحرب معنا غلس ذلك اليوم ووالى علينا الشدات الصعاب بنفسه فعلمنا انه لا ينجينا إلا الصدق، فاستقبلناه بوجوهنا، ثم رددنا عليه الكرة وطاولناه بالقوة، فحمل علينا حملة ثالثة مع أصبحجات له وكنا في سند ضروس كؤد منيع الصعود إلينا، نؤود منه وننال من أصحابه، فإذا رددنا عليهم، استعنا بفضل الانحدار من عل فنخطفهم خط الأجادل، فصدقنا هذه الحملة، فساقنا حتى رمانا على إسماعيل بن عباد ومن معه من الأندلسيين، فثاروا في وجهه، فتوقف الفريقان ساعة، وظهر كمين ابن عباد وجاد صبره وحرص غلمانه العجم، فشدت الجماعة على يحيى شدة منكرة، وحدروا من ذلك التل الذي تسنموه، فانكسروا وصرع في ذلك اليوم قوم وتمادى الطلب بعد موافقة عظيمة، فصرع يحيى وحز رأسه وطير به إلى ابن عباد بإشبيلية، فخر ساجداً، وسجد من حضرلسجوده وانطبق البلد فرحاً واستمرت الهزيمة على أصحاب يحيى حتى ساء ذلك محمد بن عبد الله، وبدت عصبيته لقومه وكلم ابن عباد في رفع السيف عنهم فأطاعه في ذلك وتم لابن عباد ما أراد من حقن دماء قومه، إذ لم يأتِ الذي أتاه إلا عن ضرورة، ولم يتلعثم أن أسرع الركض إلى قرمونة دون إسماعيل، ابن عباد، فجاءها لوقته

(1) الهجين من الخيل: الذي ولدته برذونة من حصان عربي، وخيل هجن راجع باقي معاني الكلمة في لسان العرب (3/777 — 778).

وقد ملك سودان يحيى أبوابها على أهلها، فدنا إلى مكان عورتها من سورها الجوفي، وقد عرفه (من بها) ففتح له ودخل من ساعته دار يحيى وحاز جميع ما ألقاه من مال ومتاع واشتمل على نسائه وأباح حرمته لبنيه واستحل حرامهن واستوى في مجلسه ونصر نصراً لا كفاء له ورد الله عليه ملكه... وسقط الخبر على أهل قرطبة، فما صدقوه من الفرح»[1].

وبموت يحيى الذي امتد حكمه ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، انتهت خلافة بني حمود على قرطبة التي قرر سكانها مرة أخرى اللجوء إلى بقايا بني أمية لاختيار من يبايعونه من بينهم.

* * *

وبعد مقتل يحيى بن علي المعتلي، رجع أبو جعفر ابن بقنة[2] ونجا، الخادم الصقلبي وكانا مدبِّريْ دولة الحسنيين، إلى مالقة التي هي عاصمة يحيى كما عرفنا، ومن هناك خاطباً إدريس بن عليّ، وكان أميراً على سبتة وطنجة، واستدعياه إلى الأندلس، ولما وصل إلى مالقة عرضا عليه مبايعته بالخلافة، بشرط أن يولي الحسن ابن يحيى المقتول على سبتة وطنجة مكانه، فأجابهما إلى ذلك وبايعاه، وكان عدم ترشيحهما لأحد إبني يحيى (إدريس وحسن) للخلافة يرجع إلى صغر سنهما.

وإثر ذلك سار نجا الصقلبي إلى سبتة مع حسن الذي كان أصغر الابنين، ولكنه أكثرهما نضوجاً وأسدّهما رأياً، ونصبه هناك على العدوة.

وأما إدريس فقد تلقب بالمتأيد بالله وأخذ يعمل لتثبيت حكمه في البلد وندب لمعاونته نجا الذي اتخذه حاجباً، واعترفت بولايته رندة[2] والجزيرة الخضراء.

---

(1) المصدر المذكور.

(2) وفي بعض النسخ (كما في الكامل) بقية، وهو تحريف.

(3) رندة Ronda مدينة تابعة لإقليم تاكرنا وتقع على نهر وادي اللبن Guadalevin وفي سفح جبل طَلُوبَر، راجع وصفها في صفة جزيرة الأندلس (ص 79) معجم البلدان (3/73 — 74) تقويم البلدان (ص 166) الحلة السيراء (2/241).

وفي هذه الأثناء قامت حركة لمناصرة إدريس بن علي يتزعمها ملوك البربر وبعض الفتيان العامريين، في محاولة للالتفاف حول ما بقي من قوة الحموديين إتقاء للتهديد الذي يواجهونه من القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية.

ففي 5 من شهر ذي القعدة سنة 427 هـ، اجتمع زهير العامري وحبّوس الصنهاجي صاحب غرناطة، مع محمد بن عبد الله البِرْزَالي زعيم زناتة واحتلوا قرمونة، ثم نهضوا منها في اتجاه إشبيلية واحتلوا قرية طشانة[1] وقاتلوا حصن زعبوقة[2] ثم احتلوا القلعة الواقعة في شرق إشبيلية وأحرقوا طريانة[3] ثم احتلّوا حصن القصر، وهناك عقدوا البيعة لإدريس بن علي بن حمود، وعقب ذلك، رجعوا أدراجهم إلى قرمونة وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وكل في مملكته، وقد أعلن زهير العامري صاحب المرية قراءة الخطبة باسم الخليفة الحمودي في منتصف شهر ذي الحجة من السنة نفسها[4].

على ان هذا الحلف لم يلبث أن اعتراه الوهن وتفكك عقب وفاة حبُّوس الذي خلفه في رئاسة صنهاجة ابنه باديس[5]. وقد أرسل باديس وأخوه

---

(1) كذا في الحلة وفي الإدريسي (وهي Tocina من مديرية إشبيلية حالياً)، وفي البيان وردت بتحريف: طشتانة.

(2) لم تسعفني المراجع التي بين يدي للتعرف على هذا الحصن الذي يبدو انه يقع غير بعيد من إشبيلية.

(3) وصف ابن سعيد طريانة بأنها «مدينة ممتدة على شاطىء النهر الأعظم في مقابل النصف من حضرة إشبيلية، وهي مسورة من جهة الصحراء وفيها الحمامات والأسواق الضخمة» وقال عنها صاحب الروض المعطار إنها أقصى ثغور المسلمين «وهي قديمة أزلية على نهر تاجة». ونسب إليها ياقوت الفقيه عبد العزيز الطرياني النحوي، راجع وصفها في وصف جزيرة الأندلس (ص 127 — 128) معجم البلدان (34/4) المغرب لابن سعيد (293/1).

(4) البيان (190/3 — 191).

(5) هو باديس بن حبوس بن ماكسن (أبو منادٍ) المظفر، راجع سيرته في الإحاطة (ص 68 — 69)، وفي أماكن أخرى) العبر (180/6). البيان (167/3 — 266) الإدريسي (ص 203) المغرب (107/2) وفيه وصفه ابن سعيد بأنه «من أبطال الحروب وشجعانها»، الحلة السيراء (الفهرست) نفح الطيب (الفهرست) الكامل (286/9) وفيه غلطة في الفهرست، وكذلك: Muller, Der Islam (II/584).

بلكين إلى زهير العامري يطلبان إليه تجديد التحالف الذي بينه وبين أبيهما، وقد سار زهير للقائهما على رأس قواته. وبعد مفاوضات لم تسفر عن نتيجة، دخل الطرفان في معركة عند قرية من أحواز غرناطة (البونت) قتل فيها زهير العامري (سنة 429 هـ).

وفي هذه الأثناء ساور ابن عباد أمل في التغلب على الأراضي المجاورة لإشبيلية بالقضاء على ملوكها، فأخرج ابنه إسماعيل، على رأس جيش ومعه عدد من زعماء قبائل البربر فزحف على قرمونة فحاصرها، ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة[1]

ثم إلى حصن آخر يدعى استجة[2]، فأخذهما وكانا بيد محمد بن عبد الله البرزالي فاستنجد الأمير الزناتي بإدريس بن علي الحسني وبزعيم صنهاجة، فأتاه باديس ابن حبوس بنفسه، وأمده إدريس بجيش وضعه تحت قيادة مدبّر دولته، ابن بقنة، واجتمعوا بقوات البرزالي، ولكن جيوش الحلفاء ترددت وهابت جيش إسماعيل بن عباد فافترقت وانصرف كل قائد إلى بلده.

ولما بلغ ذلك إسماعيل بن عباد، قوي أمله ونهض بجيشه في اتجاه طريق باديس بن حبوس، ولما أدرك الزعيم الصنهاجي ان جيش إشبيلية يوشك أن يحيط به، وجه الرسل إلى ابن بقنة تسترجعه، بعدما افترقا بنحو ساعة من الزمن، فرجع أدراجه والتقى الجمعان في معركة حاسمة، ولم يمض سوى وقت قصير حتى انهار جيش ابن عباد، وكان قائده، إسماعيل

(1) أشونة Asuna وصف الإدريسي أشونة بأنها اقليم صغير، والحصن بأنه «ممدَّن كثير المساكن» (ص 174) راجع عن أشونة واقليمها أيضاً المغرب (317/1) والحلة السيراء (27/2) صفة جزيرة الأندلس (ص 23).

(2) وصف الإدريسي أستجة بأنها «تقع على نهر غرناطة، وهي مدينة حسنة ولها قنطرة عجيبة البناء من الصخر ولها أسواق عامرة ومتاجر قائمة ولها بساتين وجنات ملتفة وحدائق زاهية» (ص 205 — 206) ولكن أحسن وصف لها هو الذي أورده صاحب الروض المعطار الذي قال إن معنى اسمها: «جمعت الفوائد». صفة جزيرة الأندلس (ص 14 — 15). راجع أيضاً الحلة السيراء (الفهرست) معجم البلدان (174/1) نفح الطيب (298/1).

ابن عباد، أول مقتول في المعركة وقد حملت رأسه إلى إدريس بن علي الحسني، الذي أخذ بذلك ثأر أبيه.

ولكن إدريس لم يعش طويلاً حتى يجني نتائج هذا النصر، فإن الرجل قد شعر بقرب أجله في هذه الفترة فنزل عن مالقة إلى جبل ببشتر[1] فتحصن به، وهو مريض مدنف، ومات بعد مقتل إسماعيل بن عباد بيومين فقط، وكان ذلك في سنة 431 هـ (1039م ـ 1040م) وقد ترك من الولد يحيى ومحمداً وحسناً[2].

* *

*

---

(1) وصف عبد المنعم الحميري الحصن بأنه حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً، وأنه كثير الديارات والكنائس والدواميس، وله قرى كثيرة، راجع وصف جزيرة الأندلس (ص 37).

(2) اعتمدنا في سرد هذه الأحداث رواية المعجب لعبد الواحد المراكشي (ص 61/63)، وهي أدق وأوفى من غيرها ولكنه يمكن أيضاً مراجعة العبر (180/6) الكامل (281/9) وأعمال الأعلام (الجزء الخاص بالأندلس، ص 141).

خلفاء مالقة والجزيرة

كان يحيى بن علي بن حمود قد اعتقل عمه القاسم، كما ذكرنا، واعتقل معه ولديه، محمداً والحسن ابني القاسم ابن حمود بالجزيرة الخضراء[1]. ولما مات إدريس، أخرجهما القائم بأمرهما (ويعرف بأبي الحجاج) ودعا الناس فبايعهما السود الذين ظلوا على ولائهم لأبيهما ثم بايعهما السكان، وكذلك استرجع محمد بـن القاسم ملك أبيه على الجزيرة ووليها، ولو انه لم يتسمَّ بالخلافة، وبذلك انقسمت أسرة بني حمود إلى فرعين أساسيين أبناء القاسم وأبناء علي.

وأما أخوه، الحسن بن القاسم، فإنه تنسك وزهد عن الدنيا ولبس الصوف، ثم خرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم، زوجة يحيى بن علي المعتلي.

على ان الخلافة الرسمية ظلت في بني علي.

وبعد وفاة إدريس بن علي، بويع الحسن بن علي (سنة 431 هـ)، الأخ الثالث الذي تلقب المستنصر، بسبتة. على ان المستنصر لم يلبث أن مات، وخلفه من بعده ابنه يحيى بن الحسن الذي ملك سنتين، قبل أن يقوم عليه ابن عمه، حسن بن يحيى بـن علي ويخلعه ويقتله (دائماً بسبتة).

وفي مالقة، كان يتولى الأمر يحيى بن إدريس بن علي تحت حجابة ابن

---

[1] رواية أغلبية المؤرخين، وأما المقري فيذكران محمداً فر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها حتى هلك في سنة 440 هـ.

بقنّة، ولما سيطر حسن بن يحيى على دفة الأمور في سبتة، بمساعدة مدبر دولته، نجا الصقلبي، قام الاثنان بالزحف على مالقة التي هرب منها يحيى بن إدريس وابن بقنّة، للنجاةبنفسهما.

ولما دخل حُسن مالقة، اجتمع إليه من كان بها من البربر وبايعوه على الخلافة ولقب بالمستنصر[1].

وعندما استقر له الأمر، خاطب ابن بقنة وأمنه، ورجع إلى مالقة مع يحيى بن إدريس حيث قبض عليهما، ثم قتلهما.

كان الحسن قد ترك ابناً صغيراً له في سبتة كلف برعايته نجا (أبا الفوز)، الذي ولّاه أيضاً على عمل المدينة وطنجة أحوازهما، وقد وكل نجا أمر إدارة دولة الحسن في مالقة إلى رجل من التجار يعرف بالسطيفي[2] كان يثق به كثيراً.

وقد كان الحسن بن يحيى متزوجاً بإبنة عمّه إدريس وقيل إن هذه المرأة قد سممت زوجها انتقاماً لأخيها.

وفي هذه الأثناء عبر نجا، أبو الفوز، إلى الجزيرة الخضراء التي كانت تحت ابنـي القاسم، كما ذكرنا، وأراد الاستيلاء عليها واخراجهما منها، ولكن أُمهما خرجتْ إليه وخاطبته بشجاعة نادرة في المرأة في ذلك العهد، قائلة: «يا أَبا الفوز، أَتقطعُ مواليك وتكشفهم عن البلاد؟ ما هذا بحسن»، فاستحى نجا منها وانصرف إلى مالقة، وفي نيته، فيما يبدو إن يستولي على الحكم فيها بنفسه ويبسط نفوذه على ما بـقي من ملك بني حمود، فإن ابن الأثير الذي يذكر (بصيغة «قيل») أن نجا قتل ابن الحسن في سبتة، يقول أيضاً إنه أخذ معه من وثق به من الصقالبة عندما بلغه خبر موت الحسن.

وفي مالقة، قام السطيفي بعد موت الحسن باعتقال أخيه إدريس الذي

---

(1) كذا في الكامل، وفي المعجب: تسمى بالمستعلي، وأما ابن عذاري وابن خلدون، فإنهما لا يذكران للحسن بن يحيى لقباً.

(2) وفي رواية «الشطيفي» بالشين المعجمة.

كان يطمع في ولاية الأمر وكتب إلى نجا وابْن حسن ليعقد له على الأمر[1].

كانت أغلبية الجيش الذي سار نجا على رأسه للإستيلاء على الحكم في الأندلس من البربر، وخصوصاً من برغواطة.

ولما وصل إلى مالقة زاد في الاحتياط على إدريس بن يحيى وأكد اعتقاله وعزم على محو أمر الحموديين جملة وضبط أمرالبلاد بنفسه، فدعا الجند من البربر الذين كانوا في البلد وكاشفهم بخطتِه ووعدهم بالإحسان إليهم، فتظاهروا بمساندته ولكنه عظم ذلك عليهم، فتآمر رجال برغواطة (وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه) قائلين إنهم لا يتركون مواليهم ويتبعون عبداً خصياً.

وكذلك طعنوه برمح، فهلك، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة، ثم نهض قوم منهم، وقتلواالسطيفي، مدبِّر دولة حسن[2] فأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي وبايعه أمراء البربر (سنة 434).

كان إدريس هذا في بداية ولايته عقب مقتل نجا، قد ولِّي على سبتة وطنجة رجلين من برغواطة[3] من عبيد أبيه، يسميان رزق الله وسقُوط.

وبعد مضيّ فترة من حكمه، ظهرت من إدريس أمور متناقضة أثرت على وضعه السياسي، وقد اشتهر بالإحسان والصدقة، بحيث كان يتصدق كل يوم بخمسمائة درهم على الفقراء والمعوزين، وكان من أرحم الناس قلباً وأشدهم عطفاً على المظلومين، فأعاد كل مطرود إلى وطنه، كما ردّ إليه أملاكه؛

---

(1) تشتمـل روايات المؤرخين لهذه الأحـداث على كثير من الفجـوات كـما انها لا تخلو من الاضطراب، وقد حاولنا تنسيقها بقدر الإمكان مع عدم التضحية بالتفاصيل. وهذا السرد في جملته، هو أفضل ما يمكن استخلاصه من المصادر التي بين أيدينا، وعلى كل، فإن من الممكن مقارنة ما أورده الكامل (9/281) البيان (3/216) المعجب (ص 63 — 64) نفح الطيب (1/435) أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس، ص 141).

(2) في رواية البيان: ونهضوا إلى جعفر بن موسى فقتلوه، وفي رواية أخرى، إن نجا الصقلبي أغتيل وهو على دابته في الطريق إلى مالقة.

(3) برغواطة: تحريف بلغواطة، كما ورد في تاج العروس (5/105) والمطرب في أشعار المغرب لابن دحية (ص 17) وتثقيف اللسان (ص 20).

ومع ذلك، فقد كان شاذاً في معاشرته، فكان لا يصاحب ولا يرافق إلّا كل ساقط رذل، كما كان لا يحجب عن هذه الزمرة من ندمائه ورفقائه حرمَه.

وفي نفس الوقت، كان قليل الحرص على الاحتفاظ بملكه، وقد لوحظ انه مـــا طلب إليه أحد من أمراء صنهاجة أو بني يفرن أو غيرهم من أنصاره من البربر، حصناً من حصونه إلا تنازل له عنه.

وذات يوم كتب إليه أمير صنهاجة يطلب منه أن يسلمه موسى بن عفان السبتي، وزيره ومدبّر دولته وصاحب أبيه، لضغينة في نفسه، فعرض أمر هذا الطلب الغريب على الوزير وسأله رأيه فيه، ولما قال له الوزير، على سبيل المجاملة، طبعاً: أفعل ما تؤمر «ستجدني، إن شاء الله من الصابرين» أسلمه إلى الأمير الصنهاجي الذي قتله.

كان إدريس قد اعتقل ابني عمه محمداً وحسناً ابني إدريس بن علي في حصن أيْرُش، فلما رأى رجاله الذين وضعهم على هذا الحصن ما يشوب سلوكه من الاضطراب أعلنوا عصيانـه وأطلقوا سـراح محمد بن إدريس، وعندما بلغ خبر إطلاق سراح هذا الأمير السودان القائمين على قصبة مالقة، نادوا بدعوة محمد وأرسلوا إليه يعرضـون عليه الالتحـاق بهم، واعتصموا بالقصبة.

ولما جاء العامة إلى إدريس بن يحيى يستأذنونه في الهجوم على القصبة والدفاع عن عرشه المهدد (وقد كان في إمكانهم إعادة الأمور إلى نصابها) رفض عرضهم وأمرهم بأن يلزموا منازلهم ويتركوا له أمور الدولة[1].

وبذلك انفتح الطريق أمام ابن عمه محمـد بن إدريس، فجاء إلى مالقة، واستقبله الناس وبايعوه بالخلافة، وتسمى بالمهدي، بل إنه لم يتردد في أن يعين أخاه الذي كان معتقلاً معه في الحصن، ولياً للعهد من بعده.. ؛ ولقبه السامي.

وفي نفس الوقت (شعبان 438 هـ يناير 1047م) خرج إدريس بن يحيى

---

(1) اعتمدنا كثيراً على رواية عبد الواحد المراكشي في المعجب.

العالي من مالقة إلى حصن بُبَشْتَرَ مع عبيده ومن تبعه من الجند، ومن هناك قام بمحاولة لغزو مالقة بمساعدة بـاديس بن حبوس، ولكنه فشل وعاد أدراجه إلى الحصن، فأخرج عياله وجاز إلى سبتة حيث نزل عند سقوط البرغواطي.

ولكنه إذا كان أمر محمد بن إدريس (المهدي) قد توطد في مالقة بالسهولة التي رأيناها، فإن عددا من الحجاب (حكام الولايات) قد رفضوا الاعتراف بنظامه.

وفي سنة 439 هـ، تجمـع رؤساء البربر وأمراؤهم، فـأعلنوا البيعـة بالخلافة لمحمد بن القاسم، صاحب الجزيرة الخضراء وهؤلاء الأمراء أربعة: إسحـاق بن محمد بن عبـد الله البرزالي، صـاحب قـرمـونـة ومحمـد بن نوح الدمري، صاحب مرورو، وعبدون خزرون صاحب أركش[1] وكبير ملوك البربر، بـاديس بن حبوس الصنهاجي، صاحب غرناطة واستجة وغيرها، وقد بايعه الجميع، وتسمى محمد بن القاسم بالمهدي وخطب له جميع هؤلاء الأمراء على المنابر في بلادهم[2].

وفي نفس السنة، نهض هؤلاء الأمراء، وعلى رأسهم محمد بن القاسم وزحفوا على المعتضد ابن عباد بن محمد، صاحب إشبيلية، وحاصروها ثم انضم إليهم ابن الأفطس، صاحب بطليوس[3]، وعلى الرغم من أن عدد

---

(1) وصفه صاحب الروض المعطار بأنه حصن على وادي لَكُّه، ومدينة خربت مراراً ثم عمرت، صفة جزيرة الأندلس (ص 14). وقد كانت أركش التي تسمى الآن Arcos de la Frontera تابعة لكورة شريش / شذونة، وهي اليوم من مدن مديرية قادس. وتقع على خمسين كيلو متر منها. راجع أيضاً الإدريسي (ص 174) المغرب لابن سعيد (315/1) الحلة السيراء (242/2) صبح الأعشى (225/5).

(2) رواية البيان.

(3) بطليوس Badagaz. بناها عبد الرحمن، بن مروان المعروف بالجليقي، ووصفها الإدريسي بأنها «مدينة جليلة في بسيط من الأرض عليها سور منيع، وكان لها ربض كبير، وهي على ضفة نهر يانة» (ص 181)، وهو الوصف الذي أخذه صاحب الروض المعطار. ووصفها ابن سعيد في المغرب «بأنها مدينة كثيرة الحذق، جامعة للخلق وكريمة، وهي على نهر يانة (Guadiana) المغرب (363/2). والمدينة في عصرنا هذا قاعدة للبلد المعروف بهذا الاسم والذي يمتد بين بـلاد البرتغال وأقليم قاصرش Caseres وطليطلة وأقاليم قرطبة شرقاً إشبيلية وولبة Huelva جنوباً. =

الملوك المتحالفين الذين اشتركوا في هذه الحملة قد بلغ سبعة، فإنهم لم يتمكنوا من إشبيلية، وقد اضطروا إلى العودة إلى بلادهم قانعين من الغنيمة بالإياب، ولم ينجحوا إلا في إذاقة المسلمين شرّ أنواع الظلم والعذاب أثناء حصار المدينة، وبعد ذلك، تشتّت مصالح «الحلفاء» وتوزعت أهواؤهم ولم يعودوا يتفقون على شيء.

وفي سنة 440 هـ، توفي محمد بن القاسم بن حمود، فكانت مدة خلافته منذ أن بايعه الأمراء الأربعة سنة وثمانية أشهر[1]. ترك محمد بن القاسم عدة أولاد، تقدم منهم للولاية ابنه القاسم الذي بايعه أصحابه، واتصلت ولايته نحو ستة أعوام، أي حتى سنة 446 هـ، حين ضيق عليه المعتمد بن عباد ونزل له على الجزيرة الخضراء بأمان على نفسه، بعدما استغاث بدون جدوى بسقوط البرغواطي، صاحب سبتة[2].

وأما محمد بن إدريس المهدي، فقد تعب الناس من حكمه. وحتى أخوه الذي لقبه السامي، نفاه إلى العدوة، حيث اعتصم بجبال غمارة وبايعه السكان بالخلافة وتسمى مثل أخيه المهدي. وبذلك بلغ عدد الخلفاء الذين يخطب لهم على المنابر أربعة، وذلك في رقعة من الأرض لا تزيد عن ثلاثين فرسخاً...

وبعدما أعمل محمد بن إدريس (المهدي) سيفه في البربر، حاول الحجاب الانتقام منه فالتجأوا إلى الحيلة في قتله فبعث إليه باديس بن حبوس

= وينسب إلى بطليوس عدد كبير من العلماء والأدباء ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي النحوي اللغوي المشهور، وقد ورد اسم بطليوس العربي لأول مرة في المصنفات التاريخية عند الحديث على الحصن الذي امتنع فيه ابن مروان سنة 262 هـ. (875م) أثناء ثورته على الخليفة المرواني، محمد بن عبد الرحمن، خليفة قرطبة، راجع إلى جانب ما ذكر، صفة جزيرة الأندلس (ص 46) معجم البلدان (1/447) كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 166) مراصد الاطلاع (1/150) الحلة السيراء (الفهرست) وكذلك: (وما بعدها 183/××) des Musulmans d'Espagne مقالة سيبولد في دائرة Dozy: Histoire Motinez (M. R.): Historia de la reino de Badayoz. المعارف الإسلامية (مادة بطليوس).

(1) البيان (3/230).

(2) نفس المصدر.

ملك غرناطة، بكأس عراقي مسموم مع رجل من كتامة، فلما وصل إليه قال له:

ـ هذا كأس الحاجب، جلب للحاجب المظفر، باديس، فلم يره يصلح إلا للخلافة، فاختصك به.

فأعجب محمد بن إدريس بالكأس وملأه خمراً وضمه إلى فمه، ولكنه في اللحظة الأخيرة أحس في نفسه ريبة منه، فأمر الكتامي فشربه، فهرأ جلده عن عظمه لحينه، وبقي الخليفة ثلاثة أيام بعد ذلك على قيد الحياة، ثم مات من رائحة الكأس المسموم، فيما يقول الرواة، وكانت وفاته سنة 444 هـ[1].

وبعده بويع ابنه إدريس الذي تلقب بالسامي، وأقام حيناً بمالقة، ثم أصيب، فيما يبدو، بخلل في عقله، فغادر مالقة وتجول بصفته تاجراً، وعبر البحر إلى العدوة، ولما وصل إلى سبتة قتله واليها، سقوط البرغواطي[2].

وعلى أثر ذلك، نادت العامة في مالقة بإدريس بن يحيى الملقب بالعالي، وتوجه إلى المدينة حيث استقبل بحماسة، وبايعوه للمرة الثانية.

وقد وجد العالي الفرصة سانحة، بعد عودته إلى الحكم، لينكب من تعاونوا مع عدوه وابن عمه المهدي، على أن قاضي مالقة أبا علي بن سحنون، نجا من الهلاك بذكائه وحسن تخلصه.

فبعدما وبخه العالي، سأله: كيف بايعت عدوي من بعدي وصحبته؟

---

(1) رواية ابن الأثير وابن عذاري، وأما عبد الواحد المراكشي، فيذكر إن المهدي توفي في سنة 445 هـ.

(2) تمتد أراضي برغواطة الزناتية على ساحل المغرب الأقصى، جنوبي طنجة إلى أصيلا، وتجاورهم من الشرق قبيلة غمارة، وبقدر ما كانت القبيلة الأخيرة موالية للادارسة كانت برغواطة تعاديهم. وأما سقوط (أوسكوت) فقد وقع أسيراً في بعض الحروب بين برغواطة وغمارة وأصبح من موالي علي بن حمود قبل أن يبلغ مرتبة عالية في دولته، وقد ظل سقوط يحكم سبتة وطنجة حتى بعد زوال حكم بني حمود وبقي شوكة في جنب المعتضد بن عباد. راجع عن برغواطة العبر (221/6) البكري (ص 134 — 140) روض القرطاس (طبعة طورنبرج، ص 42 — 84) البيان (56/1 — 58) وكذلك: Basset (R), recherches sur la religion des Berbères (Paris, 1910, P. 48 — 99).

فأجابه القاضي:

ـ وكيف تركتَ أنتَ ملكك لعدوك؟

فقال العالي:

ـ ضرورة القـدر حملتني على ذلك.

فقال القاضي:

ـ وأنا أيضاً حصلت على يد من لا يسعني إلا طاعته...

كان إدريس بن يحيى العالي، على الرغم من كل ما نسب إليه، مثل أبيه وجده، محباً للأدب وحامياً للشعراء الذين يلوذون به، فكان يكافئهم بسخاء ويقربهم، وقد كان من بين الأدباء الذين اصطفاهم وقربهم العالم الناثر الناظم، أبو محمد غانم ابن محمد المخزومي[1] الذي مدحه بشعر جيد نذكره منه قصيدته التي مطلعها:

لـولا التحـرج لم يحجب محيـاك ... حييت عنَّـا وحيينـا بمحيـاكِ

إلى أن يقول:

مـالي وللبرق استشفيـه من ظمأ ... هَيْهَـاتَ لا ريَّ إلا ثـنـايـاكِ
إنْ كَان وادِيك ممنوع فموعـدنا ... وادِي الكَرَى ثم تَلقَاني والقـاكِ
رقَّ الدجى فَتلاقينَـا على جـزع ... واين مثْـوايَ من أقـطارِ مثْـوَاكِ
دَمْعي ببغـداد ممـدودٌ بِـدجْلتهـا ... وأنت من روض نجد نشرُ ريَّاكِ

---

(1) هو غانم بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي، من شعراء مالقة، أورد من شعره ابن بسام في الذخيرة (450/2/2) وترجم له صاحب الجذوة (ص 306) وقال فيه «فقيه مقدم وأستاذ في الأدب وفنونها، مجود، مع فضل وحسن طريقة» والضبِّي في البغية (ص 428) وابن بشكوال في الصلة (ص 450)، وقال إنه توفي في سنة 470 هـ.، وياقوت في معجم البلدان (43/5) وفي معجم الأدباء (167/16) وابن خاقان في المطمح (ص 60)، وصفه بأنه إمام أهل الأندلس وابن سعيد المغربي في المغرب (317/1) باسم غانم بن الوليد بن عمر الأشوني، ووصفه بأنه عالم جليل، وابن دحية في المطرب (ص 84) والسيوطي في البغية (ص 271) نفح الطيب (الفهرست) والحلة السيراء (26/2).

ريحَ الصبا بلّغي أنفاس ذي ظمأ وبِّرديها بما تقتضيه فحواكِ
أو يمِّمِي حضرة العالي بما احتملت منّي من الضلوع، فثمَّ البَرْءُ للشّاكي

وقال فيه أيضاً عقب مبايعته بالخلافة:

واستقبل الملك أمام الهدى في أربع بعد ثلاثين
خلافة الله سمت نحوه وهو ابن خمس بعد عشرين
إني لأرجو يا إمام الهدى إن تملك الدنيا ثمانين
لأرجِمَ الله أمرأ لم يقل عند دعاء لك آمينا[1].

ولكن أشهر من اصطفاه العالي ومدحه بشعر ممتاز، هو بدون نزاع، عبد الرحمن بن مقانا[2]. ومن أجمل القصائد التي قالها فيه، قصيدته التي لاتزال على مر القرون من غُرَر الشعر العربي، وفي مطلعها يقول:

البرق لائح من أندَرِينْ ذَرَفَتْ عيناك بالدَّمع المعينْ
لعبت أسيافه عارية كَمَخَارِيق بأيدي اللاّعبين

ويمضي فيقول:

ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبي زفرات وأَنين
ومصابيح الدجى قد أطفئت في بقايا من سواد الليل جون
وكأن الطل مسك في الثرى وكأن النور درٌّ في الغصون
والندى يقطر من نرجسه كدموع أسلمتهن الجفون
والثريا علقت في أفقها كَقضيب زاهر من ياسمين

(1) الحلة السيراء (27/2).
(2) من شعراء الذخيرة، ذكره ابن سعيد في المغرب (413/1) وقال عنه إنه شاعر مشهور، وترجم له الحميدي في الجذوة (ص 260) ووصفه بقوله: «إنه من شعراء غربنا المشاهير» والضبي في البغية (ص 358). وترجم له ابن سعيد في الرايات (ص 33)، وأورد له المقري هذه القصيدة في نفح الطيب (233/3)، كما اقتبس منها ابن الأبار مقطعاً (الحلة 28/2)، وقال عن البيت الأخير إنه أحسن ما قيل في تشبيه الثريا.

ولما وصل إلى قوله:

أنـظرونـا نقتبس من نـوركم إنـه من نـور رب العـالمـين

رفع الخليفة الستار الذي يحجبه بنفسه، وقال: انظر كيف شئت، وانبسط إليه وأحسن إلى الشاعر.

وقد غُنيّ يوماً بين يدي إدريس العلي بما لم يرضه، فصحح الأغنية وقال للمغني، أعد الصوت، وقل:

إذا ضـاقـت بـك الـدنـيـا فـعـرج نـحـو إدريـسـا
إذا لـقـيـتـه تـلقـى رئـيـسـاً لـيس مـرؤوسـا
امـام مـاجـد مـلك يـزيـل الـغـم والـبـؤسـا

وقد توفي إدريس بن يحيى العالي في سنة 446 هـ (1054م) بعد ان عهد بالخلافة لابنه محمد، فخلفه وتسمى المستعلي وأقرت بيعته المرية ورندة، ولكن معظم زعماء البربر رفضوا تقديم الطاعة له، وفي مقدمة هؤلاء باديس حبوس الصنهاجي الذي سار على رأس جيشه في سنة 449 هـ (1057م) واحتل مالقة وضمها إلى مملكة غرناطة.

وأما المستعلي، فقد خرج من مالقة وسار إلى المريّة ثم عبر منها إلى مليلة، فنصبه أهلها والياً عليهم واستمر في حكم المدينة التي كانت آخر معقل لدولة الادارسة، حتى توفي في سنة 456 هـ (1064م).

وبذلك انقرضت دولة بني حمود الحسنين في الأندلس وسواحل العدوة، فكانت مدتها منذ ولاية علي بن حمود حتى تخلى القاسم عن الجزيرة لابن عباد، 58 سنة.

الملحق الأول

بنو سليمان وإدريس بني عبد الله

في المغرب الأوسط

مقتبس

من كتاب نظم الدرّ والعقيان

في بيان شرف بني زيان(*)

لابي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل

التنسي

(*) المخطوطة التي اقتبست منها هذا النص ملك للأستاذ محمود بو عياد مدير المكتبة الوطنية، الذي تفضل وأعارها لي الغاية، تحقيقه ونشره، وله مني جزيل الشكر.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . . فنقول، لما كانت وقعة فَخّ،[1] كما ذكرنا وأنجا الله تعالى منها إدريس بن عبد الله، جاء متنكراً حتى بلغ مصر، فأقام بها مستخفياً، فنمى خبره إلى صاحب بريدها، واضح، مولى صالح بن منصور الحميري، وكان متشيعاً، فأتاه في الموضع الذي كان فيه مختفياً، فلم يـر أصلح من أن يحمله على البريد إلى المغرب، ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى، ومعه مولاه راشد، فنزل بوليلي[2]، وهو موضع بينه وبين الموضع الذي بنيت فيه فاس مسافة يوم. و وليلي أيضاً، هو اسم طنجة.

وكان نزوله على إسحاق بن محمد[3]، أمير أوربة[4]، فجمع له البربر

---

(1) راجع عن وقعة فخ التي تعتبر آخر محاولة جدية للطالبيين لاسترجاع الخلافة إلى آل البيت، الطبري (27/5 — 29) الكامل (90/6 — 93)، الدرر البهية الذي اختلط الأمر على صاحبه وقال إن معركة فخ وقعت في عهد الرشيد (ص 3) المختصر في أخبار البشر (11/2) روض القرطاس (طبع حجري بدون أرقام الصفحات) العبر (205/3) سلوة الأنفاس (ص 70) الاستبصار (ص 194) زهرة الآس (ص 9) الاستقصا (66/1) الحلة السيراء (50/1 — 51) البيان (83/1) مختصر كتاب البلدان للهمذاني (ص 81) شذرات الذهب (339/1).

(2) ولـيلي هو الشكل الشائع بين المؤرخين والجغرافيين العرب، ولكنها تكتب أحياناً، ولـيلة، وهو الرسم الذي تحمله المدينة في النقود الإدريسية التي ضربت فيها. وهي: Walili Gualili عند الحسن بن محمد الوزان الرحالة المعروف باسم «ليون الأفريقي». وولـيلي تحمل الآن اسم قصر فرعون. راجع وصف ولـيلي في معجم البلدان (384/5) روض القرطاس (ط. حجرية) زهرة الآس (ص 9) جذوة الاقتباس (ص 80) وكذلك: Gautier (F) le Passé de l'Afrique du Nord (P. 289 — 90), Fournel, Etude sur la Conquête de l'Afrique du Nord (I/132).

(3) كذا في معظم الروايات، وفي رواية: ابن عبد المجيد وفي أخرى، عبد الحميد. انظر أعلاه ص 64.

(4) كانت أوربة تشكل أهم عناصر سكان أوراس حتى هزيمة جيوش كسيلة، حين شرع العرب في =

على القيام بدعوته وخلع بني العباس.

فبويع إدريس سنة ثِنْتَينْ وسبعين ومائة، وخطب بالناس يوم بيعته، فكان مما قال في خطبته:

«أيها الناس، لا تمدوا الأعناق إلى غيرنا (117)، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا، لا تجدونه عند غيرنا».

فلما استوثق له الملك وتمت دعوته، زحف إلى البرابر الذين كانوا بالمغرب كفاراً، فأسلموا على يديه طوعاً أو كُرهاً، فافتتح تامسنا وتادلا وشاله.

ثم زحف في سنة ثلاث وسبعين[1] إلى تلمسان وبها أميرها محمد بن خَزَر المغرواي، فخرج إليه مبايعاً مطيعاً، فأمَّنه وأبقاه أميراً بتلمسان، ورجع إلى مدينة وليلي، فبلغ خبره [هارون] الرشيد فأهمه شأنه ونمى إليه أن الذي أجازه إلى المغرب من مصر [هو] واضح، صاحب البريد، فأمر به فضرب عنقه وصلب، ثم شاور في شأن إدريس، يحيى بن خالد [البرمكي] فأمره أن يبعث داهية من رجاله لِسَمِّه، فبعث إليه سليمان الشماخ، مولاه[2]. فلحق بإدريس وأظهر النزوع إليه والتبرؤ من بني العباس، وجعل ينتحل الطب، فحسن موقعه من إدريس، فصار يتلطف في انتهاز فرصة يغيب عنها راشد، مولى إدريس حتى وجدها.

= مطاردة هذه القبيلة في اتجاه الغرب. والمرجح أن يكون القسم الذي أسلم منها وخضع لسلطان المسلمين قد بقي في المغرب الأوسط، وأما العناصر التي ترددت في اعتناق الإسلام، أو ارتدت، فقد اتجهت إلى المغرب الأقصى، تاركة في طريقها وراءها فروعاً لها في الزاب وفي جبال الونشريش. وقد كانت أراضي القبيلة لدى حلول إدريس بينها تمتد في شمالي تازا، ولكن رقعة أراضيها اتسعت في القرن الرابع الهجري، بفضل تحالفها مع الآدارسة، في الاتجاه الشرقي، بحيث كانت تتاخم نكور.

(1) في رواية أخرى، في سنة 174 هـ (790م).

(2) في رواية: سليمان بن جرير، وفي أخرى: الشماخ اليمامي (أو اليمني) ويفهم من قول التنسي أنه مولى يحيى بن خالد البرمكي، مع ان المؤرخين يذكرون انه مولى المهدي العباسي. وأما الأختلاف في اسم الرجل، فقد يكون مرجعه ان أحد الاسمين هو اسمه الحقيقي بينما استعار الاسم الثاني في رحلته إلى المغرب ليقوم بفعلته الغادرة انظر أعلاه، ص 67.

وذلك ان إدريس اشتكى وجعاً بأسنانه. قال صاحب درر المغرب، فأعطاه ذروراً فيه سُمٌّ، وقال: «إستعمله في السحر»، وخرج الشماخ من فـوره.

قال صاحب ترجمان العبر، أعطاه سنوناً مَسموماً[1] وقال صاحب بغية الرواد إنه أعطاه قارورة طيب يمني فيها سمٌّ يقتل بمجرد الشمّ، فكان في سمها حتفه.

وقال السهيلي، سَمَّه في دلاّعة. وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين [ومائة][2].

وزعم بعضهم أن راشداً لما بلغه خبر الشَّماخ، ركب في إثره مـع جماعة، فكَلوُّا كلهم إلا راشداً فأدركه بوادي ملوية، فضربه راشد وقطع يده وكبا الفرس براشد، فقطع الشماخ ملوية وأفْلَتَ.

ولم يترك إدريس عقباً غير حمل من جارية له[3] فجمع مولاه راشد البربر، وكان (118) من الدهاة وقال لهم، «ما رأيكم، فاجمعوا على توقيف الأمر إلى وضع الحمل، فإن كان ذكراً بايعوه، وإن كان أنثى نظروا في الأمر حينئذٍ لأنفسهم». فوضعت ذكراً بعد أيام يسيرة من موت إدريس.

فلما وضعته جاء به راشد في قمطه إلى البربر، فرأوه شديد الشبه بأبيه، فسموه إدريس فكفله راشد إلى أن قتل بعض البربر راشداً بتدبير ابن الأغلب في ذلك، فكفله بعده أبو خالد بن يزيد بن إلياس، فلما كان ابن إحدى

---

(1) قارن بشأن مقتل إدريس الأول، العبر (13/4) أعمال الأعلام (ص 194) البكري (ص 122) الاستبصار (ص 195) صبح الأعشى (180/5).

(2) كذا في البيان وروض القرطاس وجذوة الاقتباس. ويستخلص مما ذكره ابن أبي دينار ان هذا المؤرخ، مثل إدريس بن أحمد، صاحب الدرر البهية يقول بأن إدريس الأول قتل في سنة 177 هـ. ، وأما أبو الفدا، فيذكر مقتل إدريس بين حوادث سنة 174 — 175 .

(3) اسمها كنزة وتنتسب حسب معظم الروايات إلى قبيلة نفزة البربرية، ولو أن أحمد بن محمد بن يوسف العلوي يقول في كتابه «الأنوار السنية في نسب من بسجلماسة من الأشراف» (مخطوط محفوظ في الخزانة العامة بالرباط) ان إدريس الأول تزوج كنزة وإنها ابنة إسحاق بن عبد المجيد الأوربي.

عشرة سنة، وذلك بعد سنة من مقتل راشد، اجتمع البربر على بيعته[1] فتجدد ملكهم، ونشأ إدريس بن إدريس أحسن منشأ، وشب أكمل شباب، وتأدب فحوى أشرف خصال الآداب.

وكان فصيحاً سمحاً جواداً بطلاً شجاعاً، أجمل الناس وأحسنهم خلقاً.

قال داود بن القاسم، «خرجت مع إدريس بن إدريس إلى قتال خوارج البربر، فقاتلناهم وهم أضعاف عددنا، قتالاً شديداً، فأعجبتني شجاعة إدريس يومئذٍ، وجعلت أديم النظر إليه، فقال لي: «لِمَ تديم النظر إلي؟».

فقلت لخصال: «منها أنك تبصق بصقاً متجمعاً، وأنا أطلب قليل ماء أبلّ به حلقي فلا أجده». والثانية لِمَا أرى من حسنك. والثالثة لكثرة حركتك في السرج.

فقال لي: «أما اجتماع بصاقي، فلاجتماع قلبي، وذهاب بصاقك لذهاب قلبك. وأما الحسن، فإن النبي، ﷺ صلى علينا»[2].

وأما حركتي، فشره إلى القتال، فلا تحسبه رعباً. وأنا الذي أقول:

أليس أبونا هاشم شد أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضَرْب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نَسْتَقي ماء يغيض من النضْب

(119) ولما استوثق له الملك واستوزر مصعب بن عمير الملجوم، نزح إليه كثير من قبائل العرب والأندلس حتى اجتمعت إليه منهم نحو خمسمائة، فاتخذهم دون البربر بطانة وحاشية، فعظم سلطانه.

(1) يذكر معظم المؤرخين ان بيعة إدريس الثاني وقعت في يوم الجمعة، مستهل ربيع الثاني، سنة 186 هـ. (10 مارس 802م). ولكن صاحب روض القرطاس الذي اعتمده الجزنائي في زهرة الآس وصاحب سلوة الأنفاس يقولون إن البيعة تمت يوم الجمعة 7 ربيع الأول، وبعد مقتل راشد بعشرين يوماً. وأما البكري وابن الأبار، فيذكر كل منهما إن بيعة إدريس الثاني وقعت في سنة 177 هـ.

(2) راجع البكري (123).

فوقعت مراسلة بين إسحاق بن محمود، كبير أوربة، وبين ابن الأغلب، فنمي ذلك إلى إدريس فقتله.

فلما كثرت غاشية إدريس، ضاقت بهم وليلي، فارتاد موضعاً لبناء مدينة لهم، فجاء إلى موضع فاس، فاختط عدوة الأندلس في سنة اثنتين وتسعين، ثم اختط عدوة القرويين في سنة ثلاث بعدها[1] وبنى بها مساكنه وانتقل إليها وأسس جامع الشرفاء بها، فعظم شأنه واستأنف استفتاح البلاد، فخرج إلى بلاد المصامدة، فدوخها ودانت له.

ثم توجه إلى تلمسان وامتدت جنوده إلى شلف، فملك المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وقطع منه دعوة العباسيين وضايق بني الأغلب، ملوك افريقية، وسمت همته إلى مضايقة بني أمية الكائنين بالأندلس، وعول على الاقتحام[2] عليهم في جزيرتهم، فأدركه أجله قبل الشروع في ذلك فتوفي بوليلي، سنة ثلاث عشرة ومائتين، وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة[3].

فلما توفي إدريس بن إدريس، تولى الأمر من بعده ابنه محمد، فأجمع أمره بوفاق جدته، أم أبيه إدريس أن يشرك إخوته في سلطانه ويقاسمهم ممالك أبيه، فأعطى القاسم طنجة وسبتة وما والاهما، وأعطى عمر ترغة وتيكياس وما والاهما. وأعطى داود تسول وتازا وما والاهما. وأعطى يحيى

---

(1) راجع مناقشتنا للنظرية التي أعلنها المستشرق ليفي بروفنسال في كتابه la fondation de Fès في الفصل الثالث أعلاه.

(2) ينفرد التنسي من بين المؤرخين بعزوه لإدريس الثاني نية غزو الأندلس، ومواجهة بني أمية، أعداء العلويين التقليديين في مهجرهم. وهذا ما سيفعله أحفاد إدريس الثاني، بنو حمود في القرن التالي.

(3) توفي إدريس الثاني بحبة عنب أشرقت في حلقه، في جمادى الأخيرة سنة 213 هـ (أغسطس 828م) على أرجح الروايات التي يتفق فيها مع التنسي ابن الأبار، في الحلة السيراء (53/1) وعبد الرحمن ابن خلدون في العبر (14/4) ويحيى بن خلدون في بغية الرواد (ص 80) والقلقشندي في صبح الأعشى (180/5) وابن عذاري في البيان (211/1) والبكري في كتاب المغرب (ص 123) والسلاوي في الاستقصا (75/1) والجزنائي في زهرة الآس (ص 22) وصاحب روض القرطاس. وأما ابن الأثير فقد أورد وفاة إدريس ضمن حوادث سنة 214 هـ. الكامل (415/6) وقد تبعه في ذلك أبو الفدا في أخبار البشر (30/2).

أصيلا والعرايش وما والاهما، وأعطى عبد الله أغمات وما والاهـا والمصامدة والسوس الأقصى (120)، والقاسم، جد أمير المؤمنين مولانا المتوكل، هو ابن محمد بن عبد الله هذا، على ما شهده صاحب بغية الرواد. وأعطى عيسى سالة وسلا وأزمّور وتامسنا[1] وأعطى حمزة ولـيلي وأعمالها[2].

وبقى سائر إخوته في كفالته وكفالة جدتهم، أم إدريس، ولم يعرض لتلمسان وما وراءها، إذا كان بها بنو عمه، سليمان، على ما نذكره، إن شاء الله.

ثم إن عيسى من إخوته خرج عليه بأزمُّور، وطلب الأمر لنفسه، فأمر محمد أخاه القاسم بمحاربته، فامتنع، فأمر أخاه عمر بذلك، فأجابه، ونهض إلى عيسى فأوقع به هزيمة عظيمة، فرّ بسببها عيسى واستولى عمر على ما كان بيده، فأضافه إلى عمله، ثم عاد عمر إلى أخيه محمد، فأمره بمحاربة القاسم، فتغلب أيضاً على جميع ما كان بيده، وصارت العمالات الثلاثة بيد عمر وسوغه أخوه محمد إياها، وخلصت طوية كل منهما للآخر.

وعمر هذا، هو جدّ الحموديين الثـائريـن بالأندلس، و[قد] هلك في حياة أخيه محمد، ودفن بفاس، ثم مـرض الأمير محمد، عقب موت أخيه عمر، فوَلىَّ عهدَه ابنه علي بن محمد[3] وهو صغير.

---

(1) يطلق اسم تامسنا على الشريط الساحلي الذي يمتد على المحيط الأطلسي، من الرباط حتى مصب نهر أم ربيع، وراء الدار البيضاء. ومنطقة تامسنا هي التي كانت مهداً لدويلة برغواطة الذين اخترعوا لأنفسهم ديناً وخرجوا عن الدين الإسلامي، وقد استمرت هذه الدويلة تقارع الدول التي حكمت المغرب حتى قضى عليها المرابطون. راجع البكري (ص 87) الإدريسي (ص 80) أعمال الأعلام (ص 180 — 181).

(2) أهمل التنسي ذكر اخوة آخرين، وهم أحمد وإدريس وعمر، مع العلم بأن الأخير كان أهم الأمراء جميعاً بعد محمد من حيث النفوذ ومن حيث أهمية ولايته، حيث أضيف إلى عمله، كما سيذكر التنسي، عمل أخويه عيسى والقاسم، على التوالي. وعلى كل حال، فإن المؤرخين يختلفون اختلافاً ملحوظاً بشأن توزيع الولايات، ويمكن مقارنة ما أورده ابن الخطيب وابن خلدون والبكري وابن أبي زرع والسلاوي في الجدول الذي تضمنه الفصل الرابع من كتابنا، دولة الأدارسة.

(3) هو علي بن محمد بن إدريس الملقب بحيدرة (وهو لقب علي بن أبي طالب (ض)). ومن علي =

فلما توفي محمد بن إدريس لسبع سنين من ملكه، ولّي ابنه علي، وهو ابن تسع سنوات، فقام بأمره أرباب دولتهم وصنائعها، فأحسنوا كفالته وطاعته، فكانت أيامه خير أيام، واستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة.

فلما توفي علي، ولي أخوه يحيى بعهد منه إليه، فقام بالأمر أحسن قيام، وامتدّ سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثاره، فقصد الناس سكنى فاس من كل جهة، فخطت بها الحمامات والفنادق، وبني جامع القرويين، بنته امرأة قروية كانت ذات مال عريض تُسمّى أم البنين ونقلت إليه الخطبة (خطبة الجمعة) (121) التي كانت بجامع الشرفاء.

ووليٍّ ابنه، يحيى بن يحيى، فأساء السيرة وكثر عبثه في الحرم، فثارت عليه العامة لأمر شنيع ارتكبه فأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلس، فمات من ليلته أسفاً، وهو آخر أولاد الأمير محمد بن إدريس في الملك.

ثم استدعى أهل فاس وأرباب الدولة علي بن عمر بن إدريس، صاحب الريف، فجاء إلى فاس فبويع واستولى على المغرب.

فقام عليه عبد الرّزاق الخارجي الصفري بجبال مديونة[1]، قبلي مدينة فاس، فدارت بينهما حروب كانت الغلبة فيها للخارجي، ففرّ علي إلى أوربة، وتملك الخارجي عدوة الأندلس وتمنعت منه عدوة القرويين وولّوا عليها يحيى ابن القاسم بن إدريس المعروف بالمقدام، فكانت بينه وبين الخارجي حروب آل آخرها إلى إخراج الخارجي من عدوة الأندلس واستيلاء المقدام على [عدوة] القرويين [واستمر في الملك] حتى قتله الربيع بن سليمان غيلة.

فقام بالأمر بعده يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس فملك جميع أعمال الادارسة وخطب له على جميع منابر المغرب وكان أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً.

= هذا الذي ولد من حرة اسمها رقية بنت إسماعيل ابن عمير بن مصعب الأزدي، ينحدر الأشراف العلميون الذين منهم أولاً عبد السلام بن أمشيش الذين تحيط بهم كثير من الخرافات في المغرب الأقصى، وقد كانت وفاة علي في رجب سنة 234 هـ. (يناير 848م).

(1) راجع أخبار هذه الثورة في رواية البكري، وهي أوفى وأدق من غيرها (ص 24 — 25).

وكان فقيهاً عارفاً بالحديث وسائر الفنون ولم يبلغ أحد من الادارسة ما بلغه. وكان العلماء والشعراء يقصدونه من الأندلس وغيرها، فيقابلهم بالإحسان التام، وكان مجلسه لا يخلو من العلماء، وكانت عنده عدة من الوراقين لا شغل لهم، إلا نسخ الكتب[1].

وفي اواخر أيامه استوثق الملك للعبيديين بافريقية فاستخلصوا المغرب الأوسط من ايدي بني سليمان، إخوة الادارسة، ثم وجهوا مصالة المكناسي لمضايقة الآدارسة بالمغرب الأقصى، فزحف إلى يحيى بمدينة الزيتون، وكانت معقل يحيى الذي يعتمد عليه، فبرز إليه يحيى بجيوشه فالتقيا، فانفض أصحاب يحيى عنه، فأسرع إلى فاس ليتحصن بها، فنازله مصالة إلى أن صالحه على أن يقتصر [ملكه] على فاس ويترك الغرب كله لعمال بني عبيد فعقد مصالة[2] لابن عمه موسى بن أبي العافية[3] على الغرب وانصرف، ثم عاد، فأغراه ابن أبي العافية على يحيى، فقبض عليه واستصفا أمواله وما عنده من الذخائر وأطلقه، فلحق ببني عمه بالريف، ثم توجه إلى بني عبيد، فمات هنالك.

ثم ثار على عمال بني عبيد الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجام، لقبه بذلك عمه. وذلك إنه وقع بينه وبين عمه اختلاف،

---

(1) ينقل البكري وصف النوفلي ليحيى بهذه العبارة: «كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء، وكان أحمد الشافعي من جلسائه وممن يتكلم عنده في العلم وكان ينتجعه الناس من الأندلس وغيرها، فيحسن إلى جميعهم». البكري (ص 132).

(2) هو مصالة بن حبُوس بن بهلول المكناسي. كان رئيساً لقبيلة مكناسة وبلادها حين اشتدت شوكة هذه القبيلة وتغلبت على قبائل البربر الواقعة غربي تازا. ولما استولى العبيديون على المغرب أصبح مصالة من كبار رجالهم وولوه على تيهرت، قبل أن يقلدوه الجيش الذي زحف على الادارسة واستولى على فاس في سنة 305 هـ.، وبعد استقرار الأمر لمصالة، عقد ولاية المغرب لابن عمه موسى، ابن أبي العافية، وذلك فيما عدا فاس التي تركها في يد يحيى. راجع العبر (134/6) البيان (197/1).

(3) راجع أخبار دولة موسى بن أبي العافية في العبر (134/6) جذوة الاقتباس (ص 3) الاستقصا (80/1 — 83) البيان (1 / 194 — 199 — 201 — 202 — 209 — 213 — 214 أعمال الأعلام (213 — 217).

فحمل الحسن على غلام لابن عمه فطعنه في موضع المحجم، وفعل ذلك بثان وثالث، فقال له عمه، قد صار ابن أخي حجّاماً وخاطبه في ذلك شاعر فقال:

وسمِّيت حجّاماً ولست بحاجمٍ
ولكن لضرب في مكان المحاجم

فأخرج ريحانا الكتامي من فاس وزحف إلى ابن العافية فأوقع به وقيعة شنعاء لَمْ يُرَ بالمغرب منذ أن دخله الادارسة مثلها، انجلت هزيمته عن أزيد من ألفي قتيل وقتل فيها ابن لموسى [بن أبي العافية][1].

فلما جاء الحسن إلى فاس تركه ابن حمدان إلى أن دخل فأغلق أبواب المدينة دون العسكر، وغدر بالحسن واعتقله وبعث إلى ابن أبي العافية، فجاء وتملك فاساً واستولى على جميع المغرب، وأراد قتل الحسين، فأمر ابنُ حمدان من أطلقه ليلاً، ففرّ ولحق بـ[عدوة] الأندلس، وهنالك مات[2].

ثم إن ابن أبي العافية ترك دعوة العبيديين وصادق المروانيين، أهل الأندلس، فجهز العبيديون جيشاً مع ميسور الفتى وكتبوا إلى (123) الادارسة أن يتولوا حرب ابن أبي العافية مع ميسور حتى يفرغوا منه فيرجع ميسور ويترك لهم المغرب، فكان من الأدارسة في محاربة ابن أبي العافية ما كان ميسورٌ يكثر التعجب منه، فغلب ابن أبي العافية وفرّ إلى ملوية وهنالك قتل، بعد إن ملك المغرب ثمانيا وعشرين سنة، فعاد ملك المغرب إلى الادارسة.

---

(1) تعرف هذه الموقعة باسم موقعة فحص الزاد. وأما ابن موسى الذي قتل فيها، فيسمّى منهل. راجع التفاصيل في البكري (ص 127) العبر (134/6) الاستقصا (167/1)، وفيه: وقتل من جيش موسى أزيد من الفين وثلاثمائة.

(2) يوجد اضطراب في الرواية فيما يتعلق بتاريخ موت الحسن الحجام. فبينما يقول السلاوي إن الحسن أقام عشر سنوات في فاس، إذا بابن الخطيب يذكر ان دولته لم تدم سوى عامين. ولكن البكري يروي أن انتهاء دولة الحسن الحجام، كان في سنة 317 هـ.، ولما كان هذا الكاتب قد ذكر ان الحسن تولى الحكم في سنة 316 هـ.، فمعنى ذلك ان دولته لم تدم سوى سنة واحدة.

وتولى الأمر القاسم بن محمد الملقب كنّون، وهو أخو الحسن الحجام المتقدم.

والقاسم هذا هو جدّ الأمير، مولانا المتوكل، نصره الله، عند بعض المؤرخين.

وكان لأخيه، إبراهيم بن محمد، ولد من أهل الفضل والدين والعلم، يعرف بأحمد الفاضل، وكانت بيده سبتة وما والاها، فكان يميل إلى بني مروان، ملوك الأندلس، لسلامة عقيدتهم وينكر العبيديين، لما تمذهبوا به في شأن أبي بكر وعمر.

ثم إنه أراد التوجه إلى الأندلس برسم الجهاد، فبلغ ذلك عبد الرحمن الناصر، فأمر الا ينزل مرحلة إلا وجد فيها قصراً يبنى له وأن ينفق عليه في كل مرحلة ألف دينار ذهبية مكافأة على اعتنائه بهم وإقباله إليهم، فكان مجموع ما بني له ثلاثون قصراً.

فلما توفي القاسم كنون، ولي بعده ابنه أبو العيش، أحمد بن كنون، وكان عدلاً فاضلاً عالماً تاريخياً، فصالح عبد الرحمن الناصر واستأذنه في الجواز إلى الغزو فأذن له فجاز [إلى الأندلس][1].

واستبد بملك المغرب بعده أخوه، حسن بن كنون، فتغلب عليه المروانيون، بعد ست عشرة سنة من ملكه وأجازوه إلى الأندلس[2] وولوا المغرب يعلى بن محمد اليفرني، فأنزله المستنصر بقرطبة وأكرم مثواه إلى أن (124) ذكر له [أن] عنده قطعة من عنبر، فطلبها منه فامتنع، فساء ما بينهما،

---

(1) قارن عن هذه الحوادث، روايات البكري (ص 129 — 130) أعمال الأعلام (ص 218 — 219) الاستقصا (182/1). ويمكن للقارىء أن يراجع صورة تركيبية عن هذه التطورات في الفصل السابع من كتابنا دولة الادارسة.

(2) أعلن الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله، استسلام الحسن بن كنون بنفسه في خطبة الجمعة بجامع قرطبة في سلخ جمادى الأخرة، سنة 363 هـ.، (فبراير 974م). قارن روايات البيان (248/2) أعمال الأعلام (ص 221 — 222) الاستقصا (184/1) روض القرطاس (الطبعة الحجرية) بغية الرواد (ص 82) المقتبس لابن حيان (ص 135 وما بعدها).

فأمر بصرفه إلى المشرق[1] فلحق بالعبيديين فجهزه العزيز العبيدي بجيش ومال وصرفه لطلب ملكه بالمغرب، فجاء وملك المغرب ثانية واستولى عليه كله ثماني سنين، ثم وجه إليه المنصور بن أبي عامر جيشاً فغلبوه على المغرب وقتل، رحمه الله، بعد أن أُمّن، وهو آخر ملوك الادارسة بالمغرب[2].

وحدث من شهد قتله ان عاصفاً من الريح هَبّ في الوقت عليهم إستلب ثيابهم عن أجسادهم وذهب رداء حسن، فلم يعلم له خبر، وأظلم الأفق عليهم خافوا على أنفسهم من الهلاك.

فصار ملك المغرب لأهل الأندلس، فولوه مغراوة إذا كانوا [من] شيعتهم، لأن جدهم، مغراو كان جيء به من سبي أفريقية إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فأسلم على يديه، فكان مولى له.

وأول من ولوه المغرب، حزر بن حفص بن صولت ابن وازمار بن مغراو، فبقي ملك المغرب في أيديهم يتوارثونه، إلى أن قام المرابطون فغلبوهم عليه.

وكان من ولد عمر بن إدريس بن إدريس [إثنين من بني] حمود الثائرين بالأندلس على بني أمية. وذلك انه كان بالأندلس من عقب الآدارسة أخوان جليلان، وهما علي والقاسم إبنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله ابن عمر بن إدريس، هكذا ذكر نسبهم صاحب ترجمان العبر. وأما صاحب درر الغرر، فنقل عن البكري انه حمود ابن أبي العيش بن عبد بن عمر بن إدريس.

---

(1) أقام الحسن بن كنون بالأندلس في رعاية الحكم معززاً مكرماً حتى وقعت حادثة العنبر التي أشار إليها المؤلف، فأبعد منها سنة 365 هـ.، واتجه، هو وأتباعه، إلى مصر، حيث أقام حتى سنة 372 هـ.، في أيام هشام المؤيد، حين بعث به مع رجاله العزيز بالله، نزار، مع رسالة إلى عامله على افريقية، بلكين بن زيري الذي أمده بجيش يتكون من ثلاثة آلاف فارس، وسار على رأسها واستعداد بها ملكه في المغرب.

(2) قتل الحسن بن كنون غدراً في جمادى الأولى، سنة 375 هـ. (سبتمبر 985م) بعدما أعطاه القائد والوزير أبو الحكم الأمان، ولكن المنصور بن أبي عامر رفض أن يمضي على أمان الوزير، فدبر اغتياله في الطريق إلى قرطبة.

وقال صاحب الذخيرة، هو حمود بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس.

وكان هذان الاخوان عظيمي المنزلة عند أهل الأندلس، وكانا قبل ذلك بسبتة، فأشخصا إلى الأندلس (125) في جملة من أشخص إليه من الادارسة أيام هشام المؤيد. وكان مع هشام طرف من علم الحدثان، تقرر منه لديه انه لا بدّ من قائم يقوم على المروانيين من أهل سبتة أول اسمه عين، فتفرس ذلك في علي بن حمود، لرفعة بيته وبعد همته وانتشار صيته.

فلما رأى هشام اضطراب أمره وتيقن انصرام دولته، وخاف الفتك به، استدعى علي بن حمود واختلى به، فصير إليه ولاية عهده، وأوصاه بطلب الخلافة من بعده وولاه طلب ثأره، واستكتمه السرّ إلى آوانه وحلول زمانه[1].

فدفن عليٌّ ذلك في سويداء قلبه. فلما ثار البربر الذين بالأندلس مع سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، واقتحموا قرطبة على هشام المؤيد، إستولى المستعين على الأندلس وغيب هشام، فيقال إنه قتله.

فلما استوثق الملك للمستعين، فرق عماله على نواحي ملكه، وقدم من جملتهم، علي بن حمود على سبتة، فنجم فيها واستمال أكثر جيوش الأندلس، ونهض في جموع عظيمة إلى قرطبة، فخرج إليه سليمان، فاقتتلا، فهزمه علي وسيق إليه سليمان وأخوه وأبوه أسارى، فطالبه بهشام، فذكر انه مات موتته وتبرأ من دمه[2] وعرض عليهم قبره فنبش وأخرج وشهد الناس على عينه،

---

(1) ينفرد التنسي بالقول بأن «وصية» هشام المؤيد لعلي بن حمود كانت مباشرة وبعدما «اختلى»، وأما بقية المؤرخين الذين تعرضوا لهذه الأحداث، فيذكرون ان هذه الوصية قد تمت بواسطة المراسلة. بل إن ابن الخطيب ليتشكك في أمر هذه المراسلة فيستعمل في سياق الحديث عن كتاب ولاية العهد هذا، عبارة «نسبه إلى هشام». والقارىء يمكنه أن يقارن بفائدة ما ذكرته المصادر التالية: البيان (115/3) نفح الطيب (482/1 — 483) أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس، ص 121) الذخيرة (26/1/1).

(2) هذه هي الرواية الشائعة بين المؤرخين. وفي رواية أخرى أوردها ابن عذاري في البيان (117/3) ان علياً لما دخل القصر، بعث سليماناً بأن يحضر هشاماً، فقال له إن هشاماً قتله ابني محمد مع الوزير أحمد بن يوسف بن الدب.

فأمر علي بتجهيزه وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه ودفنه بإزاء أبيه، ثم دعا بسليمان فَضَربَ عنقه بيده، وأمر بضرب عنوق أخيه وأبيه وجعلت رؤوسهم في طست، وأخرجت إلى الناس يُنَادىَ عليها: «هذا جزاء من قتل المؤيد!».

ثم دعا علي بن حمود الناس لبيعته من الغد، في محرم سنة سبع وأربعمائة، فلم يتخلف أحد عن بيعته، فأكرم منازل الناس، وأجمل خطابهم، وتسمى ليومه بالناصر، ورفع الحجاب وجلس للمظالم بنفسه، وأقام الحدود، لا يحابي فيها أحداً، فانتشر العدل وأمنت السبل ورخا السعر، وعاشر الناس أحسن معاشرة قريباً من السَّنَة[1].

فبلغه قيام المرتضى في الأندلس وأحس في الناس الميل إلى بني مروان، فعزم على تخريب قرطبة حتى لا يبقى فيها سلطان للمروانيين، فشرع في استصفاء أموال أهلها وأخذ جميع ما بها من السلاح، وابتدأ في هدم الدور وتوهم أن يعود بجميع ذلك إلى سبتة ويستأنف هنالك ملكاً، فأظلمت الدنيا على أهل قرطبة، ولجأوا إلى الله، فسلط عليه بعض صقالبة بني مروان، وإن كان علي استخلصهم لنفسه وأمنهم على مهجته، فدخل معهم الحمام ليلة، وهم ثلاثة، فقتلوه من غير مواطأة أحد، ثم أخذوا وقتلوا. وكانت مدته سنة وتسعة أشهر.

وكان وليّ عهد علي، ابنه يحيى، فوافق مقتله ان كان يحيى والياً ببلاد المغرب، فاتفق أمر الجند على استدعاء القاسم بن حمود، أخي علي من إشبيلية، وكان والياً بها، فجاء وبايعوه وتولى الأندلس، وتلقب بالمأمون.

فلما بلغ الخبر يحيى لم يرض ولاية عمّه، فقاد الجيوش وجاز إلى الأندلس وقصد قرطبة، فخلع عمه القاسم بعد أربع سنين من خلافته وملك قرطبة وتلقب بالمعتلي، وفرّ عمه المأمون إلى إشبيلية فبايعه القاضي ابن عباد

---

(1) الواقع ان الوضع الذي يصفه التنسي لم يستمر سوى نحو ثمانية أشهر. وبعدها، أحس علي بتحول في نفوس القرطبيين عليه وأنس منهم الكراهية له، فغير سياسته فاعتمد القهر والإرهاب والقتل أداة للحكم. وقد بلغ حنقه على أهل قرطبة في اواخر أيامه انه فكر في تدمير المدينة كلها. قارن: الذخيرة (1/1/79، 82) الكامل (273/9).

واستمال بعض الجيش وزحف إلى قرطبة وتملكها، ففر ابن أخيه إلى مالقة، واستولى على الجزيرة الخضراء عمل المأمون من عهد المستعين، واستولى أيضاً أخوه إدريس على طنجة، وكان المأمون يعتدها حِصْناً لنفسه وبنيه ويستودع بها ذخائره.

فلما بلغ أهل قرطبة ذلك، نقضوا طاعته وبايعوا بعض المروانيين، ففرّ المأمون إلى إشبيلية وبها ابنه، فمنعه ابن عباد من الدخول (127) وأخرج إليه ابنه، واستبدّ هو بإشبيلية، فلحق المأمون بشريس، وفرّ عنه جيش البربر، فلحق المأمون بابن أخيه، يحيى المعتلي، وبايعوه فزحف إلى عمّه، فأخذه واعتقله، فلم يزل عنده وعند أخيه إدريس، من بعده حتى مات معتقلاً.

ثم اتفق الكافة على إسلام المدائن والحصون إلى يحيى المعتلى، فاستبد وعلى سلطانه، وتوجه إلى حصار ابن عبَّاد بإشبيلية إلى أن قتله البرزالي من أصحابه غيلة بدس ابن عبَّاد إليه في ذلك، فانقطع ملك الحموديين من قرطبة، فرجع أصحابه إلى مالقة، دار ملكهم، فبعثوا إلى أخيه إدريس، وهو بسبتة، فبايعوه، وتلقب بالمتأيد وبايعته المرية ورندة والجزيرة، وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على سبتة وتوجه لقتال ملوك الطوائف وكان له عليهم ظهور، ووجه عماله إلى أبي القاسم ابن عبَّاد، فقتلوه وبعثوا رأسه إليه، ثم مات بعد يومين من قدوم رأس ابن عباد عليه، فبويع ابنه، فلم يسكن له نهوض.

فاستدعى أصحابه الحسن بن أخيه المعتلي، من سبتة، وبايعوه ولقبوه المستنصر، وبايعه غرناطة وجهاتها، ثم هلك مسموماً، وترك أخاً صغيراً، فغلب عليه نجا الصقلبي، كبير قوادهم، فاعتقله ودعا لنفسه وتبعه الجند، ثم نهض إلى الجزيرة، فاغتاله في طريقه بعض عبيد القاسم، فبلغ الخبر أهل مالقة، فثاروا بأصحابه وأُخْرج أخو الحسن، وهو إدريس المعتلي من معتقله، وبويع ولقب العالي، ودخلت في طاعته غرناطة وقرمونة.

ثم قام عليه ابن عمه، محمد بن إدريس المتأيّد، فبويع بمالقة ولقب المهدي، وأطاعته غرناطة وجيّان.

فلما مات، بويع إدريس ابن أخيه يحيى ولقب الموفّق، فزحف إليه

العالي، إدريس (128) المخلوع، فغلب عليه، فبويع العالي بمالقة، فتملكها سنتين وأشهراً ومـات.

فبويع ابنه، محمد ولقب المستعلي، فخطب له بمالقة والمرية ورندة إلى أن تغلب عليه بـاديس بن حبُّوس، صاحب غرناطة، ففرّ إلى المرية مخلوعاً، فاستدعاه أهل مليلة فجاز إليهم وبايعوه، فملك القلوع، وجارت وبطوية وما والاها أحد عشر عاماً.

وبموته انقرضت دولة بني حمود الإدريسية من الأندلس والمغرب، والبقاء لله وحده.

أبناء سليمان

وأما أبناء سليمان بن عبد الله الكاه ، إخوة الأدارسة، فإنهم تملكوا المغرب الأوسط. وذلك إن سليمان بن عبد الله الكامل، لما بلغه خبر موت أخيه إدريس، بعد ما تَسَنَّىَ له من الملك بالمغرب، جاء إلى المغرب متنكراً حتى بلغ تاهرت، فطلب الأمر هنالك، فلم يصدقه البربر [في دعواه] إنه أخو إدريس، فاشتد البحث عليه من بني الأغلب، فأوحى ذلك بتحقيق دعواه عند البربر، فجاء إلى تلمسان، فبايعه من بها من قبائل زناتة وتملكها مدة طويلة.

فلما هلك، تملكها ابنه محمد بن سليمان. وفي أيامه استفحل ملك ابن عمه إدريس بن إدريس بالمغرب الأقصى، فاستدعاه محمد هذا ليستعين به على البلاد المشرقية، فقدم عليه إدريس وقدموا جيوشاً دوخوا بها شلفاً وما وراءه إلى أحواز بجاية، ثم رجع إدريس إلى بلاده وترك المغرب الأوسط بيد ابن عمه، محمد بن سليمان، ففرق محمد بنيه على أعماله، فأقام ابنه عيسى بأرشكول، وأقام ابنه إدريس بجراوة، وأقام ابنه الحسن بتاهرت وأقام ابنه إبراهيم بتنس.

وكان ابنه أحمد ولي عهده معه بتلمسان. فلما هلك محمد بن سليمان، تملك تلمسان من بعده ابنه (129) أحمد، وليّ عهده، فأبقى إخوته على نحو

ما فعل أبوه، فصار كل من هو بموضع يتوارثه أعقابه. واختص هو وأعقابه بدار الملك التي هي تلمسان، فلما هلك تملكها من بعده ابنه محمد بن أحمد.

فلما هلك محمد، تملكها من بعده ابنه القاسم ابن محمد، وهو آخرهم، وتغلب عليه بنو عبيد.

والقاسم هذا، هو جدّ أمير المؤمنين المتوكل، على ما صححه صاحب ترجمان العبر، محتجاً بأن هذا هو الذي كان في هذه البلاد.

فلما غلب عليه العبيديون، دخل بنو عبد الوادِ القاطنين بصحراء تلمسان، فأصهر فيهم وعقب عقباً مباركاً فشى فيهم حتى زاد عليهم بخلاف أعقاب الادارسة، فإنهم إنما كانوا يلتفون بغمارة الريف.

وخالفه صاحب بغية الرواد، وقال إنه لما قتل ابن بـلِّي عامل الحسن ابن كنون آخر ملوك الآدارسة بالمغرب (130).

ولمّا هلك عيسى، صاحب أرشكول، خلفه ابنه، إبراهيم. فلما هلك، خلفه ابنه يحيى وخلفه أخوه إدريس.

وأما إدريس، صاحب جراوة، فإنه لما هلك، خلفه ابنه أبو العيش، عيسى. فلما هلك، خلفه ابنه، الحسن.

وأما الحسن، صاحب تاهرت، فإنه لما هلك، خلفه ابنه حناش، فلما هلك، خلفه ابنه بطوش

وأما إبراهيم، صاحب تنس، فإنه لما هلك خلفه ابنه محمد ومعه أخوه عيسى.

ومن ولد عيسى هذا كان إبراهيم الذي ينتسب إليه سوق إبراهيم، بشلف.

فلما هلك محمد خلفه ابنه يحيى. فلما هلك يحيى خلفه ابنه علي وحمزة الذي ينتسب إليه سوق حمزة، من أحواز بجاية. وحمزة هذا، هو ابن علي، صاحب تنس. وغلب العبيديون عليهم كلهم حين ملكوا المغرب الأوسط.

انتهى المقتبس من كتاب التنسي.

الملحق الثاني

الملوك الأدارسة في المغرب الأقصى

وفي المغرب الأوسط

لمؤرخ مجهول من القرن الثامن الهجري

(محفوظة بالخزانة العامة بالرباط)



بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن ملوك الادارسة [ينحدرون] من سيدنا ومولانا إدريس الحسني القائم بأمور المغرب، واسمه، مولانا إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بويع بمدينة وَلـيلي[1] يوم الجمعة، الرابع [عشر] من شهر رمضان المعظم، عام اثنين وسبعين ومائة.

قال أبو محمد، عبد الملك بن محمد الوراق، في كتاب المقياس وغيره، ممن عُنـي بأمور التاريخ، إن الإمام إدريس لمّا توفي[2] ترك ولده، مولانا إدريس (الثاني) في بطن أمه[3] فلما ولد بعده تولّ الخلافة[4]. وقد كان مولده

---

(1) ولـيلي، هو الشكل الشائع بين المؤرخين والجغرافيين العرب. وقد يكتب اسم المدينة أيضاً، وليلة وهو الرسم الذي تحمله النقود الإدريسية التي ضربت فيها. واسم المدينة القديم Walili، وهي التي يذكرها الحسن بن محمد الوزان باسم Gualili. ولكن العلاقة بين ولـيلي الإدريسية ووليلي الرومانية لاتزال غير واضحة. والمدينة تحمل في الوقت الحاضر اسم قصر فرعون. راجع وصف ولـيلي في معجم البلدان (384/5) روض القرطاس (الطبعـة الحجريـة) زهرة الآس (ص 9) جذوة المقـتبس (ص 80) وكـذلك Gautier (F), le Passé de l'Afrique du Nord (P. 289 — 90) و Fournel, Etude sur la Conquête de l'Afrique du Nord (P. 132) إسماعيل العربي، دولة الادارسة، ملوك فاس وتلمسان وقرطبة، الفصل الثاني.

(2) راجع تفاصيل اغتيال سليمان بن جرير لإدريس الأول، في الفصل الثاني أعلاه، ص 67-68.

(3) وهي جارية بربرية اسمها كنزة (وفي رواية ضعيفة أنها زوجته وانها ابنة عبد المجيد الأوربي).

(4) في رواية معظم المؤرخين أن بيعة إدريس الثاني تمت في جامع وليلي في مستهل ربيع الأول، سنة 186 هـ.، (10 مارس 802م)، ولكن رواية لصاحب روض القرطاس، اعتمدها الجزنائي

في يوم الاثنين الثالث من شهر رجب الفرد، عام سبعة وسبعين ومائة[1].

وقيل إنه لما أراد مولانا إدريس بناء مدينة فاس، اشترى مكانها من أربابها بستة آلاف دينار[2]، ودفع الثمن وأشهد عليهم بالعدول بذلك، وشرع في بناء المدينة، وكان ابتداء بنائه لها في يوم الخميس، غرة 5 ربيع الأول، سنة اثنتين وتسعين[3] من الهجرة، وابتدأ بعدوة الأندلس منها وأدار عليها السور.

وبعدها بسنة، ابتدأ عدوة القرويين، وذلك في غرة ربيع الثاني من عام ثلاث وتسعين ومائة، وابتدأ ببناء سور عدوة الأندلس القبلي، فأدار السور عليها، وبنى بها الجامع برحبة البير المعروف بجامع الأشياخ [2] وأقام فيه الخطبة ثم شرع في بناء عدوة القرويين، وكان موضعها شجراً وغابة كبيرة، فكان يقطع الشجر والخشب ويبني في موضعه، وأعجبه ما رآه من كثرة عيون الماء بها والأنهار، وبنى بها المسجد المعروف بجامع الشرفاء، ثم أخذ في بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء من أولاده. ثم بنى القسارتين وأمر الناس بالبناء والغرس، وقال لهم، من بنى موضعاً فهو له.

فبنى الناس الديار وغرسوا الأشجار، فكان الرجل يعلم مكان داره وبستانه ويقطع منه الخشب ويبني به ولا يحتاج إلى خشب غيره.

= وصاحب سلوة الأنفاس، تقول إن البيعة وقعت في يوم الجمعة 7 ربيع الأول سنة 188 هـ.، وفي رواية البكري وابن الأبار، ان إدريس الثاني، بويع في سنة 177 هـ.

(1) وفي رواية الحلة السيراء وزهرة الآس والبكري وروض القرطاس والكامل لابن الأثير والدرّ النفيس لعبد الحي الكتاني وسلوة الأنفاس لمحمد الكتاني والدرر السنية للسنوسي والدرر البهية للحلبي، ان إدريس الثاني ولد في يوم الاثنين، الثالث من شهر ربيع الأخير، سنة 175 هجرية.

(2) هذه أيضاً، رواية رواية روض القرطاس وصاحب زهرة الآس الذي لا شك في أن يكون قد نقلها عنه.

(3) هذا هو التاريخ الذي ذكره أيضاً صاحب الدرر البهية (ص 8) وزهرة الآس (ص 19) وسلوة الأنفاس (ص 73) وابن سعيد في البديع (مخطوط). ولكن رواية أخرى، اعتمدها ليفي بروفنسال وبعض المستشرقين، تقول إن مدينة فاس بنيت في عهد إدريس الأول، في سنة 172 هـ. (789م). ونحن قد ناقشنا الرواية الأخيرة باستفاضة وبيّنّا ما فيها من الضعف في الفصل الثالث من كتاب دولة الادارسة.

وورد عليه في تلك الأيام جماعة من الفرس، من بلاد العراق، فأنزلهم بناحية عين علوان.

وكانت عين علوان غابة وأشجاراً ملتفَّة وعليقاً وكلخاً وبسباساً، وكان بها عبد أسود يقطع الطريق هنالك، وكان الناس قبل بناء المدينة يتجنبون الجواز من هناك من أجل علوان المذكور وكثرة الوحوش المؤذية، من السباع وغيرهم، وكثرة الشجر ولا يسلكونها إلا جماعات من الناس.

فلما سمع مولانا إدريس بخبر علوان، أمر بقبضه، فخرجت الخيل في طلبه، فقبضوه وأتوا به إليه، فأمر بقتله وصلبه هنالك، على رأس العين المذكورة، فبقيي علوان مصلوباً حتى تمزقت أعضاؤه وسقطت أوصاله، فسميت العين إلى الآن [باسمه].

وقيل إن الأمير عجيسة بنى فيها سوراً وعمل فيه [3] باباً سماه باب الكنيسة، كما فعل أخوه، الفتوح في عدوة الأندلس. والأمير فتوح والأمير عجيسة كانا بالمدينة المذكورة في أيام زناتة. وهما أخوان شقيقان.

واختلف الناس في السبب الذي سميت به فاس، فقيل إن مولانا إدريس لما شرع في بنائها، كان يعمل فيها بيده مع البنائين تواضعا منه لله تعالى ورجاء الأجر والثواب، فصنع بعض خدمه فأساً من ذهب[1] وفضة، فكان مولانا إدريس يمسكه ويبدأ به الخدمة، فكثر عند الناس ذكر الفاس على ألسنتهم في طول مدة البناء، فكان الخدامون يقولون: هات الفاس، خذ الفأس، إحفر بالفاس، فسميت المدينة فاس لأجل ذلك.

قال صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار إنه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة [وجدوا] فأساً كبيراً طوله أربعة أشبار، وسعته شبر، ووزنه ستون رطلاً، فسميت المدينة به.

---

(1) هذه أيضاً رواية صاحب القرطاس والجزنائي الذي ينتقدها، قائلاً إن إدريس الثاني لا يجهل أن استعمال الذهب محرم على الرجال..

وقيل أيضاً إن مولانا إدريس لما شرع في بنائها، قال له كاتبه، أيها الأمير، كيف نسموها؟

فقال، باسم أول رجل يجوز عليكم.

فمر رجل بهم فسألوه عن اسمه وكان ألَثّ، فقال، إسمي فارس، فأسقط الراء من اسمه لأجل اللثة.

فقال مولانا إدريس سموها بإسمه، كما نطق به، فقالوا فاس.

وقيل سميت فاس، لأن قوماً من الفرس قد نزلوها مع مولانا إدريس، حين أسسها، فسقط عليهم جرف، فماتوا تحته من حينهم، ولم يـنـج منهم إلا القليل، فسميت بهم «مدينة الفرس»، ثم خفف الناس الاسم، فقالوا: مدينة فارس، ثم سقط[4] الراء من اللفظ اختصاراً، فقالوا: «مدينة فاس»[1].

وقيل، لما تم بناء المدينة قيل لمولانا إدريس، كيف نسميها، قال سموها باسم المدينة التي كانت بموضعها هنا قبلها والتي خربت قبل الإسلام بألف وسبعمائة سنة، وكان اسمها ساف، ولكنه قلّب حرفها الأول، فأتى منه فاس، وهذا أصح ما يمكن في تسميتها، والله أعلم.

وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم [إلى غاية] من العمارة و[بلغ] عدد مساجدها أيـام المنصور[2] وولـده الناصـر[3] سبعمائة مسجد وخمسة وثمانين مسجداً.

---

(1) قارن زهرة الآس للجزنائي (ص 18) والدرر السنية للسنوسي (ص 99).

(2) يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي، أبو يوسف، المنصور بفضل الله، ولد في سنة 555 هـ. بقصر جده، عبد المؤمن بمراكش وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، في سنة 580 هـ وهو في وقعة «شنترين» فرجع إلى إشبيلية حيث استكمل البيعة. وقد وجه عنايته إلى الإصلاح والعمران فازدهرت الحياة الاقتصادية في عهده وذلك في الوقت الذي واصل فيه فتوحاته. وقد ثار عليه ابن غانية فجهز له جيشاً وشتت شمل أنصاره. مات في سنة 595 هـ (1199م). راجـع سيرتـه في وفيـات الأعيـان (7/3 — 19) العبـر (241/6) الاستقصـا (164/1 — 184) نفح الطيب (الفهرست) أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس ص 309) مرآة الجنان (479/3) الحلل الموشية (ص 121) روض القرطاس (ص 153) الجذوة (ص 348) الكامل لابن الأثير (57/12) الإحاطة (570/1 — 573).

(3) محمد بن بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الزناتي الكومي الناصر لدين الله. شملت =

وأُحصي ما بها من السقـايات ودور الـوضوء [فبلغ] مـائة واثنتـين وعشرين، منها ديار الوضوء، إثنان وأربعون، وباقيها سقايات، منها بمـاء العيون، ومنها بماء الأنهار.

وأُحصيت الحمامات المبرزة بها للناس في تلك المدة فكـانت ثلاثـة وسبعين، دون ما بخارجها من الأحياء.

وأُحصيت الديار بها أيضاً في أيام الناصر، فكانت ثمانين ألف دار ومائة وستة وثلاثين ألف دار: تسعة عشر ألف وإحدى وأربعين داراً مصرية.

ومن الفنادق المعدة للتجار والغرباء والمسافرين أربعمائة وسبعة وستين فندقاً.

وأُحصيت الحوانيت بها في المدة المذكورة، فكانت تسعة آلاف حانوت واثنـين وثمانـون حانـوتاً. و[فيهـا] ساريتـان، احداهمـا بعدوة القـرويـين والأخرى، بعدوة الأندلس.

وأُحصيى ما بها من الترابيع، والـطرازات التي تصنع فيهـا الحياك [فبلغت ثلاثة آلاف وأربعة وستين موضعاً.

وكان بها من الديار المعدة لصنع الصابون، سبعة وأربعين داراً[5]، ومن ديار الدبغ ستة وثمانين داراً، ومن ديار الصباغة مائة وستة عشر دار. وكان بها ستة عشر داراً لسبك النحاس، وكان بها من الأكواش (المخابز) التي تعمل الخبز، مائة وستة وثلاثون كوشة، وكان بها أحـد عشر موضعاً لعمل الزجاج.

= خلافته المغرب الأقصى وافريقية والأندلس. بويع في حياة أبيه وجددت له البيعة بعد وفاته في سنة 595 هـ. ثار عليه ابن غانية فاستولى على طرابلس والمهدية وتونس ولكن النـاصر استخلص منه هذه المدن بعد قتال عنيف في سنة 602 هـ. وقد استشهد في وقعة «العقاب» التي وقعت بينه وبين الافرنج في سنة 609 هـ (1213م) عدد كبير من المسلمين، وأما هو فقد عاد إلى المغرب حيث توفي في الرباط في السنة التالية. راجع سيرته في العبر (246/6) الحلل الموشية (ص 122) الجذوة (ص 129) القرطاس (ص 146) الاستقصا (189/1) الذخيرة السنية (ص 22) دول الإسلام للذهبي (85/2) النفح (الفهرست).

وبخارجها من الديار المعدة لعمل الفخار مائة دار وثمانية وثمانون داراً.

وكان بها أربعمائة موضع لعمل الكاغد. و[قد] خرب ذلك كله في أيام الجوع وأيام الفتنة التي كانت في أيام العادل[1] الموحدي وأخيه المأمون[2] والرشيد[3]، وذلك من سنة ثمانية عشرة إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكانت مدة الخراب بها عشرين سنة، إلى أن ظهرت الدولة المرينية، فانجبرت البلاد وتأمنت الطرقات.

قال الإمام البرنوسي، رضى الله عنه، توفي مولانا إدريس، رضي الله عنه بمدينة أوليلي من بلاد زرهون، في الثاني عشر من جمادى الأخيرة سنة ثلاث عشرة ومائتين وسنة يومئذٍ ثلاثة وثلاثون سنة، ودفن بها[4].

---

(1) عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الكومي. جاءته بيعة أهل مراكش بالخلافة وهو بمرسية حيث كان أميراً على الأندلس في سنة 621 هـ.، وكان ذلك عقب خلع عمه عبد الواحد بن يوسف. وقد اتجه إلى المغرب الأقصى بعدما ولى أخاه، أبا العلاء، على الأندلس. وقد قتل خنقاً في سنة 624 هـ. (1227م)، وقد شهد المغرب في أيامه كثيراً من الفتن والمحن. راجع عن العادل: تاريخ الدولتين الموحدية (ص 15) الحلل الموشية (123) الاستقصا (196/1).

(2) إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، أبو العلا، المتلقب بالمأمون. كان أميراً شجاعاً متضلعاً من الأدب والفقه، ولكنه كان أيضاً جباراً فتاكاً. كان في إشبيلية حينها بلغه خبر الثورة على أخيه وخنقه، فدعا إلى نفسه وعقدت له البيعة بمراكش والأندلس. ولما عدل عنه الموحدون واختاروا عليه ابن عمه يحيى بن الناصر وأدرك عدم مقدرته على مواجهته، استعان بالإفرنج، فأمده ملك قشتالة باثني عشر ألف مقاتل ودخل على رأس هذه القوة إلى سبتة في سنة 626 هـ. وأخذ البيعة. مات في سنة 630 هـ (1232م)، وعلى يده تفتّتت دولة الموحدين. راجع سيرته في الإحاطة (417/1 — 419) الاستقصا (197/1) الحلل الموشية (ص 133).

(3) عبد الواحد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور. ولي بعد أبيه في الأندلس ودخل إلى مراكش حيث اعتمد على قوات الإفرنج التي استقدمها أبوه. وفي أيامه استولى النصارى على قرطبة (سنة 636 هـ) مات غريقاً في بحيرة في سنة 621 هـ (1224م). راجع سيرته في الحلل الموشية (ص 125) الاستقصا (201/1).

(4) هذا هو التاريخ الذي أورده لوفاة إدريس الثاني كل من ابن الأبار في الحلة السيراء (53/1) والتنسي في قلائد الدرّ والعقيان (مخطوط) وعبد الرحمن ابن خلدون في العبر (14/4) ويحيى بن خلدون في بغية الرواد (ص 80) وصاحب روض القرطاس الذي قال إنه دفن في فاس، =

وكان سبب وفاته إنه أكل عنباً فشرقت له حبة منه فمات من حينه، فكانت أيام ملكه بالمغرب، ستا وعشرين سنة.

وترك بعده اثني عشر ذكراً من أولاده.

[أعقبه] ولده الأمير سيدي محمد بن إدريس بن إدريس الحسني بالمغرب [ودام ملكه] ثمانية أعوام وشهر واحد[1].

كانت أيامه بالمغرب وتوفي بمدينة فاس، فدفن بشرق جامعها مع أخيه[6]، وذلك في شهر ربيع الثاني، سنة إحدى وعشرين ومائتين[2].

[وقد أعقبه على] ملكه مولانا علي بن محمد بن إدريس الحسني[3].

لما تولى الملك، سار بسيرة أبيه وجده في العدل والفضل والدين والحزم وإقامة الحق وتأسيس البلاد وقمع الأعداء وضبط الثغور، فكان الناس في أمن وعافية إلى أن توفي في شهر رجب من عام أربع وثلاثين ومائتين، فكانت أيامه بالمغرب نحو ثلاث عشرة سنة.

وتولى بعده أخوه، الأمير يحيى بن محمد بن إدريس الحسني.

تولى الملك بعد وفاة أخيه علي، فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده.

وفي أيامه كثرت العمارة بفاس وأتى إليها الناس من الأندلس وافريقية،

= والقلقشندي في صبح الأعشى (80/5) وابن عذاري في البيان (211/1) والبكري في كتاب المغرب (ص 123) والسلاوي في الاستقصا (75/1) الذي يذكر انه دفن في ولـيلي، ولكنه ينقل رواية لأحمد زروق البرنوسي تقول انه دفن في فاس، والجزنائي صاحب زهرة الآس.. (ص 22) الذي قال إنه دفن في فاس. وهي الرواية التي اعتمدها عبد الحي الكتاني في الدر النفيس وأما ابن الأثير، فقد أورد وفاة إدريس الثاني ضمن حوادث سنة 214 في الكامل (415/6) وقد تبعه في هذا التاريخ إسماعيل أبو الفدا في المختصر في أخبار البشر (30/2) ولكنه أشار إلى الرواية التي تقول بوفاة إدريس الثاني في سنة 213 هـ.

(1) راجع عن دولة محمد بن إدريس واخوته، الفصل الرابع أعلاه.

(2) كذا في الأصل. والأولى قراءة: مع أبيه. فإن بعض الروايات تقول بأن إدريس الثاني دفن في فاس، وليس في أوليلي، كما ذهب المؤلف.

(3) أنظر عن دولة علي بن إدريس، نفس المرجع.

ومن بلاد [أخرى]، فضاقت بسكانها، فبنت الناس في الأراضي [الواقعة] بخارجها من كثرة ما بالمدينة من العمارة.

وبنى الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم. وفي أيامه بني جامع القرويين شرفه الله بذكره. **جامع القرويين، صفته، وما يزيد فيه من كل زمن من حين أسس إلى وقتنا هذا، وهو عام تسع وعشرون وسبعمائة.**

قال المؤلف، عفا الله عنه: لم تزل الخطبة بجامع الشرفاء الذي كان بناه مولانا إدريس بعدوة القرويين، وبجامع الأشياخ، بعدوة الأندلس، طول [أيام] الدولة الإدريسية.

وكان موضع جامع القرويين أرضاً بيضاء، وبها أصناف الشجر لرجل من هوارة، كان قد حازها والده قبله، حين بنيت المدينة، فأتى وفد من القيروان إلى مولانا إدريس في جمع كثير بعيالهم وأولادهم[7] فأنزلهم بعدوة القرويين، وكانت فيهم امرأة مباركة صالحة اسمها، فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني مع أختها وزوجها، فسكنوا بقرب موضع الجامع المذكور، فتوفي زوجها وأختها، فورثت منهما مالاً كثيراً حلالاً طيباً، ليس فيه شبهة ولم يتغير ببيع ولا شراء، فأرادت أن تصرفه في وجوه الخير وأعمال البرّ، فعزمت على بناء مسجد تجد أجره في الدار الآخرة، فاشترت موضع القرويين ممن كان بيده ودفعت إليه الثمن، ثم شرعت في حفر الأساس وبنائه، وذلك يوم السبت، مستهل شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائتين، فبنته بالطابية والدكان (كذا)، وحفرت في وسطه كهوفاً اقتطعت من الكدّان، وهو الحجر، وأخرجت التراب منها والحجر والرمل الأصفر الطيب، فبنت منه الجامع المذكور كله، حتى انتهى، ولم تجعل فيه من تراب غيره.

وحفرت البئر الذي في الصحن، فكان البناؤون يسقون من مائها حتى فرغوا من بنائه، ولم تستصرف فيها سواه، خوفاً من الشبهة.

ولم تزل فاطمة القروية المذكورة صائمة من يوم شرعت في بنائه. وقيل

(1) كذا في الأصل وهو تحريف واضح لكلمة الفهرية.

كانتا أختين: فاطمة أم البنين وأختها مريم بنت محمد الفهري، فبنت فاطمة جامع القرويين، وبنت مريم جامع الأندلس من مال حلال طيب، موروث عن أبيهما واخوتهما[1].

فلم يزل المسجدان المذكوران على ما بنتهما الأختان المذكورتان بقية أيام [الدولة] الإدريسية كلها إلى انقضاء أيامهم وملك[8] زناتة البلاد فزادوا في الجامعين زيادة كبيرة ماتزال باقية إلى الآن[2].

فلما كثر الناس وضاق مسجد الشرفاء بالناس لصغره، أزالوا منه الخطبة وأقاموها بجامع القرويين لكبره ووسعوه وكان ذلك في سنة ثلاثمائة [وخمس وأربعين]، كما انتقلت الخطبة من جامع الأشياخ إلى جامع الأندلس المعروف الآن.

الخبر عن صومعة جامع القرويين.

لما شرع الإمام أبو العباس، أحمد بن بكر في بناء صومعة جامع القرويين، جعل سعة كل وجه منها سبعة وعشرين شبراً، فيتحصل في أربع جهات، مائة شبر وثمانية أشبار، وهو الذي في ارتفاعها، بلا شك ولا ريب.

وجعل بابها من جهة القبلة وكتب عليه في مربعة بالجص وحشاه بالأزوت، وكتب عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. الملك لله الواحد القهار.

---

(1) تقول الرواية إن جامع الأندلس بني في سنة 245 هجرية.

(2) لما بايع أهل فاس الناصر لدين الله (عبد الرحمن بن محمد)، خليفة الأندلس، ولّى على فاس عاملاً له، وهو أحمد ابن أبي بكر بن أحمد بن سعيد الزناتي. وقد كتب هذا الوالي إلى الخليفة يستأذنه في إصلاح جامع القرويين وتوسيعه، فأذن وبعث إليه بمال كثير لهذه الغاية، فزاد فيه الوالي أربع بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف، بعد أن هدّم الصومعة وأعاد بناءها. وقد تمت هذه الإصلاحات في سنة 345 هجرية.

ومثلما فعل في جامع القرويين، أدخل عامل الناصر إصلاحات على جامع الأندلس ووسعه. وقد نقلت خطبة الجمعة من جامع الأشياخ إلى جامع الأندلس قبل ذلك، بأمر حامد ابن حمدان الهمذاني، عامل العبيديين، عقب تغلبهم على فاس، في سنة 321 هجرية.

هذا ما أمر به أحمد ابن أبي بكر بن أبي سعيد، عثمان بن سعيد، هداه الله ووفقه ابتغاء ثواب الله عز وجزيلّ إحسانه، وكان ابتداء العمل في هذه الصومعة، يوم الإثنين، رجب الفرد، عام أربعة وأربعين وثلاثمائة».

وركب على رأس المنارة تفافيحاً صغاراً مموهة بالذهب وركب في أعلاها سيف الإمام إدريس الذي بنى المدينة تبركاً بـه.

ولم تزل الصومعة على ما بناها الإمام أحمد بن أبي بكر، بالحجر المنجور المحكم، إلى أن تولىّ الفقيه الصالح أبو عبد الله بن أبي الضير خطة القضاء مع الخطبة والإمامة بالجامع المذكور، وذلك عام ثمانية وثمانين وسبعمائة، فاستشار في إصلاحها وتبييضها أمير المسلمين أبي[9] يعقوب بن عبد الحق، فأذن له في ذلك وأمره أن يأخذ من الأموال أعشار [. . .] ما يحتاج إليه. فقال إن في مال الأحباس ما فيه كفاية، إن شاء الله تعالى.

فشرع في تبييضها، فلبس الصومعة بـالجص والجير وسمّـر المسامـير الكبيرة بين أحجارها ليثبت التلبيس والبناء، فدخل فيها من المسامير، ثلاثة عشر ربعاً ونصف ربع.

فلما فرغ من تلبيسها، دلكها حتى صارت كالمرآة الصقيلة، فانقطعت عنها حينئذٍ إذاية الطير.

وعدد سواري الجامع مائتا سارية واثنتان وسبعون سارية، منها قديمة ومنها جديدة. وعدد المسقفة منها ستة عشر بلاطا، من القبلة إلى الجوف، ومن المغرب إلى المشرق.

ويحمل كل بلاط منها أربعة صفوف، في الصف الواحد من الناس، مئتان وعشرة رجال، لأن في كل بلاط، أحد وعشرون قوساً، يجلس في كل قوس عشرة من الرجال. فيكون العدد في كل بلاط ثمانمائة وعشرة رجال، لا شك فيها ولا ريب.

ويحمل ما بين السواري منه خمسمائة وستين رجلاً، فيحمل من العدد أربعة عشر ألفاً.

والصحن يحمل ألفين وسبعمائة رجل. حجر الجامع يصلي فيه صفوف من الناس غير معتد له، فصحح العدد بألف وخمسمائة رجل.

وحول الجامع رحاب وأسواق يصلي الناس فيها يوم الجمعة، تحمل أربعة آلاف رجل وخمسمائة رجل فيحصل في ذلك كله[10] من عدد المصلين يوم الجمعة اثنان وعشرون ألفاً وسبعمائة، تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً، والإمام واحد، وذلك في سني الهناء والرخاء والعافية والعمارة.

عدد القرمود الذي في معقب (كذا) الجامع، أربعمائة ألف قرمودة وسبعة وستون ألف قرمودة. وعدد أبوابه خمسة عشر باباً كبيرة لدخول الرجال، وبابان صغيران للنساء، لا يدخل عليهما رجل.

وأما الثريات الكبرى فصنعت في أيام الفقيه الصالح الخطيب الورع، أبي محمد، عبد الله بن موسى، وهو الذي اجتهد في عملها. وكانت قبلها في موضعها ثرية أخرى أصغر منها فسبكت وزيد عليها نحاس مثلها واستأجر الصناع على عملها فـ[كلفت] سبعمائة دينار وسبعة عشر ديناراً ودرهمين ونصف.

وعدد قناديلها خمسمائة قنديل وتسعة قناديل، وعدد ما يجعل فيها من الزيت سبعة عشر قنطاراً ونصف رطلاً، يعني وزن القناديل المذكورة من النحاس والذي يحمل في القناديل المذكورة من الزيت، قنطار واحد وسبع [...]. عدد قناديل الجامع المكرم ألف قنديل وسبعمائة قنديل.

---

(1) اختلط الأمر على المؤلف عند هذه النقطة بصورة مزدوجة: فمن ناحية، لا نعرف إبناً لمحمد ابن إدريس يسمى إدريس. فإن ابن حزم لا يذكر في جمهرة الأنساب (ص 49) من الأبناء لمحمد سوى: الحِكم، وعبد الرحمن وعبد الله، وعلي، والحسن ويحيى، وإبراهيم، وأبو طالب. ومن ناحية أخرى، فإن الذي خلف الأمير يحيى في الولاية على فاس (وأما الولاية على المناطق الأخرى، فقد كان محمد وزعها على اخوته في حياته)، فهو يحيى بن يحيى الذي عرف بسوء السيرة إلى حدّ إن بعض المؤرخين، مثل ابن عذاري وابن الخطيب، يهملون ذكره كلية. وهو صاحب فضيحة الحمام المشهورة. وفيما يتعلق بالتاريخ (سنة 221)، فإن محمد ابن إدريس هو الذي مات فيه. وقد ذكر المؤلف ان جامع القرويين بني في سنة 245 هـ، في عهد يحيى بن محمد، ومن ثم فلا يعقل أن تكون سنة 221 تاريخ وفاة خلفه على عرش فاس.

وأما الحائط الجوفي، فإنه مع طول السنين، قد عزم على السقوط، فاستأذن الفقيه القاضي أبو عبد الله المغيلي إلى أمير المسلمين أبي يعقوب في بنائه وإصلاحه وأعطاه خلخالين من الذهب، وزنهما خمسمائة دينار ذهباً[11] وقال له أصرفه في بناء الحائط المذكور، فإنهما حلال محض من غنائم الروم ببلاد الأندلس فورثهما عنها، فلم نجد لهما موضعاً أفضل من هذا، وذلك سنة تسع وتسعين وستمائة.

ثم تولى الخلافة بعده، مولانا إدريس[1] ولد سيدي محمد بن مولانا إدريس (الثاني) بن إدريس (الأول) الحسني بالمغرب، فبقي بمدينة فاس وتوفي فيها ودفن بشرق جامعها، مع أخيه، وذلك في شهر ربيع الثاني، سنة إحدى وعشرين ومائتين، فكانت أيامه بالمغرب ثمانية سنين وشهر واحد.

واستخلف ولده علي في موضعه الذي توفي فيه، ثم تولى الخلافة بعده ولده، مولانا علي، فبقى متولياً نحو ثلاث عشرة سنة، وتولى بعده أخوه يحيى[2] فسار بسيرة أخيه وأبيه، وبويع له بمدينة فاس وقاتل عبد الرزاق الخارجي حتى أخرجه من عدوة الأندلس.

ثم تولى الخلافة بعده الأمير الحسن بن سيدي محمد بن سيدي القاسم بن مولاي إدريس الحسني المعروف بالحجام[3].

---

(1) الأمير الذي تولى الحكم في فاس بعد يحيى بن يحيى، هو علي بن عمر بن إدريس، والد زوجة يحيى بن يحيى التي استدعته بعد وفاة زوجها (وكان أميراً على الريف والسواحل). وبذلك انتقل الحكم من سلالة محمد بن إدريس إلى سلالة أخيه عمر بن إدريس. وقد استمر في الحكم حتى ثار عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي المذهب الصفري النزعة ودخل الفريقان في معركة انتهت بهزيمة علي بن عمر. راجع عن هذه الأحداث خصوصاً، البكري (ص 124 — 125) العبر (15/4) أعمال الأعلام (ص 207 — 208) وانظر كذلك، الفصل الرابع من كتابنا، دولة الادارسة.

(2) المقصود هو يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالعدام. فبعد ما قاتل الخوارج، استتب له الحكم ولم يزل ملكاً على فاس وأعمالها، حتى اغتاله ربيع بن سليمان في سنة 292 هجرية (904 — 905م). فتقدم يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس إلى مدينة فاس، فدخلها. وبذلك رجع الأمر إلى سلالة عمر. وقد استمر حكم يحيى حتى قدم مصالة بن حبوس سنة 307 هـ.

(3) كانت فاس في يد ريحان الكتامي، عامل العبيديين، حينما قام الحسن الحجام بالثورة واستولى عليها في سنة 310 هـ (حسب رواية القرطاس والاستقصا). وقد دخل الحجام في معارك عديدة =

وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، خرج الأمير الحجام إلى قتال موسى ابن أبي العافية، فكانت دولة الحجام بفاس نحو عامين.

الخبر عن دولة موسى بن أبي العافية بفاس وكثير من أعمال المغرب

بـقي [ابن أبي العافية] هناك إلى أن حاربه أبو القاسم الشيعي وفر [12] ابن أبي العافية[1] إلى ناحية الصحراء، فبقي هنالك. ولم يزل هارباً بالصحراء وأطراف البلاد التي بقيت بيده إلى أن قتل في بعض بلاد ملوية؛ وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، قاله البرنوسي.

الخبر عن دولة الأمير الحسن بن القاسم الملقب كنون[2].

قدمه بنو إدريس على جميعهم بعد فرار موسى ابن أبي العافية أمامهم، فتملكوا أكثر البلاد بالمغرب إلى أن تـوفي في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة[3]

= ضد موسى بن أبي العافية انتصر حسن في آخرها (في فحص الزاد). ولكن عامل حسن على فاس غدر به وتواطأ مع موسى بن أبي العافية، وانتهى الأمر بموت الحسن الحجام. وبذلك انتهت الدولة الإدريسية الأولى.

(1) موسى بن أبي العافية بن أبي بسال، بن أبي الضحاك المكناسي، مؤسس الدولة المكناسية في المغرب الأقصى. عقد له ابن عمه مصالة بن حبوس، قائد جيوش العبيديين علي المغرب في سنة 305، ثم ضم إلى عمله فاس، فيما بعد. وقد قاتل الادارسة بدون هوادة حتى أجلاهم عن إماراتهم وأصبحت مملكته في سنة 317 هـ. تمتد من تيهرت إلى السوس الأقصى. وبعدما دخل في طاعة خليفة الأندلس، قتل في صحاري المغرب الأقصى في سنة 341 هـ. راجع أخبار دولتـه في الاستقصـا (80/1) البيـان (194/1 — 199 — 201 — 202 —212— 214) العبـو (134/6 — 135)، وكذلك الخامس من كتابنا، دولة الادارسة.

(2) الحسن بن القاسم كنون، آخر ملوك الادارسة في الدولة الثانية في الريف وفي جهة فاس. ولي بعد أخيه أحمد وكان يدعو لخليفة قرطبة، فانتقم منه المعز الفاطمي بإرسال جيش إليه، فتحول إلى الفاطميين. (سنة 339) ولما خشي انتقام المروانيين خلع دعوة الفاطميين. وإثر ذلك سار إليه بلكين بن زيري، فخضع له الحسن، الأمر الذي أغضب صاحب قرطبة وجرّدله جيشاً أخضعه وقاده إلى الأندلس. وبعدما نفاه المستنصر اتجه إلى مصر ومن هناك عاد إلى المغرب وأعاد بناء دولته (سنة 373). ومـرة أخرى دخـل في حروب طـويلة مع الأنـدلس انتهت باستسلامه ثم بقتله بأمر من المنصور بن أبي عامر في سنة 375 هـ (985م). راجع الفصل السادس من كتابنا، دولة الادارسة، والمراجع التي أحيل إليها هناك.

(3) كذا في الأصل. والصواب هو ما ذكرناه في الهامش أعلاه. على ان المؤلف سيصحح نفسه في =

فتولى بعده ولده (كذا) أبو العيش، أحمد بن كنون[1] الحسني [الذي] بقيى متولياً لأعمال المغرب إلى أن توفيى رحمه الله. وهو آخر ملوك الادارسة (كذا)، وكانت مدتهم بالملك من يوم بويع مولانا إدريس بن عبد الله بمدينة ولـيلي، وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول، عام اثنتين وسبعين ومائة إلى أن قتل الحسن بن كنون في شهر جمادى الأولى، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وذلك مدة مائتي سنة وخمسة أشهر.

وكانت أعمالهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، ومقعد ملكهم مدينة فاس، حرسها الله.

فهذا ما عندنا من خبرهم، رحمهم الله، ورضي عنهم وأرضاهم، آمين يا رب العالمين.

انتهى بحمد الله تعالى، ذكر ملوك الأدارسة بمدينة فاس، رحمهم الله.

انتهى الاقتباس من مخطوطة كتاب دولة الأدارسة لمؤلف مجهول.

= الفقرة التالية حين يقول إن الحسن توفي في سنة 375.

(1) وقع المؤلف هنا في اضطراب واختلط عليه الأمر. فإن أبا العيش ليس ولد الحسن كنون، بل هو شقيقه. وفي المكان الثاني، فإن أحمد بن القاسم (أبا العيش) تولى الإمارة بعد أبيه في دولة الادارسة الثانية، في سنة 337 هـ. وكان يقيم في جحر النسر وقد كان أبوه يدعو للعبيديين، فلما تولى هو بايع لعبد الرحمن الناصر، صاحب الأندلس. وبعد مطالبة الأندلس له بالتنازل عن بعض أعماله، تخلى عن الحكم وسار إلى الأندلس في رسم الجهاد حيث استشهد في إحدى الوقائع في سنة 348 هـ (959م). راجع أخباره أعلاه في كتاب دولة الأدارسة وفي المراجع المحال إليها.

ثبت المراجع العربية والافرنجية

- اتّعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين والخلفاء للمقريزي طبع مصر، 1367 هـ.
- آثار البلاد وأخبار العباد، لزكرياء القزويني، بيروت، 1969.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحلام (القسم الخاص بالمغرب) تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ـ الدار البيضاء، 1964. (القسم الخاص بالأندلس) تحقيق لافي بروفنسال، بيروت 1959.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، القاهرة، 1323 هـ.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاج مدينة فاس، طبعة حجرية، فاس، 1305 هـ.
- الأنوار السنية في نسب من بسجلماسة من الأشراف المحمدية لأبي العباس العلوي مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط رقم 1351 هـ (ضمن مجموعة).
- البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (14 جزءاً) طبع مصر، 1351 - 1358 هـ.
- بغية الرواد ليحيى بن خلدون، طبع الجزائر (مع الترجمة الفرنسية) سنة 1903.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأبي عميرة الضبي مدريد 1884.
- بغية الوعاة للسيوطي، طبع دار المعرفة، بيروت.
- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي (10 مجلدات) طبع مصر، 1306 — 1307 هـ.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لمحمد بن إبراهيم اللؤلؤي (الزركشي)، تونس 1342 هـ.
- تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري، مكتبة خياط، بيروت.
- التعريف بابن خلدون، لابن خلدون، تحقيق المرحوم محمد بن تلويت الطنجي مصر 1951.
- تاريخ غزوات العرب لشكيب أرسلان، مكتبة الحياة بيروت، 1965.

- تاريخ طرابلس الغرب لمحمد بن غلبون الطرابلسي، طرابلس، 1349 هـ.
- تاريخ اليعقوبي، بيروت 1960.
- تقويم البلدان للملك المؤيد أبي الفداء إسماعيل بن علي بن أيوب، تحقيق رينو ودوسلان، باريس 1840.
- جذوة المقتبس للحميدي، طبع مصر، 1952.
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم، تحقيق لافي بروفنسال مصر، 1948.
- الحلة السيراء لابن الأبار، طبع القاهرة، 1963.
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية لشكيب أرسلان(4 أجزاء) مكتبة الحياة بيروت.
- الدر النفيس في ذرية الإمام إدريس لمؤلف مجهول عاش في النصف الأول من القرن الثامن عشر - مخطوط محفوظ بمكتبة السيد إبراهيم الكتاني، وقد مكنني مشكوراً من الإطلاع عليه.
- الدر النفيس في نسب أهل بَبْلا وطرف من أخبار آل إدريس لحسن بن معتوق الببلاوي، طبع دار الكتب المصرية، 1929، كتاب ينبغي النظر في أخباره بكثير من الاحْتياط.
- الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس، طبع فاس 1314 هـ، لأحمد بن عبد الحي الحلبي فيه كثير من الغلو في المدح والتعظيم وهو قليل الفائدة.
- الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية لإدريس العلوي طبع حجر فاس 1314.
- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية لمحمد بن علي السنوسي طبع مصر 1349 هـ، طبعة يشوبها كثير من الأغلاط والتحريف واضطراب الصفحات.
- دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان، القاهرة، 1943.
- الديباج المذهب في أعيان المذهب لابن فرحون، طبع مصر 1351 هـ.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لعلي بن بسام، القاهرة تحقيق احسان عباس 1358-1364 هـ.
- الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك للمقريزي، طبع القاهرة، 1955.
- رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد، تحقيق وداد القاضي، بيروت، 1970.
- رسالة في نسب الأشراف الجوطيين لمحمد بن أحمد المسناوي الدلائي، مخطوط محفوظ في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3158 (مجموعة).
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس للجزنائي، الجزائر، 1923.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس لمحمد الكتاني، طبع فاس 1316 هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي، طبع بيروت.
- صبح الأعشى للقلقشندي (14 جزءاً) طبع مصر 1331 — 1338 هـ.

- صفة جزيرة الأندلس لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق لافي بروفنسال، القاهرة، 1937.
- طبقات علماء افريقية وتونس لأبي العرب القيرواني، تونس 1968.
- الصلة لابن بشكوال، طبع مدريد 1882.
- صورة الأرض، لابن حوقل، طبع دار الحياة، بيروت.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، 7 أجزاء، بولاق 1284 هـ.
- قلائد العقيان للفتح بن خاقان، صورة لطبعة باريس، تونس 1966.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، طبع بيروت، 1965.
- كتاب البلدان للهمذاني المعروف بابن الفقيه، طبع ليدن 1302 هـ.
- لسان العرب لابن منظور، طبع دار لسان العرب، بيروت 4 أجزاء.
- كتاب البديع، لابن سعيد المغربي، مخطوط محفوظ في مكتبة أكسفورد تحت رقم Uri 874.
- كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق لافي بروفنسال، بيروت، 1948.
- كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي تحقيق إسماعيل العربي، طبع المكتب التجاري، بيروت، 1970.
- كتاب الجغرافيا - مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1955 (أرجح أنه للجغرافي الأندلسي، الزهري).
- كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، لأبي عبيد البكري، تحقيق دوسلان، الطبعة الثانية، باريس، 1965.
- كتاب الوفيات لابن قنفذ، تحقيق عادل نويهض بيروت، 1971.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، تصوير المثنى لطبعة فلوجل التي ظهرت في سنة 1835.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لأبي محمد بن عبد الله اليافعي اليمنى، 4 أجزاء، بيروت، 1967.
- المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء، 4 أجزاء، مصر 1325 هـ.
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لعبد المؤمن ابن عبد الحق، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1954.
- مروج الذهب للمسعودي، تحقيق وترجمة باربيه دومينار ودوكورناي، باريس.
- المطرب في أشعار المغرب لابن دحية، طبع مصر، 1954.
- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان، طبع مصر، 1302.
- معجم الأدباء (إرشاد الأديب) لياقوت، طبع مرغليوث، 7 أجزاء، 1907.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، طبع بيروت، 5 أجزاء.

- معجم ما استعجم في أسماء البلدان والمواضع، لأبي عبيد البكري، 4 أجزاء، القاهرة، 1945.
- معجم المطبوعات ليوسف سركيس، مصر، 1928.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، طبع القاهرة 1949.
- المغرب وأرض السودان، ومصر، للشريف الإدريسي، طبع ليدن، 1864.
- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي في جزأين، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1964.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان (الجزء الرابع) تحقيق عبد الرحمان الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965.
- المقتبس (الجزء الخامس) تحقيق شالميتا وآخرين نشر المعهد العربي الإسباني، مدريد، 1979.
- الملوك الإدريسية، مخطوط محفوظ في مكتبة كوبنهاجن ولديَّ نسخة مصورة منه.
- المؤنس في أخبار القيروان وتونس لابن أبي دينار القيرواني، تونس، 1967.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغريبردي، طبع دار الكتب المصرية، 12 جزءاً، القاهرة، 1375 هـ.
- نفح الطيب من غصْن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968.
- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي، مجلدان، أسطنبول، 1951 — 1955.
- الوافي بالوفيات للصفدي 4 أجزاء، أسطنبول، 1931.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس. 8 مجلدات، بيروت، 1972.
- يتيمة الدهر للثعالبي، 4 أجزاء، دمشق، 1303 هـ.

المراجع الإفرنجية

- Playfair, Bibliography of Maraco, London, 1892.
- l'Abbé Bargés, Histoire des B, Zian, Rois de Telemcen, Paris, 1850.
- Memoire sur les relations Commerciales de Telemcen que le لنفس المؤلف un Revue de l'orient (1858).

Sudan, Paris, 1887.
- Marçais (G et W), Les Monuments arabes de Telemcen, Paris, 1903.
- Le Tourneau, Fès avant le Protecterat (Thése), 1950.
- Terrasse (H), Histoire du Maroc des origines à l'Etablissement au Protecterat français, 2 vol. Casablance, 1949 - 50.
- Gaillard (H), une ville de l'aslam, Fèz, 1905.
- Lévi - Privençal, La Fondation de Fès, Annales de l'Institut d'etudes orientales, Alger, 1947.
- La voix (H), catalogue des monaies musulmanes de la B. Nationale de Paris (espagne et Afrique de Nord) 1891.
- Fagnan, extraits inedits relatifs au Mazhreb, Alger, 1924
- Bel (A), industrie de Faience Emaillé a Fès Paris - Alger, 1918.
- Gautier (F), le Passé de l'Afrique de Nord Paris, 1964.
- Hombard (M), l'Islam dans sa première grandeur, Paris, 1971.

Lombard 1979 (عتمدت ترجمتي العربية ـ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،)
- Dozy (R) Histoire des Musulmans d'espagne leiden, 1861.
- Caluert (A. F.), Tolede, London, 1907.
- Roman Parro (S), Toledo en la Mano, 1857 طليطلة
- Menedez Pilad, la espagna del cid, Madrid, 1947.
- Basset (R), Recherches sur la religion des Berlères, Paris, 1910.
- Dozy (R) Recherches sur l'histoire et la littérature de l'espagne pendants le moyen âge, 2 vol. Paris, 1881.
- supplément aux dictionnaires Arabes, 2 vol. Beyrouth, 1968. ولنفس المؤلف
- Almany Bolufer, Geografia de la Pénunsula Iberice en lox escrytores arabe, 1927 غرناطة
- Gomez Moreno, d'Iberri de Grenade (Bolt. de Real Acadinia de la Historia de 1903).
- Godera (F), estodios de Historia Arabe' 1923 سرقسطة
- Roque chabas, Histoire de la Giduidadde Dania 1871. في مجلدين
- Prieto y vives, los Reyes de Taifas, 1926. مدريد،



كشاف عام
بـأسماء الاعـلام الشخصيـة
والجغرافيا



ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

ـ س ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

* * *

* * *

فهرس

صفحة

مقدمة الكتاب

القسم الأول

القسم الثاني

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
29 : نهج أبو نواس ـ حيدرة
الجزائر العاصمة

رقم النشر : 1092 10 83

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

* * *

فهرس

صفحة

مقدمة الكتاب

القسم الأول

القسم الثاني

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
29 : نهج أبو نواس ـ حيدرة
الجزائر العاصمة

رقم النشـــر : 1092 10 83